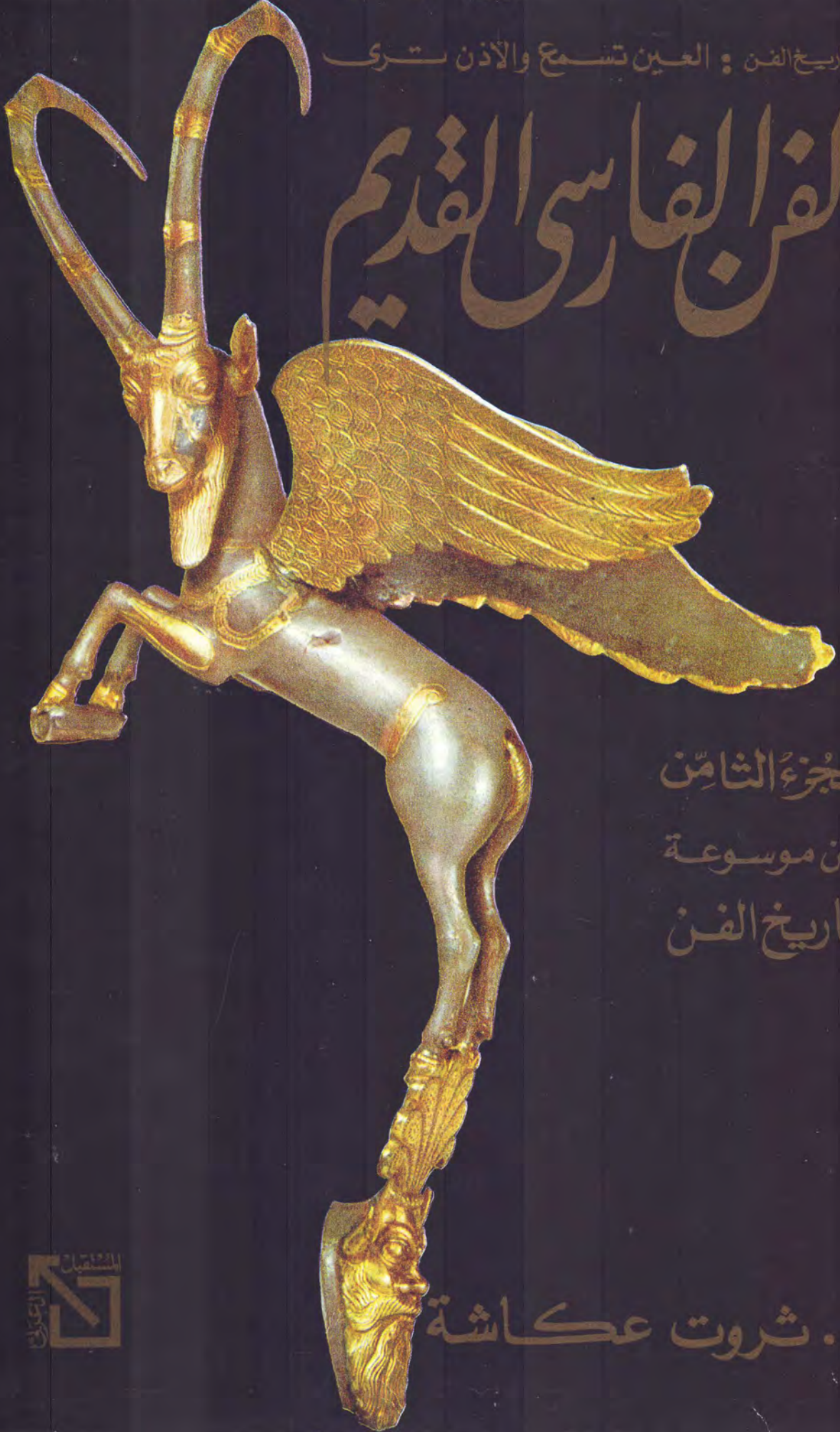


تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى

# الفن الفخاري القديم



الجزء الثامن  
من موسوعة  
تاريخ الفن



د. شروت عكاشة

تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى

# الفن الفارسي القديم

الجزء الثامن

الدكتور شروت عكاشة



# الفن الفارسي القديم الدكتور ثروت عكاشة

الطبعة الأولى ١٩٨٩

حقوق الطبع محفوظة

اللوحة الملونة

طبعت بمؤسسة رينبيرد للطباعة

بلندن

على نفقة المنظمة الدولية للتربية  
والعلوم والثقافة (يونسكو)

لوحة الغلاف

وعلى مجنح من الفضة والذهب من روائع الفن الأحميني  
القرن ٥ أو ٤ قبل الميلاد وبإذن من متحف اللوفر



الإخراج والإشراف الفني

للفنانين عبدالسلام الشريف

يوسف شاكر

دار المستقبل العربي

٤ شارع بيروت: مصر الجديدة

ت: ٦٦٥٩٠٠ القاهرة



إهداء

إلى أخى المستشار الفنان الشاعر

أحمد لطفى

عرفاناً بما بذل دون مآرب أو ترقب ،

وبإخلاصه فى المشورة المجردة عن الهوى

وتقديرأ لمواهبه الفنية الأصيلة



ليس ثمة جهد يأخذ مكانه في الوجود دون عون الكثيرين ، ولذلك يتوجه صاحب هذه الدراسة بأعمق الشكر إلى وزارة الثقافة الإيرانية لما لقيه من تيسيرات حمة خلال جولته لزيارة المتاحف والمواقع الأثرية بـايران ، كما يُزجى الشكر إلى المتاحف الآتية لفضلها بالتصريح بنشر الصور التي يتضمنها هذا الجزء . متحف طهران . معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو . المتحف البريطاني . متحف اللوفر . متحف دمشق . متحف بغداد . متحف الموصل . المديرية العامة للآثار بالعراق . وزارة التعليم والثقافة بتركيا . متحف استنبول . متحف كابول . متحف المتروبوليتان . متحف برلين . دار الكتب القومية بباريس . الكنز الإمبراطوري لأسرة شوسو إن في نارا باليابان . المتحف الملكي للفنون والتاريخ ببروكسل . متحف الإرميتاج بـليننجراد . المتحف القومي للفنون الشرقية بروما . متحف أرمينيا التاريخي . متحف جيميه . متحف نانسي . متحف ليون . ولترز آرت جاليري بـبليتمور . متحف الفن بمدينة كانساس . متحف كليفلاند للفنون . متحف الآثار بـفلورنسا .

○ ولـالأستاذ الدكتور يحيى الخشاب أستاذ الأدب الفارسي بجامعة القاهرة سابقا شكر وتقدير عميقان ، فقد قام بالاطلاع على النص المكتوب قبل الطباعة وقدم ملاحظات قيمة كانت ضمانا للاطمئنان إلى سلامة المادة العلمية في هذا الكتاب . كما يتجّه بالشكر إلى الدكتور مايكل روجرز أستاذ الفن الإسلامي ومدير قسم الآثار الإسلامية بالمتحف البريطاني لمبادرته بالإجابة على ماؤجّه إليه من استفسامات علمية ، ثم لفضله بتصوير بعض آثار منطقة برسيبوليس خصيصا لهذا الكتاب . ويذكر بالامتان فضل الأستاذ سميح أنور سفير مصر السابق في طهران للمعاونة الصادقة التي قدمها في سخاء ، كما يشكر السيدة سهر عبد اللطيف على الجهد الدءوب والعون الصادق الذي بذلته في سبيل إعداد نص هذا الكتاب وصوره للمطبعة .





تمھیں بتائی



## — ١ — الهند — أوريون

**على** تلك الرقعة الفسيحة التي تمتد على ساحلي بحر قزوين والبحر الأسود شمالاً وعلى مشارف الخليج جنوباً ، والتي كانت معبراً للقوافل المنحدرة من سهول آسيا الوسطى إلى الهند والصين ، كانت ثمة دولة هي دولة فارس ، وكانت ثمة حضارة عتيقة يرجع تاريخها إلى آلاف خمسة من الأعوام . ومن قبل أن تخرج فارس إلى الوجود دولة ذات حضارة ، كانت ثمة دول أربع شرقية ، هي : خوزستان<sup>(١)</sup> وبابل وأشور وأوراتو<sup>(٢)</sup> ، كان لها هي الأخرى حضارتها . وكانت فارس الناشئة تربطها وتلك الدول الأربع صلات أفادت منها فارس في إقامة حضارتها وإثرائها .

ومع بداية الألف الثالث قبل الميلاد وفي سهل سوسيان [سوزيان] كانت نشأة دولة خوزستان «عيلام» ، التي اجتذبتها أرض الرافدين ، حتى عدت وطنها امتداداً لتلك الأراضي ، وعبر الغزو وجدت حضارة بلاد ما بين النهرين طريقها إلى تلك البلاد الناشئة عيلام ، وكان النصر الذي كُتب للعيلاميين على الأكديين حافزاً لسكان الجبال الذين كانوا ينزلون لولوبي<sup>(٣)</sup> وجوتي<sup>(٤)</sup> إلى تحقيق نصر مثله ، فإذا

(١) هي عيلام الواردة في التوراة .

(٢) أورارتو [أو أرارتو عند الأشوريين ، وأرارات عند العبرانيين ، والأرمن عند من بعدهم] شعب تربطه وشائج القرى بالحوريين الذين يتكلمون لغة قوقازية الأصل . ونشأت مملكة أورارتو أثناء النصف الثاني من القرن التاسع ق.م . في المنطقة المحيطة ببحيرة فان Van وامتدت خلال القرن الثامن ق.م . من بحيرة أورميا جنوباً حتى شواطئ البحر الأسود شمالاً ، ومن نهر الأراكس شرقاً إلى شمال سوريا حتى حلب وآسيا الصغرى غرباً ، غير أن الميديين استولوا عليها في أوائل القرن السادس ، وكانت أورارتو مركزاً هاماً لإنتاج المعادن .

(٣) اللولوبي : شعب جبلي كان يسكن الجزء الشمالي من جبال زاغروس وينتمي إلى الشعوب الزاجر عيلامية ( من سلسلة جبال زاغروس التي تمتد من القوقاز شمالاً حتى لورستان وعيلام جنوباً ) امتدت حدود منطقتهم إلى بحيرة أورميا أو ما بعدها شمالاً .

هم كذلك يغيرون على بابل ويتزعمونها من أيدي أربابها ويشرفون بهذا على الطريق المؤدي إلى غرب إيران حيث تمضي القوافل التجارية ما بين فارس وبين بلاد الرافدين تحمل مع التجارة طابع الحضارة للأقاليم التي تختلف إليها .

ويحدثنا التاريخ أن ثمة شعوبا أخرى روسية أو تركستانية أو غير هؤلاء وهؤلاء ، ممن كانوا أكثر إيغالا في قلب آسيا الوسطى ، كانت على حظ من الثقافة ، وكانت لها نقلة إلى الشمال الشرقي من إيران حيث منطقة هيسار على مقربة من دامغان .

وقرب منتصف القرن الرابع عشر كانت الامبراطوريات الثلاث المصرية والآشورية والحيثية المتجاورة الحدود قد بلغت مرحلة السلام القائم على توازن القوى ، وإن لم يحل هذا بينهم وبين تبادل لكمات عاصفة بين آونة وأخرى ، ومايكاد الصراع يتوقف حتى يهرعوا إلى تبادل السلع فيما بينهم وحملها مع ما يحملون من فكر وحضارة إلى جيرانهم الأقصر قامة وأقل طموحا كالكاشين الذين تمثلوا حضارة بابل بعد احتلالهم لها ، وكذلك الدويلات المينوية في كريت والمجتمعات السيكلادية في جزر بحر إيجه . ولكن الخطر مالبث أن أحرق بهذا الثالث المسيطر وخاصة من جانب جحافل المهاجرين المتقاطرين على بلادهم من البدو المحاررين ساكني البراري الشاسعة في وسط أوراسيا الذين لا يكفون عن السلب والنهب ، والدائبي الزحف والحركة بحثا عن مراعي جديدة أو أراضٍ صالحة للزراعة . وإن فرّوا هم الآخرون أمام من يفوقهم بربرية وعنفا . ذلك أنه لم يكن يستقر حشد من هذه القبائل في منطقة حتى تلاحقهم هجمات قبائل أخرى تنحيمهم عن مكانهم أو عن شطره الأكبر بعد أن تحصرهم في مساحة ضيقة محدودة ، أو تمتزج بهم امتزاجا ، فإذا بالأخلاق الشعوبية تتكاثر خلال عمليات الإزاحة والتنحية والامتزاج التي لم تتوقف خلال فترة طويلة ، والتي تركت أثرها كذلك فيما يدعى بالشعوب «الهند - أوربية» الذين كانوا يعيشون لوقت طويل في مناطق متجاورة . وقد أزاح لنا علم فقه اللغة المقارن الستار عن أمور ثلاثة ، أولها : أن اللغات الهند - أوربية لم تكن في بداياتها المبكرة غير لهجات مشتقة من أصل واحد تتكلمها شعوب لم تكن تنتمي كلها إلى جنس واحد من وجهة النظر الأنثروبولوجية . وكانت هذه الشعوب تعيش في مناطق شاسعة متجاورة وإن كانت كل منها واضحة المعالم والحدود . وثانيها : أن هذه الشعوب قد بلغت مستوى واحدا من المدنية ، وثالثها : أنه عندما اضطرت الهجرات العديدة المتتالية للشعوب الهند - أوربية إلى التفرق والامتزاج بغيرهم زادت الفروق

وقد أطلق على بلادهم في عصر مملكة أورارتو [القرن الثامن - السابع ق.م.] اسم «زاموا» وهو اسم إحدى قبائلهم . والراجح أن سكان الكرج ينحدرون من الفرع اللولوبي الذي استوطن الشمال ، ويبدو أن مملكة قوية من «اللولوبي» بدأت تظهر في أواخر الألف الثاني ق.م. واشتبتك في صراع مع الآشوريين ، ثم اختفى هذا الاسم منذ القرن التاسع ق.م. وحل محله اسم زاموا .

(٤) الجوتيون : شعب جبلي ينحدر من أصل زاغر - عيلامي ، كان يعيش في الجزء الأوسط من جبال زاغروس ، وهو الذي أسقط حكم الأسرة الملكية الأكادية حينما أغار على منطقة ما بين النهرين في أواخر الألف الثالث ق.م .

بين هذه اللهجات زيادة ظلت تكبر حتى حوّلتها إلى لغات مختلفة ، وإن بقي من الممكن الكشف عن تشابه المفردات والنطق بين اللغات الهند - أوروبية ، برغم التأثيرات التي لحقت بكل لغة من اللغات الهند - أوروبية على امتداد التاريخ من أجناس ذات لغات أخرى ، هذا إلى أن عناصر هند - أوروبية قد تسلّلت إلى لغات أجنبية كاللغات السامية والحامية والسومرية .

على أنه من اليسير تحديد المواطن الأساسية للهند - أوروبيين ؛ فقد كانوا أقواما شبه رُحْل ، لا يستقرّون في مكان . وقد تفرّقت مجموعاتهم في فترات متتالية ، ومع ذلك فمن الممكن أن نفترض أن بعضهم قد تمسّك بالبقاء في وطنه الذي كان مُنطلق الهجرة ، وأن هذا الموطن يقع في أواسط آسيا الذي بدأت منه الهجرات المتجهة إلى المنطقة الواقعة شمالي البحر الأسود والقوقاز ، وهي المنطقة المسماة «أريانا فيجو» أي موطن الآريين الذين ندعوهم الآن الهند - إيرانيين .

وتؤكد المعالم والعلاقات اللغوية صحّة الأحداث التاريخية التي تتحدّث عن أن النواة الهند - أوروبية قد انشطرت أول الأمر إلى شطرين مع انقسامات أخرى أقل شأنًا . زحفت في المرحلة المبكرة قبائل الشطر الأول نحو الغرب والجنوب الغربي ، بينما اتجهت قبائل الشطر الثاني صوب الشرق والجنوب الشرقي . وما من شك في أن انتشار قبائل الشطرين على هيئة المروحة قد ترتّب عليه نوع من التطابق والتداخل فيما بينها . ويمكن القول بأن الشطر الشرقي «الآري» يضم الشعوب التي تتكلم اللهجات الإيرانية كالإيرانية القديمة والميدية والسكودية والإيرانية الوسطى بما في ذلك اللهجات الهندية ، على حين يضم الشطر الغربي الشعوب الناطقة بالحيشية الجديدة والفريجية واليونانية والإليرية والإيطالية والكلتية والجرمانية .

وكذلك نزحت شعوب أخرى من الحوريين والكاشيين<sup>(٥)</sup> والميتانيين من الغرب إلى إيران خلال الألف الثاني قبل الميلاد ، وأقامت جسراً بين البحر المتوسط وزاجروس ، كما اضطرت الحروب المستعرة بين آشور وبابل شعوباً أخرى إلى النزوح من الشرق إلى إيران .

(٥) Kassites استولوا على بابل بين ١٧٤٦ ، ١١٦٩ ق.م.

## الجنس الآري

**هكذا** كان الإيرانيون شعبة من الجنس الهند أوروبي المعروف بالجنس الآري ، أى «النيل» ، ينطقون بلسان قريب الشبه بلغة الهند الفيدية . ومن بين قبائل الشعوب الهند أوروبية استقر الإيرانيون بعيداً بشرق أوراسيا سواء في إيران أو في وديان نهر السند أو في تركستان الصينية .

ولم يرد ذكر للإيرانيين قبل القرن التاسع ق . م . ، وإن ظهر اسم «پارسو» أو البارسيين الذين كانوا يقطنون جبال كردستان ، كما ظهر لأول مرة اسم «الماداي» أو الميديين سكان السهل عام ٨٣٧ ق . م . خلال حملة قام بها الملك الأشوري شلمنصر الثالث . وبعد مائة عام من ذلك التاريخ غزا الميديون الهضبة الفارسية مؤسسين امبراطورية ميديية .

وهكذا نجد أن الشعوب التي استوطنت إيران ، كانوا قد نزحوا إلى تلك الأرض في الألف الأول قبل الميلاد ، يدلنا على ذلك أننا لم نجد ذكراً للفرس والميديين في تاريخ إيران إلا مع النصف الثاني من القرن التاسع حين نزلوا غربياً ، وأن هؤلاء قوقازيو الأصل نزحوا إلى إيران سالكين الطريق نفسه الذى سلكه من بعدهم السقيثيون<sup>(٦)</sup> أو [السكوديون] والسيميريون<sup>(٧)</sup> بقرون ثلاثة .

ومن المؤرخين من يرى أن هؤلاء القوقازيين انحدروا إلى إيران من الشمال الشرقي من مشارف بحر

(٦) Scythians السكوديون : شعب من أصل إيراني وفد على غرب آسيا من جنوب روسيا عبر القوقاز ، وجاء ذكرهم في الكتاب المقدس والنصوص الآشورية والأورارتية ، كما ذكرهم هيرودوت أيضاً ، وكان يطلق عليهم اسم «اسكودا» . وقد أغاروا على آسيا الغربية خلال القرن الثامن ق.م. وهم شعب من البدو الرحل ، وكان من بينهم قبائل محاربة تخدم تحت إمرة زعمائها كجنود مرتزقة ، وتقاتل لحساب الآشوريين والميديين مقابل غنائم الحرب ، واستمرت غاراتهم على المنطقة الممتدة من

آرال ، حيث كان ينزل الهند الآريانيون الذين ولّوا وجوههم شطر الهند ، كما أن منهم من يرى أن ذلكما الطريقين اللذين يسيران بحر قزوين كانا معبريهم إلى تلك البلاد ، وإلى ذلك تشير بعض الآثار التاريخية .

وما من شك في أن هذه القبائل النازحة ، والتي استقرت بعدُ في إيران ، كانت تنتظم جماعات عُرفت بالقوة والبطش ، إذ كانت حياتهم في ترحالهم وسعيهم وراء القوت ينتزعونه انتزاعا ويغالبون عليه ، لذا كان اعتمادهم على سواعدهم . وكان هؤلاء الرُّحل يحملون معهم نساءهم وأولادهم ويسوقون بين أيديهم قطعانهم ولا يحطّون إلا حيث الخصب ، وسرعان ما كانوا يبادلون أصحاب الأرض المقيمين نفعاً لينزلوا لهم عن جانب من الأرض يفلحونه هم لقاء ما يؤدونه من خدمات ، ولكنهم كانوا لا يلبثون أن يزاحموا الأهلين في حقهم ويغلبوهم عليه ، وإذا هم بعد قليل سادة الأرض . وهذا الصراع الدائب بين المقيم والوافد كان سمة من سمات ذلك العصر ، ولقد رأينا أثره في اختفاء مدن إلى غير رجعة ، وانزواء أخرى إلى حين ، ثم عودتها للظهور .

وقد كُتِبَ على أية حال لمراكز أربعة من إيران أن تأخذ حظها في الظهور وقتذاك ، هي : سيالك وخورفين وحسنلو وأملاش . وكانت أسبق هذه الأربعة إلى الظهور سيالك [جنوب طهران] . ولكنها كلها كانت تشارك في حضارة لا يختلف طابعها على الرغم من اختلاف بيئاتها . ولم يمض على ظهور هذه المراكز الأربعة وقت طويل حتى برز إلى الوجود مركز حضاري خامس في لورستان ، التي كانت تقع على هضبة زاجروس إلى الجنوب من كرمنشاه ومملكة إيليبى<sup>(٨)</sup> القديمة . ويعزو الدارسون ظهور وورستان لمكانتها الدينية ، إذ كانت حرماً آمناً ، إليه تحجّ القبائل التي جمعتها عقيدة بعينها ، يدلنا على ذلك أن قبائل اللور لاتزال إلى اليوم تقصد إلى تلك الأماكن المقدسة على الرغم من اعتناقها الإسلام .

وترجع قبائل اللور هذه فيما يبدو إلى أصل سيمري ، وكان هذا الشعب السيمري ينزل إلى الشمال من البحر الأسود ، حين أخذت جماعات منه تنزح عن موطنها متفرقة بين وجهتين : فمنهم من انحدر إلى آسيا الصغرى ، ومنهم من انحدر إلى شرق آشور ، إلى أن انتهوا إلى لورستان حيث وجدوا من هضبة زاجروس بوديانها الضيقة المعزولة خير مكان لهم ولخيلهم . وسرعان ما اختلطوا بسكان مملكتي مانا<sup>(٩)</sup> وإيليبى ، وإذا الشعبان الميدي والسيمري يغدوان شعباً واحداً لا نحس فيهم ما يفرق بينهم ، لأنهم

القوقاز إلى فلسطين ومن أورارتو إلى إيران ، طوال القرن السابع ق.م. حتى تم ردهم نهائياً إلى شمال القوقاز في أوائل القرن السادس ق.م.

(٧) Cemmerians السيمريون : جماعات من أصل إيراني جاؤوا من جنوب روسيا عبر القوقاز صوب إيران الغربية وآسيا الصغرى خلال القرن الثامن ق.م.

(٨) إيليبى : شعب اتصل بالأشوريين منذ بدء غزواتهم لمنطقة زاجروس وبصفة خاصة أثناء حملة لشلمنصر الثالث [حوالي عام ٨٤٣ ق.م.] . والراجح أن المنطقة التي كان يسكنها هذا الشعب كانت تمتد جنوباً إلى وادي نهاوند وسلسلة جبال لورستان ، وشمالاً إلى الطريق الحالي الموصل بين كرمنشاه وهمدان .

(٩) مانا : شعب من المجموعة الزاجرو - عيلامية تربطه صلات القرى بشعب لولوبي المخلّط بالبحوريين . ومع بداية القرن التاسع والثامن ق.م. بدأت الأسماء الإيرانية تظهر بين المانا ، وكانت مملكتهم تقع جنوب بحيرة أورميا وقد ورد ذكرها للمرة الأولى



كانوا جميعا ينتمون إلى جنس واحد وعقيدة واحدة وفطرة واحدة تنزع إلى النضال والكفاح أفادوها في ظل هبّتهم للتحرر من قبضة الأشوريين حين احتلوا إيران ، وكانت هبة الميديين هذه سنة ٦٧٣ ق . م . وكان قائدهم فيها قشتاريتي ، وكانت أرضهم التي مهّدوا للثورة على ربوتها هي لورستان .

خلال النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. وكانت عاصمتها إيزرتا على بعد خمسين كيلو مترا شرق مدينة ساكر الحديثة . وكانت هذه المملكة في القرن الثامن ق.م. أقوى دولة بعد مملكة أورارتو ولعلها قد فاقتها في أواخر ذلك القرن . وفي القرن السابع دخل السكوديون هذه المملكة كحلفاء ليساعدوها في كفاحها ضد الأشوريين . وقد نهب آشورباني بال شعب المانا الذي أصبح تابعا للدولة الأشورية ثم ضمه الميديون بعد انتصارهم على آشور .

## السقيثيون والميديون

**وإلى** الشمال من القوقاز نزلت قبائل السكوديين ، التي هاجرت بدورها إلى إيران ، وغدت الأرض التي تقع إلى الجنوب من بحيرة أورميا من نصيب هؤلاء النازحين من السكوديين ، وكانت في الأصل جزءا من مملكة مانا ، وهي التي تعرف اليوم باسم كردستان الإيرانية . وحين هبّ قشتاريتي هبته تلك التي مرّت بنا كان هؤلاء السكوديين معه يدا واحدة على الأشوريين ، غير أن أسرحدون ملك أشور مالبث أن صافاهم وأغراهم بحلفائهم الميديين ، ولكي يربط أسرحدون الأشوري مايبنه وبينهم برباط وثيق قبل أن يبني بارتاتوا قائد السكوديين بأميرة من أميرات أشور . وبعد أن أفلح أسرحدون في ضم السكوديين إلى جانبه أخذ يغري بعض قبائل الميديين بالخروج على قائدهم قشتاريتي ، وإذا هو لذلك يترك السكوديين في أرضهم التي نزلوها في مانا ، ولم يعرض لهم بسوء جزاء انضمامهم إليه وخروجهم على الميديين .

وحين استقر السكوديون في مانا وثبتت على أرضها أقدامهم أخذوا يشتون الغارات هنا وهناك ، فغزوا الأورارتيين والسيمرين ، وزحفوا إلى سوريا وفلسطين ، وانتهوا في زحفهم إلى حدود مصر ، ثم اتجهوا شرقا فيما بين سنتي ٦٥٣ — ٦٥٢ ق . م . يشتونها حربا على الميديين حلفائهم القدامى ، وظلوا يسودونهم إلى أن هبّ سياكسارس بن قشتاريتي واستطاع بانضمام بابل إليه أن يردّ السكوديين إلى مقرهم مانا ، بعد أن ظلوا جاثمين على صدور الميديين أعواما ثمانية وعشرين . وبهذا استطاع سياكسارس ( ٦٣٣ — ٥٨٤ ق . م . ) أن يردّ إلى دولة الميديين هيبتها ، وأن يعيد إلى ملك أبيه كيانه ، وما إن تم له ذلك حتى جعل من إكباتانا<sup>(١٠)</sup> عاصمة لملكه ، وأقام منها قلعة حصينة لا يقوى على

(١٠) Ecbatana إكباتانا : أو هجماتانيه ومعناها منطقة تجتمع كافة القبائل ، وهي مدينة همدان الحالية ، كانت في الماضي عاصمة للمملكة الميديّة ثم للمملكة الأكمنية ، واتخذها البارثيون عاصمة صيفية لهم .

اقتحامها الأثوريون . وإذا الميديون يعودون كما كانوا من قبل صفا واحدا ، وإذا هم قد انطوى تحت لوائهم السيمريون والسكوديون مرة أخرى .

وفي ظل هذه الوحدة وهذا الجيش القوى الذى ضم محارين من الميديين والسيمريين والسكوديين ، امتد نفوذ الدولة الميدية إلى آسيا الصغرى ، وعاش سياكسارس حاكما أربعين عاما سجّل فيها صفحات رائعة مشرقة في تاريخ الميديين . وإذا كانت الدولة الميدية تنتظم شعبين آخرين هما السكوديون والسيمريون ، فقد مثلت حياتهم مزيجا من عادات هؤلاء جميعا وطابعهم ، وعكست حضارتها كذلك صورة من هذه الألوان الثلاثة مختلطة . ثم إن ثمة شعوبا أخرى عاشت إلى جوار هذه الشعوب الثلاثة ، منها ما يرجع إلى أصل عيلامي ، ومنها ما يرجع إلى أصل قزويني ، وكان لابد من أن تمضى أعوام وأعوام مليئة بالجهد والعرق لكى يأتلف من هذه الأخطاط شعب واحد له طابع واحد ، ولكى تصبح هذه الشعوب المختلفة شعبا ينسب ماضيه المُشخّن بالفرقة والتناؤد ليذكر حاضره المدعّم بالوحدة والتآلف ، وليبنى حضارة متميزة الطابع وإن احتفظت من كل أصل بعرق .

على أنه لم يكن هناك شك في غلبة الطابع الميدي ، فما إن ضُمَّت مانا التى كانت للسكوديين إلى مملكة الميديين سنة ٥٩٠ ق . م . حتى أصبحت جزءا من المملكة الميدية في عاداتها وتقاليدها ، غير أن ثمة نفرا لم يندمجوا في تلك الحياة فهاجروا إلى كوبان شمال القوقاز في الوديان السفلى لنهر الدينير ، ولهم هناك آثار تدل عليهم .

ومع منتصف القرن التاسع قبل الميلاد تجمّعت الإمارات الصغيرة التى كانت تعيش على تلك الرقعة الممتدة بين الشرق والشمال ، والتى كان أمبرها إلى السكوديين ، لتكوّن مملكة متحدة هى المملكة الأورارتية . وحين كانت هذه الدولة آخذة في التشكّل كانت الدولة الأشورية آخذة في التحلّل ، وهكذا وجدت هذه الدولة الناشئة الفرصة مواتية لتضم إلى رقعتها جديدا ، وإذا هى قد استطاعت بين سنتي ٨١٠ ، ٧٤٣ ق . م . أن تمد حدودها غربا إلى حلب وأن تنفذ إلى البحر المتوسط ، وأن تصعد شمالا حتى مشارف البحر الأسود ، وإذا هى بهذين تصل حدودها بحدود عالم الإغريق ، فمع ظهور دولة أورارتو كانت ثمة هجرة لليونانيين إلى سواحل آسيا الصغرى حيث نزل عدد منهم على الشاطئء السوري عند مصب العاصي واتخذوا من ذلك المكان موطننا لهم ، وكان ذلك فيما يقال قريبا من سنة ٨٠٠ ق . م . فانبثقت مراكز يونانية مختلفة ، منها صاموس وإفسوس وكريت ، وكانت كلها شغوفة بالبحث عن الحديد والشمع والخشب والصوف والمعادن على سواحل البحر الأسود الجنوبية ، ومن هنا كان اللقاء بين هؤلاء اليونانيين والشعوب الإيرانية على أرض آسيا .

وفيما بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد كانت ثمة قبائل من الفرس تنزل إلى الغرب وإلى الجنوب الغربي من بحيرة أورميا ، وثمر قبائل من الميديين تنزل إلى الجنوب الشرقي منها . ثم مالبت هؤلاء الفرس الذين كانوا ينزلون إلى الشمال الغربي من إيران أن خرجوا عن أرضهم تلك إلى غيرها ، فلقد

كانوا رحّلا لا يطيب لهم المقام طويلا في مكان بعينه ، وكانت هجرتهم تلك المرة إلى الجنوب الشرقي حيث هضبة زاجروس ، واستقر بهم المقام في منطقة «فارس» ناقلين معهم الكثير من تلك الحضارة الأورارتية التي خلفوها وراءهم .

وعاش الفرس جنبا إلى جنب مع الميديين ، تقرب الأيام بينهم شيئا فشيئا ، يُرخى لهم في هذا التقارب بُعدهم عن تلك الحروب التي كانت مستعرة بين الأورارتيين والأشوريين ، والتي ظلت تدور رحاها على تلك البقاع الفسيحة الغنية بالمعادن وصناعاتها ، التي تمتد من جنوبي خوزستان [عيلام] إلى مشارف البحر الأسود يتنازعونها فيما بينهم يغلب عليها هؤلاء يوما وهؤلاء يوما .

## الأخمينيون

**وفي** نهاية عصر البرونز وخلال السنين الألف الثانية قبل الميلاد كان العنصر الإيراني قد وصل كما قدمت في موجات متعاقبة إلى بلاد فارس . وقد وصفه هيرودوت بأنه كان عنصرا سكوديا همجيا صادف في إيران شعبا يمارس حضارة أصيلة الجذور منذ أربعة آلاف عام سابقة . ذلك هو الشعب «المهّدة للحضارة العيلامية» . والعيلامي هو النعت الذي يحلو للمؤرخين أن يطلقوه على الإنسان المتحضر قبل نشأة إيران ، وكان هذا الشعب على صلات حضارية مستمرة مع سوسه وسومر ، ولم تكن حضارته تقل بحال من الأحوال عن الحضارة البابلية . والواقع أن كلتا الحضارتين السومرية وتلك المهّدة للعيلامية كانتا حضارة واحدة لا يفصلهما غير مجرى نهر دجلة ، إذ لا يغيب عن بالنا أن السومريين قد نزحوا من لورستان ولم تنقطع صلاتهم بها عبر سوسه . ومع أن الإيراني الأول كان همجيا هاجر من المناطق المتخلفة التي ظل يرعى فيها أغنامه وماشيته لقرون عدّة إلا أنه لم يصل الهضبة خلو اليديين حضاريا إذ جاء مستقلا مركبات ذات عجلات بشعّات<sup>(١١)</sup> تقويها مسامير حديدية ، وهكذا كان الإيراني راعي أغنام وقائد مركبات وحدّادا ونجّارا في آن واحد ، عرف كيف يستخلص الحديد ويصهره سيوفا فولاذية يصل طولها إلى نصف الذراع الآدمي ، وكانت رماحه وسهامه تنتهي بسنّ من الحديد . وقد أكسبته أسلحته ودُرْبته على الانضباط والتفوق العسكري على «إنسان ما قبل الإيراني» الذي لم يكن قد تعدّى عصر البرونز ، يقاتل راجلا بسيف مصنوع من تلك السبيكة البرونزية القديمة .

كان هذا الوافد الجديد فرعا من القبيلة الآرية الخاضعة «للسلطة الأبوية» بينما كان «إنسان ما قبل الإيراني» مزارعا من عشيرة تخضع لسلطة «الأم» . وكان ثمة فارق واضح بين المجتمعين ، فبينما كانت

(١١) الأصابع المنبعتة من مركز العجلة إلى الإطار [الواحدة شعّعة] .

الآلهة الرئيسية لدى الشعب الممهّد للإيراني هي الإلهة الأم [ذلك الرمز الزراعي القديم] ، تملك وحدها السلطة الإلهية على غرار النظام الأسري المتبع في عيلام وسومر ، كانت المرأة في القبيلة الإيرانية خاضعة خضوعاً تاماً للرجل ولم تكن تظهر إلا محجّبة .

كذلك انبثق آلهة الإيرانيين من الذكور ولم يكن بينهم أية آلهة مؤنثة ، وطال الوقت بعد استقرار الإيرانيين فوق الهضبة قبل أن يعترفوا بألهة عذراء مستثناة نابعة من الإقليم ذاته أخذت مكانها بين آلهتهم المحاريين . لقد اختلف المجتمعان اختلافاً يبيّن في كثير من التفاصيل حتى تعدّر امتزاجهما في مجتمع واحد إلا بعد حقبة استغرقت من خمسة قرون إلى ستة ، وذلك من منتصف القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد . ومن ثم نشأت حضارة جديدة أسهم فيها كل بنصيب ، «إنسان ما قبل الإيراني» بحضارته الزراعية القديمة ، والإيراني بروح النظام والانضباط ، فكان تزاوجاً موفّقاً أضاف خلاله كل منهما إلى صاحبه ما كان يفتقر إليه . كان الإيراني بطبعه ينجح إلى الغيبات ويفتقد خفة ظل العيلامي ومرحه وفكاهته ، تلك الصفات التي أضفاها العيلامي على ما خلفه من فنون ، أما الإيراني فقد استصحب معه النظام والانضباط والكبرياء ونزوعه نحو كل ماهو جاد منتظم متحد ، بعكس «إنسان ما قبل الإيراني» بطبيعته المتحمسة المندفعة المتفائلة وقدراته الحسائية الخارقة وواقعيته وصبره وماديته ، تلك الصفات المتوارثة عبر آلاف السنين من خلال حياة اجتماعية زراعية تقف على رأسها المرأة .

وتنتمي پرسبوليس<sup>(١٢)</sup> إلى الفترة الناضجة من هذه الحضارة المختلطة ، فوثائق المحاسبات التي تم الكشف عنها مدوّنة باللغة العيلامية ، وحتى خلال حكم داريوش وأردشير جرى العرف بأن يتولى أهل عيلام أمور المحاسبات . وعلى حين كان العيلامي يبدع المنجزات الفنية انشغل الإيراني بالقيادة والأعمال الحربية لولوعه بالنظام الذي قدّسه تحت اسم «آرتا» بمعنى الخير الأسمى . ويذهب الفرس إلى أنهم ينتسبون إلى الآرتا حتى أن هيرودت انتهى إلى الاعتقاد بأن الآرتا كان اسمهم الأول ، أى اسم مؤسس دولتهم وأنهم كانوا يسمّون في أول الأمر الآرتيون . كما يضيف هيرودت أن الميديين كانوا يُدعون «الآريين» ، وكذلك دعاهم العالم بأسره ، فأرتا هي روح النظام والسمو بالروح والارتقاء بها ، وكان الفارسي ينظر إلى نفسه على أنه «آرتابان» ، أى رجل النظام .

وحين انتهى الفرس في هجرتهم الكبرى إلى شرقي إيران حيث وديان زاجروس استقروا هنالك في پارسوماش<sup>(١٣)</sup> على تلال بختياري إلى الجنوب الشرقي من سوسة في منطقة كانت تُعدّ جزءاً من أرض عيلام [خوزستان] ، وكان ذلك حوالي سنة ٨٣٤ ق . م . ولقد انتهز هخامنش مؤسس الدولة الفارسية فرصة الخلافات الناشبة بين الأشوريين والعيلاميين وأخذ في توسيع رقعة مملكته الصغيرة ، وكذلك حداً حذوه ابنه پيش [تيشبيش] ( ٦٧٥ - ٤٦٠ ق . م . ) فضم إلى بلاده إقليم

(١٢) الاسم اليوناني لعاصمة الفرس في عهد الأخمينيين [الأكمينيين] وتدعى أيضاً تحت جمشيد .

(١٣) ذكر كل من أشوربانيبال وشلمنصر في «حولياتهم» الحروب التي خاضوها ضد عشائر البارسوماش قرب بحيرة أورميا خلال القرن الثامن ق . م .

«فارس» ، في لحظات كانت عيلام تلفظ فيها أنفاسها الأخيرة . وبموت جيش بيش تقاسم ولداه أريارامنا وقورش ملك أبيهما بينهما ، ولكن هذا الانقسام لم يدم طويلا فما أن ولي الملك قمبيز بن قورش الأول الحكم ، حتى وُحِد بين القسمين وعادت مملكته مملكة واحدة سنة ٦٠٠ — ٥٥٩ ق . م . وكان لانتصار قورش الثاني الأكبر على استياجوش<sup>(١٤)</sup> آخر ملوك الميديين أثره في إنعاش روح الشعب الفارسي ( ٥٥٠ ق . م ) ، ولم يعد بعدها يجد في الميديين مناوئا له بل وجد فيهم شركاء أعانوه ، وإذا هم شعب واحد على الطريق لحياة جديدة .

من هنا نرى أن الأخمينيين<sup>(١٥)</sup> كانوا هم بناء الدولة الإيرانية ، كما كانوا هم الذين وطّدوا أسسها ، وكانت الامبراطورية التي أرسى قورش الأكبر وداريوش الأول قواعدها من أهم الامبراطوريات القديمة في العالم ، وقد أفلحت في أن تضم تحت لوائها بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر وآسيا الصغرى ومدنا وجزرا يونانية ، ثم أن تقتطع جزءا من الهند . وهكذا كانت الامبراطورية الأخمينية ردة إلى الآرية إذ كان الأخمينيون أكثر نقاء في آريتهم من الميديين .

ولقد وجد الأخمينيون أنفسهم إزاء شعوب بدت مغلوبة حريبا غير أن لها إرثا من حضارة وثقافة يضعها معهم على قدم المساواة . لذا تركوا لها استقلالها الذاتي ، وبهذا أفسحوا لتلك الحضارات أن تمضي في سبيلها وعاشوا يؤازرونها في ظل نفوذهم السياسي الذي طغى على من عداهم من شعوب تلك البلاد ولم يدع لها منه شيئا . ولقد كتب لهذه الامبراطورية أن تعيش طويلا ، غير أن ميلها إلى التوسع والإمعان فيه فتح أمامها آفاقا فسيحة تعيا كبرى الدول عن أن تلم أطرافها ، وما إن اغتيل دارا الثالث [داريوش الثالث] سنة ٣٣٠ ق . م . حتى رأينا تلك الامبراطورية تنجح إلى الانهيار ، ولقد ساعد على ذلك ظهور دولة جديدة على مسرح الحياة هي دولة الإسكندر المقدونية .

وهذا الطموح في التوسع هو الذي دفع فارس إلى الاتجاه صوب الغرب وجعلها تستولى على بلاد ما بين النهرين ، تلك البلاد التي كانت تطاول وادي النيل حضارة وثقافة ، وإذا فارس تتبوا مكانة بابل ونيروي شيئا فشيئا . وهذا الطموح أيضا هو الذي دفعها إلى غزو اليونان وخلق امبراطورية عالمية ، وإذا داريوش وخشايارش<sup>(١٦)</sup> يجتازان الحدود الفاصلة بين البلدين حول الساحل السوري خلال القرنين الخامس والرابع ق . م . ، غير أن أثينا واسبرطة اجتمعتا على حرب فارس وردّها على أعقابها .

(١٤) ازدهاك .

(١٥) أو الأمانيين أو الكيانيين أي الجبارة أو الهخمانشيين نسبة إلى مؤسسها هخامنش .

(١٦) أو خشايارشاه أو خشايارثا أو أحشورش أو أجزرسييس عند اليونان .

## المملكة السلوقية

**وهذا** الحلم الذى راود فارس في توحيد الإقليمين في امبراطورية واحدة راود الإسكندر الأكبر بعد أن لمّ شمل اليونانيين والمقدونيين ، وكان هذا بعد مرور نحو من مائة عام على ارتداد خشيارشا بجيوشه أمام اليونانيين ، ولكى يمكّن الإسكندر لهذا التوحيد على صورة أوثق في مجالى الثقافة والحكم أصهر إلى داريوش الثالث بزواجه من ابنته ، ولقد جرّ هذا الإصهار الكثير من الإغريق إلى الاقتداء بالإسكندر ، الذى قصد من وراء هذا أن يجعل من الشعبين شعبا واحدا تربط بينه أواصر القرى وروابط الدم ووحدة التفكير . غير أن هذا لم يؤت ثمرته المرجوة فما إن مات الإسكندر سنة ٣٢٣ ق . م . حتى احتدم الصراع بين خلفائه أعواما أربعين انتهت بمعركة إيسوس<sup>(١٧)</sup> التى تمخضت عن انقسام تلك الامبراطورية إلى ممالك ثلاث : المملكة المقدونية في أوروبا ، ومملكة اللاچيديين البطلمة في مصر ، ومملكة السلوقيين في آسيا .

ولم تكد يد المنون تغرب بداريوش الأول عن الامبراطورية الفارسية من بعد ما وسّع حدودها إلى أبعد مدى وأرسى أسس الوحدة بين مختلف بقاعها ، حتى بدأت عراها تنفصم وتفلت من أيدي خلفائه الذين لم يجدوا وسيلة يحولون بها دون انحلال الامبراطورية أو يوقفون بها تدهورها ، بل يقينا إنهم شاركوا دون قصد في التعجيل بسقوطها . لقد جعلهم الحكم المطلق غرباء على رعاياهم ، وعزلتهم في قصورهم مراسم بروتوكولية صارمة حرّمت على المواطنين أن يقتربوا منهم إلا ساجدين ، وأدّى هذا كله إلى شيوع المؤامرات وتزايد أعمال العُنف . وتكشف لنا النقوش الرسمية تلك الهالة المهيبة التى أحاطت

(١٧) مدينة قديمة في فرجيا بآسيا الصغرى حيث هزم سلوقس وليسيماخوس خصمهما أنتيجونوس الأول الذى خرّ صريعا في القتال (٣٠١ ق.م.) .



بصورة الملك تبريرا لسلطوته وسلطته المطلقة ، فقد وُصف بأنه من سلالة آرية ، وابن أسرة أحمينية ، يشغل مركزه الرفيع بوصفه ملك الملوك الذى ييسط سيادته وحمايته على امتداد رقعة فسيحة تضم أعدادا ضخمة من الرعايا الذين ينتمون إلى أجناس مختلفة . على أن أخطر جرثومة كانت تهدد بشطر الامبراطورية كانت تلك الثنائية التى عجز الأحمينيون عن التغلب عليها ، والتى كانت تفصل الجزء الإيراني والزرديشتي عن بقية شعوب الامبراطورية .

وكان التعصب الديني المرتبط بسياسة الحكم عُشبا ترعاه هذه الجرثومة ويشدد عودها عليه . وبينما كان المجوس يدعمون هذا التعصب كان الموابذة الإيرانيون يقفون بالمرصاد من أى تسامح ديني ، كما كانت الاختلافات العرقية والشعوبية تحول دون التماسك والترابط ، فقد كان الشعب الإيراني المسيطر صغيرا بالنسبة لحجم الشعوب الأخرى بالامبراطورية . وقد توالت منذ عهد خشايارشا ( ٤٨٦ — ٤٦٥ ق . م ) فترات عدة من التعصب المتسم بقسوة لا مثيل لها ضد الرعايا المذنبين أو المشتبه في ولائهم ، كالمصريين والبابليين .

وكان الجزء الأكبر من دولة الأحمينيين من نصيب سلوقس [ سلوكس ] ، ولكى يمزج سلوقس بين الدم المقدوني والدم الإيراني كما فعل سلفه من قبل الإسكندر الأكبر تزوج من أميرة إيرانية ، ثم شق طريقا ملكيا بين عاصمته مملكته : سلوقيه [ سلوكيا ] التى تقع على نهر دجلة ، وأنطاكية التى تقع على نهر العاصى .

ولقد حاول من خلفه من الملوك السلوقيين أن يفعلوا مثل سلوقس وأن يوثقوا الصلات بين الإغريقين والإيرانيين ، وأن يجعلوا منهما شعبا إغريقيا ، فاستجلبوا لذلك الكثير من الإغريق إلى إيران كى يطبعوا الحياة بطابع إغريقي ، وكى ينجبوا ذراري إغريقية الدم ، كما نزلوا عن الكثير من سيادتهم . ولكى يزيدوا الإيرانيين ألفة بهم . ولكن هذا كله لم يُجد كما لم يُجد مثله من قبل ، وإذا الإغريقيون يأخذون عن الإيرانيين بدلا من أن يأخذ عنهم الإيرانيون ، وإذا هم يغدون إيرانيين الطابع بدلا من أن يغدو الإيرانيون إغريقيي الطابع ، وكان هذا أظهر أثرا في الريف الإيراني منه في الحواضر التى بدا فيها الطابع الإغريقي متميزا شيئا ما ، وكان لهذا أثره في ظهور نوع من التخالف بين حياة الحواضر الإيرانية والقرى ، هذا التخالف الذى أخذ يتسع مع الأيام .

## الپارثيون

**ومع** منتصف القرن الثالث قبل الميلاد أخذت القبائل الرّحل التي كانت تنزل بين مشارف بحر قزوين وبلاد التركستان ، تضرب في الأرض كما هي عاداتها ، فكانت منها قبائل جعلت وجهتها إلى الغرب حيث المدن الإغريقية الغنية التي تقع إلى الجنوب من ساحل البحر الأسود ، وهناك التقوا بالسكوديين الذين تركوا ديارهم فارين إلى الدانوب ، وكانت منها قبائل اليوه تشي<sup>(١٨)</sup> .

وثمة سبب آخر لفشل سياسة الإسكندر وخلفائه في المزج بين الحضارتين ، ذلك أن الامبراطورية الفارسية نفسها كانت منشطرة إلى عالمين مختلفين تمام الاختلاف : أحدهما على الحدود التي كان يسيطر الفرس عليها من قبل ، والآخر هو الوطن الإيراني نفسه الذي اندفع منه السادة الفرس . وقد وجدت الأغرقة طريقها سهلا في البقاع الغربية التي تمسك بها فيما بعد السلوقيون والبطالمة ، ثم في الأقاليم المتوسطة مثل بابل وماين النهرين حيث انبثقت الحضارة من عهد مؤغل في القدم . وكذلك كان الأمر في بختياري في الشمال الشرقي حيث استقرت الحضارة اليونانية مدى قرنين كاملين بعد انفصالها عن امبراطورية السلوقيين على يد ديودوتوس عام ٢٤٦ ق . م . وظلت قائمة حتى استولت عليها جحافل السكوديين . على أن التأغرق قد تسلل بصورة هيّنة في المناطق الإيرانية الواقعة فيما وراء ذلك ، والتي كانت تحميها التقاليد والمؤسسات الأخمينية القوية ويساعدها الدين الزردشتي والموايذة المجوس على الصمود أمام التيار الإغريقي .

وبالإضافة إلى ذلك فقد بقى شعوب هذه المنطقة في عزلة عن الشعوب الإيرانية مثل السكوديين والسقا الذين يعيشون حول بحر قزوين ، والذين كانوا دائما على أهبة الاستعداد للغزو . وإلهم يعزى

(١٨) معظمهم من الجنس الهندي الأوروبي ، وقد استقروا في تركستان الروسية .

إنشاء دولة بارتيا الجديدة المستقلة التي أسسها أشك السكودى التي جعلت وجهتها إلى الشرق حيث السهل البختياري شمالي أفغانستان ، وهناك التقوا بالإغريق واضطروهم إلى ترك الديار ، وفي هذا السهل البختياري كانت دولة «الكوش»<sup>(١٩)</sup> التي أسستها تلك القبائل النازحة . ثم كانت قبيلة ثالثة هي قبيلة البارث<sup>(٢٠)</sup> وهي إحدى قبائل السكوديين جعلت وجهتها الوسط حيث السهول الممتدة شمالي تلال خراسان فاستولوا عليها بعد أن أجلوا عنها سكانها ، وكان ذلك سنة ٢٥٠ ق . م .

وهكذا احتلت هذه الموجات من القبائل المنطقة القزوينية كلها التي تنتظم اليوم إيران وجنوب روسيا ، واقتطعت الامبراطورية السلوقية من المملكة الإغريقية البختيارية ، وأقامت هناك دولة هي دولة البارثيين أو الفارث أو الأشكانيين . وهذا النصر الذي حققته تلك القبائل الرّحل كان له أثره في هبة الشعوب الإيرانية والتركية المغولية لتحذو حذوها بعد ما رأوا من ضعف السلوقيين وانشغالهم بالصراع فيما بينهم ، هذا إلى ما في تلك البلاد من ثروات تغري تلك القبائل التي تعيش في البوادي .

ولم يتيهاً لقبائل البارثيين الاستيلاء على إيران كلها وإقامة دولة متكاملة إلا بعد نحو قرن ، ففضوا ما بين سنتي ٢٥٠ ، ١٤٠ ق . م . في لَم شمل الأجزاء المتفرقة وجمع كلمة القبائل المتناثرة . وكان قدر هذه الأسرة مطاردة الإغريق المستوطنين غرب إيران ، ومحاربة الرومان الذين كانوا يعتقدون أنهم ورثة الإسكندر الأكبر ، ولذا اتجه زحفهم صوب الغرب ، وأسسوا إحدى حواضرهم في «الحضر» بالعراق كما كانت لهم صلات لا تنقطع بتدمر . ويعدّ متراتدات الثاني<sup>(٢١)</sup> الذي ولى الحكم سنة ١٢٣ ق . م . أول ملك پارثي مكن لمملكته البارثيين من أن تظفر بمكان بين الدول .

وإن لم تنجح دولة البارثيين في الوصول إلى الحدود التي بلغها الأخمينيون إلا أنها أحرزت من النجاح ما جعلها تنخبط دورها المنشود الأولى في صد هجمات البدو وغاراتهم ، وأن تصبح كذلك خصماً يتصدى لروما التي كانت تحاول جاهدة أن تنقذ الحضارة اليونانية وتنشرها في الشرق حتى لقد انتهت الجولة الأولى من الصراع بين البارثيين وروما بهزيمة الجيوش الرومانية تحت قيادة كراسوس في معركة حران [كارهيه] عام ٥٣ ق . م . ولقد تحاذل أوغسطس الذي وطّد نفسه فيما بعد على أن ينقذ كل ما يمتّ للحضارة الإغريقية بصلة في الشرق ، فلم يجسر على التحرك بجيوشه كي يأخذ بالتأثر من البارثيين . ومع ذلك فحتى في ذلك الحين كان الصراع الداخلي الناشب بين الملوك البارثيين وأمرائهم عوناً كبيراً للدبلوماسية الرومانية التي تحايلت لتأجيج هذه الصراعات واستخدامها لمصلحة روما .

(١٩) أوكوشانه ، وهي من القبائل التي غزت الهند ، وكانت مملكتها تضم البنجاب وأفغانستان الحالية .

(٢٠) أو البيرت أو الفارث أو البارثيون أو الأشكانيين نسبة إلى «أشك» مؤسس هذه الأسرة .

(٢١) متراتداد أو مهرداد بمعنى عطية ميثرا .

## الساسانيون

ولم تُظهر الأسرة المالكة الأخمينية إلا اهتماماً يسيراً بالتطور الفكري أو العلمي ، كما لم يعنوا بتوحيد حضارة امبراطوريتهم . وإذا كانت ثمة إنجازات متفرقة في هذا الميدان فقد جاءت على يد رجال الدين أو نتاج جهود فردية ، بينما تخاذلت الحكومة عن مجرد محاولة الربط بين الحضارة الإيرانية والهندية من ناحية واليونان من ناحية أخرى ، تاركة مهمة ذلك للتفاعلات التلقائية العشوائية التي تحدث على حدود الامبراطورية مع الدول المتاخمة أو داخل نطاق الامبراطورية بواسطة جنود الإغريق المرتزقة الذين كانوا يعيشون متناثرين أو ملتقين في جالية يونانية في البلاد الفارسية [بغض النظر عن أولئك الذين يعيشون في أقاليم يونانية تحت سيطرة ملك الملوك] . ثم يجيء كذلك دور العمال الإغريق الذين كان الملوك يستخدمونهم في إنجاز الأعمال الفنية ، فقد حمل هؤلاء أساليبهم إلى فارس ، ثم نقلوا فيما بعد الأساليب الفارسية إلى بلادهم ، كما تلقت البلاد التأثيرات العلمية والثقافية على أيدي الوافدين من أصحاب المعرفة اليونانيين ، وبصفة خاصة الأطباء أمثال كترياس Ctesias الذي عاش في فارس في خدمة الملك أو ولاته ، وكذلك على أيدي علماء الهند الذين وضعوا معارفهم الطبية في خدمة ملوك فارس بينما وفدت الأفكار الدينية والفلسفية اليونانية إلى فارس مع تلامذة الفرس في مدرسة أفلاطون . كما حدث نفس الشيء مع ربابنة الأسطول الفينيقي بعد الهزيمة التي منى بها الفرس على يد الإغريق في معركة سلاميس . ومع كل تلك القسوة لم تتوقف قبرص وكاريا وولايات أخرى في آسيا الصغرى ومصر عن محاولة التخلص من الحكم الفارسي . كذلك كانت ثمة جرثومة أخرى تنفث سمها في خلايا الامبراطورية معجّلة بنهاويها ، وهي تلك الإقطاعيات التي كانت تسيطر على جيوشها والتي كان أغلبها يتكون من

الجنود المرتزقة . إذ كان من اليسير على «الوَلَاة» الثورة والتمرد طالما كانوا يتمتعون بتلك القوة العسكرية والإدارية المتاحة لهم ، في حين أن الجيش كان أضعف من أن يقوم بدوره في المعارك الحربية ، وهو ما أثبتته تاريخ الامبراطورية الأخمينية كله ، من الحروب الفارسية إلى غزو الإسكندر . وكان العيب الأكبر في هذا الجيش الهائل العدد أنه كان سيء التنظيم ، حتى أنه مُنى بالهزيمة المرة بعد المرة على يد الإغريق بين عامي ٤٨٠ و ٤٦٩ ق . م . ، ثم تمزق شذرا في عام ٤٠١ ق . م . أمام عشرة آلاف من الجنود المرتزقة اليونان الذين استطاعوا العودة سالمين إلى بلادهم دون خسائر تذكر . كما تصدّى له الإسكندر غير متردد رغم أنه لم يكن تحت إمرته في مبدأ الأمر غير أربعين ألف مقاتل ومائة وستين سفينة . إلا أن كل هذا يبدو مفهوما حين نعلم أنه منذ القرن الخامس ق . م كانت القوة الضاربة في الجيش الفارسي مكوّنة من المرتزقة اليونانيين مثلما كان قوام الأسطول الفارسي سفنا فينيقية رفضت عام ٤٦٩ ق . م . الاشتراك في معركة إيوريميديون .

وقد ظهر أثر ذلك في عهد خشايارشا والملوك الثلاثة الذين خلفوه ، إذ آثروا جميعا تجنّب الزهو بمغامراتهم الحربية في نقوش قبورهم ، وفضلوا استخدام الأساليب الدبلوماسية على العسكرية ، ولجأوا إلى الحيلة في تثبيت ملكهم ، وذلك باتباع سياسة التفرقة بهدف إضعاف الشعوب المنافسة ، ومدّ يد العون المالي إلى شعب وإثارته ضد آخر بما يخدم مصالحهم . لكن الزمن الذي نال من الدول من قبل نال من دولة الپارت فإذا هي على توالي الأعوام تُمنى بالفتن الداخلية ، وإذا هي تنقسم على نفسها وتعود شيئا كما كانت من قبل ، وظهرت فيها طبقات ذات خطر أخذت تنازع الملك سلطته . واحتدم الصراع بين الجانبين ، وكان هذا مما هيا الفرصة لأردشير [أرتخشتر] أحد أمراء پارس «فارس» كى يغير على دولة الپارثيين في محتنها تلك، وأن يهزمها هزيمة منكرة . وأن ينتزع صولجان الملك من أرتبان<sup>(٢٢)</sup> الخامس ملك ملوك الپارثيين ، وأن يقتله سنة ٢٢٤ ق . م . ، ويتبوأ عرش فارس «پارس» ويلقب نفسه شاهنشاه (ملك الملوك) الفرس ويؤسس أسرة فارسية بديلة لتلك الپارثية المولية تدير زمام الأمور ، وكانت هذه الأسرة الفارسية الجديدة الحاكمة هي أسرة «الساسانيين» .

هكذا لقي أرتبان الخامس آخر ملوك الپارت الأشكانيين مصرعه على يد أردشير مؤسس الأسرة المالكة الجديدة التي أطلق عليها اسم جدّه ساسان وكان سادناً لبيت نار اصطخر<sup>(٢٣)</sup> . وبدأ أردشير الملك بتأسيس حكومة مركزية قوية لإعادة تنظيم الامبراطورية تحاكي ماكانت عليه أيام حكم الأخمينيين الأشداء ، امبراطورية لاتعتمد على أمراء الإقطاع الكبار وحدهم بل على رجال الدين أيضا . وكان أحد ملوك الپارثيين الأخيرين قد مكّن للزرذشتية الصاعدة من تقنين النصوص المتناثرة لكتاب الأوستا المقدس ، فاضطلع أردشير بتنفيذ هذا المشروع أمرا الكاهن الأكبر «تسر» بإعداد صياغة كهنوتية

(٢٢) أو أرتبانوس أو أردوان .

(٢٣) كان بابك والد أردشير أميراً يحكم جزءاً من مقاطعة فارس بإقليم شيراز تحت ولاية ملوك الپارت الأخيرين ، وحصل لابنه أردشير على ولاية إحدى المدن .

للكتب المقدسة وإرساء عقيدة للدولة . وهكذا منح إقليم فارس — مهد الأخمينيين مؤسسي الامبراطورية — إيران أسرة وطنية ثانية تعيد إليها أمجادها .

وقبل أن يوقع أردشير الهزيمة بأرتبان كان قد أخضع أمراء كرمان وأصفهان ودجلة والفرات ، وقد يَسَّر له انتصاره على أرتبان ارتقاء العرش في المدائن وبالتالي سيادة مملكة بابل . وجريا على سنة قديمة لإضفاء الشرعية على سلطانه كان عليه أن يقترب بإحدى بنات أرتبان أو بنات أخيه كى يغدو عرشه امتدادا للأسرة التى احتل مكائنها . وواصل أردشير غزواته خلال فترة حكمه ، حتى شملت حين وافته منيته سنة ٢٤١ م كل الهضبة الإيرانية . وقد عنى بأن يسجل للتاريخ ذكرى مغامراته الأولى فكلف النحاتين بتصويرها نقشا بارزا فوق صخور «نقش رستم» المجاورة لأصطخر مسقط رأس الساسانيين ، وجاء فك رموز الكتابات المصاحبة للنقوش البارزة على يد سلفستردى ساسي عام ١٧٩٣ م في أول دراسة منهجية للغة الإيرانية القديمة .

وبدأ أردشير عهده بلمّ شمل الدولة بعد أن مزّقها الخلافات إلى دويلات ، وجعل شئون الحكم إلى هيئة إدارية ذات كفاية عالية ، واعتمد في توجيه دفة الأمور على رجال ذوى حنكة وخبرة ، أسند إليهم المهام الرئيسية وجعلهم قرييين منه كى يسترشدوا برأيه ، وخلق مركزية قوية ساهمت بنصيب كبير في توطيد أركان الدولة الساسانية القوية .

وبقى نظام الجيش البارثي المشكّل من فرق الفرسان المسلحة المدرعة التى كان قوامها أشرف إيران المشهود لهم بالفروسية والشجاعة ، تحميها فرق الفرسان الخفيفة من رماة السهام . ومن وراء هؤلاء وأولئك الفيّالة الذين لم يستخدمهم البارثيون من قبل . وفي أعقاب هذه التشكيلات كانت مجموعة الحراثين ، التى أوكل إليها فيما يبدو جمع الأسلاب وإغاثة الجرحى وإعداد الإمدادات . وثمة فرق أخرى كان يستعان بها من الشعوب المتاخمة الخاضعة للدولة ، ممن عُرفوا ببسالتهم وإقدامهم ، وكان للأمرن نصيب ملحوظ في الجيش الساساني . وأقام الساسانيون الحصون من حول المدن ، كما أقاموا القلاع على أطراف البلاد وأمدوها بجماعات من فرسان الشعوب المتاخمة ، ومن وراء تلك القلاع كان الجيش الإيراني يربط بفرقه . وكان لهذا الاستعداد العسكري الضخم شأنه في بقاء تلك الدولة قرونا عدة آمنة من الغزو الخارجي أو الاضطراب الداخلي .

وكما ساعد هذا الجيش القوى على خلق دولة منيعة مهيبية وإشاعة الاستقرار . كذلك أسهم الدين الزردشتي<sup>(٢٤)</sup> في بث روح السلام والطاعة في نفوس الأهلين وتوطيد أركان النظام . ومن قبل أن تدخل

(٢٤) الديانة الزردشتية . مايزال تاريخ النبي زردشت مصلح الدين المزددي مجهولا ، والراجع أنه قد نشر تعاليم دينه حوالي القرن السابع ق.م . ، وكان يرى أن الآلهة منبثقة من الإله الأكبر أهورا مزدا وأنها المنفذة لإرادته هو فحسب ، وأن لا بد أن ينتهى الصراع بين الخير والشر بانتصار المبدأ الأول ، وأن سلوك الإنسان يجب أن يتسم بالنوايا والأعمال والكلمات الطيبة ، وأن الانسان سيثاب على ذلك في الجنة ، وقد حرّم دفن الجثث بل ترك فوق الداخما لتنتهشها الطيور الجارحة .

الزردشتية إلى فارس كانت ثمة ديانة مزدية<sup>(٢٥)</sup> يدين بها أهل الشمال الغربي من البلاد حيث كان لهم معبد خاص بها هو معبد نارشيز ، وكان كهنته يسمون الموابدة<sup>(٢٦)</sup> ، وما إن دخلت الزردشتية بلاد الفرس حتى أصبح هؤلاء الموابدة هم رعاتها وحراسها إلى عهد الساسانيين .

وحين أدركت أردشير الشيخوخة نزل لابنه شاپور عن الملك وظل يعيش متخففاً من أعبائه إلى أن وافاه أجله . وهكذا وحّد أردشير إيران ، فكانت مزايه كمنظم إداري تضارع قدراته العسكرية ، ودليل ذلك أن العديد من المدن التي أسست في عهده أو رُممت كانت تحمل اسمه . ولم يبخل عليه عالم الأساطير بقصص تروى أمجاده ، ففي العهد الأخير للساسانيين نسبت إليه إحدى القصص التاريخية صفات عديدة مما كان يتحلى بها قورش العظيم ، وبعد خمسة قرون روت الملحمة الفارسية أسطورة حكمه مشيدة بمآثره الخارقة .

ولقد اضطلع شاپور بأمر الملك خير اضطلاع وأولى الشؤون الثقافية جانبا من اهتمامه ، فإذا هو يأمر بترجمة الكتب الغربية التي تتصل بالفلسفة والأدب والدين ، مع اهتمام أكبر بكتب العقيدة التي تدعو لمذهب ماني<sup>(٢٧)</sup> . ثم مضى يتم ما بدأه أبوه في توطيد أركان الدولة وبسط سلطانها فشنّ حربا على الإمبراطورية الرومانية ووقعت أنطاكية في قبضته مرتين . وفي عام ٢٦٠ انتصر على الامبراطور فاليريانوس وأسره وساقه أمامه حال عودته إلى إيران ضمن آلاف من الأسرى الذين استخدمهم في بناء مدينة عسكرية له ولجنده .

يقول إدوارد جيون في كتابه «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» : «حين انتصر ملك الفرس أرتجزييس [أردشير أو أرتخشتر]<sup>(٢٨)</sup> وابنه شاپور على الأسرة المالكة البارثية وقتل رُسُل شاپور خسرو ملك أرمينيا الذي ظل صامدا طيلة ثلاثين عاما محتفظا بحياته واستقلال بلاده ، فزع حكام أرمينيا إلى روما يطلبون منها حماية بلادهم حفاظا على صالح وريث العرش الشرعي تيريداتس بن خسرو الذي كان لا يزال طفلا غير أن بلاد الحلفاء الرومان كانت على مبعده واستطاع الفرس أن يزحفوا نحو الحدود على رأس جيش لم يستطع أهل أرمينيا صدّه ، وقد نجح أحد الخدم بفضل إخلاصه في أن ينقذ تيريداتس الصغير الذي يمثل أمل بلاده في المستقبل ، وظلت أرمينيا طوال سبعة وعشرين عاما ولاية ساخطة نافرة وسط مملكة الفرس الكبيرة . وقد انتفخت أوداج شاپور بهذا الفتح الذي تم في يسر وأرغم الحاميات الرومانية القوية في القارة على التسليم ، ونشر الخراب والرعب على جانبي الفرات .

(٢٥) أهورا مزدا : هو كبير آلهة الدين الفارسي القديم ، وكذلك الدين الذي أدخل عليه الإصلاح الزردشتي . وهو الرب الأعلى الخالق للعالم ، السيد الحكيم ، أنجبه الإله زروان ، وهو إله ذكر وأُنثى في الوقت نفسه . وقد اضطر أهورا مزدا إلى الدخول في صراع مع أخيه التوأم روح الشر أهرمين حتى تستى له أخيرا السيطرة على العالم .

(٢٦) الموابدة أو الموابدة : رجال الدين من الميوس .

(٢٧) مذهب ماني أو المانوية نسبة إلى ماني . وماني يجمع بين الثنوية المزدية والتقاليد المسيحية لمنطقة الفرات السفلى واليهودية والبيوذية ، وكان مصورا موهوبا يقال إن رسومه الدينية الرائعة ساعدت على نشر المذهب الذي كان يدعو له .

(٢٨) Artaxerses نسبة إلى أرتا .

وجدت روما أنها خسرت أحد حدودها الهامة وفقدت حليفا طبيعيا مخلصا لها ، وأن أطماع شاپور قد تحققت في إيقاع سريع فأحست إحساسا عميقا بالإهانة وباقترب الخطر ، وتوهم قائليريانوس أن يقظة ولاته قد تكفي لتأمين سلامة الراين والدانوب ، فعقد العزم رغم تقدم سنه على أن يتقدم بنفسه للدفاع عن الفرات ، ومضت جيوشه متقدمه في آسيا الصغرى موقفة حملات القوط البحرية ، وحرر الولايات المنكوبة بالغزو الفارسي فنعمت بهدوء عابر خادع ، ذلك أنه ماكاد يجاوز الفرات ويلتقي بملك الفرس قرب أسوار مدينة أذاسا حتى هزمه شاپور وأسره .

وقد أقدم الرومان على محاولة جريئة فاقتحموا جيش الفرس ببسالة ، غير أن محاولتهم انتهت نهاية فاجعة بسقوط عدد كبير من رجالهم . واستطاع شاپور أن يطوق جيشهم بعدد كبير من جنده وانتظر في صبر حتى اشتدت وطأة المجاعة والوباء بينهم ، وحينئذ تعالت صرخات الجنود الرومان متهمين قائليريانوس بأنه سبب البلاء ، ومطالبين بالاستسلام وعرضوا تقديم مبلغ كبير من الذهب ثمنا لخروجهم من الحصار ، غير أن ملك الفرس الواثق من تفوقه رفض المال في ازدراء ، واحتجز المندوبين ، وتقدم على رأس فرقة محاربة حتى بلغ استحكامات الرومان وطالب بعقد اجتماع شخصي مع الامبراطور واستسلم الامبراطور إلى الهوان الذي أرغمه على وضع حياته وكرامته تحت رحمة عدوه وانتهى هذا اللقاء بما كان طبيعيا أن ينتهي به ، إذ وقع الامبراطور في الأسر وسلّمت قواته المذهولة أسلحتها . وقد أرى غرور شاپور لحظة انتصاره عليه إلا أن يضع على العرش الخالي خلفا تابعا ذليلا يعتمد كل الاعتماد على رضاه ، وشاء تلويث العرش الروماني بتقدمه لسريادس ذلك اللاجئ الحقيير الشأن من أنطاكية الذي لم يتورع عن ارتكاب أية رذيلة ، وهتف الجيش الأسير مزكيا لإرادة ملك الفرس الظافر على مضض واستحياء .

وقد عاب التاريخ — على عاداته في الوقوف عند سوانح المدح وخواطر الذم — عاب على شاپور استغلاله لحق الفتح استغلالا مشوبا بالغرور والخيلاء حين عرض قائليريانوس على الجماهير مكبلا بالأغلال في حلته الامبراطورية رمز العظمة المتهاوية ، وحين امتطى صهوة جواده واضعا قدمه فوق عنق الامبراطور الروماني ، فنقلت وطأة العار والمهانة على قائليريانوس وقضى نحبه ، فشق شاپور جلده وحشاه بالقش مُعيدا إليه هيئته الإنسانية ، وأمر بحفظه في أشهر معابد فارس حيث بقي بها عدة أجيال تذكارا لانتصار الفرس على الرومان يعدل آلاف النُصب الرائعة التي شكّلها الرومان بغرورهم من النحاس أو الرخام . ومهما يكن من بشاعة المعاملة التي لقيها قائليريانوس التعيس الحظ في بلاد فارس ، فإن من المؤكد أنه كان الامبراطور الروماني الوحيد الذي وقع في أيدي أعدائه حيّا وأفى بقية عمره بينهم أسيرا ذليلا» (٢٩) .

(٢٩) اضمحلل الإمبراطورية الرومانية وسقوطها «لإدوارد جيون» ، ترجمة محمد على أبو درة . مراجعة وتقديم الأستاذ أحمد نجيب هاشم . دار الكاتب العربي ١٩٦٩ .



ومن عام ٢٢٤ م إلى عام ٦٥١ م توالى على العرش الساساني ستة وعشرون ملكا إذا استثنينا منهم الملوك الأخيرين الذين لم يكتثوا على العرش طويلا ، وقد أنصرف هم هؤلاء الملوك إلى الدفاع عن بلادهم من ناحية ضد الثورات الداخلية التي كثيرا ما أثارها أمراء الإقطاع ، ومن ناحية أخرى ضد العدو الخارجي كالرومان والبيزنطيين والهفتاليين ( الهياطلة ) . وبعد أهم ملوك هذه الأسرة بعد أردشير الملك شابور الثاني [ ذو الأكتاف ] خصم چوليانونس ، يليه الملك كسرى أنوشروان الذي بلغ بالامبراطورية شأوا بعيدا سرعان ما انحدرت بعده .

هكذا اتبع الساسانيون سياسة أسلافهم البارثيين نفسها إزاء الرومان وكانت أطماعهم في أرمينيا — كما سبق القول — أحد الأسباب الرئيسية في الحروب التي نشبت بينهما والتي انهزم فيها الامبراطور فاليريانوس وسقط أسيرا في يد شابور الأول ، كما انهزم الامبراطور چوليانونس وقتل في معركة كُتب النصر فيها لشابور الثاني . وبعد اعتناق الامبراطور قسطنطين للمسيحية في عهد ملك الملوك شابور الثاني هاجر مسيحيو إيران الذين تعرضوا لاضطهاد الكهنة الزردشتيين إلى الولايات الرومانية على حين لجأ المسيحيون النساطرة<sup>(٣٠)</sup> إلى إيران ، وهي الهجرة التي نشرت عقيدة النسطرة في آسيا بالترجيح حتى بلغت الصين .

وفي الوقت الذي كان امبراطور بيزنطة يذود عن بلاده هجمات البرابرة خلال القرن الخامس الميلادي ، كان الساسانيون يدفعون عن أنفسهم هجمات أسرة كيدارا المغولية في أفغانستان<sup>(٣١)</sup> والهياطلة ، وكلها شعوب ذات أصول تركية مغولية . وفي نهاية القرن الخامس وقعت إيران تحت سيطرة هذه الشعوب التي مدّت يد العون أيضا إلى الملك قباد حامي مزدك الشيعي على استعادة ملكه الذي فقدته بعد قيام ثورة ضده . وما إن انقضت بضع سنين على دفع جزية سنوية للغاليين حتى ظهر خسرو الأول ليحمو هذه الإهانة التي لحقت بوطنه . وقد اتصف هذا الملك شأنه شأن سلفه أردشير بمواهبه الإدارية مثلما اشتهر بانتصاراته العسكرية ، ونسب إليه المؤلفون الفرس والعرب قصصا عديدة تُظهره رسولا للعدالة ، فبحكمته ورجاحة عقله أعاد الاستقرار الاجتماعي من جديد بعد أن عكّر مزدك صفوه ، وأعاد للامبراطورية مكانتها بعد أن خاض ثلاثة حروب خرج منها ظافرا منتصرا . وبعد فترة من العداة تهادن مع بيزنطة لمدة نصف قرن وذلك من الناحية النظرية على الأقل ، كما غزا بلاد الهياطلة غير أن الأتراك مالبتوا أن حلوا محلهم في تهديد الامبراطورية . وفي النهاية بعث بنجدة لعرب اليمن ضد الأحباش حتى تم طردهم نهائيا من اليمن التي احتلها هو .

(٣٠) النسطرة طائفة من المسيحيين ينتسبون إلى نسطوريوس بطريرك القسطنطينية الذي أعرض عن تسمية مريم العذراء بأم الإله . وقد عارضه كيرلس الاسكندري وانعقدت بسبب هذه المشكلة ثلاثة مجامع دينية متلاحقة آخرها عام ٥٥٣ ، وقررت كلها أن للمسيح طبيعتين «إلهية وناسوتية» متحدتين في أقنوم واحد وقوام إلهي واحد . وقد ناصرت كنيسة أنطاكية مذهب نسطوريوس ولكن لم يبق معه إلى النهاية إلا كنيسة فارس التي صارت الكنيسة النسطورية ، ولا يزال لها أتباع في العراق وإيران وملابار والهند ، وطقوسها سريانية شرقية ، وتدعى أحيانا بالكنيسة الأشورية . وقد ازدهرت عندهم حياة الرهبنة فأوفدوا المبشرين إلى آسيا الشرقية منذ فجر القرن السادس ، وعندهم انتشرت النصرانية في فارس والهند والصين .

(٣١) هي الأسرة التي أسست مملكة الكوش في جاندھارا ( عام ٤٣٠ م تقريبا ) .

وهكذا رفع كسرى من شأن الامبراطورية ، وما أكثر ماتغنى المؤرخون والشعراء في عصره بأبهة البلاط وعظمة المباني وتقدم العلوم والآداب ، ولعل هذا هو السبب في أن إيران قد لعبت دورها ببراعة كوسيطه بين بيزنطة والهند والصين . غير أن هذه العظمة كانت تحمل في طياتها جرائم الانحلال ، إذ ساعدت على تركيز مقاليد الأمور في أيدي طبقة أمراء الإقطاع والموايذة ، وأدت إلى ازدياد الحركات الثورية التي تتابعت في إيران إثر تعيين خسرو لأربعة قادة عسكريين يحكم كل واحد منهم رُبع مساحة البلاد . وفي عهد ولده ثار أحد هؤلاء القادة المسمى بهرام جويين وكان من سلالة البارثيين ، وهو ماكشف عن خطأ هذا التجديد الذي استحدثه كسرى . ومن ناحية أخرى اتسعت الهوة بين الشعب والحكومة لما جدّ من اضطهاد الكهنة للأقليات الدينية ونكوصهم عن سياسة التسامح . وفي عهد كسرى الثاني في القرن السابع تأخر انهيار الامبراطورية بضع سنين رغم الأزمة المالية والفتن والحروب . وتعاقب على العرش بعد ذلك عشرة ملوك فاشلين خلال سنين قليلة ، ولقى آخر الملوك الساسانيين مصرعه أثناء غزو العرب لدولة فارس التي أصابها الشلل نتيجة تفكك شمل الدولة بعد انهيار وحدة أمراء الإقطاع .

## الفتح الإسلامي

**واستشرى** الفساد في البلاط الساساني وأخذت سلطة الموازنة تتغلغل إلى كافة المرافق حتى ضاق الناس ذرعا بهم وتاقوا إلى من يخلصهم من هذا الإذلال، ولم يلبث الفرس أن وجدوا الغزاة يقتحمون عليهم أبوابهم برسالة روحية ولغة جديدة حاملين راية المساواة بين الناس، وإذا هؤلاء الغزاة يختلفون عمّن سبقهم من الغزاة في حملة الإسكندر . ذلك أن العرب أدركوا أنهم انفتحوا على شعب له ماض وله تراث فأخذوا عنه وأعطوه ، واقتبسوا من سياسته وفنه ووهبوه دينهم ولغتهم . غير أن تلك البقاع الواقعة وراء الجبال الممتدة على ساحل بحر قزوين تلقى أهلها الدين الجديد واللغة الجديدة ، ثم انحازوا بعقيدتهم كشيعة لعلى رضى الله عنه فإذا جلّهم علويون مشايعون له ولبنيه .

وطغت ثقافة الفرس ، وإذا هي تطبع الثقافة العربية بطابعها ، وإذا نحن نجد أثر ذلك في البلاط العباسي في بغداد ، وإذا الأسر الفارسية تتولى الحكم بادية ذى بدء في مناطق متفرقة من البلاد إلى أن امتدت جذورها نحو كافة المناطق الفارسية ، وإذا الحكم في حقيقته في أيدي الفرس وفي الظاهر في يد الخليفة العباسي الذي جاهد سدى ليحول دون تسلّطهم باستخدام سياسة التفرقة بين الأسر الفارسية إلى أن هاجم الصفاريون<sup>(٣٢)</sup> بغداد نفسها وقتلوا الخليفة ، وإذا الأسر التوكية التي حكمت إيران في منتصف القرن العاشر تحمي كل ما هو فارسي شعرا وفنا وعمارة .

ولكن الذى لاشك فيه أن هاتين الحضارتين اللتين التقتا على أرض إيران — وهما الحضارة العربية والحضارة الفارسية — قد أعانتا على اتساع حدود الدولة الإسلامية التي امتدت إلى الهند جنوبا وشرقا وإلى جبال البرانس شمالا وغربا .

(٣٢) الصفاريون أو بنو الصفار هم دولة أسسها يعقوب بن ليث الصفار وأصله من سجستان ، تولى الحكم في فارس منذ ٣٣ سنة وأضاف إلى مملكته أقاليم الهند المتاخمة ، وقد هدد بغداد ثم مات في خوزستان عام ٨٧٩م وانقرضت دولته من بعده .

الفرس بين العقيدة والاسطورة



## دين الفرس والفكر الإسطوري (٣٣)

**تتميز** الديانة الفارسية بتعقيد يعسر معه فهمها ، ولا يكمن سرّ ذلك في أنها تشكّلت من خليط من العقائد الأشورية البابلية والآرية. فحسب ، بل في أنها خضعت لتغييرات هامة خلال الأسرات الثلاث التي تعاقبت على الحكم وهم الأخمينيون ( ٥٥٨ - ٣٣٠ ق . م ) والپارثيون ( ٢٥٠ ق . م - ١٩١ م ) والساسانيون ( ٢٢٤ - ٧٢٩ م ) .

وإذا تركنا جانبا نقوش داريوش في «بيستون» ومدونات الحضارات المجاورة ، فقد استقيننا علمنا بالعقائد والأساطير الإيرانية من «الزندا وستا» [وهي شرح الأوستا] التي تم تسجيلها خلال العهد الساساني ، ولو أن موضوعاتها تضرب بجذورها نحو آرية ما قبل التاريخ . وكان الفرس والجنس الآري بعامّة ينزعون إلى تقديس مظاهر الطبيعة وعبادتها باعتبارها كائنات إلهية ، فأطلقوا على الشمس «عين الله» وعلى الضوء «ابن الله» ، ووصفوا الظلمة بأنها الشيطان بعينه . ولا بد أن النار كانت جزءا من

(٣٣) — ١ — New Larousse Encyclopedia of Mythology: Mythology of Ancient Persia. Paul Hamlyn. London 1959, PP. 309-322

- ٢ — أحمد أمين : فجر الإسلام . لجنة التأليف والنشر والترجمة (١٩٥٩ صحيفة ٩٨-١١٣)
- ٣ — محمد عبد الكريم الشهرستاني : كتاب الملل والنحل (١٩١٠) صحيفة ٥٨٩ و ٦١٩-٦٣٢ .
- ٤ — الشاهنامه لابن القاسم الفردوسي . ترجمة الفتح على البنداري . تحقيق دكتور عبد الوهاب عزام — دار الكتب المصرية . ١٩٣٢ .
- ٥ — كتاب تنسر . نقله للربية دكتور يحيى الخشاب .

عقيدة صريحة اجتمع عليها أكثر الهند أوريبيين قبل أن تستقر في إيران رمزاً للإله الأكبر . وقد اتخذ الفرس النار رمزاً لإله الخير «أهورامزدا» ، وأشعلوها ليتيحوا لآلهة الخير الفرصة للقضاء على آلهة الشر . من أجل ذلك سُمي المزدويون عبدة النار . وحمل أكثر الأمراء البارثيين لقب «صانع النار» ، واحتل سدنة بيوت النار في الكهنوت المجوسي خلال العهد الساساني المراكز المرموقة في الدولة .

وقد احتفظت كافة الديانات الإيرانية بهذه العقيدة الأساسية البدائية ، حتى غدا النور والنقاء يتوج كل ما هو إيراني ، وليست أسطورة «آذر» بن أهورامزدا الذي يمثل الخير الأسمى — وهو النار المتوهجة في السماء والكامنة في الأخشاب — سوى تعبير عن هذه العقيدة ، وإن أثارت هذه الأسطورة في نفوسنا تساؤلاً عن أسبقية تسمية كل من الابن وأبيه باسم النار وأيهما أجدر بأن يكون النار الأسمى (٣٤) .

وفي الحق إن آذر لم يكن شعلة متقدة فحسب ، بل كان إلى جانب ذلك مصدر الخير الذي يهب الناس الراحة وأسباب العيش ، والحكمة والفحولة والنسل السليم وجنة لا يطؤها غير الفضلاء ، ورفيق مركبة الشمس وحامي حمى العالم من مغامرات «إله الشر» ، وثمة جريمة واحدة لا يغتفرها قط ، هي حرق لحم الإنسان الميت أو طهوه إذ يراها أبلغ إهانة لقداسة «الحياة» . وكان الفرس يؤمنون بالصراع الدائم بين إله الخير وإله الشر ، ويعتقدون أن الشعائر الدينية كالصلاة وغيرها تشد من أزر آلهة الخير في نزاعها مع آلهة الشر .

وتنبع شعائر الهوما — شراب الخلود — في «الزنداوستا» من نفس المصادر الآرية ، مثلها في ذلك مثل شراب السُّوما الفيدي في الهند ، ولو أن النبات مختلف لاختلاف الموطن إلا أنه في الحالتين عشب مقدس يُعصر لاستخراج شراب مايكاد يتخمّر حتى يسمو بروحانيات من يشربه . وكانت التعاويذ التي تُتلى خلال شعائر الهوما تطرد الجان الشريرة ممهّدة الطريق لسيادة الخير .

وقد خلّفت إحدى الهجرات الهند أوروبية بصماتها في شمال العراق ، يؤيد ذلك ما جاء في نقش مسمارى وجد في كبادوكيا عن إحدى المعاهدات بين الميتانيين قاطني شمال الفرات والحيشيين قبل ميلاد المسيح بأربعة عشر قرناً ، وقد نص في المعاهدة على إشهاد الآلهة . والغريب أن أكثر أسماء الآلهة الواردة فيها هندية وإن كان بعضها إيرانياً ، مثل ميترأ وقارونا وإندرا . وإذا كانت لإندرا إله الصواعق أهمية بالغة في العقيدة الفيدية إلا أنه اعتبر في إيران مجرد شيطان لاقيمة له ، على حين لعبت مكانة ميترأ دوراً هاماً في كلتا الحضارتين وإن اختلف الدور الذي يؤديه في كل منهما . وقد ارتبطت عبادته بعبادة «أناهيتا» إلهة المياه إلى حد بعيد ، وكان في بادئ أمره إلهاً للعقود والمعاملات والصدقات ثم ارتقى إلى حامى الحق وقاهر الزيف .

(٣٤) ومن هنا كانت آذريجان بمعنى نار بلا روح .

وفي عهد ما قبل زردشت كانت عبادة ميثرا تشترك مع عبادة أهورا الأعظم في عناصر كثيرة : فشجاعته في الحرب لاتباري ، يقرن المعرفة إلى قوته ويمثل جوهره النور والنقاء ، ومن ثم فهو قائد مركبة الشمس عبر السماء . منه يتوقع الناس النصر والحكمة معا ، وعليهم يسلّط غضبه العارم إن صدر منهم غش أو خيانة . وكان بين شعائر عبادته تقديم الذبائح وقرابين الهوما ، يتناولها القوم إثر طقوس دقيقة تصحبها توبة صادقة وورع عميق . وحظيت الأجرام السماوية تحت تأثير علوم الفلك الكلدانية بقداسة خاصة كما ظفرت بالربوبية ، وعلى رأس هؤلاء الأرباب الذين تحوّلوا فيما بعد أرباباً ثانويين ثمة ربّ أكبر .

أما المجوس فكانوا جماعة من رجال الدين يدينون بدين خاص بهم ، وفيهم ظهر زردشت أيام الملك كشتاسب الذي أكسب دخوله في دينهم ملتهم قوة ومنعة وجعله العماد الروحي للدولة الأخمينية ، حتى أن الإسكندر حين هزم دارا الثالث وقتله عمد إلى هدم الركن الروحي في الأمة ، غير أنه فشل في هذا المسعى لأن البارث نجحوا في الحفاظ على دينهم ، دين زردشت . ولما كانت الدولة الساسانية أمر الملك أردشير أحد رجال دين زردشت المعروف باسم تئسر — كما أسلفت — بأن يجمع شتات الأوستا وأن يسطر هذا كله في سفر واحد فكانت الأوستا التي عُرفت باسم « خرده أوستا » أي مختصر الأوستا الذي نعرفه اليوم .



## « مزدا » إله الملكية الفارسية

**أخذ** «مزدا» إله الملوك الأخمينيين يتألق بوهج ظل يكبر ويكبر حتى تهاوت في الظل أسماء ماعده من أرباب . وكان استنثاره بمكانة الإجلال والتقديس نتاج السيادة المطلقة التي أحرزتها الأسرة المالكة الفارسية الأخمينية في العالم الإيراني ، فكان رب الأرباب سيد السماوات وخالق الأحياء ، والقوة التي ترمز لملك الملوك ، سيد الشعوب وحاكمها . ولا يزال اشتقاق اسم «مزدا» محل جدال ، فمن قائل إنه مشتق من كلمة «مدها» السنسكريتية بمعنى الحكمة ، ومن قائل إنه مشتق من كلمة «مادا» بمعنى الافتتان ، ومن قائل إنه مشتق من كلمة «ماستيم» بمعنى «التنوير» . وثمة نفر من الباحثين يميلون إلى مضاهاة الاسم الإيراني أهورا مزدا باسم كبير آلهة آشور بانيبال المدعو أسارا مازاس ( ٦٦٨—٦٢٦ ق.م ) ، ويربطون أيضا بين كلمة أهورا الإيرانية وأسورا الهندية وأشور الآشورية . وهذا كله يثبت أن إله الأخمينيين كان موجودا قبل ظهورهم وأنه ظفر من قبل بتبجيل ملوك آشور .

وقد مثل نحاتو پرسپولیس، أهورا مزدا إله الملك داريوش وحاميه بلحية وقورة وفق الطراز الآشوري ، بينما أحاطوا جسده بجناحين كبيرين متأثلين وأضافوا إليه ذيل طائر ، على حين قد خلعوا عليه في نقوش الحفر البارز سمات البشر مما جعله ينتمي على هذا النحو إلى عالم الغيبيات النابض بالفكر الفلسفي المجرد أكثر من انتبائه إلى عالم الأسطورة بما يفرضه من قوة التصديق دون مناقشة . أما تصويره بالشكل الآدمي فلا يعدو ابتكارا من إبداع النحات . فهذا الإله هو خالق كل شيء ، تحطت قدرته قدرات البشر ، وانبتق منه ناموس الكون ، فكانت الحقائق الأبدية صدى للروح الإلهية ، التي لم تتدنس بالنقائص البشرية والتي كان كل ما يصدر عنها نقيا نقاء الروح التي يمثلها ، على حين أن الشخصيات السماوية التي تكوّن حاشيته — وهي جماعة كبار الملائكة — لم تكن إلا أفكارا مجردة أضفى عليها الخيال الديني القداسة ثم تجسّدت حقائق ملموسة وتمثّلت في الملائكة .

واستطاع زردشت الميدي الأصل أن يحقق نوعاً من التوفيق بين دين الجوس ودين الملوك ، غير أن هذا التوفيق لم يأخذ صفة رسمية إلا بعد ثمانية قرون من عهد زردشت الذي عاش طبقاً لما زعم الفرس سنتي ٦٦٠ و ٥٨٣ ق . م حين دَوّن كتاب «الزنداوستا» الذي لا يزال باقياً . وإذا كان البعض قد أنكر وجود زردشت فالثابت أنه كان شخصية حقيقية وليست من وحي الخيال . وتتنظم سيرة زردشت سلسلة من المعجزات ، فقد وُلد والكون بأسره يهَلَل بهجة بمجيئه ولم تصدر عنه صرخة أو بكاء ساعة ميلاده ، ولَمَّا وُلد ضحك ضحكة تبيّن أنها كل من حضر ، غير أن عداوة الكهنة الزنادقة من الكافي والكاربان عبدة الأوثان ظلت تلاحقه بأسلحة الغش والخداع ، وحين عزم نبيّ المستقبل على الزواج خضع لاختيار والديه ، ولكنه طبقاً لشريعة الإيرانيين الشغوفين بالصرافة والضوء أصرّ على استجلاء ملامح عروسه قبل أن يعقد عليها .

وما أشبه دعوته الدينية بدعوة بوذا ، ففي سن العشرين هجر بيت أبويه بحثاً عن «الإنسان الهائم بالعدل الشغوف بإطعام الفقير» ، إذ تمثلت مظاهر الإيمان في رأيه في تغذية الحيوان والبؤساء ومدّ النار بالخطب وصبّ عصير الهوما في الماء . ولزم الصمت سبع سنين في أعماق غار في الجبل ، وتلقّى الوحي عن الملائكة سبع مرات وهو في سن الثلاثين ، وامتلك السيطرة على عناصر الكون المختلفة . وكان تلقّيه للوحي الأول عن طريق «وهومنه» [روح الحكمة] الذي وهبه النشوة الروحية بآذريجان في حضرة أهورا مزدا . ومالبت أن مضى مبشراً برسالته ، فرحل حتى غزنة على حدود أفغانستان والحدود الشرقية لإيران ، وتلقّى الوحي في مناطق أخرى حيث لقن أسلوب معاملة الحيوانات الأليفة والنار والمعادن والأرض والماء والنبات ، حتى أحاط الرسول بكل ما كان بحاجة إلى معرفته . ومن الشمال جاءه أنكرامينو غاويا ليثنيه عن قتل رعاياه من الشياطين ، وعرض عليه عرش مملكة في الأرض ، بيد أن زردشت تحاشى الغواية متسلّحاً بالرُّق والعوذات .

ولما كانت السنة الثانية عشرة من الدعوة اهتدى فيشتاسپا ( كشتاسب ) ملك بلخ بعقيدة زردشت ، وتبعه الناس في الهند وبلاد اليونان . وجمعت معارف النبي بين الطقوس وبين علوم الطبيعة والنجوم والأحجار الكريمة ، غير أن الدعوة إلى الدين في سنواتها المتأخرة لم تنحصر في نطاق الدعوة السلمية بل نشبت حرب مقدسة بين فيشتاسپا وخصومه الترك الكفار برزت فيها شجاعة اسفنديار الخارقة . وهنا تضفي شاهنامه الفردوسي لمسة بطولية إلى شعائر «الزنداوستا» . والمعروف أن زردشت قد لقي حتفه في سن السابعة والسبعين على يد أحد التورانيين .

وقد قام دين الفرس على مبدئين أولهما أن للكون قانوناً لا يحد عنه ، وأن له ظواهر طبيعية لا يعترها التغيير ، وثانيهما أن ثمة صداماً بين الخير والشر وبين الضوء والظلمة وبين الخصب والجذب . ولم يخرج زردشت عن هذين المبدئين ، إلا أنه حصر آلهة الخير العديدة في إله واحد هو أهورا مزدا ، كما حصر آلهة الشر في إله واحد هو أنكرامينو أو أهرمين . وهكذا كان زردشت من وجهة النظر العقائدية «موحّداً» يرى للعالم إلهاً واحداً ، ومن الناحية الفلسفية «ثنويّاً» لما ينطوي عليه العالم من خير وشر في

صراع مستديم . ويتلخص هدف زردشت في جهاد النفس لبلوغ الكمال بالفكر والكلمة والعمل ، حتى إذا جاءها الموت وُزنت أعمال الروح وحوسبت على ما اقترفت .

يقول زردشت : «النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك أهورا مزدا وأهرمين ، وهما مبدأ موجودات العالم ، حصلت التراكيب من امتزاجهما ، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، لكن الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما خرجت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم . وهما يتصارعان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ، ثم يخلص الخير إلى عالمه وينحط الشر إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص» .

وتنقسم الإثني عشر ألف سنة التي تشمل تاريخ هذا العالم حسب عقيدة زردشت إلى أربعة عهود ، يستغرق كل منها ثلاثة آلاف عام . بدأ أهورا مزدا الخالق الذي لم يُخلق بإبداع الموجودات اللامادية ، إذ كان لا يزال يقصر نشاطه على التفكير فيها ، ومن ثم توقع ظهور أهرمين ، وعلى الفور ظهر أهرمين من وسط الظلمات . وقد عرض أهورا مزدا أن يسود السلام بينه وبين أهرمين ولكنه لم يوفق ، فأعلن الحرب التي قُدِّر لها أن تستمر التسعة آلاف سنة التالية ، حتى كُتب النصر للنور في النهاية .

وكرّست المرحلة الثانية من الثلاثة آلاف سنة لخلق الموجودات الحالية سواء بواسطة الإله أو الشيطان . واشتملت المرحلة الثالثة على التقلبات التي مرّ بها الجنس البشري فيما بين عهد الإنسان الأول حتى عهد زردشت . أما العهد الأخير فكان يوم كتب لزردشت أن يحقق لأهورا مزدا النصر النهائي ، وهو كذلك يوم الحساب .

والأوستا [الأبستاق بالعربية] هي كتاب زردشت المقدس ، ويسمى شرحه «الزنداوستا» ، وقيل إنه يشمل إحدى وعشرين نسكا لم يبق منها غير نسك كامل وبضع آيات متفرقة ، وكانت اللغة البهلوية هي لغة الفرس في العهد الساساني ، وتولى الزند شرح الأبستاق باللغة البهلوية . ونادى زردشت بأن الخير منبع النور خالق كل ماهو نافع مفيد ، وأن الشر مصدر الظلمة خالق كل ماهو ضار مؤذ ، وأن الحرب سجلال بين الخير والشر ، وأن النصر في النهاية معقود للخير ، وأن الناس قُلب منهم من يؤازر الخير ومنهم من يعضد الشر ، ولذلك فإن الصراع لايقوم بين إلهي الخير والشر بقدر مايقوم بين أتباع كل منهما ، وأن للإنسان حياة دنيوية وأخرى بعد الموت تتوقف على سلوكه في حياته الدنيوية . ويقال إن النبوة قد نزلت على جمشيد ملك الفرس ، وإذ ناء بحملها حملها عنه زردشت .

ولقد حجبت المزدية كل ماعداها من العقائد الإيرانية ولكنها اتخذت أشكالا عدّة ، فإن «الثنوية الإيرانية» — فكرة إله الخير أهورا مزدا وإله الشر أهرمين — التقليدية التي ذاعت في كتب تاريخ الأديان لا تساير تماما حقيقة العقائد التي سرت ما بين عهد قورش والفتح الإسلامي . وعلى الرغم من أن هذه الثنوية قد بشر بها زردشت كمظهر من مظاهر إصلاحه الديني إلا أنها لم تظفر بالرسوخ إلا فيما بعد بتأثير الضغط السياسي للساسانيين التواقين إلى إرساء قواعد تقليد قومي عريق في مواجهه التأثيرات

التأغربة ، ولم تعد «الثنوية» حتى عهد الساسانيين كونها رأى نحلة من بين النحل . وعلى حين كان مزدا الأحمينيين إله «ملك الملوك» قبل اعتناق كشتاسب الزردشتية كما مر بنا ، فقد كان مزدا الساسانيين إلهها دينيا ذا وشائج قرنى مع آلهة زردشت ، فهو ينبرى لمكافحة إله الشر — الظلمة — أهرمين الذى استحدثه دين زردشت . وبين هذين التطين من المزدية الأحمينية والساسانية كان عهد البارثيين حين احتكرت ديانات أخرى عقائد الايرانيين .

وفي الحق إنه يصعب حصر الأديان الفارسية في قائمة ، كما أن محاولة تصنيفها أمر بالغ التعقيد ، إذ علينا أن نبدأ بالإشارة إلى عقائد البارثيين [ ياهلاقا ] التى اشتق منها اسم اللغة البهلوية . وكان البارثيون إيرانيين وافدين من سكوذيا يدينون بعبادة الأسلاف ، ثم زحفت إليهم البوذية التى انتشرت في بلخ إلى جانب عقائد أخرى متعددة متأثرة بالفلسفة التجريدية التى كشفت عن مزيج من العناصر اليونانية والغنوصية<sup>(٣٥)</sup> والإيرانية . وأشهر هذه العقائد هى عقيدة ميثرا التى لم يقتصر ذبوعها على غرب آسيا ، بل كادت تغزو أوروبا حين بلغت خلال القرن الأول قبل المسيح على أيدي الجيوش الرومانية . وترجع أصول هذه العقيدة إلى الإله ميثرا الآرى بعد أن مرّت بتغيرات عديدة . فيذكر هيرودوت إلهة سما باسم ميثرا ، وكانت كلمة «مهر» في اللغة الفارسية تعنى «الشمس» غير أن هذا الإله بعيد كل البعد عن إله الزردشتي ، فهو «الزمن» الذى ينظم تتابع النور والظلمة . وما أكثر ماصوّرت أعمال النحت المتأغربة مشهد تقديم الثور ذبيحة بواسطة الإله ميثرا معتمرا برداء الرأس الفريجي داخل أحد الكهوف التى يتجمّع فيها مريدوه حيث يؤدي الإله أحد طقوس الخصوبة فتنبع الخضرة حول الجرح الذى تنزف منه دماء الضحية .

وبرغم أن عقيدة ميثرا هذه بعيدة بُعداً شاسعاً عن مزدية زردشت إلا أنها قد احتفظت مثلها بفكرتها الأساسيتين : وأولاهما الحماسة المتدفقة للنقاء الخلقي نتيجة الروح العسكرية التى يتحلّى بها الجندي المجاهد ، والثى كانت سبب الشهرة التى نالتها هذه العقيدة بين فيالق الرومان ، وثانيتها تبجيل النور ، وهو المطلق أو الشيء الوحيد العصى على القهر ، المتجسّد في الشمس .

وكانت المانوية عقيدة قريبة من الزردشتية ، آمنت بها جماعة ماني ، ووجدت فيها الديانة المسيحية خصما وعدتها هرطقة خارجة عليها ، وهى وفق العلامة براون : «زردشتية متنصرة أكثر منها نصرانية

(٣٥) نسبة إلى غنوصيص أى المعرفة ، وهى حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر المتأغرق تؤمن بأن الخلاص بالمعرفة التى يعثونها أعلى قدرا من الإيمان والأعمال الخيرة . ويقول الغنوصيون بالثنائية أى بالتمييز بين الخير والشر ، إذ يعدّونهما العنصرين الأساسيين للوجود ، وقد أدمجوا في تعاليمهم شيئا من السحر والشعوذة . ونبذت الغنوصية المسيحية الأولى الأسس اليهودية للمسيحية وكذلك العهد القديم ، ونادت في القرن الثاني بأن الخلاص يتم عن طريق الحكمة [صوفيا] ، وقسمت الناس إلى ثلاث طبقات : الغنوصيون وخلصهم مضمون ، والمسيحيون غير الغنوصيين ويمكنهم أن يخلصوا أنفسهم بالإيمان ، ومن عدا هؤلاء وأولئك هالكون ، وانتهى الأمر بالغنوصية إلى إدماجها في المانوية . وكان للغنوصية أثرها في المسيحية ، فقد حملتها على تحديد العقيدة ومحاربة الهرطقة والإلحاد . ( معجم مصطلحات أدب . د . مجدي وهبه )

مزرذشة» . وقد انبرى ماني يبشّر برسالته في أوائل العهد الساساني عند اعتلاء شاپور الأول عرش الفرس عام ٢٤٢ م . وكان ماني من أهالي بابل ، جمع إلى جوار الثنوية المزدية التقاليد الغنوصية المستعارة من أتباع يوجنا المعمدان والمندويين الغنوصيين من الفرات الأدنى . وكان يبشّر بإنجيل القديس بولس ورسائله ذاهبا إلى أنه الناطق الأخير بلسان المسيح ، وأسس كنيسة حاكت إلى حد كبير السلم الكهنوتي المسيحي ، ونادى بأن التقشف أمر لازم حتى ينتهي الصراع الثنوي داخل الفرد بانتصار النور .

وقد أسفرت الحفائر بجوار طورفان كما أسفر اكتشاف إحدى مكتبات القرون الوسطى في كهوف تونه وانج عن العثور على بعض النصوص المانوية . كذلك أمكن التوصل إلى كثير من المعارف عن هذه النحلة من آراء أعداء المانوية التي كانت تفند دعاواهم وتدحضها سواء كانوا من المسيحيين أم المزديين أم المسلمين . وثمة ما يثبت أن المانوية قد بلغت فرنسا وإسبانيا وأفريقية بل والصين ، وقيل إن القديس أوغسطين نفسه اعتنق المانوية قبل أن يؤمن بالمسيحية ، والواقع أنه مامن عقيدة حملت الروح الإيرانية أبعد مما حملته هذه العقيدة . وبغض النظر عما يقال عن الوحي الذي تلقاه ماني حين كان في سن الثانية عشرة ثم في سن الرابعة والعشرين ، فقد كانت حياته التي استغرق التبشير فيها أربعين عاما مصدرا لبعض القصص والحكايات ، جاء في إحداها أن مهرشاه شقيق شاپور كان خصما لماني ، فسأله « هل توجد في الجنة التي تبشر بها حديقة بمثل جمال حديقتي ؟ فرد رسول النور بأن كشف عن جنته الوضاء لمهرشاه الذي ماكاد يصره يقع عليها حتى غشيته غيبوبة استغرقت ثلاث ساعات !

وقد نادى الكتب المانوية بما سيكون عليه مصير «الصدّيق» الذي يتبع السنن المقدسة بإخلاص ، و«المريد أو السّماع» الذي لم يرق إلى أعلى مراتب المانوية ، والآثم الذي يحرق هذه السنن . فما إن يتخلص «الصدّيق» من قيود الجسد حتى يسلك الطريق نحو الجنة عائدا إلى أرض آباه ، ويبقى «السّماع» فوق الأرض وتعود روحه لتتقمص جسدا آخر ، على حين يمضي «الآثم» عبر المادة إلى الجحيم . في ذلك اليوم تعود كل روح كُتبت عليها أن تتحرر إلى مقرها الأول وهو الجنة مخلّفة الدنيا ، وسرعان ما تتساقط النجوم وتتداعى الجبال وتتهار العناصر المادية إلى هوة الجحيم المعتمة ملتبهية كأنها الأتون العظيم ، فتغطيها صخرة يبلغ حجمها حجم الأرض نفسها ، وتبقى أرواح الآثمين هائمة فوق هذه الصخرة . وهكذا مايكاد يلتقي الخير والشر في صورتها الأولى حتى ينتصب بينهما عائق لا يتسنّى اجتيازه .

وكان مذهب ماني يساير عقيدة زردشت وإن خالفها في أمر أساسي ، هو أن زردشت كان يؤمن بأن هذه الدنيا دنيا خير لأن الخير فيها يدحر الشر ، بينما يرى ماني أن نفس هذه الملاقاة بين الخير والشر وبين النور والظلمة شر واجب الاستئصال . وعلى حين يبشّر زردشت بأن على الإنسان أن يجيأ حياة طبيعية فيتزوج وينجب الذراري ويرعى ماشيته وحقله ويأكل مالذ وطاب ويصون بدنه وينأى عن الصوم لأنه بهذا الأسلوب يعين إله الخير على إله الشر ، نرى ماني يدعو إلى التنسك والتقشف ويتعجل

الفناء ، فيحرّض الناس على أن يتأوا عن الزواج والإنسال ويدعو إلى الصيام أسبوعا كل شهر ويفرض العديد من الصلوات ، كما اعترف بنبوّة عيسى وزردشت ، غير أنه لم يقل بنبوّة موسى .

وقيل إن أحد الموابذة سأله إن كان هو الذى يحرم الزواج متعجّلا فناء العالم ، فرد ماني بأن الخلاص يأتي بانقطاع النسل ، فقال الموبد « لأهبتك إذن الخلاص الذى تنشده على الفور » ، وأمر الملك بهرام بقتله تخلّصا من تعاليمه الداعية إلى الزهد بعكس عقيدة زردشت الداعية للعمل والمسايرة للنزعة « الحريرية الفارسية » .



## الشخصيات الإلهية والفكر الإسطوري

**اندماج** اسما الإله أهورا — مزدا فأصبح هرمزد ، على حين تحوّل اسم أنكرامينو بمعنى «الفكر السلبي» إلى أهرمين . وكانت هاتان الشخصيتان تمثلان قطبي الوجود ، فالأول خالق الحياة والثاني صانع الموت ، الأول من النور والحق والثاني من الظلمة والزيغ ، الأول إله مضاد للشيطان والثاني شيطان مضاد للإله ، وليست الحياة إلا محصلة الصراع المحتدم داخلها بين بعضها البعض .

تقول قصة الخلق :

«هكذا تكلم أهورا مزدا إلى زردشت المقدس

خلقت كونا لم يقم من قبله شيء ، ولو لم أخلقه لمضى العالم بأسره نحو إيرچانا فينجا» .

وفي مقابل هذا العالم النابض بالحياة خلق أنكرامينو عالم الموت الذي لايتخلله غير شهرين من الصيف المكسو بالجليد ، ويستغرق الشتاء شهورا عشرة قارصة البرد ، فالبرد هو منبت الشر كله .

ثم خلقت «جاوون» ملجأ «سُعدرا» أجمل محلة في الأرض تكسوها الورود وتتوالد فيها الطيور ذات الريش الياقوتي اللون ، فخلق أنكرامينو الحشرات الضارة بالنبات والحيوان .

وقامت مدينة «مورو» المقدسة السامية فسعى فيها أنكرامينو بالأكاذيب والشرور .

ثم خلقت «باشدي» الساحرة تكتنفها المراعي المورقة وتتطاير منها مائة ألف راية فأرسل أنكرامينو الوحوش المفترسة لتلتهم الماشية التي تخدم الإنسان .

وبرزت «هاروچو» مدينة القصور الفخمة إلى الوجود ، فأولد أنكرامينو الكسل ، ومن ثم خيّم الفقر على المدينة .



وهكذا كلما قدمت معجزة للبشر تسعدهم وتسهم في رخائهم سارع أنكرامينو يرد عليها بعطيّة ضارة ، فهو الذى بعث غرائز الشرّ يلوث الأرض بها ، وابتدع جريمة دفن الموتى أو إحراقهم وكافة المحن التى تطحن جنس البشر .

ولعل أهرمين كان قبل أن يصبح روحا للشرّ إلها من آلهة العالم السفلى ، وقيل إن أهورا مزدا قد خلق نوعين متضادين من الجان هما أسينتا مينو وأنكرامينو ، روح الخير وروح الشر ، وسرعان ماخطت هذه الثنويّة إلى وحدانية عميقة الجذور .

وأول ما خلق أهورا مزدا من الملائكة بهمّن ثم أرديهشت ثم شهريور ثم اسفندارمز ثم خرداد ثم مرداد ، وخلق بعضهم من بعض كما يقبس السراج من السراج فلا ينقص منه ، وقال لهم : « من ربكم وخالقكم ؟ فقالوا أنت ربنا وخالقنا » . وعلم أهورامزدا أن أهرمين سيتحرك من ظلمته فأعلم الملائكة وأعدّ مايردّه به ويدفع شرّه وأذاه عن عالمه ويطل إرادته ، فخلق السماء في خمسة وأربعين يوما وخلق الأرض في مثلها .

وكان أهورا مزدا يتحكم في أرواح « الخالدين الرحماء الست » « أمشاسپندات » وهم : هومانه — وأشافاهيشتا — وأخشاتراثايرا — وسپنتا آرمائتي — وهورفاتات — وأمرى تات (٣٦) .

وما أشبه هذه الآلهة بالملائكة جبرائيل وميكائيل وروفاثيل ، فقد أنيط بكل من هذه الآلهة السهر على أحد جوانب الحياة ، فسيطر « روح الخير » على الحيوانات المفيدة ، و« الفضيلة العليا » على النار ، وعكف « الملك المثالي » على تحريك الشمس والسموات والسيطرة على المعادن ، وتحكّم البرّ الرحيم بالأسلاف والكمال والخلود على التوالى في الأرض والمياه والنبات .

وغصّت الطبيعة بنوع من الجان تقدم لهم القرابين هم « إيزدها » ( الآلهة ) وهم نوع من المخلوقات الإلهية يعدّون ازدواجا للأمشاسپند . كان الإيزدها ينتمون إلى ماض إيراني آرى ، وقيل إن أهورا مزدا كان كبير الإيزدها السماويين بينما كان زردشت كبير الإيزدها الأرضيين .

وكان بعض الإيزدها يوازي بعض الأجرام السماوية والعناصر والقوى الكونية أو الخلقية مثلهم مثل الأمشاسپندات . وكانت النار البدائية المستخدمة قربانا تلعب دوراً هاماً بين الإيزدها . كذلك كان « فيريترانيا » من بينهم هو عبقرى النصر ، وكثيرا ماصوّرتة النقود « الهندية — اليونانية » ، و« الهندية — السكودية » رمزا للنصر .

(٣٦) هومانه هو روح الخير  
أشافاهيشتا هي الفضيلة العليا  
أخشاتراثايرا هي الملك المثالي  
سپنتا آرمائتي هي البرّ الرحيم بالأسلاف  
هورفاتات هي الكمال  
أمرى تات هي الخلود

ومن بين الجن الخيّرین احتل الفروش مكانة الملائكة الحارسة ، فهو جزء هام من النفس الانسانية خلقها أهورا مزدا قبل مولد الإنسان ، تصاحبه خلال حياته بصفتها اللامادية وتبقى حية بعد موته .

وكان أنكرامينو [أهرمين] هو أمير الشياطين . والغريب أن شياطين الزنداوستا كانوا يحملون أسماء آلهة القيدا نفسها ، حتى جاءت حركة الإصلاح الديني الايرانية بزعامة زردشت الذي حوّل وظيفة الآلهة الآريين النبيلة إلى وظيفة الجن الشريرة ، على حين ظلت هذه الأسماء في الهند مبدجة بصفتها جان سماوية خيرة . وترجع الطبيعة الشيطانية لقوى الشر «الديوات» من ولائهم للخداع والزيف ، إذ كانت مهمتهم مقاومة كل ما يفضي إلى الخير .

وثمة عدد آخر من الشياطين كانوا يبذرون الرعب والجريمة ، مثل «الدروغ» (الكذب) أحد مخلوقات الخداع وأغلبهم من الإناث المتوحشات ، على حين يخفى «البيريكا» مكرهم تحت ستار مظهرهم الجذاب ، وكان «الياتو» من السحرة ، والكافي والكارپان من كهنة الديانات الزائفة .



وظهر مزدك في نيشابور بإيران حوالي عام ٤٨٧م داعيا إلى مذهب ثنوي جديد ينادي أيضا شأن العقائد الفارسية بالنور والظلمة ، إلا أنه كان يقول إن النور وليد القصد والاختيار ، والظلمة تخبط خبط عشواء ، والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى . وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحلّ النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ . فارتبط به الدهماء واستغلوا مانادي به فأفحشوا واعتدوا على الناس في بيوتهم مستحلّين أموالهم ونساءهم ، وثاروا على الملك قباذ والد أنوشروان حتى أباح مايقترفون رغم أن مانادي به مزدك أصلا هو القناعة والتقشف ، وتميز اشتراكية مزدك على اشتراكية العصر الحديث بما يسرى فيها من روح دينية روحية عميقة . يقول الشهرستاني : وقد اطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه ووجده فقتله .

## الشخصيات البطولية والفكر الإسطوري

ويضمّ تاريخ الفرس الكثير من القصص والأساطير التي تعدّ الشاهنامة أهمها وأعظمها . والشاهنامة تاريخ أمة بأسرها تضم أقدم أساطيرها حتى الفتح الإسلامي ، وهي ملحمة لا ضريب لها عند أمة أخرى . وفي الشاهنامة قسم تاريخي هو تاريخ الساسانيين وبعض قصة الإسكندر المقدوني ، وفيها كذلك قسم خرافي يسرد تاريخ الملوك الذين ورد ذكرهم في كتبهم الدينية كما ورد في الأساطير الهندية ، مما يشير إلى أنهم بقايا من الأساطير الآرية حفظها الهنود والفرس على خلاف فيها . ويشابه الأستاق التوراة من ناحية أنه روايات قديمة نسجت حول أبطال يمثلون قوى الخير والشر في الدين الآري القديم الذي قام على عبادة الطبيعة .

وهناك كتب عديدة باسم الشاهنامة تختلف اختلافاً بينا ، وأشهرها شاهنامة الفردوسي ، تسجل تاريخ الأسر المالكة في ترتيب متتابع دقيق ، ويستمر القصص فيها ماينوف على ثلاثة آلاف عام تحكم فيها أربع دول ، هي الإيشدادية<sup>(٣٧)</sup> والكيانية [الأخمينية] والأشكانية [الپارثية] والساسانية . ومن ناحية الأشخاص ، تقسم الشاهنامة الأشخاص إلى مراتب : المرتبة الأولى للملوك ، فلهم المكانة السامية في كل أمور الحكم وتصريف شئون الدولة ويدين لهم الجميع بالطاعة . وللأبطال المرتبة الثانية في السلم والأولى في الحرب ، وبعضهم من نسل الملوك ، وأعظم الأبطال ينحدرون من أسرتي قارن وسام . ومن أبطال العائلة الأولى كودرز ، وكيو وبيثرن وبرام . ومن أبطال العائلة الثانية سام وزال ورستم وهو بطل أبطال الشاهنامة . وللموايذة<sup>(٣٨)</sup> المرتبة الثالثة . ويُفهم من الشاهنامة أن كلمة موبد تعني مستشار

(٣٧) پيش معناه الأول ، وداد بمعناه العدل ويشدادي هو صاحب العدل الأول .

(٣٨) جمع موبد وهو القمّ على الدين في المحوسية .

الملك والأمير ، ومفسر الأحلام والعالم بتاريخ الأنساب بل والطبيب البارع أحيانا ، وكذلك معلم الكتابة والتاريخ والفروسية وآداب الملوك .

وكان جيومرت<sup>(٣٩)</sup> « هو أول من ملك العالم ، وارتدى جلود السباع ، وحباه الله القوة والشهامة والوسامة وسخر له الإنس والجن جميعا . ورزقه الله غلاما سماه سيامك » أقر به عينه فهام به حبا ، ولما بلغ أشده ظهر له عدو من الجن أخذ يتربص به ليقضي عليه ، فأرسل الله ملكاً إلى أبيه أحاطه علما بما يجرى . ولما أحس سيامك بما يحاوله الجن استشاط غضبا وأصر على أن ينزله فارتدى جلد الثور وخف ملاقاته . غير أن الجنى أنشب مخالبه في صدره وأرداه قتيلاً . فلما علم جيومرت بذلك سقط عن سرير الملك محزوناً ، وظل ينعاها عاما كاملا حتى نزل عليه ملك وأخذ يهمس إليه بأن يدع حزنه ويسعى في طلب النار لابنه .

وكان سيامك قد أخلف ولدا يسمى « أوشهنج » تبدي في ملامحه مخايل الملك ، فأعلنه جيومرت وليا للعهد فانطلق إلى قاتل أبيه فظفر به . وحين علم جيومرت بأن حفيده قد ثار لدم أبيه هدأت نفسه ووافته المنية بعد أن أكمل ثلاثين عاما في الحكم .

واعتلى أوشهنج<sup>(٤٠)</sup> عرش جده وكان جسورا مهيبا صارما حسن الرأي ، وكان أول من استخلص النار والحديد من باطن الأرض ، وقد تم له ذلك مصادفة إذ رأى ذات يوم ثعبانا في أحد شقوق الجبل تتوقد حدقاته كجذوة نار تذيب الحديد وتحرق كل ماتلمسه ، فالتقط حجرا وقذفه به ، غير أنه أخطأ الهدف واصطدم الحجر بسفح الجبل فانبتت عنه شعله نار أدهشته وهرب الثعبان ، ومن هنا كانت عبادة الفرس للنار . ولما أطبق الليل أمر فأشعلت نار ملأت وجه الأرض بأشعة النور حتى تحيل للناس أن الشمس لم تغرب وأن النهار مازال يسطع ، واتخذت تلك الليلة عيداً يُعرف « بالسدق » توارثها ملوك الفرس .

وعلم أوشهنج الناس الزراعة مستخدمين في ذلك الحيوانات والدواب فزاد رزقهم ونعموا بحياتهم ، كما علمهم صيد الثعابين والسنجاب والتمور وكيف يستخدمون فراءها في ملابسهم وأثاثهم ، واستحالت حياة الناس في عهده رخيّة ميسرة في ظل الطمأنينة والأمن ، فلم تقم في عهده ثورة ولا تألبت عليه قبيلة ، وتوفي نقى السيرة محبوبا من كافة الشعوب بعد حكم دام أربعين سنة .

(٣٩) جيومرت في الأستاق هو « كيا » أو « كيامرتن » وهو الإنسان الأول ، أول من عبد أهورا مزدا والذي نسلت منه الأمم الآرية . وفي بُدْهش أى الخلق الأول [وهو كتاب ديني بهلوي] أن هرمزد [أهورا مزدا] خلق شيئين هما أصل الإنسان وأصل الحيوان والنبات ، وهما كيومرت والثور الأول ، عاشا سعيدين في ملك هرمزد ثلاثة آلاف سنة ، ثم ظهر أمرين فقتلتهما وتنج من الثور حين موته أصل الحيوان والنبات ومن كيومرت الزوجان الأولان « مشيا ومشيانه » ومعنى مشيا رجل ( مثل آدم ) فنسلا نسلا كان منه سيامك ( ابن كيومرت في الشاهنامه ) .

(٤٠) أوشهنج — يقال إنه أبو خنوخ ، وخنوخ هو إدريس ويقال إنه وأخاه « ويكرد » من الأنبياء . وينسب إليه بناء الكوفة لأول مرة وتُسترد ودامغان ومسلة عين شمس ، كما أنه أضاف إلى عمارة سوسه واصطخر .

وورث «طهمورث»<sup>(٤١)</sup> عرش أبيه أو شهنج ، فسار على نهج أبيه ، فكان عادلا ذكيا ، علّم الناس الصناعات الدقيقة ، وغزل الصوف وصناعة السجاد ، وزرع الشعير واستخدم جوارح الطير والفهود في الصيد وقيل إنه سحر أهرمين وقيدته بالأغلال ثم اتخذ له سرجا وامتطاه وطاف به حول الأرض فثارت الغفاريات وخرجوا عن طاعته ، واحتشدوا لمحاربتة ، فحاربهم وانتصر عليهم وتمكّن منهم بالرّقى والسحر ، فاستسلموا وطلبوا منه أن يؤمّن حياتهم مقابل أن يطلعوه على سر لاغنى للملوك عنه فأمنهم ، ومن ثم علّموه الخط والكتابة بثلاثين لغة ، من بينها الرومية والعربية والهلوية وغيرها ، فكان هذا هو بداية ظهور الكتابة بين البشر وتوفى بعد أن حكم بلاده ثلاثين عاما .

وولي «جمشيد»<sup>(٤٢)</sup> بن طهمورث الملك بعد أبيه ، وشيّد في لغتهم تعنى الشمس ، وقد سمي كذلك لجمال صورته . وكذلك سار جمشيد على سنّة والده في البناء والتعمير وإشاعة العدل بين الناس ، وكان أول من صنع آلات الحرب من السيوف والرماح والدروع . وعلّم الناس نسج القماش واتخاذ الملابس من الكتان والإبريسم ، واستخدم الجن في نحت الأحجار ، وصناعة اللبن ، وجدّد في البناء والتشييد يُنشئ المدن في كل مكان . واستخرج المعادن والجواهر والذهب والفضة ملأ بها خزائن الدولة . وعلّم الناس كيف يتخذون منها حليًا وزينة ، واستخلص أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر وصنع منها الروائح والعطور ، وكشف عن علوم الطب ووقف على أسرارها وخفاياها وابتدع صناعة الدواء . واتجه إلى البحر فصنع السفن وأجراها على سطح الماء ، ولم يترك بقعة في أرض إلا بعث فيها الحياة ثم صنع لنفسه عرشا مرصعا بألوان الجواهر واستخدم الجن في حمله ، فإذا جلس عليه رفعوه في الهواء وحملوه إلى حيث يريد . وكان أول يوم ارتقى فيه سندا العرش محمولا على أكتاف الجان هو اليوم الأول من السنة الذي تحلّ فيه الشمس في برج الحمل فسُمي ذلك اليوم بالنوروز ، الذي يحتفل به احتفالا رائعا ، ومنذ ذلك الحين غدا عيد النوروز سنّة مشهورة عند الفرس يتبعونها في كل عام . واستكمل جمشيد أسباب الملك فظل حاكما ثلاثمائة عام عاشها في أمن وطمانينة ومجد وسعادة لا يعكر صفوها شيء حتى انتهى به الأمر إلى الغرور ولعب الشيطان بعقله فتحوّل إلى طاغية ظالم ، ولم يفده إنكار العلماء والحكماء لموقفه شيئا وغضبت عليه السماء وانتهى نهاية أئمة على يد «الضحك» .

وعايش ذلك الزمان ملك للعرب يدعى «مرادس» وكان عطر السيرة يملك ثروة طائلة من الخيل المُسرّجة بسروج الذهب والفضة والمرصعة بأنواع الجواهر ، إلى قطعان من بقر وإبل وأغنام لأثصى . وكان لذلك الملك ابن يسمى بيوراسب<sup>(٤٣)</sup> ويلقب بالضحك أو أزدهاق . وكان شغوفًا باللهو والطرب

(٤١) ويلقب «زيناوند» أي الكمي و «ديوبند» أي مقيد الشياطين .

(٤٢) جمشيد ومعناها الكأس المتألىء ، وشيّد تعنى الشمس ، وقد سُمي كذلك لجمال صورته . ومايروى عنه في مختلف الكتب يشابه مايروى عن نوح وسليمان .

(٤٣) بيوراسب . بيور معناها عشرة آلاف و «اسب» أي الفرس . ويذكر في الأستاق باسم أزي دهاكه وهى روح شريرة في الأساطير الآرية ، وبعد كذلك شيطانا يمنع ماء السحاب من النزول إلى الأرض ، ثم ملكا جبارا طالما يتمثل فيه الشر كله . ويمثل الضحك العداوة بين الإيرانيين والأشوريين ثم الكلدانيين . ويقول العرب إنه من ملوك الكلدانيين النبط ، وأن بابل كانت

والصيد والطراد ، فظهر له إبليس في زى شاب وسيم أخلص في خدمته وقدم له النصيح الأمين حتى منحه كل ثقته وخلا به يوما وزين له أن يستأثر بالإمارة دون غيره ، وأن يصبح الملك والسيد المطاع . ولما كان من غير المستطاع أن يحقق له ذلك المجد إلا بالتخلص من أبيه فقد أغراه بقتله حتى تؤول إليه خزائن المال وذخائر الدولة . وما إن سمع منه ذلك حتى هاله الأمر ، واستكثر أن يجازى أباه الذى رباه ببارقة دمه ، فلم يزل الشيطان اللعين يزين له الأمر ويهون عليه الجريمة ، ويلحّ في ذلك دون أن يترك له فرصة لإعمال الفكر وتغليب العاطفة ، حتى غلبه على أمره وأقنعه بقوله : « تدبّر في الأمر واحتل لقتله » .

وكان للملك بستان يخلو فيه إلى نفسه وينزل إلى حوض ماء يتطهر فيه ثم يقضى ليله متعبدا . فحفر إبليس في طريقه بئرا غطّاه بالعشب ، وما إن دخل الملك بستانه على عادته ، وتوجّه إلى حوض الماء ليتطهر حتى سقط في البئر ، فبادر إبليس وأهال عليه التراب وسوى البئر بالأرض . وهكذا استولى الضحّاك على الحكم من بعد أبيه ودان له جميع الأمراء بالطاعة .

وتبدّى إبليس بعد ذلك في زى طاه جميل الصورة وعرض خدماته على الضحّاك فأدخله في خدمته . وما زال إبليس يُدع في ألوان الطعام الشهى فيقدم في كل يوم لونا جديدا ، حتى أحبه الملك واصطفاه ، وأصبح لا يصبر على غيبته عنه ساعة . وذات يوم طلب الضحّاك من إبليس أن يتمنى عليه ، فتمنّع إبليس وتظاهر بالزهد وادّعى بأن لا حاجة به إلى شيء سوى دوام الملك واستقرار الدولة ، وأن كل ما يمتناه هو أن يأذن له الملك بتقيل منكيه ، فأذن له بذلك ، فتقدم وقبل منكيه ثم اختفى في باطن الأرض ، وإذا حيّة سوداء تنبت في كل منكب من مكان القبلة الملعونة في منكيه الملك . فتملّك الضحّاك الفزع واستدعى الأطباء والحكماء فأشاروا عليه بقطعهما ، فلما قُطعتا نبتتا مرة أخرى في نفس المكان . فأرسل في جمع الأطباء والحكماء من جميع أنحاء العالم ، غير أنهم عجزوا جميعا أمام هذا الداء . وبرز إبليس إليه في زى طيب ، وقال إن هذا قضاء أجراه الله عليه ولا بد من ترييتهما وإطعامهما من أدمغة الناس حتى يهدأ اضطرابهما ، وهكذا دفعه إبليس إلى سفك دماء الناس .

وعندما رأى أمراء الفرس أن جمشيد قد مرق عن الدين وأصبح ظلما ، خرجوا عن طاعته ، واستبدّ كل واحد منهم برأيه وإمارته ، فكثر عددهم ، وساد الفساد حتى بلغ بهم الأمر أن قصدوا الضحّاك وعرضوا عليه طاعتهم ونصبوه ملكا عليهم ، فجمع جيوش البر والبحر ليحارب جمشيد الذى قرّ إلى الهند واختفى ذكره مائة عام ، وحين غادر الهند داهمه الضحّاك وقضى عليه وأمر بنشر جسده بالمنشار .

وملك الضحّاك الأرض والبحر شرقا وغربا ، وكان طاغية ظلما عاش الناس تحت نير حكمه أتعس حياة . وكان يأمر كل ليلة برجلين يُقتلان ليغذى الحيتين من رأسيهما ، وأمضى على هذا النحو ألف

= دار ملك نمروذ . وقد رويت عنه أساطير غريبة تسمه كلها بأنه ثعبان أو قرين ثعبان أو شيطان . ومن أطرف ما قيل إن سكان بلدة دماوند على السفح الجنوبي من جبل دماوند يحتفلون بعيد يسمونه « عيد كردي » إحياء لذكرى موت الضحّاك .

عام . وذات ليلة رأى رؤيا أفضت مضجعه إذ أوحى إليه بزوال ملكه وانتهاء أجله ، فجمع العلماء والعرّافين والمنجمين والكهنة والسحرة من كل مكان ليستمع منهم إلى تفسير رؤياه غير أنهم سكتوا خوفاً من بطشه إن هم أطلعوه على الحقيقة .

وما زال يسألهم رأيهم كل يوم وهم صامتون حتى كان اليوم الثالث ، فانبرى له عالم حكيم طاعن في السن قائلاً : الموت حق على كل البشر ، وليس منهم من كُتِبَ له الخلود فاحذر من ملك يدعى «أفريدون» مايكاد يولد حتى تقتل أباه ، لأنه حين يترعرع سيأخذ بثأر أبيه منك وسيُريث المُلْك من بعدك . سمع الضحّاك ذلك فخرّ مغشياً عليه ، وحين أفاق بثّ العيون والرسل في كل أطراف البلاد بحثاً عن أفريدون ليقتلوه .

وفي تلك السنة وُلد طفلاً قتل الضحّاك أباه ساعة مولده وإذا هو «أفريدون»<sup>(٤٤)</sup> ، وكانت أمه سيدة حكيمة تدعى مانك خشيت على وليدها شرّ الضحّاك فحملته إلى راع صالح طلبت إليه أن يخفي ابنها ويغذّيه على لبن بقرة تمتع بالقوة والجمال . وانقضت ثلاث سنوات قصدت مانك بعدها الراعي وأخذت ابنها وهربت به إلى بلاد الهند . وفي الهند أسلمت مانك ولدها إلى راهب أمين نشأ في كنفه وتعلم على يديه ، ولما اشتد عودة عاد إلى أمه ، التي روت له القصة كلها فأخذ يعدّ لقتل الضحّاك ، غير أن أمه استمهلته ليُعمل الفكر ويُحسن التدبير فلا يأخذه الغرور بقوته .

وكان الضحّاك آنذاك ترتعد فرائضه كلما ذكر اسم أفريدون أمامه ، وأراد أن يقوم بشيء يستردّ به حب الناس فقربّ منه العلماء والحكماء لينشروا بين الناس مايتحدث بعده وإحسانه . وفيما هم يوقّعون وثيقة تقدير للملكهم دخل حدّاد ضخّم الجسم يدعى «كاوه» وصاح مستغيثاً بالضحّاك وذكر له أنه قتل ابناً له بالأمس لتتغذى الحيتان على رأسه ، وأن الجند قد قبضوا اليوم على ابنه الثاني ليقتلوه . فأمر الضحّاك بإطلاق سراح ابنه وقدم له الوثيقة وطلب منه التوقيع عليها . فلما قرأ ماجاء بها اتجه إلى العلماء والحكماء صائحاً يسبّهم ويتهمهم بالزور والبهتان والنفاق ، ومزّق الوثيقة وألقى بها في وجوههم وخرج يصيح داعياً الناس إلى الثورة على الضحّاك منادياً بشعار أفريدون ، وذهب إلى حانوته وأخذ رقعة من الجلد رفعها على عصا وكأنها راية ، وانطلق هاتفاً فتجمّع حوله جمع غفير . وانطلق أفريدون يجمع الحدادين ليصنعوا عُدة حربية ابتكرها بنفسه وتمكّن الحدادون من صنعها . فجهز أفريدون جيشاً وانطلق حتى بلغ نهر دجلة ، وطالب الملاحين أن ينقلوا جنده إلى الضفة الأخرى ولكنهم طبعوا موافقة الملك الضحّاك . فانطلق أفريدون يعبر النهر على ظهر جواده وتبعه الجنود حتى بلغوا بيت المقدس . ولم يُضع أفريدون لحظة بل هاجم قصر الضحّاك قبل أن يتنبّه حراسه وسكانه .

(٤٤) أفريدون بطل تشترك فيه أساطير إيران والهند كذلك ، وهو هرقل الإيرانيين الذي غلب الضحّاك وقبّده على جبل دماوند . وأفريدون أيضاً هو نوح الإيرانيين كما يتبين من قصته وقصة أبنائه الثلاثة ، وقد قسم نوح الأرض بين أبنائه كما قسمها أفريدون .

وهناك وجد شقيقتي جمشيد أسيرتين فأبلغتاه أن الضحّاك قد سار في حملة إلى بلاد الهند . وما كاد أفريدون يجلس على عرش الضحّاك حتى دخل عليه وزيره الذى ما إن رآه حتى سجد له خوفاً فأمنه أفريدون واستمع منه إلى آثام الضحّاك الذميمة ، وبعد أن فتح له كافة الخزائن وأطلععه على كل الأسرار والأخبار انسلّ الوزير منطلقاً في إثر الضحّاك . وما إن وصل إلى مخيمه حتى أبلغه أن أفريدون قد استولى على عرشه وأمواله وأن المملكة قد دانت له . فغضب الضحّاك وعاد بجنده إلى القدس يريد استعادتها ليجد أن الناس جميعاً قد دخلوا في طاعة أفريدون واستعدوا لقتاله ، فاشتد غيظه واستطاع مغافلة الحراس وتسلّق سور القصر ومفاجأة أفريدون مع إحدى زوجتيه ، غير أن أفريدون تمكّن بسلاحه المبتكر من أن يشلّ حركته تماماً . وهمّ بقطع وريديه لولا أن هبط عليه ملكّ نهاه عن ذلك قائلاً إن مصير الضحّاك يجب أن يكون التعذيب طول الزمان ، وإن عليه أن يشدّ وثاقه ويحبسه في جبل دُنبَاوند [دماوند] حيث يلقي عذاباً مابقى له من عمر .

ودان جميع القادة والجند والشعوب لأفريدون الذى أسبغ عليهم العطايا والمنح ، ثم عيّن نوابه بالمدينة وخرج بأسيره يجلّله الخزي والعار وسار به حتى وصل إلى غار يغصّ بالظلمات ليلاً ونهاراً فقيّد الضحّاك وتركه يعذب فيه إلى يوم الدين . وحكم أفريدون بين الناس بالعدل وعمرّ المدن بحسن سياسته ورحمته وذكائه وقدرته على حسم الأمور . ورزق الله أفريدون ثلاثة أبناء هم سلم وثور وإيرج ، ولما بلغوا سن الزواج بحث لهم عن زوجات من أصل كريم وعثر على ضالته في بنات سرو ملك اليمن ، فأرسل إليه رسولا أكرمه الملك ، ورحب بهذا النسب العريق رغبة منه في ربط الأواصر تقرباً وخشية .

وُرُفّت العرائس إلى أزواجهن وعادوا جميعاً إلى حضرة أفريدون الذى رأى أن يقسّم أقطار مملكته بين أولاده الثلاثة ، فعين لسلم وهو أكبرهم أرض الروم وبلاد المغرب وماتاخمها من الممالك ، ولتور بلاد الصين والترك وما يتاخمها من ولايات ، وإيرج وهو أصغرهم العراق مع أرض بابل إلى آخر بلاد الهند ، واختاره ولياً للعهد ووهب له المُلْك والتاج . ومضت سنوات لم يلبث بعدها سلم أن أحسّ أن أباه قد آثر أخاه الأصغر عليه ، وكبّر عليه ذلك فأرسل إلى أخيه تور يثير حفيظته على والده وأخيه الأصغر ، واجتمعا معا ليريا في ذلك رأيهما ، وأرسلا إلى أبيهما رسالة تقطر ضيقاً وحقداً ، فغضب أفريدون غضباً عارماً وهدّد وتوعّد . غير أن إيرج حين علم بالأمر اقترح على أبيه أن يتوجّه هو بنفسه إلى أخويه ليهوّن من حفيظتهما عليه . ولما تلاقى الأخوة تعانقوا وعادوا إلى مضاربهم وأقاموا حفلاً سعدت به نفوسهم واستطاع إيرج بلباقته وحكمته أن ينتزع الغلّ من صدرى أخويه وأن يحو ما بنفسيهما من حسد . ولبثوا على ذلك حيناً كان إيرج بسجاياه الحميدة ، وعقله الراجح وشهامته قد اجتذب خلاله قلوب كل من حوله من القادة وأركان الدولة وأعيانها حتى أثار غيرة أخيه سلم العمياء ، فاجتمع بتور ونفث في قلبه سموم الحقد من جديد ، واتفقا على « خيانتة وقتله غيلة » ، وأمر سام برأسه فرُفِع وحُشى بالمسك والكافور ولُفّ في ثوب من الحرير ، وأودعه تابوتاً مصنوعاً من ألواح الذهب وأنفذه إلى أبيه .



وكان أفريدون ينتظر أوبة ابنه بشوق حار . وفي اليوم المحدد لوصوله «وصل راكب على جمل يشق الأرض ويشير النقع وبين يديه صندوق مغشى بالديباج والحريز ، فلما اقترب من موكب السلطان ، شق جيبه ورفع بالعويل والنحيب صوته ناعيا إليه ولده الذي كان ينتظر مقدمه » ، فلما سمع السلطان صوت الناعي خرّ مغشيا عليه ، ثم أفاق فحشا التراب على مفرقه ، وانطلق في بكاء مرّ «ورفع الأمراء التابوت ودخلوا خلفه إلى الإيوان ، وأمر بهدم دار إيرج وأحرق بستانه ، وجلس للعزاء على عادة الفرس ، وبكى حتى نبت العشب حواليه من فيض دموعه ، وحتى كفّ بصره وهو يدعو الله أن ينتقم له من قاتلي ولده» .

وكان لأفريدون جارية في حريمه حملت منه ووضعت بنتا ، فلما شبّت زوّجها من ابن أخيه بشنخ ، فما لبثت أن وضعت ولدا سماه «منوچهر»<sup>(٤٥)</sup> ربّاه فأحسن تربيته وعلمه آداب الملوك أحسن تعليم وخفف ذلك من حزنه على ولده فارتد إليه بصره . ولما شب منوچهر عقد العزم على الثأر وجهز جيشا للزحف على بلاد سام وتور . ولما علما بذلك أرسلوا إليه رسولا يعتذر عنهما ويستعطفه ، فردّه منوچهر خائبا .

وعاد الرسول إلى سلم وتور وأخبرهما بما رأى وسمع ، فلم يجدا بدا من الاستعداد للحرب ، وسار منوچهر في جحافل وقواده وأفياله حتى اقترب من معسكر سلم وتور وتناوشوا الحرب ثلاثة أيام ، أظهر فيها مدى قوته وكشف ضعف أعدائه . فلما رأى تور ذلك قرر أن يلجأ إلى الحيلة ويفاجيء جيش منوچهر تحت جنح الظلام ويأخذه على غرة ويقضى عليه . فبلغ الخبر منوچهر فكمن له في بعض الطرق وأمر جنوده بالتأهب للمعركة . ولما جنّ الليل ركب تور في ثلاثين ألفا غير أنه أسقط في يده حين فوجيء بمعسكر منوچهر على أهبة الاستعداد ، بل إن منوچهر لم يترك له فرصة الهرب فهاجم جموعه وواجهه في مبارزة وجهّ إليه فيها طعنة هوت به عن ظهر فرسه وألقى به على الأرض ثم ترجل واجتزأ رأسه بسيفه ، فذبّ الخور في جنوده ، ولم تغرب الشمس إلا على شفق من دماء الأبطال تسيل على سفوح الجبال ، فكتب منوچهر إلى أفريدون يخبره بالنصر مرسلا إليه رأس تور على رمح .

ولما جاء الخبر سلما تداعت معنوياته ، وكان وراءه في البحر على بعض الجزر قلعة حصينة أعدها لتكون ملاذا له يفرّ إليها إن حزبه الأمر . ورأى منوچهر أن يقطع على سلم سبيل الفرار فأمر قائده قارن بأن يمتلئ ليدخل القلعة . فركب في جنح الليل مع نخبة من نخبة الجنود والقواد الذين تظاهروا بأنهم من أصحاب سلم حين أوقفهم ، بينما تسلل هو إلى القلعة محتالا على الحراس الذين أذنوا له بالدخول ، حتى إذا رأى أمير القلعة بادره بالسيف فأطار رأسه ، ورفع علما في نافذة القلعة ماكاد أصحابه يرونه حتى

(٤٥) منوچهر أى سليل مانو ، ويقال أيضا إنه سمي كذلك لأنه ذا وجه مهتلل ، ويلقب في كتب أخرى بالمصطفى . ومن الأساطير التي تروى عنه أنه رمى سهما فسار ألف فرسخ وأصاب شجرة جوز لانظير لها . وفي رواية أخرى أن السهم طار من الفجر إلى الظهر وسقط عند مرو ، وقيل على نهر جيحون .

عبروا إلى القلعة فدخلوها ونهبوا مافيها وخرّبوها . وعادوا إلى الساحل فأحرقوا جميع المراكب حتى لا يتركوا أمام سلم فرصة ليهرب ، ورجعوا إلى معسكر منوچهر الذي هاجم سلما فانهارت قواه وانثنى ليهرب بمراكبه إلى القلعة مع جنوده وقواده ، فإذا هو يكتشف حرق المراكب وهدم القلعة . وهكذا حاصره منوچهر حتى انفرد به وقتله فتشتت جنده بين القتل والأسر ، وعاد منوچهر إلى أفريدون يحمل رايات النصر .

وما إن قرّت عينا أفريدون بمنوچهر الذي حقق له النصر الذي يبغيه والثأر الذي كان ينشده وأحسن أنه قد طعن في السن حتى أوصى لمنوچهر بالملك وسلّمه العرش وطلب إليه أن يعدل بين الناس وأن يحرص على أن يكون محبوبا منهم ، ثم وافته المنية بعد حكم دام خمسمائة سنة .

واستقر منوچهر على العرش وكان ثامن ملوك الفرس ، وقد وُلد في عهده « زال » الملقّب بدستان والذي طبقت شهرته الآفاق وضربت به الأمثال في الشهامة والقوة والخلق الرفيع هو وابنه « رسم » بطل الأبطال .

« وكان سام بن نریمان بهلوان<sup>(٤٦)</sup> العالم في عهد منوچهر ، وكان يبتهل إلى الله أن يهبه ولدا يكون قرّة لعينه وسنداً ، وكان أن أنجبت له جارية ولدا جميل الصورة غير أن شعره كان أبيض يشتعل شيئا كرؤوس الشيوخ » . وحزن سام حين رأى ولده على هذه الصورة وأمر به فأخرجوه إلى جبل البرز ، وهو جبل عظيم من جبال الهند وصعدوا به إليه وتركوه وحيدا . وكان على رأس الجبل عش للعنقاء<sup>(٤٧)</sup> تطير في طلب الرزق لأولادها . ولما رأت العنقاء ذلك الصبي في مكانه رقت له قلبها ورفرفت عليه بجناحها ثم حملته إلى قمة الجبل ووضعت بين أفرانها حيث شبّ بينهم وترعرع . ورأى بعض رجال القبائل هذا الآدمي بين أفران العنقاء فتولّاهم العجب وتداولوا أخباره في كل مكان حتى وصل النبا إلى سام . ورأى سام في منامه رسولا يُقبل على فرس كالبرق الخاطف يخطره بمكان ابنه فاستيقظ من نومه وجمع مع الصباح الحكماء ومفسّري الأحلام علّه يجد لديهم تفسيراً لرؤياه فإذا هم يؤكّدون له أن ابنه مازال حيّاً يرزق رغم نفيه إياه في الجبل . فخفّ إلى الجبل وتضرّع إلى آلهته أن تردّ إليه ولده ، ودار هائما على وجهه في شعاب الجبل وحيدا باكيا ضارعا . .

ولما رآته العنقاء وأدركت أنه والد الطفل الذي سمّته « دستان » هرعت إلى ربيها وأبلغته بأن أباه يبحث عنه « منظر القلب منسكب الدمع » ، وقالت له : لقد ربّيتك مثل أفرانخي وأنت أعزّ على من روحي ، وأرى أن أحملك بين جناحي إلى أبيك ، فلّتنبوأ عرش ملك الملوك ، ولأعطيتك من جناحي ريشة ، فإذا ألمّ بك مكروه فأحرقها وستجدني رهن إشارتك لأقضى حاجتك . ثم حملته وحلقت به حول سام ووضعت بين يديه . ولما رآه شابا وسيما رشيقا قويا خرّ ساجدا للإله يعفرّ وجهه بالتراب

(٤٦) بهلوان أى بطل .

(٤٧) العنقاء هي ترجمة « سيمرغ » في الشاهنامه ، وهو طير خرافي يكثر ذكرها في الأساطير الإيرانية الدينية والتاريخية . وكلمة سيمرغ تساوي كلمة « سه مرغ » أى ثلاثة طيور و« سى مرغ » أى ثلاثين طائرا .

شاكرا له ماأنعم به عليه وأطلق لسانه بالثناء على العنقاء لحسن صنيعها . وعاد برلده إلى منوچهر الذى أحسن استقبالهما وأمر بإحضار المنجّمين يسألهم طالع دستان . فبشّروه بسعد الطالع ، فطلب إلى سام أن يحسن تربيته ، وقال له : « هذا وديعتي عندك وهو على أعزّ من إحدى عيني » ، واشترط عليه أن يعلّمه قواعد الأخلاق وآداب الملوك ومراسمهم وأصول السلم والحرب .

وأخذ دستان يتدرّب على أصول الإمارة والحكم ، وذهب للصيد ذات يوم ونزل قرب أراضي كابل وكان لها ملك يدعى «مهراب» خفّ إليه ليخدمه ، وأعجب دستان بمهراب لجمال صورته ورشاقة قوامه وسمو خلقه . ومازال يردّد ذلك بين ندمائه وجلسائه حتى قال بعض الندماء إن له وراء حجابها إبنة جميلة الطلعة عذبة السمائل على خلق قويم ، فهام بها دستان وشغفه حبها . ولما حضر مهراب لخدمته في الصباح التالي تهلّل وجهه لرؤيته وتلقاه بالترحيب والملاطفة . وطلب مهراب من دستان أن يشرف داره وينزل عليه ضيفا ، فاعتذر دستان إلا بعد أن يأذن له الملك سام . وحين عاد مهراب إلى زوجته سألته عن دستان ، فأطنب في مدحه وفي جمال صورته وشهامته وخلقته وفتوته على مسمع من ابنته «روذابة» التى حرّك حديث والدها تدلّهما بدورها في حب دستان فتمنّت أن تراه وتحدّثه . وفي منزلها شكت هيامها إلى خمس جوارٍ لها أنكرن عليها هيامها ، وأخفينها من سطوة مهراب ومن شدة غيرته ، فبكت كسيرة القلب فآثار ذلك عطفهن على حالها ، وأخبرنها أنهن سوف يجتلن لها حتى تراه ، وذهبن إلى بستان قريب من خيام دستان وعلى يد كل منهن طبق من ذهب يجمعن فيه الورد ، فلما رآهن دستان عبر النهر وسأل عنهن علم أنهن جوارى روذابه . فقصد شاطئ النهر وأطلق سهما أوقع به طيراً على الجانب الآخر من النهر وأمر غلاما من أتباعه بأن يعبر النهر ليأتيه به . فعبر إلى الجانب الآخر حيث التقى بالجوارى فسألته إحداهن عمّن يكون هذا الملك الجميل ، فأخبرهن بأنه دستان ابن ملك الهند . فأسرّت إليه الجارية بأن خلف هذه الحجب أميرة كالقمر ليلة اكتماله . وعاد الغلام إلى دستان وأخبره بما سمع ، فأمر الجارية بأن تبقى مكانها وأنفذ إليها مجموعة من الجواهر النفيسة مع الغلام ، فقالت له إن لديها سرا لاتبوح به إلا إليه . فعبر الملك إلى البستان وخلا بالجارية وأفضى إليها بمكنون سرّه بعد أن عرف منها ماكان من أمر روذابه وهيامها به . وعادت الجوارى إلى سيدتهن وأخبرنها بما وقع فسرى عنها ذلك بعض همومها .

وجرت الرسائل بين العاشقين على لسان الجارية حتى تواعدا على اللقاء . ولما كان الليل عبر دستان إلى قصر الأميرة داخل البستان ووقف تحت شرفتها ، فأسدلت له جدائل شعرها فتعلّق بها وصعد وجلس إليها وطال بينهما الحديث والسّم ، وباتا يتناجيان الشوق ولوعة الهيام والفراق حتى طلع الفجر فافترقا متعاهدين على ألا يقرب كل واحد منهما غير صاحبه حتى يجمع الله بينهما بالزواج .

وحين عاد دستان جمع وزراءه ورجال فكره يستشيرهم في أمر زواجه من ابنة مهراب ، فأخبروه أن مهراب من ذرية الضحّاك وليس خافيا مابين المملكتين من العداوة والشحناء ، وأن أباه سام والملك منوچهر سوف يستكران فعله وأن عليه أن يسعى ليستميلهما إلى جانبه . فاستصوب رأيهم ، وكتب

إلى أبيه يستجديه الموافقة .

و حين بلغ كتابه الملك سام أصابه الوجوم وطلب إلى المنجمين أن يتنبأوا بالطالع ، فأخبروه « أن الزواج سوف يتم ، وأنه سيولد للعروسين ولد يملأ الدنيا مهابة وشهامة وفخرا ، ويرفع تاج السلطان إلى أوج السماء ، ويطهر بساط الأرض من أهل البغي والطغيان وتشتعل به نارملوك الفرس حتى تمتد باعها إلى ذروة السماك ، ويضرب لهم رواق المجد على مفرق الأفلاك » . فاطمن سام إلى هذه البشرى وكتب إلى ابنه يطمئنه ويبلغه أنه سوف يستأذن السلطان منوچهر في أمر هذا الزواج ووعده أن ويستعطفه ويسترضيه .

و حين بلغ دستان رد أبيه أسر به إلى عجوز أوصلته إلى روزابه التي فرحت به وسعدت ، وأمرت لها بخلعة من القصب منسوجة بالذهب . فلما خرجت العجوز من عندها ورأتها أمها « سين دخت » أنكرت عليها ذلك وأخذت تستوضحها الأمر ومازالت بها تحاورها والمرأة تكذب عليها وتموه . فدخلت على ابنتها التي خافت وأطرقت وبكت ، فألحت عليها حتى علمت بسر عشق ابنتها فلطمت خديها باكية ، ولما أفضت إليها بما جرى بعد ذلك من استئذان الملك سام وموافقته ، خففت من غلواتها وطلبت إلى العجوز أن تكتم السر . ثم خلت إلى نفسها مهمومة لعلمها بمدى العداة بين الفريقين وظلت حزينة مضطربة حتى استشف زوجها حزنها واضطرابها ومازال بها حتى قصت عليه الأمر . وهمّ مهربا بسيفه يريد أن يقتل ابنته ولكن « سين دخت » تعلقت به حتى هدأ وأقنعته بأن هذا الزواج لو تم لأصبح هو في مأمن من الغزو والقهر . ولما تبين سداد رأيها هدأت نائرتة متمنيا أن يتم هذا الزواج .

وإذ علم منوچهر بالأمر وبأن ساما سوف يحضر إليه يستأذنه غضب وجمع مستشاريه وقال لهم إن أفريدون قد بذل ما لا طاقة له به حتى استأصل نساء الضحاك فكيف يريد سام وابنه إعلاء شأن نسله من جديد . وإذا حدث أن تزوج ابن سام من بنت مهربا التي هي شعبة من الدوحة الضحاكية فقد يولدها ولد يصغى إلى أمه حين تستحنه على إعادة مجد أسرة الضحاك فتقع المأساة ، ولذلك فمن حسن الرأي ألا يُفتح مثل هذا الباب ، فاستصوبوا جميعا رأيه .

ولما وصل سام استقبله متهلا وسأله عما قاساه من محاربة الشياطين في مملكة مازندران ومكافحة أسود كركساران ، فروى له ماجرى حتى ظفر بتلك البلاد ، وذكر له كيف قتل ملكهم كركوى الذى كان من أولاد سلم ابن أفريدون . وأخبره أن تلك الدولة قد خضعت له وانضمت إلى بقية مملكته ، فأثنى عليه السلطان معربا عن امتنانه وأمر بمجلس الطرب والشراب . فلما أصبح الصباح ودخل سام إلى منوچهر ليقص عليه حكاية ولده دستان ثار في وجهه وقال : إننا قد أمعنا النظر في أمر مهربا وهو سليل تلك الجرثومة الخبيثة التي لامعدى عن اقتلاعها واستعصاها ، لذا ندبناك لمحاربتة والقضاء عليه . فأحجم سام عن طرق الموضوع ونهض مقبلا الأرض بين يديه ممتثلا لإرادته . ولما بلغ هذا الأمر دستان ومهربا أصيبا بخيبة الأمل وأصر دستان على مساندة مهربا مهما كلفه الأمر .

وما كاد سام يعود إلى ولده زال ، حتى قال لأبيه : فلتَحُزَّ عنقى أولاً قبل أن تخوض حرباً ضد مهراب . فرق سام لحال ابنه ، وقال له : سوف أرسلك إلى منوچهر لتستعطفه لعله يحول دون هذه الحرب ، وكتب رسالة إلى منوچهر يتشفع لابنه فيها ودفع بها إلى ابنه زال الذي حملها ومضى .

ولما شاع في بلاد كابل أن منوچهر أمر سام بالاستعداد لغزوها ارتعد مهراب فزعا وهماً وألقى اللوم على زوجته وابنته فيما وقع ، وعقد النية على أن يقتلها مع ابنتها استعطافاً للملك منوچهر حتى يكف عن قتاله .

وما زالت به زوجته تستعطفه وتسترضيه ، وتطلب منه أن يترك لها فرصة إقناع الملك سام بالعدول عن هذه الحرب ، وأنها سوف تذهب إليه بنفسها رسولاً مخاطرة بحياتها من أجل إنقاذ مُلكه من الهزيمة والخراب حتى أذن لها بذلك . وتكررت « سين دخت » في ثياب الفرسان وحملت من الجواهر والآلآء والأموال والفيلة والجياد والسيوف الهندية المالايقع تحت حصر . وماكادت تبلغ حضرة الملك سام حتى قبّلت الأرض بين يديه وصفت الهدايا أمام ناظره في تسيق بديع فتعجب الملك سام من إرسال مهراب امرأة إليه متكررة في ثياب فارس . ولما أُخلى المكان كى يستمع إلى رسالتها ، نثرت الياقوت والجواهر تحت قدميه وانبرت تسوق أعذب الكلام وأرفع المدح ، ثم أتبعته ذلك بقولها « لا يخفى عليك أيها الملك أن البريء لا يؤخذ بذنب المجرم ، وإذا أساء الضحّاك الذى ذاق الناس وبال ظلمه فمن الرحمة ألا يؤخذ مهراب بذنبه ، فهو من غرس نعمتك وتراب قدمك ولم يسلك منذ تصدّى لسلطنة كابل غير طريق طاعتك ومنهج عبوديتك . وإن كان قصد الملك بلادي لتباين عقيدتينا فإن إلهنا وإلهكم واحد لا خلاف بين الطائفتين فيه ، غير أن قبلتنا التماثيل والأصنام وقبلتكم الشمس والنيران » ، وأترسلت تفيض في حديثها الطلّى الذكى حتى أنس لها وسألها عمّن تكون ، فكشفت عن أنها « سين دخت » ، فسألها عن ابنتها روذابة التى ملكت بجمالها وكأها قلب ابنه دستان ، ثم أمّنها عن نفسها وأمن بلادها وزوجها وأبلغها بما وقع بينه وبين الملك منوچهر ، وأنه قد أنفذ ابنه زال إليه ليستعطفه ويسترضيه ، ثم أحسن إليها وأعادها معززةً مكرّمة .

وصل زال إلى منوچهر فأحسن استقباله ومضى يسأله عن حاله وحال أبيه وحال الرعية فيجيبه بفضة وذكاء ، فارتاح إليه ومال . ولما سلّمه كتاب والده إليه وقرأ ماجاء به قال « لقد عزمت بسبب هذا الكتاب الذى كتبه ذلك الشيخ الجليل وإن ضاق به صدري أن أحقق لك أملك » . ثم جمع المنجمين والعلماء وطلب إليهم قراءة الطالع فقالوا إنه سيولد من ابن سام وبنت مهراب ولد كبير القدر رحب الصدر ، سخي العطاء يتميز برشاقة غير مألوفة وبقوة خارقة وبطول العمر ، وأنه سيكون سنداً للملك يُعلّى شأن الدولة بين الدول ويرفع قدرها ومجدها . فلما سمع منوچهر ذلك أمرهم باخفاء السر واستدعى زال ليختبر ذكائه ورجاحة عقله ، ودعا المواظدة وطلب إليهم توجيه أسئلتهم في حضرته .

فسأله أحدهم عن اثنتى عشرة شجرة طويلة الفروع قد تشعب من كل واحدة منها ثلاثون غصناً لا يرى الفرس فيها زيادة ولا نقصاً . وسأله آخر عن فرسين أحدهما أشقر كالنار والآخر أدهم كالقار

لا يزالان يتراكمضان ولا يتسابقان . ومضوا يتنافسون في وضع الأسئلة المهمة .

وصمت زال وقتا بعد أن استمع إلى أسئلتهم ، ثم أجاب عن السؤال الأول بأن الشجرات الاثنتي عشرة بغصونها هي عدد الشهور والأيام ، وأما الفرسان فهما الليل والنهار . وظل على ذلك يجيب على كل سؤال إجابة تكشف عن توقّد ذكائه وسعة علمه فتعلق به منوچهر وقربه منه ، ودعا إلى مجلس الأُنس والطرب .

وفي اليوم التالي أمر بإقامة مباراة للمصارعة والفروسية ليعجم عود زال . وبعد أن استعرض زال الفرسان انتقى أقواهم عضلا وأقدرهم على المصارعة والفروسية ونازله وانتصر عليه . فازداد إعجاب منوچهر بهذا البطل الفريد ، وطمأنه إلى أنه يبارك زواجه من رودابه ثم حمّله كتابا إلى أبيه يتضمن موافقته وجمع له من الهدايا والجواهر والوصيفات والغلمان والأسلحة مالا يقع تحت حصر وسار في وداعه إلى ديار أبيه سام .

ولما بلغ الخبر مهرب انتشى فرحا واستعد للقاء سام وولده فأقام الزينات بالبلاد وأفاض الأموال على الفقراء والمحتاجين ، وأقيمت مراسم عقد زواج زال من رودابه وعاد بها إلى مملكة أبيه الذي تنازل عن عرشه وارتحل ليحكم إقليمي كركاساران ومازندران . ولم يمض وقت حتى حملت رودابه من زال ، وإذا بالنحول يصيبها الألم يقض مضجعها بالليل والنهار ، وعاجلها إغماء حين دنت ساعة الوضع اعتقد الجميع معه أن رودابه قد فارقت الحياة . وكان الهمّ قد اعتصر زال حتى تذكر ريشة العنقاء فأتى بها وأحرق بعضها منها ، فإذا السماء كأنها قد غشيتها غمامة وإذا الآفاق كأنها أظلمت ، وإذا العنقاء قد أقبلت . فحين رآها زال خرّ ساجدا يقبل الأرض ويذرف الدمع فنادته العنقاء وبشّرته بنجاة زوجته وأنكرت عليه الجزع وقالت : « حاشي لعيون الأسود أن تنضح برشاش المدامع » وطلبت منه أن يسقى زوجته خمرا كثيرة حتى تغيب عن الوعي ، وأن يحضر طبيبا بارعا معه سكين حادة يشق بها خاصرها ويستخرج الولد ثم « يخيظ الشق ويرتق الفتق » وأن يستحضر نوعا من الأعشاب يدقّها ويخلطها مع لبن ومسك ويحفظها في الظل ثم يسحقها ويذرها على موضع الشق ، ثم يمرّ عليها بريشة من جناحها الميمون وسيم لها الشفاء ، ثم نرعت ريشة من جناحها وألقت بها إليه وطارت في السماء .

فأحضروا موبدا ماهرا نفذ ماأمرت به العنقاء واستخرج من خاصرتها ولدا مشرق الطلعة صورّه الخالق في أبداع صورة . وبقيت أمه على حالها مغشيا عليها يوما وليلة ثم أفاقت بعد ذلك فنثروا عليها الذهب والجواهر ثم قدموا الطفل إليها كأنه ابن عشر سنين ، فلما رأته تبسّمت ضاحكة وقالت « برسّم » أي خلصت ، فسُمّي الصبي « رسّم » ، وكانت له عشر مرضعات يمتص نخب ألبانهن حتى ترعرع . ولما بلغ ثماني سنوات صار كالنخل الباسق لاتطيق حمله دابة إلا الفيل لضخامة جسمه وثقل وزنه .

ولما بلغ منوچهر المائة والعشرين سنة دعا ابنه « نودر » ينصحه ويوصيه بأن يستعين بسام وولده زال إن ألمّت به مُلّة وقال له : اعلم أن هذا الغصن الذي تفرّع الآن من دوحة زال سيرهب بلاد الترك ويتوغّل في ديارهم مطالبًا بثأرك وينتقم لك ، ثم أسلم الروح .

## — ٥ — نشأة قورش

**وتمضي** الأساطير ممتزجة بالتاريخ مضيئة إليه من وثبات الخيال في أكثر الأحيان ، فثلبس الملوك ثياب البطولة وتضفي عليهم صفات الألوهية والإعجاز ، كما نرى في الأساطير التي تناقلتها الأجيال عن قورش الملك الأخميني ثم عن مؤسس الأسرة الساسانية .

يقول هيروdot إنه طلب إلى الناس سماع قصة قورش فرويت له في ثلاث روايات مختلفة أورد أقربها إلى المنطق في كتابه الأول . وهذه الرواية التي يسردها هيروdot رغم طرفتها وما ترمز إليه من معان تشير إلى طباع الفرس وتقاليدهم وأسلوب معيشتهم إلا أنها لاشك وليدة الخيال أيضا ، أو لعلها كانت شائعة ضمن القصص التي استمع إليها هيروdot ، فليس من المعقول أن تجرى أحداث هذه القصة التي ترسم صورة لانتقال العرش الإيراني من يد استياجيس آخر ملوك الميديين إلى قورش ملك الملوك الفرس الأخمينيين لسبب تاريخي بسيط ، هو أن قورش العظيم ( الثاني ) المقصود في هذه الرواية كان سابع الملوك في الأسرة الأخمينية .

يروى هيروdot أن استياجيس [ استياجوش ] قد تولى عرش الميديين بعد أبيه سياكساريس وكانت له ابنة تدعى ماندانيه ، ورأى فيما هو نائم حلما يصور نبعا قد انبثق من جوف ابنته وفاض حتى غمر آسيا كلها لا عاصمته وحدها ، فاستشار المنجمين من المجوس في تفسير هذا الحلم الذي ألقى الرعب في قواده ، فحذروه من أن خطرا كبيرا سوف يحيق به .

لذلك ما إن بلغت ابنته سن الزواج حتى أحجم عن عقد قرانها على أحد الأمراء الميديين وزوجها من «فارسي» من أسرة كريمة يُعد أدنى قدرا من «الميدي» المتوسط الحال ، وهكذا تزوج قمييز من ماندانيه ورحل بها إلى بلاده في إقليم فارس . ومالبت أستياجيس أن رأى حلما جديدا وكان كرمة تنمو

من رحم ابنته أظلت آسيا كلها ، فلجأ إلى المنجمين وأرسل إلى فارس يستدعى ماندانيه وطفلها عازما على قتل وليدها حين أنبأه المنجمون أن حفيده قورش سيحكم آسيا بدلا منه ، كما بعث في طلب أقرب الناس إليه وأخلصهم ويدعى هارپاجوس وأمره أن يذبح الطفل وهدده بعقاب شديد إن أخلف أمره ، وماكان في وسع هارپاجوس إلا أن يصدع بالأمر الصادر إليه فتوجه إلى زوجته يستشيرها فيما عساه أن يفعل بهذا الطفل فلا يلوث يديه بدمائه ويتجنب في الوقت نفسه عقاب الملك أستياجيس . وهداه تفكيره إلى أن أرسل في طلب ميثراداتس أحد رعاة ماشية أستياجيس ويسلم الطفل إليه لأن مراعيه كانت أنسب مكان يحقق غرضه فيه ، فهي تمتد فوق سلسلة من الجبال بالقرب من إكباتانا [همدان الحالية] يعيث فيها مفترس الحيوان ، وهناك يترك الطفل فريسة للوحوش . وما إن عاد ميثراداتس إلى بيته ومعه الطفل حتى سألته زوجته عن عمّا يؤرقه فأخبرها بالقصة فبكت حزنا على الطفل الجميل وقالت إن لم يكن ثمة بد من قتله فلتبدله بطفلها الذي كانت قد وضعت له لتوها ولتحفظ هذا الطفل الجميل ذو الثياب الموشاة بالذهب وحسبها أن وليدها سيُدفن في جناز ملكي . وتم لها ما أرادت ووضعا ولدهما في سلّة وأسلماه إلى حيوان الغاب ، وأرسل هارپاجوس تابعا أميناً ليشهد مصير الطفل فتحقق من موته وأبلغ مليكه بما كان من أمره .

وعندما بلغ الصبي قورش العاشرة من عمره كان يلعب مع بعض رفاقه الذين اختاروه زعيما لهم لقوة شخصيته ورجاحة عقله ، فراح يصدر أوامره ويحدّد لكل منهم وظيفة معينة فأطاعوا عدا غلام اسمه أرتيمبارس من أصل ميدي نبيل فاعتقله وعاقبه بجلده بالسوط . وماكاد أرتيمبارس يخرج من سجنه حتى ذهب إلى أبيه شاكيا ، فتوجه هذا من فوره إلى أستياجيس مستنكرا أن يلحق أحد الدهماء بابنه النبيل المحتد مثل هذه الإهانة ، فاستدعى أستياجيس قورش وسأله « كيف تجرؤ على أن تعامل ابن أحد النبلاء بمثل هذه الواقعة » ؟ فقال الطفل « لقد عاملته بما يستحقه يا صاحب الجلالة فلقد انتخبني غلمان قريتي بالإجماع ملكا بينا كنا نلعب ، عن اقتناع بأننى استحق هذه المكانة وكان أرتيمبارس نفسه أحد هؤلاء الغلمان الذين اتفقوا على انتخابي ، ولقد انصاع الجميع لأوامري عداه ومن نال جزاءه . فإن كان جزأى على ذلك أن أنال عقابا فإنى على استعداد لتلقيه » . وبينما الصبي يتكلم شك أستياجيس فيمن يكون هذا الغلام إذ كان يحمل قسمات وجهه نفسها ، كما كانت عباراته تنطق بنبل لا يتفق وسنّه اليافع . عندئذ طمأن الملك أستياجيس الصبي أرتيمبارس بأنه سيقتصص له ، ثم انفرد بالراعي ميثراداتس وضيّق عليه الخناق حتى اعترف له بما حدث . وإذ علم بالحقيقة استشاط غضبا وأرسل في طلب هارپاجوس ، الذى تردّد في مبدل الأمر ولكن مالبت أن أقر بالصدق خشية أن يكون الراعي قد اعترف بما حدث ، واعتذر بأنه ماكان ليجرؤ على أن يلوّث يديه بدماء حفيد الملك .

وصمت أستياجيس لحظة ثم أبلغ هارپاجوس أنه أعدّ له وليمة عشاء وطلب منه أن يرسل إليه فور بلوغه منزله ابنه وكان في الثالثة عشرة ، فامتّن هارپاجوس وصدع بالأمر . وماكاد ابن هارپاجوس يصل إلى القصر حتى أمر الملك بذبحه وتمزيقه إربا إربا وشوى بعض أجزائه وسلق بعضها الآخر . وعندما تم ذلك استدعى المدعويين وجلس مع ضيوفه يأكلون لحم الحيوان بينما لم يكن على مائدة هارپاجوس غير



لحم ابنه عدا الـيدين والقـدمين والرأس التي وُضعت في سلة مغطاة . وعندما بدأ أن هارپاجوس قد شبع سأله أستياجيس ، كيف وجد مذاق نصيبه من الطعام ، وما إن أجابه هارپاجوس بأنه استمتع به إيما استمتع حتى قدم له سلّة وطلب منه أن يكشف عنها ويتناول منها مايشتهي ، فتألك هارپاجوس نفسه وكم غيظه قائلاً إن مايفعله الملك دائماً هو الصواب ، ثم تناول بقايا ابنه وخرج بها لدفنها . هكذا كان عقاب أستياجيس لهارپاجوس . وظل الملك حائراً بشأن الغلام ، غير أن المفسرين قالوا له إنه طالما أن الغلام قد انتخب ملكاً بين الصبية فقد تحقّق الحلم ولا خوف على أستياجيس منه ، واستراح الملك لتفسيرهم واستدعى قورش وقال له : «لقد قادني حلم إلى أن أسلك معك سلوكاً فظاً ، ولكن حظك قد أنقذك من المصير الذي كنت قد أعددت لك . فلتذهب الآن إلى فارس وفي صحبتك ثلثة من الجنـد لحراستك ، وهناك ستلقى أباك وأمك الحقيقيين فهما ليسا ميثراداتس الراعي وزوجته» . وماكاد الغلام يصل إلى فارس حتى استقبله أبواه بترحيب شديد ، وعلم أثناء الطريق بالأحداث التي مرّ بها منذ ولادته حتى تلك اللحظة .

ولما شبّ قورش عُرفت عنه الشجاعة والإقدام وذاعت شهرته بين أقرانه ، وكان هارپاجوس ما فتىء يفكر في الثأر مما لحق بابنه على يد أستياجيس فأرسل إلى قورش يحرضه على التمرد ويعدّه بألا يلقي من جيوش الميديين أية مقاومة فسيبذل جهده كي ينصرف جنود أستياجيس عنه ، وأنه سواء ولى قيادة الجيوش أم وليها غيره من أمراء الميديين فسيمضى كل شيء لمصلحته فينتقم لنفسه من أستياجيس ويستولى على الحكم في فارس كلها ، وقام قورش بثورته وأخطأ أستياجيس فعين هارپاجوس قائداً لـجيوشه ، وانتهت المعركة بأسر أستياجيس ، غير أن قورش لم يقتله بل احتفظ به أسيراً في قصره .

## أسطورة هفتواذ وأردشير

**هام** الملوك الساسانيون وفي مقدمتهم شاپور الثاني<sup>(٤٨)</sup> وقباز الأول<sup>(٤٩)</sup> وخسرو الأول<sup>(٥٠)</sup> بصناعة الحرير هياما دفعهم إلى تزويد مصانعهم الملكية بفارس بعدد كبير من أمهر عمال النسيج السوريين ، ولم يكن ذلك فقط رغبة في توفير أكبر عدد من العمال مقابل أضال قدر من الأجور وإنما كان ذلك تدعيما لصناعة برع فيها الإيرانيون منذ أواخر العهد<sup>(٥١)</sup> البارثي حتى تحدثت الحكايات البارثية والساسانية عن الملك جمشيد الأسطوري بوصفه صاحب الفضل الأول في إدخال صناعتي نسج الحرير وسبك السيوف إلى البلاد .

وتثبت أسطورة الساحر الثرى هفتواذ الذي أعلن عليه أردشير الأول الساساني الحرب مابين سنتي ٢٢١ ، ٢٤١م وجود مدينة تجارية في إيران على الخليج الفارسي تحمل اسم كخاران<sup>(٥٢)</sup> . وتدين هذه المدينة — التي نمت قبل أردشير مؤسس الأسرة الساسانية — بئرائها إلى نوع معين من دودة القز يتميز بوفرة خيوطه فانهاالت الثروات على هذه المدينة وعلى مليكها التاجر هفتواذ . وتجعل القصة التي رواها الفردوسي بالشاهنامه من التاجر ساحرا ، ومن ناسجات الحرير ساحرات ، ومن الدود تئينا ضخما يكبر ثم يكبر يوما بعد يوم ، ثم تجعل من أردشير البطل في نهاية الأمر قاتل التئين .

(٤٨) ٣٧٩ — ٣١٠ م

(٤٩) ٤٨٨ — ٥٣١ م

(٥٠) ٥٣١ — ٥٧٩ م

(٥١) ترجع صناعة تربية دودة القز في إيران إلى الملك كانشكا ( ١٧٨ — ١٨٨ ) ملك بلخ الذي اصطحب معه إلى إيران بعد

انتصاره على الصينيين عددا كبيرا من صناع الحرير الأرقاء ، وأسس بالبنجاب مدينة صينية هي تشيناياتي أو جيناياتي .

(٥٢) ومعناها الحرفي منتجو الحرير . وهي في نسخة ورزر «كجران» ، وفي الطبري «كوجران» .

يقول الفردوسي في شاهنامته : « كان في بلاد فارس مدينة تسمى كخاران على ساحل البحر . وكانت ضئيلة المساحة تضيق بسكانها ، واعتادت فتياتها أن يوافين باب المدينة كل صبيحة ، فإذا اجتمعن سرن إلى سفح الجبل القريب يحملن مغازهن ، فيقبلن على الغزل حتى المساء ثم ينصرفن إلى مساكنهن . وكان في المدينة رجل سمى هفتواذ لأن له سبعة بنين وابنة تخرج كل يوم مع البنات إلى الجبل المذكور . وإذا بلغت المكان يوما سقطت تفاحة من شجرة في حجرها فقضمتها ، ووجدت بداخلها دودة فوضعتها في وعاء على هيئة المغزل وقالت : « لأغزلن اليوم على طالع هذه الدودة » .

فغزلت شيئا كثيرا من القطن فوق ماعهدته في نفسها وتفوقت على أترباها ، ولم يزل ذلك دأبها حتى أثرت من كثرة غزلها . وكانت تُطعم الدودة كل يوم قضمة من تفاح ، فقالت لها أمها يوما : كأن الجن يُظاهرك حتى تبيأ لك هذا الغزل الكثير . فأسرت إليها بأمر الدودة . وإذا علم أبوها بذلك تيمتوا جميعا بالدودة ، وجعلوا يعتنون بأمرها ويربونها حتى كبرت وضاق عليها وعاء المغزل فصنعوا لها صندوقا وضعوها فيه . وظهرت آثار بركتها على حال هفتواذ وأولاده فتزايد ثراؤهم يوما بعد يوم مما أطمع أمير المدينة في اغتصاب أمواله . واجتمع أهل المدينة مع هفتواذ ، وخرجوا على الأمير وتصدوا لقتاله ، فنشبت بينهم معركة أفضت إلى مصرع الأمير . واستبد هفتواذ بذخائره وأمواله ، وخرج من تلك المدينة ، وشيّد فوق قمة أحد جبالها قلعة حصينة تحوّل إليها بخيله ورجاله وأهله وولده ودودته . وحصن القلعة حتى أقام لها سورا من حديد ، ولما ضاق الصندوق على الدودة حفروا لها في الصخر حوضا بداخل القلعة وضعوها فيه وأوكلوا بها خدما وحراسا يطعمونها كل يوم قدرا من الأرز ، ويغذونها بالشهد واللبن حتى مضى عليها خمس سنوات فصارت من الكبر والضخامة في حجم الفيل ، واستشرى خبرها بين الناس فسُميت تلك الناحية كرمان<sup>(٥٣)</sup> .

واجتمع لهفتواذ جيش عظيم حتى كان بنوه السبعة يقودون عشرة آلاف فارس يكسرون بهم شوكة من ينهض لقتالهم من الملوك . فلما وقف الملك أردشير على حال هفتواذ ، زحف إليه في جيش عظيم كثيف دحره هفتواذ وأوسع قتلا وأسرا . وعاد من سلم من المعركة إلى أردشير يروى أبناء الهزيمة ، فالتهب غيظا وسار بجيشه قاصدا هفتواذ . ولما دنا بعضهم من بعض كادت الأرض تمور من كثرة الجند فقامت الحرب بينهم سجالا وجرت معركة طاحنة . وإذا أذنت الشمس بالمغيب كان أردشير قد تأخر وكان هفتواذ قد سدّ عليه منافذ الطرق جميعا مُضيقا عليه الخناق حتى بات جنده بلا طعام . فازتحل أردشير راجعا إلى فارس يطارده فرسان هفتواذ ، وقتلوا من أصحابه خلقا كثيرا ، وتفرّق الباقون موّلين الفرار صوب بلادهم . ولجأ أردشير في جماعة من خاصته إلى قرية ، فصادف رجلين من أهلها استدرجهما قائلا : في أي طريق أخذ أردشير ، وكيف عبر ؟ واسترشدهما عن الطريق فأرشدوه إليه ، ودعواه إلى ضيافتهما . فنزل أردشير ودخل إلى منزلهما فقَدما إليه طعاما ، وطفقا يحدّثانه ويلطفانه ويهوّنان عليه أمر هفتواذ ، مؤكدين له أن سلطانه سوف يخمد إن عاجلا أو آجلا .

(٥٣) كرم بالفارسية الدودة ، والجمع كرمان .

فعلق حديثهما بقلبه وكشف لهما عن نفسه ، وما لبثا أن وثبا وقبلا الأرض بين يديه ، وخاضا في سيرة هفتواذ واستيلائه على قمة الجبل مستكرين زهوه بياسه وسلاحه ، فقال الرجلان : أيها الملك إن الدودة التي استعلت بها أمر هفتواذ شيطان لا يقاومه أحد ، ولا يمكن الظفر بها إلا بالحيلة .

وسار أردشير من ذلك المكان في إثني عشر ألف فارس حتى بات على مقربة من قلعة هفتواذ . وأسلم جنده إلى أحد أمرائه وأوصاه بأن يبادر بإرسال طلائع الجيش ويثّ الجواسيس قائلا : أريد أن أحتال لقتل هذه الدودة فإذا أنبأك الديديان بأنه شاهد بالنهار دخانا وبالليل نارا فازحف بالجند حتى تنتهي إلى باب القلعة . ثم استحضر من القلعة دوابا وحملها بالثياب والجواهر والذهب والفضة وبقدر كبير من الحديد والرصاص والنحاس . واستصحب أردشير طائفة من ثقاته والقرويين اللذين استضافاه ، وتوجهوا نحو القلعة متكرين في زى التجار فصعد إليها بأحماله ورجاله وتستى له النزول عند حراس الدودة فادّعى أنه تاجر خراساني قد أتى بجملة من القماش والذهب والفضة والجواهر لبيع وبيّناح في المدينة على طالع الدودة . ثم عرض على الحراس أن يستضيفهم وأطعمهم وسقاهم حتى ثملوا وغمرهم النوم جميعا ، فنصب قدر الحديد وأذاب فيها ما كان معه من الرصاص والنحاس ، وقدمها إلى حوض الدودة على مثل عاداتهم في تقديم قدر الأرز إذا أرادوا إطعامها . وما إن فغرت فاها حتى أفرغ ما بالقدر في حلقها فانشقّ وسُمع عنه صوت هادر ارتج منه الجبل ، وبادر أردشير وأصحابه إلى الحراس السكارى فأعملوا فيهم سيوفهم .

وكان الديديان قد شاهد ارتفاع الدخان خلال النهار حين أوقد نار الضيافة فأبلغ القائد الذى زحف بالجند إلى القلعة فبلغوها مع إشراقة الصباح . ولما علم هفتواذ بوصول الجيش بادر إلى باب القلعة ، وحين رأى أردشير رابضا عنده توجّس خيفة واشتبك الفريقان حتى أسر أردشير هفتواذ وولده الأكبر شاپور ، فأمر بصليهما ورشقهما بالسهم ، واستولى على القلعة وذخائرها وكنوزها واصطفى البعض لنفسه ووزع ماتبقى على جنوده . ثم وهب ذلك الإقليم إلى القرويين وعاد إلى بلاد فارس ، وارتحل وسار منها إلى شهرزور ، ومنها إلى مدينة طيسفون حيث اعتلى العرش .

ويكشف لنا هذا التلوين الملحمي الذى أسبغه الفردوسي على الواقع عن سر ثروة أردشير التى مكّنته لثائر بسيط أن يعدّ جيشا جرارا ، وأن يُخضع لسلطوته عددا كبيرا من أمراء الفرس ، وأن يجسر على مهاجمة ملك البارثيين لينتزع منه امبراطوريته الشاسعة . ومن الثابت أن النسب الرفيع الذى ادّعه أردشير لنفسه بانتمائه إلى الأخميين ليس له سند من التاريخ ، فلقد اعتمد في موارده الاقتصادية على صناعة الحرير والاتجار فيه بعد أن قضى على أضخم مربّ لدودة القز في عصره . ولا يسع المرء إلا أن يتتسم أمام تلك الصورة الأسطورية التى وشّاه بها الفردوسي حين وصفه في شاهنامه بأنه قاهر التين ، فلم يكن ذلك التين في حقيقة أمره سوى دودة قز نهمة ظلت تبتلع أطنانا من الطعام حتى انتفخت وبدت في حجم المنطاد ، وإن كانت مصدر ثراء كبير<sup>(٥٤)</sup> .

(٥٤) انظر في هذا الترجمة العربية للشاهنامه التى نشرها وأكملها د . عبد الوهاب عزام .

وتمضي الشاهنامة في سرد قصص ملوك الفرس وأبطالهم في عرض شائق جذاب ، تتابعت على الإفصاح عنه أجيال من المصوّرين الفرس المسلمين في منمناتهم المصوّرة التي تزخر بها مخطوطات الشاهنامة المختلفة منذ عصر الإيلخانات ثم العصر التيموري ثم العصر الصفوي . وللقارئ أن يرجع إلى نماذج منها في الجزء السادس من هذه الموسوعة «التصوير الفارسي والتركي» .

اِهْصَات  
الْفَنِّ الْاِيرَانِي



## فنون سيالك وخورفين وحسنلو وأملاش

**الحضارة** الفارسية كما أسلفت قديمة ، ترجع في قدمها إلى ما قبل الميلاد بخمسة آلاف من الأعوام . فعلى مشارف الصحراء ، وإلى الجنوب من طهران حيث منطقة «سيالك» نجد أطلالا لمبان تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد ، وتدلنا تلك الأطلال على أن أهالي «سيالك» كانوا يبنون بيوتهم من اللبن ويطلون جدرانها من الداخل باللون الأحمر ، وفيما خلفوا ما يدلنا على أنهم وصلوا إلى صنع أدوا تهم المنزلية من المعادن . بعد أن كانوا ينجزونها من الحجر . كما أن ثمة ما يشير إلى أنهم كانوا ذوى ميول فنية أشبعوها بنحتهم من العظام تحفا دقيقة مختلفة ، كما عبروا عنها في صنع أوان من الطين عاجلتها نساؤهم بأيديهم قبل أن يبتدوا إلى دولاب الفخار في الألف الرابع قبل الميلاد . ومع ظهور الأواني الفخارية بدأت أولى مراحل الفن الإيراني ، إذ كانت هي وما اجتمع إليها من أعمال فنية بدائية نواة للفن الفارسي والميدي .

واتجه الفرس مع خطواتهم الأولى على طريق التطور نحو فصل المقابر عن المدن ، وكانوا يختارون لمقابرهم وهادا يحيطونها بالأسوار ، على حين كانوا يختارون لمدينهم الربوات العالية تشمخ عليها دورهم . وكما دلّتنا المساكن بأطلالها على شيء مما كان عليه القوم معيشة وحضارة ، فكذلك دلّتنا تلك المقابر على تعرّف المجتمع ببيئاته وطبقاته ، فقد رأينا قبور الأغنياء إلى جانب قبور الفقراء ، وهذه إن دلّتنا على شيء فإنما دلّتنا على أنه لم يكن ثمة نظام طبقي بمعناه الشائع . هذا إلى أن تلك الأدوات واللوحات المصورة للوجوه البشرية التي ضمتها تلك المقابر تمدّنا بصورة للعادات والتقاليد التي كانت سائدة حينذاك في «سيالك» . وعلى حين نرى تلك الأدوات قد صنعت من الحديد أو النحاس أو البرونز نرى الحلى وحدها قد صنعت من الفضة ، وليس من بينها ماهو مصنوع من الذهب ، مما يشير إلى أنهم لم يكونوا قد اهتموا إليه بعد . وكما حوت تلك المقابر هذا كله حوت كذلك أواني فخارية مختلفة ، من بينها كأس



من الفخار الأصفر الشاحب مزين برسوم وزخارف رمادية اللون تكشف عن خيال خصب وقدرة ملموسة على التحوير الزخرفي والمقابلة بين الخطوط الطولية والعرضية والمائلة في إيقاع متوازن يريح العين ، فقد اختار الخزّاف طيبة أوقفها على الشريط الأدنى للإطار منطلقا بقرنيها حتى بلغ بهما الحافة العليا للإطار ، وأثبت بهما تهشيرات مستعرضة احتلت مساحات مناسبة من الفراغ ، وأضاف شرائط رأسية ذات خطوط مستعرضة خلقت مع تهشيرات القرنين مقابلة نغمية في تلقائية وكأنها مدروسة ( لوحة ١ ) .

وثمة آنية فخارية قد نقش عليها بطريق الحفر شرائط زخرفية ، يتوسطها إطار يضم طائرا ينقر سمكة وقد طعم الحفر بعجينة بيضاء ( لوحة ٢ ) . وهناك إبريق كبير على هيئة طائر لَوْن منه جناحا وريشه وعينه ( لوحة ٣ ) ، ويظهر المدفق وكأنه منقار الطائر وبدن الإناء وكأنه جسده وأذنه وكأنها ذيله . والسبب الذي دعا الإيرانيين إلى استخدام صورة الطائر في مقابرههم ، هو أن موسم الأمطار يهل عادة في نهاية الشتاء فتعود أسراب طائر اللقلق التي هاجرت من الهضبة أثناء الخريف اتقاء برد الشتاء القارص قبل اعتدال الربيع بيوم أو يومين ، ومن ثم كان طائر اللقلق هو الحيوان الرامز للربيع منذ ثلاثة آلاف عام .

وفي سيالك — في الفترة ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد — وكذلك في غيرها من الجبانات الإيرانية السابقة للعهد البارتي كانت الإلهة اللقلق هي التي تمثل على هيئة محوّرة في شكل إناء من الطين المحروق تارة أو البرونز تارة أخرى . ولم يكن ماء تلك الآنية ماء عاديا بل ماء شهر «اردي بهشت» الذي يعنى العلامة أو الرمز [نيسان] ، ماء الأمطار التي تهطل قرب الاعتدال الربيعي ، وكان المتديّتون يجمعونها من نهر مقدس مرتلين شعائر معينة في شهر اردي بهشت . كما ضمت المقابر أوواني أخرى نقشت عليها رسوم حيوانات متعددة ( لوحة ٤ ، ٥ ) ، ولقد كان الرقش على الفخار هو الفن الوحيد الذي ظهر خلال القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

وثمة ظاهرة لها مغزاها نلاحظها في الوحدات الزخرفية التي تشيع على جوانب الأواني ، إذ نجد صدور الخيل جاثمة على جدران الأواني أو ناهدة عند مآخذ المدافع ، كما نجد عيوننا متفرّسة في الوجوه البشرية سواء ما كان منها مواجهها أو مجانبا ، وأقرب ماتكون إلى عيون الحراس الأيقاظ وكأنما هي ساهرة على ما يحويه الإناء المصنوع على هيئة طائر . وهذه الرموز لاشك كانت لها دلالاتها على ما كان عليه القوم من معتقدات ، فثمة إبريق عثر عليه في حفائر سيالك يحمل في صدره رقشا يحكى وجه امرأة ( اللوحة ٦ ) ، وقد عنى الفنان بجعل الوجه بيضيا ، كما عنى بتجويف العينين وشق الفم وإبراز الأنف وبخط الحاجبين وتصفيف الشعر . ولم تكن العناية بهذه المفاتن كلها عبثا فيما يبدو ، بل لقد كان ربطا بين تلك الصورة المثيرة التي حملتها أزمان ما قبل التاريخ للنسور الجارحة تهش جثث الموتى وبين تلك الصورة الودعة التي أحسّها فنان ذلك العصر ، فتمثلها في وجه امرأة لها كل هذه المفاتن ، ولعله في ذلك اهتدى إلى ما اهتدى إليه اليونان فيما سمّوه «الهاربي»<sup>(٥٥)</sup> . ومع أننا نفتقد ما يشير إلى هذا في

(٥٥) طيور وحشية مجنّحة لها رأس امرأة وجسد عقاب زوّدت أقدامها وأصابعها بمخالب حادة ، وكن ثلاثة أوفدتهن بچونو زوجة

النصوص الأدبية ، غير أننا نجد تأييدا له في شواهد فنية شبيهة ، مثل حوامل الأواني الجنائزية الأورارتية ، التي تحمل رسوما لنساء ذوات أجنحة ، ترمز لاشك إلى السلام والأمن .

والسمة التي تكاد تميز فن سيالك هي تلك الوحدة الجامعة بينه ، والتي تكاد تبدو الآثار جميعا معها متجانسة ، ويرجع الدارسون هذا التجانس إلى استقرار قبائل الميديين في تلك البقاع ، فهم لم يتحولوا عنها ولم يدخل عليهم فيها غيرهم . ونحن لا نجد مثل هذا التجانس الفني في منطقة «خورفين» التي كان أهلها دخلاء عليها ، والتي نزحت إليها عناصر غير فارسية . على أن الفن في خورفين على الرغم من فقدانه هذا التجانس يخالف الفن السيلكي ذا الطابع الحربي في أنه يتسم بطابع البيئة الزراعي ، إذ يتجلى الطابع الحربي السيلكي في دفن موتاهم بصحبة أسلحتهم وعدة أفراسهم . غير أن ثمة صلة بين الأواني في كلتا المنطقتين ، أعني منطقة سيالك ومنطقة خورفين ، فكلها ملونة بلون واحد : الأحمر أو الأسود أو الرمادي الداكن . وهناك ظاهرة تشير إلى خلاف بين تقاليد الكهان في سيالك وتقاليدهم في خورفين ، فعلى حين نجد كهان خورفين يمسكون بإبريق الماء المقدس الذي هو على هيئة طائر من ثقبين على جانبيه ، نرى كهان سيالك يمسكون تلك الأباريق من آذانها . ولعل عدول كهنة خورفين عن إمساك الأباريق من آذانها كما يفعل كهنة سيالك هو ما أحسه الفنانون في خورفين من صفة جمالية للأذان ، فحرصوا على ألا تحجبها أيدي الكهنة عن الظهور ( لوحة ٧ ، ٨ ) . ولكننا نجد بعد هذا تشابها بين الأباريق هنا وهناك لاسيما تلك التي تحمل مدافع معدنية ، فإننا نجدها في المنطقتين على هيئة منقار طائر ، وذلك بعد تقدم فن صهر الحديد .

غير أننا نجد «الكيرنوس»<sup>(٥٦)</sup> الذي يعد من النماذج الغريبة يمثل إطارا دائريا عريض الجدار مصنوعا من الفخار يعلوه إناء فخاري أو أكثر يضع فيه المتقربون إلى الآلهة قرايبنهم ، وقد تعلو الإناء أحيانا زخارف من طيور أو خلافاها .

كذلك يعد «الأسكوس» من أغرب ما ابتكره خزافو خورفين ، وهي آنية شكّلت على هيئة حذاء ، مما يرتديه الفرس في النقوش الخفيفة البروز بسوسه وتحت جمشيد<sup>(٥٧)</sup> «پرسپوليس» ، ولعلها تشبه الأحذية التي كان أهالي خورفين ينتعلونها ( لوحة ٩ ) .

ويبدو أن خزافي خورفين كانوا شديدي الولع بالابتكار ، فقد عثر على آنية يتشكل بدنها على هيئة المكعب ، وإن ظلت مستديرة التشكيل من حد الكتف حتى الفوهة ، وقد برز من كل ركن من أركان

چوپتر لاختلفا الطعام من فوق موائد فيثوس ملك طراقيا عقابا له على سمل عيون ابنيه ، وكن ينضحن بتنن يفسد ما يصل إليه .

(٥٦) Kernos هو مايقابل صندوق النور اليوم في الأضرحة يلقي فيه ماخف حمله وغلا ثمنه .

(٥٧) عند وصول العرب إلى قصر داريوش أطلقوا عليه اسم تحت جمشيد ، وذلك لما شاهدوا داريوش جالسا فوق عرشه في أحد النقوش البارزة . وإذا كان جمشيد ملكا أسطوريا عاش سبعمائة سنة قيل إنه هو من علم الإنسان كيف يوقد النار ويطهو الطعام ويرتدي الثياب ، أما پرسپوليس فهو الإسم اليوناني لعاصمة فارس .

بدنها الأربعة عند التقاء الكتف المستديرة بالبدن المكعب رأس أيل ، وزين البدن بشريطين علوى وسفلى  
رقشا بخطوط مائلة ، وحلى ماينهما بمثلثات ( لوحة ١٠ ) .

ونحن نجهل الكثير عن مصير الخزف الملون الذى عرفه الإيرانيون في عصر ما قبل التاريخ ، ومع  
ذلك يبدو أنه كان لهذه الصناعة نصيب ما حتى نهاية القرن السابع ق . م أى بعد قرنين من اندثار  
حضارة سيالك ، فقد عثر في أربع مناطق متباعدة ، تبلغ المسافة بين اثنتين منها أكثر من ألفى كيلو متر ،  
على هذا الخزف ، ومن بين هذه المناطق أذربيجان وسوزيان ولورستان وكردستان .

وفي أذربيجان وهى أولى هذه المناطق ، عثر عرّضا بالقرب من ماكو التى تقع في الشمال الغربي  
لإيران قرب الحدود التركية ، على كأس طقسية مصوغة في شكل حصان من الطين المحروق الخالي من  
الشوائب لامعة السطح لونه لون الآيل ، ولها فوهة عريضة مثبتة على ظهر الجواد ، وفي صدره ثقب  
صغير ينسكب منه السائل ، وزخارف باللون الأحمر تحيط بأشكالها خطوط سوداء . وعلى صفحتى  
الرقبة وشم زهرة الزنبق ، وهو علامة القبائل الرحّل التى تسم بها الحيوانات لإثبات ملكيتها لها .  
والتفت حول صدر الجواد أشرطة ثلاثة تتصل بميثة السرج — أى ظهرته — المحددة بوضوح على ظهر  
الحصان . ويظهر اللجام في مقدمة الرقبة ، وبدت المعرفة قصيرة الشعر ولكنها بارزة شأنها شأن العينين  
والعُدرة وكانت « العُدرة »<sup>(٥٨)</sup> عنصرا تقليديا في تصوير الحصان الإيراني . أما ميثة السرج التى غدت  
تقليدية لدى الأحميين فمكوّنة من جزئين يوحى كل منهما بمشهد صيد بينما توحي الزهور المنتشرة  
بالمناظر الطبيعية ، ويحاكى طرف ميثة السرج ذات الأهداب غيرة الأرض . ولم يعن الفنان بترتيب  
الحيوانات والطيور لكى يجعل منها صورة واقعية ، فمن البديهي أن تحلّق الطيور في الجوّ لا أن تظهر تحت  
أقدام الحيوانات المفترسة ، ومن البديهي أيضا أن يطارد الحيوان المفترس التيس لا أن نرى التيس يطارد  
الحيوان المفترس . غير أن هذا لا يحملنا على الحطّ من شأنه ، إذ لاشك في أن الفنان كان يسعى إلى  
التعبير عن الحركة وعن سرعة انطلاق الحيوانات . وعلى الرغم من أن مثل هذه المشاهد لا تمتّ بصلة  
إلى الواقع إلا أن هذه السمات تضيف عليها شيئا من النضارة التى تشد الأنظار ( لوحة ١١ ) .

وعلى حين كان الخزافون القدماء في الهضبة الإيرانية يشكّلون تماثيلهم الخزفية في كتل لاتستبين فيها  
قسماتها ولا تتميز فيها أعضاؤها تأثرا بما كان سائدا هناك من تقاليد ، فلقد كان المعدّون يشكّلون  
تماثيلهم المعدنية ليبرزوا القسامات والأعضاء . وهذه المحاولات الجمالية التى نشأت بدائية على أيدي  
المعدّين سرعان ما أفادت من الحياة الصاخبة حولها .

وإنا لنحسّ هذا جليا في ذلك التمثال البرونزي الصغير الذى يصور محاربا ( لوحة ١٢ ) ، فنحن  
نجد يديه محدّتين والأنف أشم مرهفا ومحجرى العينين خاويين — إذ كانت العينان تصنعان من مادة  
أخرى والشفنتين مضمومتين ، وإن لم يكن ثمة أثر لشارب فثمة خطوط دقيقة تحدّد لحية مستديرة . وعلى

(٥٨) الشعر المرسل على خدىّ الفرس .

حين نجد نصفه الأسفل قد تُرك عاليا وعورته مكشوفة نجد نصفه الأعلى تكسوه ترس واق ، وعلى الرأس خوذة من جلد عليها حلية على شكل نصف دائرة . وقد ترك مكشوف الأذنين اللتين تبدوان مسترختين ، وتمنطق بمنطقة من الجلد عريضة كانت تسمى «ميترا» تُبَت عليها ثماني قطع من البرونز . وأكبر الظن أن هذا التمثال يشبه تماثيل سيالك التي كانت تُشد إلى العنق ، إذ ثمة حلقة في مؤخرة الرأس الذى ترك ظهره مجوّفا ، ويؤكد هذا أيضا استواء الساقين كما هي الحال في وقفة العابد المصلّى ، غير أنه على الرغم من هذه الدقة في الصنع التى بدت في الساقين الملتفتين اللتين انشنت إحداهما فإنه لا يرقى إلى أكثر من مستوى النحت ذى البعدين . ويعدّ هذا التمثال على أية حال خطوة فنية أولى في الهضبة الإيرانية تبعثها خطوات على أيدي نحّاتى البرونز في منطقة لورستان ، إذ ظهرت أسلحة وسيوف وخناجر وسهام وحلّى على السروج كانت أبدع صنعا من تلك التى كانت تصنع في سيالك ، ولا يدفع هذا ماكان بين الصنعتين من عناصر مشتركة .

ولقد كان للحلى التى عثر عليها في مقبرة خورفين المكانية الأولى إذ كانت كلها من القار المكسو برقائق من الذهب منقوش عليها رسوم زخرفية ، منها أقراط هلالية كانت أكثر شيوعا ، غير أنها ما لبثت أن اتخذت بعد ذلك شكل رأس الإنسان ، ومنها دبابيس وعقود وأساور ، كثرتها على ضور الحيوان وقليل منها على هيئة الأقدام البشرية .

ولقد كان للمرأة في الفن التشكيلي نصيب ملحوظ ، فإذا هي تبرز في أكثر من شكل فني وفقا لشعون الحياة اليومية ، وكان من بين هذه الأشكال « الكارياتيد »<sup>(٥٩)</sup> التى كتب لها الشيع والرواج في لورستان قبل أن تتخذ شكلها المعماري في الفن اليوناني ( لوحة ١٣ ) .



وتكاد « حَسَنَلُو » الواقعة إلى الغرب من الهضبة الإيرانية التى كانت ذات مكانة ملحوظة تكشف لنا بآثارها عن التطورات الحضارية قبل الغزو الإيراني . فثمة مقبرة تضم إلى جانب المعدات الجنائزية المألوفة هياكل لجياد أربعة ، وأواني من الفخار مابين حمراء وسوداء تدل على ماكان لها من سبق للحضارة الإيرانية لاسيما حضارة « خورفين » . وعلى الأواني الجنائزية نشهد تجسيدا للحيوان الذى كانوا يعدّونه حارسا للماء فيصوّرون رؤوسه على ميزاب المدفق ( لوحة ١٤ ) . أما حلّهم فكانت تفوق حلّى سيالك وخورفين حجما وإتقانا ، عثر من بينها على أقراط عنقودية وعقود من الذهب . وثمة أوان فخارية تتصل بالطقوس الدينية ، لها عدة فتحات وميازيب على شكل رؤوس الطير يتصدرها شكل كاهن يؤدي الشعائر الجنائزية ( لوحة ١٥ ) ، وأخرى من البرونز تقوم حواملها على سيقان تنتهي بأقدام

(٥٩) الكارياتيد هي تماثيل الصبايا حاملات العتب في الطراز الأيوني الإغريقي .

آدمية منتعلة أحذية ( لوحة ١٦ ) . وكانوا يشكّلون الأواني أحيانا في صيغ الحيوان ، منها أسود متحفزة انتصبت ذيوها واكتست أجسادها برقش يعبر عن قوتها وبطشها وبرزت عيونها في محاجرها ( لوحة ١٧ ) .

ولعل أروع ما يعيننا من هذه الآثار الكأس التي كانت بين مقتنيات القصر المقام على قمة التل ، وهي كأس من الذهب الخالص عليها رقص يجسد أقاصيص دينية وأسطورية شبيهة بتلك التي شاعت في المناطق الممتدة من شرق الأناضول وشمالى سوريا إلى جبال زاغروس ، والتي يرجع عصرها إلى القرن التاسع قبل الميلاد ( اللوحة ١٨ أ و ب ) . وهذه الكأس تخالف في الكثير الفن الإيراني الذي استحدث فيما بعد ، وغير مستبعد أن تكون من صنع فنانيين عملوا عند أحد أمراء الولايات التي كانت تقع على أطراف الهضبة ، ولعل الحفائر الدائبة تكشف لنا عن مزيد مما يلقي ضوءا على تلك المرحلة الأولى من مراحل الفن الإيراني .



وهناك تحف ترجع إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد عثر عليها في الجنوب الغربي من بحر قزوين حيث منطقة أملاش ، منها أوان فخارية بديعة الصنع ، ومنها أوان من الذهب وأخرى من الفضة عليها نقوش أشبه بنقوش بلاد ما بين النهرين تمثل جيادا أصيلة تتحرك في زهو وخيلاء وقد انحنت أعناقها وأجسادها تتخطر وكأنها ترقص ( لوحة ١٩ أ و ب ) . وثمة آنية ذهبية ذات نقوش تمثل موضوعات آشورية أهمها اللاماسو [ الجنى الأشوري حارس مداخل القصور على هيئة ثور ] ، على الرغم من أن آشور لم تغز هذه المنطقة ( لوحة ٢٠ ) . وقد عثر في مارليك على آنية ذهبية ذات نقوش تمثل موضوعات آشورية وسكوزية ومانوية ومحلية ( لوحة ٢١ ) . ومن بين تلك الآثار أيضا عقود من الذهب حبّاتها تحكي رؤوس حيوانات . وفي هذا ما يوحى بما كان عليه سكان تلك المنطقة من ثراء . كما عثر في تلك المنطقة أيضا على تماثيل من البرونز ( اللوحة ٢٢ ) تمثل صور آدميين وحيوانات ، ومنها تمثال يمثل بقرة حدباء ( اللوحة ٢٣ ) لاشك أنها تستهوى فنانى عصرنا الحديث .

وكانت ثمة قبائل سكوزية خلال القرن الثامن قبل الميلاد تقطن منطقة بجيلان — التي تقبلت الحضارة الإيرانية — وإن كانوا مستقلين عنها سياسيا . وكانت تنقسم إلى إمارتين عاصمة الشرقية منها مارليك والأخرى في الغرب عاصمتها كالوراز . ويدل التاريخ المتأخر بجيلان على أنها كانت مع غيرها من البلاد المحيطة ببحر قزوين تتأخر دائما عن الانخراط سياسيا وحضاريا في الحكم السائد بالهضبة الإيرانية ، فقد استمرت على ولائها للأخمينيين بينما كانت الهضبة تحت سيادة البارثيين الأشكانيين ، وظلت بارثية حين كان خسرو الساساني يحكم الهضبة ، ثم تمسكت بولائها للساسانية بينما كانت الهضبة خاضعة للخليفة المتوكل ، ثم غدت بويهية بينما كانت الهضبة تقاوم تيمورلنك .

وقد بدأت الحفائر في مارليك الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين منذ عام ١٩٦١ ، ولم يعثر المنقبون على غير طبقة واحدة ذات ثراء وفير تضم خمسين مقبرة للأمراء ، ومدافن للملوك المحاربين تغص بأسلحة برونزية وخناجر وسيوف وجعبات وسهام وكذلك عدد آخر من مقابر الملكات والأمراء والأشراف ، بل وجبانات للخيال . وتكشف القطع التي عثر عليها على ما كان هناك من تبادل حضاري بين حسنلو وسيالك وزيفييه ، فقد امتدت علاقات سكان مارليك من قبرص في الغرب حتى نهر السند شرقا ، وظلت عيلام إلى جوارهم نبع الحضارة الكلاسيكية . ولا بد أن الثور المحدودب الظهر المصنوع من الطين المحروق والمركب فوق أربع عمجلات كان رمزا لأعمال الفلاحة ولموسم الربيع الذي يعم إيران بالعواصف المصحوبة بالبرق والرعد حين يهل الاعتدال الربيعي فترتفع الشمس في الثريا كوكبة النجوم التي يُرمز لها بالثور ذى الظهر المحدودب ( لوحة ٢٤ ) ، كما صنعه سكان مارليك أيضا على هيئة إبريق مفرغ ذى خطم كى يصبح «ماء الحياة» في تناول المتوفى ليعينه على أن يُبعث من جديد ( لوحة ٢٥ ) . وكانت مقابر مارليك زاخرة بالموضوعات الحيوانية المشكّلة من الطين المحروق ، فنجد خيلا برقيباتها وثيرانا محدودبة الظهر تجر محارث ( لوحة ٢٦ ) . وأغلب أدوات الطين المحروق بمارليك أوعية وأباريق للماء ذات مدافع في أشكال محوّرة كثيرة ، منها الدب الذى يشد القوس وينبثق المدفق من صدره ( لوحة ٢٧ ) ، ومنها الربة الدبّة التى تمثل زوجته ( لوحة ٢٨ ) . ويذكرنا الدبّ وزوجته بأساطير كانت لا بد وافدة من الشمال حيث لم يُعرف الدب في عيلام أو في بابل ، وثمة نماذج لحيوانات عديدة من الفخار من أبداعها شاة إنسيابية التكوين شامخة الوضعة ( لوحة ٢٩ ) ، وبعض الأدوات على هيئة مصابيح زيتية كانت توضع إلى جوار الموتى لتضئ لهم حين يُبعثون ، فيجدون أسلحتهم ومركباتهم وخيولهم إلى جوارهم كى يبدأوا حياتهم الجديدة في عالم الأطياف .

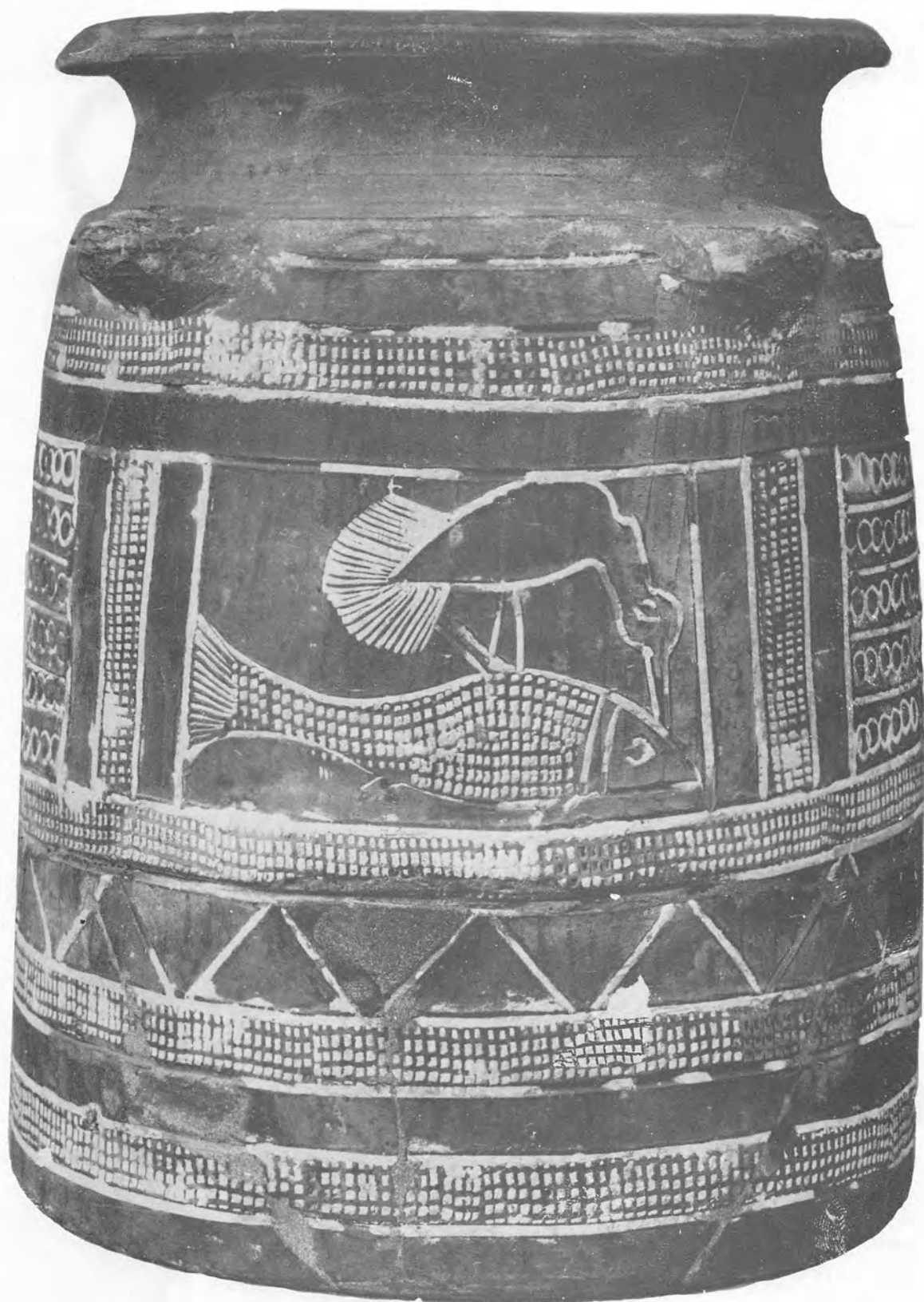
وكشف حفائر كالوراز بين عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٧ عن جبانات تنتمي إلى القرن الثامن ق . م يقال إنها كانت جبانة «الخالدين» ، وهو الاسم الذى أُطلق على الجنود المحترفين الذين تعود نشأتهم إلى قورش الثاني الذى جعل منهم جيشا لايفنى يختار أفراده من بين قبائل إيرانية بذاتها .

لوحة ١ آنية فخارية من سيالك  
(٣٢٠٠-٣١٠٠ ق.م) . بإذن من  
متحف طهران .



لوحة ٣ أبريق على شكل طائر من  
سيالك . بإذن من متحف طهران .

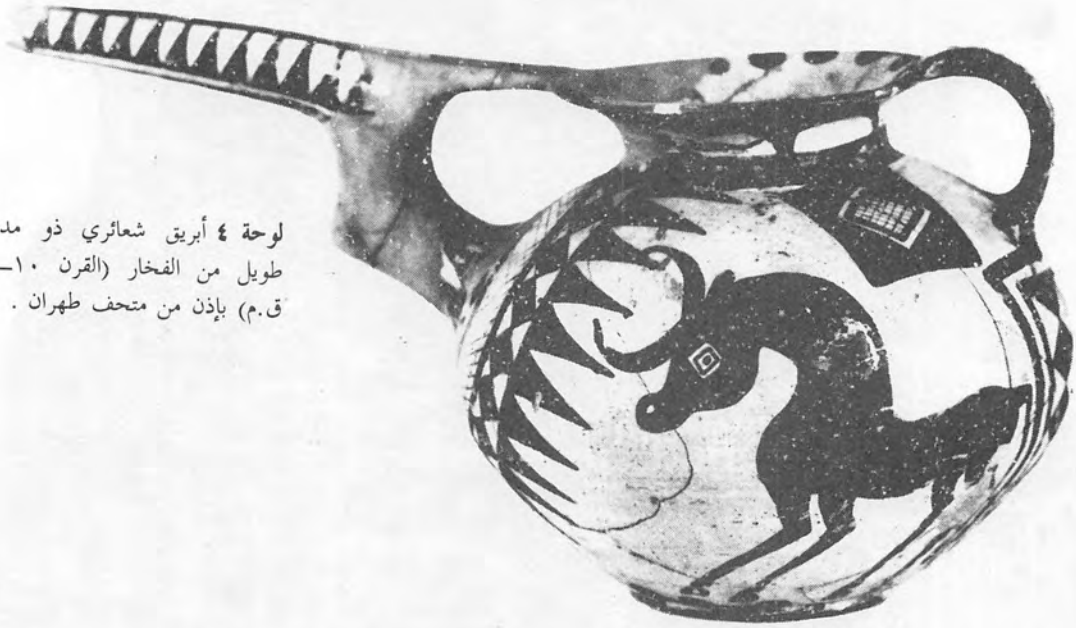




لوحة ٢ وعاء فخاري مزخرف بحزوز ومطعمم بعجينة بيضاء  
طائر ينقر سمكة . بداية الألف الثانية . بإذن من متحف اللوفر .



لوحة ٤ أبريق شعائري ذو مدفق  
طويل من الفخار (القرن ٩-١٠  
ق.م) بإذن من متحف طهران .



لوحة ٥ أبريق شعائري ذو مدفق  
طويل . مستهل الألف الأولى  
ق . م . بإذن من متحف طهران .



لوحة ٦ أبريق عليه نقش يحكي  
صورة امرأة . بإذن من متحف لوس  
أنجليس .



لوحة ٧ أبريق خزفي من خورفين .  
الألف الأولى ق . م . بإذن من  
متحف طهران .

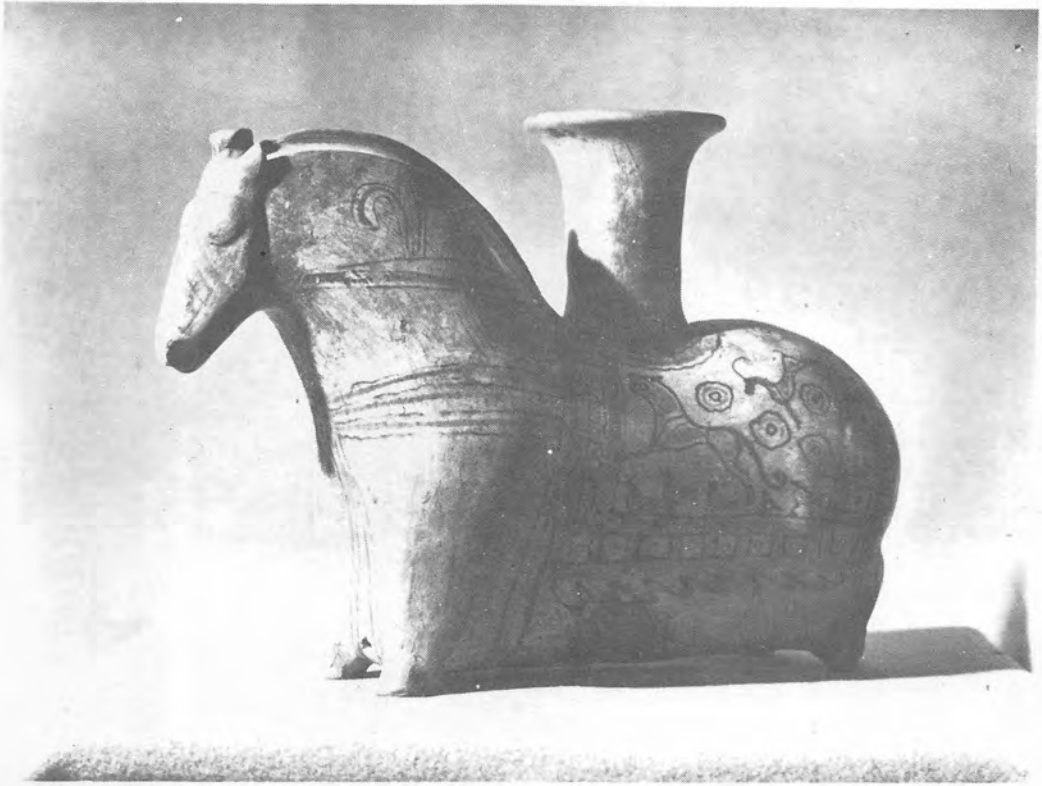


لوحة ٨ أبريق خزفي من خورفين .  
الألف الأولى ق . م . بإذن من  
متحف طهران .

لوحة ٩ آنية على شكل حذاء  
[أسكوس] عثر عليها بالأناضول .  
باذن من متحف اللوفر .



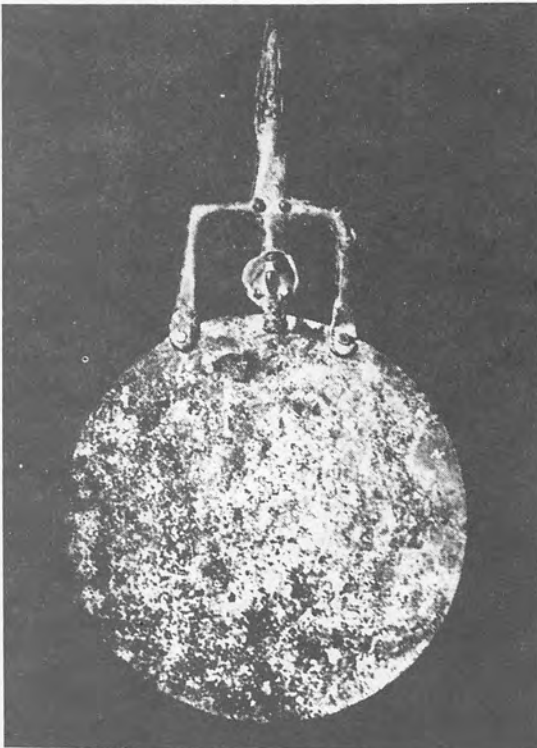
لوحة ١٠ آنية شراب من الفخار من خورفين برز من كل ركن من أركانها  
الأربعة شكل أيل . الألف الأولى ق . م . باذن من متحف طهران .



لوحة ١١ كأس شراب منقوش على شكل جواد من آذربيجان [ماكو]. القرن السابع ق. م بإذن من متحف طهران .

لوحة ١٣ تمثال برونزي لسيدة تحمل  
قرصا وكأنها الكارياتيد .

لوحة ١٢ تمثال برونزي لمحارب من  
خورفين .





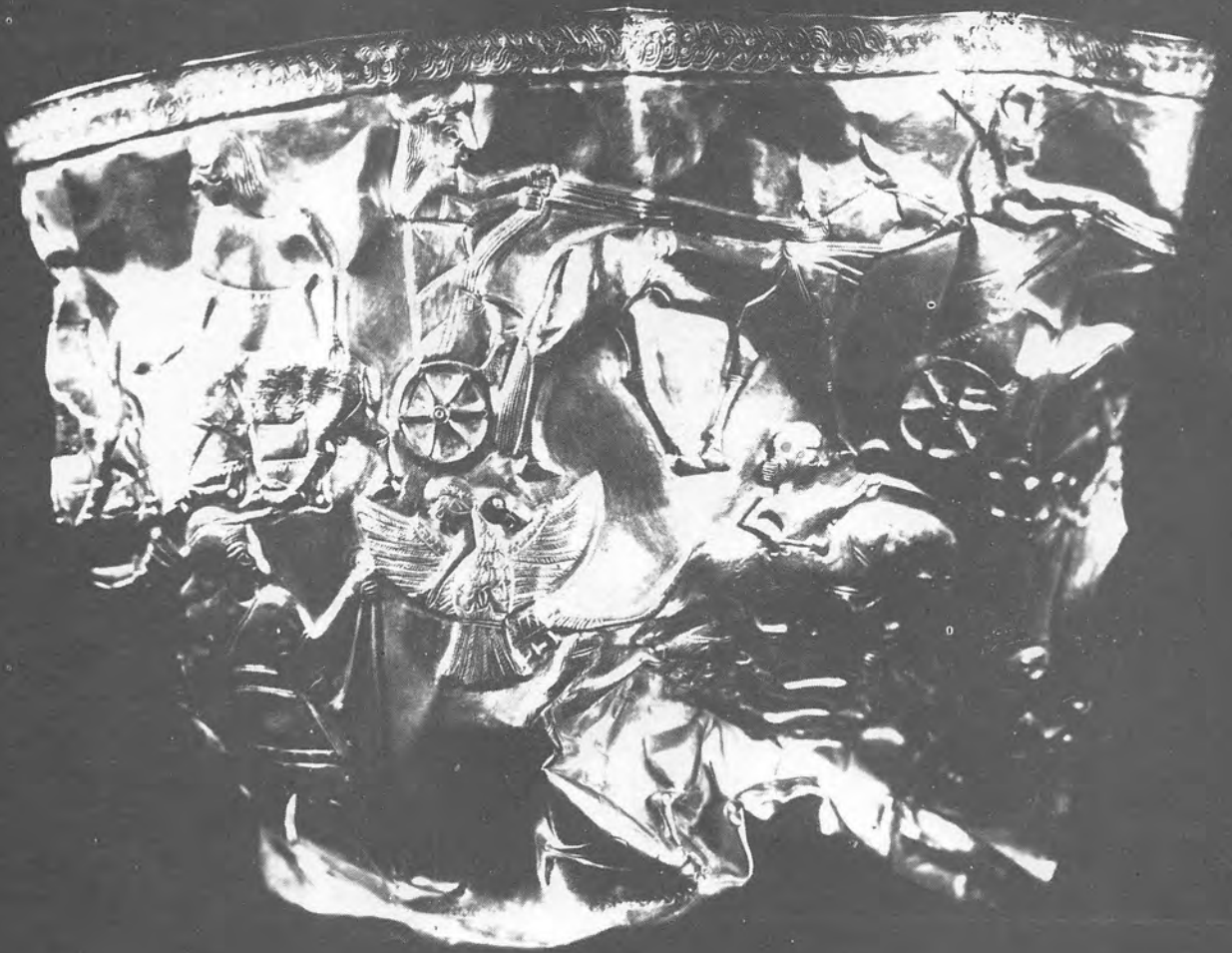
لوحة ١٤ وعاء شعائري من  
آذربيجان ذو ميزاب مدقق على شكل  
رأس حيوان من الفخار . القرن  
٩-١٣ ق.م بإذن من متحف  
طهران .



لوحة ١٥ آنية فخارية لصبّ الماء  
المقدس أثناء الطقوس الجنائزية فوق  
عيني المتوفى وأذنيه حيث يتلو الكاهن  
عبارة : «أصبّ الماء المقدس في  
عينيك لترى وفي أذنيك لتسمع» ، ثم  
تودع الأنية في المقبرة . من حسنلو .  
الألف الثاني ق.م . بإذن من متحف  
طهران .



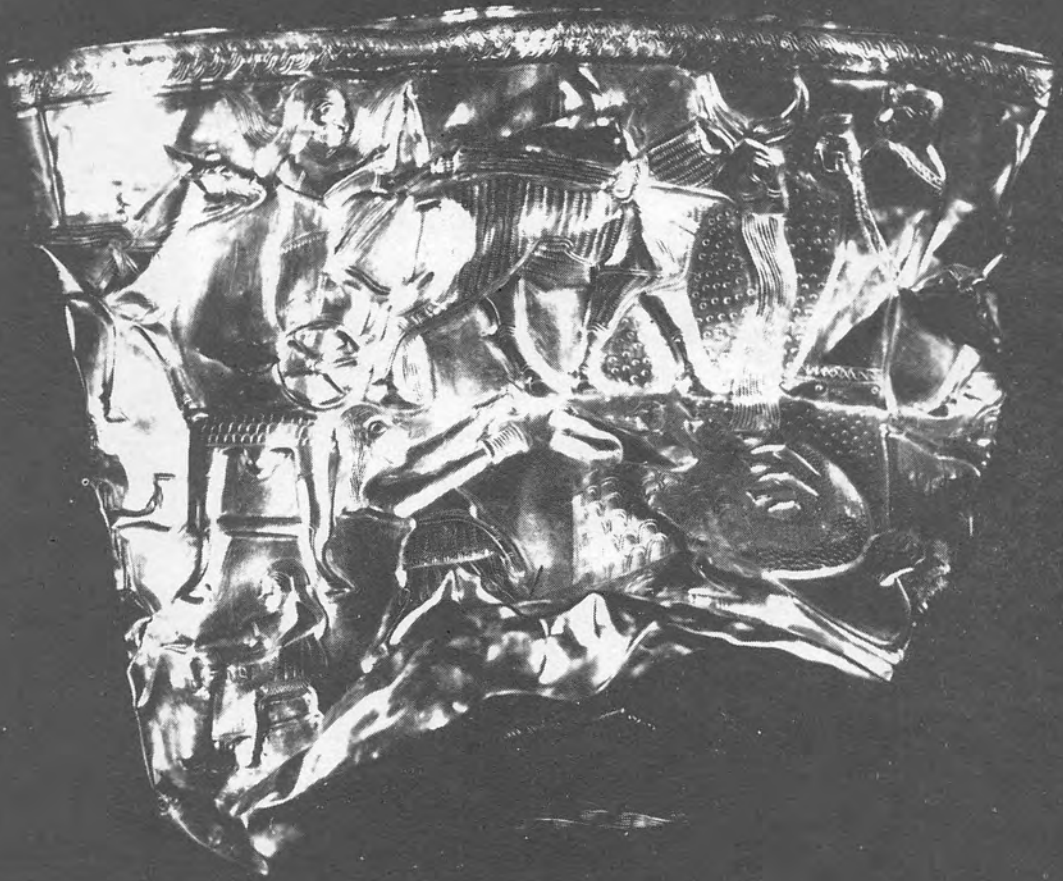
لوحة ١٦ آنية جنازية ذات قاعدة ثلاثية القوائم من البرونز .



لوحة ١٧ آنية برونزية على شكل  
أسد رايض من حسنلو . القرن  
التاسع - الثامن ق.م . بإذن من  
متحف اللوفر .

لوحة ١٨ ب وعاء كبير من الذهب  
الخالص . تفصيل .

لوحة ١٨ أ وعاء كبير من الذهب  
الخالص عليه منظر شعائري من  
حسنلو . القرن التاسع ق.م . بإذن  
من متحف طهران .





لوحة ١٩ أنية ذهبية عليها نقوش  
من مارليك . القرن التاسع - الثامن  
ق.م . بإذن من متحف طهران .



لوحة ١٩ ب أنية ذهبية من  
مارليك . تفصيل .





لوحة ٢٠ آنية ذهبية ذات نقوش تمثل موضوعات آشورية أهمها اللاماسو  
[على الرغم من أن آشور لم تغز هذه المنطقة من مارليك] . القرن التاسع  
ق.م .

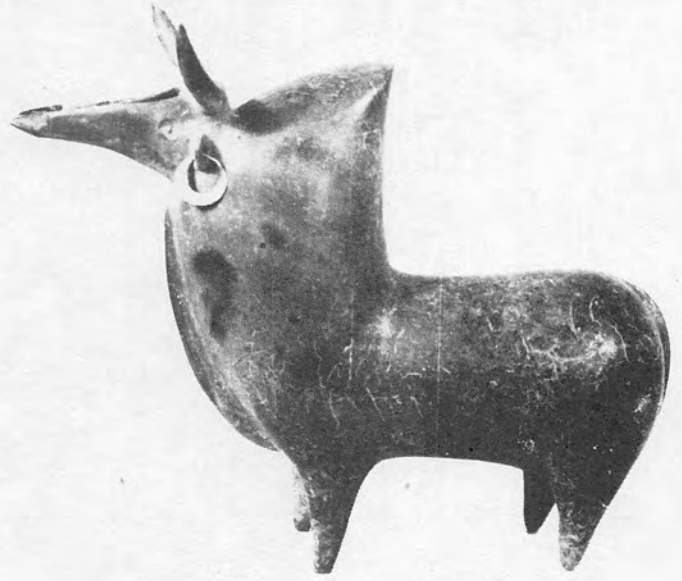


لوحة ٢١ آنية ذهبية ذات نقوش تمثل موضوعات آشورية وسكودية  
ومانونية ومحلية . من مارليك .

لوحة ٢٢ تمثال من البرونز لسيدة من مارليك . نهاية الألف الثاني -  
مستهل الألف الأول . بإذن من متحف طهران .



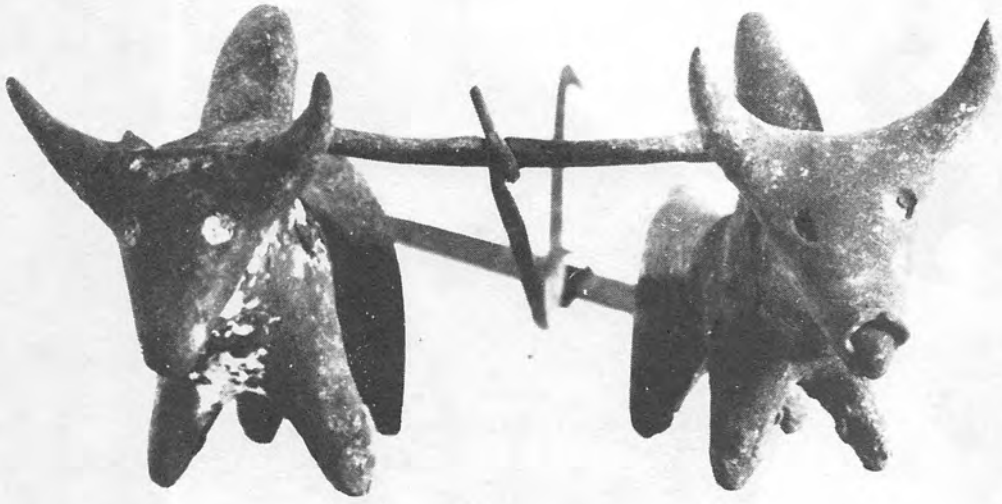
لوحة ٢٤ ثور محدودب مركب فوق  
عجلات من الفخار . من مارليك .  
نهاية الألف الثاني — بداية الألف  
الأولى ق.م . بإذن من متحف  
طهران .



لوحة ٢٣ بقرة حدباء من مارليك .  
الألف الأول ق.م . بإذن من متحف  
طهران .

لوحة ٢٥ آنية شعائرية على شكل ثور من الفخار . من مارليك . نهاية  
الألف الثاني وبداية الألف الأولى ق.م . بإذن من متحف طهران .





لوحة ٢٦ زوج من التماثيل لثيران تجرّ المحراث من مارليك . بإذن من متحف طهران .



لوحة ٢٧ أبريق ماء ذو مدفق على شكل دبّ . من مارليك ومن الفخار . بإذن من متحف طهران .



لوحة ٢٨ أبريق ماء ذو مدفق على شكل دبّة . من مارليك . من الفخار . بإذن من متحف طهران .



لوحة ٣٠ البطل الإله سراهوشا مصارع الحيوانات من البرونز . لورستان .  
وثن من النصف الأول من الألف الأول ق.م . بإذن من متحف اللوفر .



لوحة ٣١ دبوس ذو رأس على هيئة  
قرص الإلهة آشي أنحت الإله سراهوشا  
يكتنفها حيواناتها المكرسة لها . من  
البرونز . القرن الثامن — السابع  
ق.م . بإذن من المتحف الملكي  
للفنون والتاريخ ببروكسل .



لوحة ٢٩ شاه إنسيابية التكوين من  
مارليك . من الفخار . نهاية الألف  
الثاني وبداية الألف الأولى ق.م بإذن  
من متحف طهران .

## فن لورستان السيمري

**كانت** حياة سكان جبل زاجروس السيمريون حياة بدائة تتسم بانتقالاتهم الموسمية ، إذ كان منهم الرعاة الذين يخلفون الجبال في صحبة قطعانهم إلى الوديان بحثاً عن الكلاً ، ثم يعودون مرة ثانية إلى قراهم الواقعة على ارتفاع حوالي ألف وخمسمائة متر والتي يبقى بها الشيوخ والأطفال والمرضى والحرفيون من حدادين ومزارعين وغزالين وصانعي الملابس الجلدية حيث يعيشون في مجموعات منظمة تستضيف الرعاة وقطعانهم أثناء صعودهم إلى قمم الجبال أو هبوطهم منها . وما من شك في أن عدداً كبيراً من القطع البرونزية اللورستانية الشهيرة قد صنعت في هذه القرى بأعالي الجبال في نهاية الألف الثانية ق . م .

وكان الإنسان في هذا العهد السحيق يغزو كل الأحداث الخارجية العنيفة التي تقابله إلى قوى الشر التي كان يتصور أنها تتربص به ، فكان يخافها ويحاول تحصين ذاته من أذاها بجميع أنواع التمام والعوذات ، كما أحس أيضاً بحاجته لآلهة تحميه من هبوب العواصف وفيضان الأنهار وهجوم الحيوانات المفترسة التي كانت تهدده كما كانت تهدد بيته وقطعانته ومحاصيله الزراعية ، فراح يؤلّه بيته كما ألّه العاصفة والنهر والحيوان المفترس والحيوانات الأليفة منبع الخير ، والشجرة رمز الغابة . ثم بدأت تلك العوذات والتمام تتحول إلى منجزات فنية ، كما يتضح من الأوثان الصغيرة التي كانت تُمثل بدرجات متفاوتة من البدائية وعدم الإتقان امرأة عارية هي الربة الأم رمز الخصوبة والتماء .

وما لبثت صناعة صهر الحديد والمعادن أن ارتقت نتيجة لأسلوب الحياة الرعوية التي كان يحياها جزء كبير من سكان الجبال أصحاب قطعان الماشية والأغنام . وقد بات من المعتقد أن جبال إيران هي

مهد صناعة صهر الحديد حيث كان استخدام المعادن كشفا جوهريا تمخضت عنه الظروف المواتية الممثلة في تربة غنية بالحديد والمعادن والغابات الشاسعة الممتدة بجوار تجمعاتهم وقراهم . وهكذا عرف سكان الجبال الإيرانية خام الحديد ، وعرفوا كيف يستخرجونه ويشكلونه ، كما أمدتهم الغابات بالأخشاب اللازمة للوقود المستعمل في صهر المعادن ، وبدأت الأسلحة والأدوات الثقيلة تختفي شيئا فشيئا لتحل محلها أدوات أكثر رشاقة ودقة ، كما استخدمت المعادن أيضا في صناعة الحلّي . ومن العسير تحديد نوع العبادات أو الديانات التي سادت آنذاك ، لكن من المؤكد أن الإنسان كان يخشى المجهول وما سيأتي بعد الموت فراح يعبد عدداً من الآلهة كان الشعبان رمزا لبعضها .

وقد اكتشفت عام ١٩٣٨ في مقبرة بسهل زاجروس مجموعة من الأواني البرونزية والحديدية تنتمي إلى حضارة لورستان حيث كان يعيش السيميريون ، الذين كشفت بقايا مقابرهم بما أودعوا من أدوات عن انشغالهم بالحياة الأخرى وارتقابهم لها . وبين ما خلف هؤلاء السيميريون سكان لورستان كثرة من التماثيل البرونزية التي شكلها الفنانون لأغراض دينية ، ولعل أهمها هو تمثال «البطل مصارع الحيوانات» الذي يمثل «سراهوشا» إله العدل بوجهين بارزي العيون ، قد لف بذراعيه وحشين فغرا خطميها ، وشدّ على خصره حزاما يكتنفه رأسا ديكين واستبدل أطرافه السفلى بردفي الوحشين وسيقانها ، وفي ذلك إشارة إلى ما كان يعتقد من أن الديك كان إليه إيقاظ المؤمنين لأداء فروض العبادة . وقد يكون اسم سراهوشا مشتقا من كلمة «سروس» أي العقاب إشارة إلى محاكمة الأرواح بعد الموت. وقت مرورهم على صراط سنوات ( لوحة ٣٠ ) ، وهو ليس مروّضا للحيوان ولا هو سيدا عليها ولكنه إله لعب دورا بالغ الأهمية في أساطير إيران المزدية العتيقة<sup>(٦٠)</sup> .

كان الموتي يدفنون في رفقة بعض تماثيل الآلهة لاستدرا عطفها ، وكانت التماثيل تشكل من جزءين يمثل أحدهما الرأس ويمثل الآخر الجسد ثم يضم أحدهما إلى الآخر ، كما كانت رؤوسها تشكل أحيانا على هيئة أقراص كبيرة تتوسطها وجوه بارزة . وثمة كثير منها في كوى معبد شرخ دوم ، مثل الدبوس الذي نقشت على رأسه صورة الربة آشي أخت الإله سراهوشا ، وهي تتصدر التكوين مرتدية تنورة ذات أطواء دقيقة ممسكة في كلتا يديها بسعفة نخيل ويحيط بها من الجانبين أسدان ( لوحة ٣١ ) . وكانت عبادة الربة «آشي» أم الشعوب ورمز الإخصاب والإنسال قد انتقلت من آسيا الصغرى إلى سوسة . وما أكثر ما كانت تصور محاطة بإناث الأسود والوحوش ، وكان على النساء اللاتي ينشدن الإنجاب أن يحملن تماثلا لطفل وليد يضعنه في المعبد ( لوحة ٣٢ ، ٣٣ ) .

ومنذ منتصف الألف الثاني ق . م كان صناع لورستان يشكلون الدبابيس ذات الأقراص المستديرة التي يغطونها بالنقوش باستثناء وسطها الذي كان إما يترك خاليا من النقوش ، أو كان ينقش عليه رأس

(٦٠) الإله «سراهوشا» هو إله العدالة وكان يصور على هيئة مخلوق ملفق له أكثر من رأس مما جعله يأخذ أشكالا متباينة تطورت على مرّ الزمن ، تصور كل رأس من رؤوسه بوجهين تبرز في كل منهما عينان كبيرتان وأذنان مجوّفتان لإظهار قوته وبأسه . ويجسد سراهوشا مجموعة «ميترا الدينية» كما ترتبط عقيدته ارتباطا وثيقا بعقيدة ميترا الإله ذو الألف أذن وآلاف الأعين ، فذراعه هو الدبوس [المرأة] الذي يهوى به على الشياطين أعداء أمورا مزدا ، وقد اتخذ الديك حيوانا مكرّسا له .

حيوان ، وتتصل النقوش حول المركز حتى تبدو وكأنها منفصلة عنه . ومما لاشك فيه أن مثل هذه الدبابيس قد جاءت من الشمال عبر آشور وانتشرت في سائر أنحاء ما بين النهرين فترة قصيرة لم تلبث بعدها أن اختفت من أساليبها الفنية .

كما يبدو أن الدبابيس ذات الرسوم التي تمثل رؤوس آدمية لم تلق استحسانا في بادئ الأمر لأن مزخرفي لورستان كانوا يلاقون مشاق في نقشها ، لذا كانوا يؤثرون عليها نقوش رؤوس الحيوانات التي اعتادوا أن يتخذوا منها مادة للزخرفة ، غير أنها سرعان ما انتشرت ، كما تعددت أساليب زخرفتها وموضوعات نقوشها ( لوحات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ) .

وهناك تماثيل برونزية للإنسان رافعا ذراعيه باسطا راحتيه للأمام كما يفعل العابد الذي يقدم القربان للآله ( لوحة ٣٧ ) وكانت هذه التماثيل تدفن مع الموتي رمزا لخضوعهم للآله ، ولم يقصد منها أن تكون محاكية لصورة الميت بل كان القصد منها دلالتها وإن لم تحمل ملامح المتوفى . وجاءت التماثيل تصور الرجال والنساء عراة لا يحملون غير الحلى والأسلحة ، بيد أن عدد التماثيل البشرية كان دون عدد تماثيل الحيوان ، ويتجلى بوضوح اختلاف النهج الفني بين هذين النوعين من التماثيل . وثمة تماثيل فريد في نوعه وحجمه بمتحف طهران يمثل إله إحدى المناطق ويعدّ أضخم تماثيل منطقة لورستان حملة بعض المغيرين معهم على عاداتهم في ذلك الوقت ، وتشدنا إلى هذا التمثال محاولة التجديد لإضفاء لون من الاستدارة والتجسيم على الرأس والذراع مع ترك الصدر والجزء الأسفل من التمثال مسطحين ( لوحة ٣٨ ) . وقد شاركت لورستان خورفين في صنع مجموعات عديدة من تماثيل الحيوانات الصغيرة التي كانت تستخدم تمام تعلق في العقود أو السوارات ( لوحة ٣٩ ) أو الأحزمة ( لوحة ٤٠ ) . وعثر في مقابر لورستان على آلاف من تماثيل الطيور والحيوانات قد تكون إما رمزا لصفات الآلهة أو قد تكون مجرد صور لحيوانات القنص فحسب ، وعلى أية حال فلقد كان وجودها في المقبرة يعني سلامة وصول الميت إلى الدار الآخرة .

ومن بين منحوتات الحيوانات يبرز نقش التيس الوحشي اليقظ المتحفز الذي يعيش على جبال إيران ( لوحة ٤١ ) ، وإن يكن من العسير الجزم بأن فكرة تشكيل مثل هذه الحيوانات بقوادمها المزدوجة قد نشأت أول منشآت في جبال لورستان ، لأن تشكيل مثل هذه الحيوانات المزدوجة القوائم قد عرف في أوروبا وفي القوقاز وفي الهند أيضا . غير أن نحت هذه الحيوانات في محارف لورستان قد يكون الطريق السليم الذي ينتهي بنا إلى أصول تيجان الأعمدة الأخمينية المشكّلة من مقدمتى حيوان ، والتي تسلت إلى العمارة الملكية ثم انتشرت حتى بلغت إيران والهند شرقا وبحر إيجة غربا مما يردنا إلى النظرية القائلة بأن تصميم تيجان أعمدة سوسة ونحت جمشيد «برسيبوليس» مستمد من مملكة «عيلام» .

كذلك يوحى التطلع إلى برونزيات لورستان بتعرّف المنابع التي نهلت منها محارف البدو السيميريين والميديين الذين استقروا في الجبال . وما من شك في أن مشاركة عيلام وبابل وأشور وأورارتو خاصة كانت مشاركة بناءة ، وحسبنا أن نشير هنا إلى النهج الفني الجديد الذي يشقّ محجر عين الحيوان إلى



نصفين ، فليس هذا النهج من صنع البدو وإنما يعزي إلى مملكة أورارتو .

وإذا كان الشعب السيمري قد اعتاد دفن الجياد مع أصحابها عند موتهم فقد استبدل أهل لورستان بهذه الجياد أعتة تصنع خصيصا لتوضع تحت رأس الميت حتى تضمن له الخلود ، وقد عثر في إحدى المقابر على لجام من البرونز يمثل شخصا يتوسط صهوة حيوانين وقد أمسك بخطميهما الفاغرين ( لوحة ٤٢ ) .

كذلك كانت البلطة تدفن مع الموتى في مقابرهم ( لوحة ٤٣ ) مما يرجح بأنها كان ذات قيمة رمزية جنائزية . وتشدنا من بين هذه البلطات واحدة من البرونز شكلت إحدى حراها الخمس على هيئة عقاب ذى منقار جلي ، كما نقش فوق نصلها شخص خرافي يرتدي قلنسوة ويحتضن سمكة ضخمة ترمز إلى الإله إيا الذى كان يعبد في ما بين النهرين ، كما قد ترمز أيضا إلى الإله داجون معبود الكنعانيين ( لوحة ٤٤ ) . ولقد صنعت مقابض السيوف والخناجر من الخشب والعاج والفضة وازدانت بنقوش محفورة ( لوحة ٤٥ ) ، كما أخذ الدرع شكل رأس الدبوس المستديرة وعلقت على جدران المعابد لاستجداء عطف الآلهة .

ومن أبداع حلى لورستان شريط الجبهة المصاغ من رقائق الذهب أو الفضة المزدانة بمشاهد الصيد ، والدبابيس التى كان يعلق اثنان منها متقابلين في مستوى المنكبين يحمل كل منهما حلقة تربط بالأخرى بسلسلة دقيقة على النحو الذى ظهر عند اليونان بعد ذلك ، كذلك كان مسنن الأسلحة لاغنى عنه في عصر الأسلحة البرونزية ، لذا صُنعت منه الأشكال المختلفة وشكلت مقابضها على هيئة حيوانات أو أشخاص بعناية شديدة ، إذ كانت تعد من أدوات الزينة بالنسبة للرجال ( لوحة ٤٦ ، ٤٧ ) .

وتدلنا بعض الأوعية التى عثر عليها بمقابر لورستان على تأثير قوى بالفن الأشوري ، وهى وإن بدت آشورية الموضوع فمن العسير أن نقطع بأنها آشورية التنفيذ ، فنحن نعلم أن الأشوريين كانوا يستأجرون عمالا — ولا سيما صناع المعادن — من البلاد المجاورة ، ولذا نستطيع الزعم بأن محارف لورستان كانت تضم صناع برونز عملوا من قبل بمحارف آشور . ويفسر لنا هذا الموضوعات المعالجة على الأوعية اللورستانية التى ظهر فيها أثر الصنعة المحلية التى غيرت ملامح الأشخاص كما أضفت الرقة على الثياب والأسلحة ( لوحة ٤٨ ، ٤٩ ) . كذلك عثر في لورستان على إناء من عجينة الزجاج أصفر اللون مزدان بأنصاف دوائر سوداء متراسة مما يؤكد تأثير مصر المسلم بانتشار حضارتها على شواطئ البحر المتوسط منذ بداية القرن الثامن قبل الميلاد . وليست ثمة حضارة قديمة تركت لنا مثل هذا القدر من الأدوات المعدنية المتنوعة الأشكال . وما كان لنا قبل هذه الكشوف أن نتوقع لهذه الهضبة الصخرية الجرداء مثل هذا المستوى الفني الراقي الخلاب .

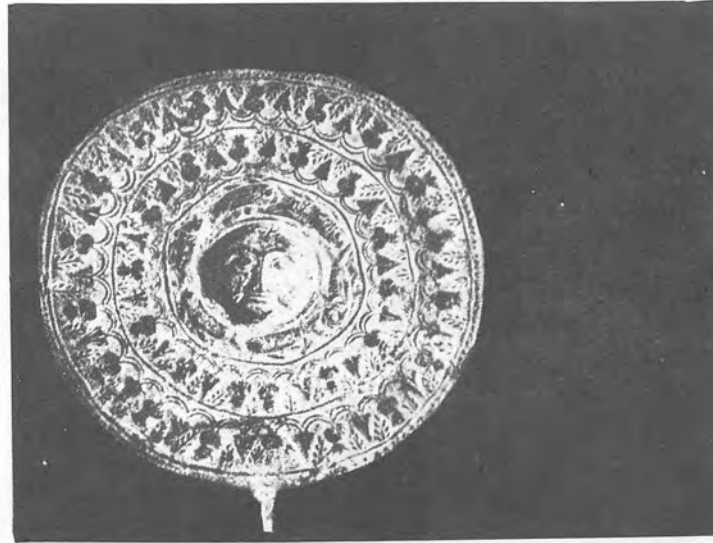
لوحة ٣٢ دبوس على هيئة قرص .  
القرن الثامن - السابع ق.م .  
مجموعة خاصة

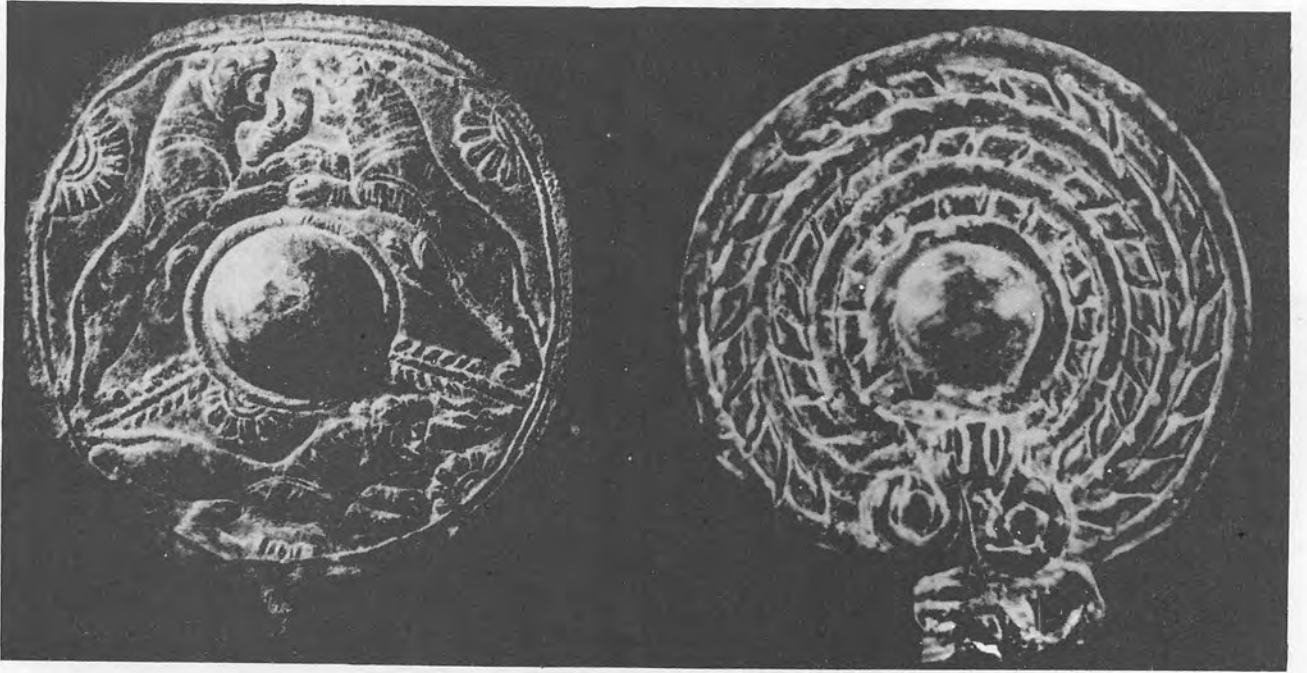


لوحة ٣٤ دبوس من البرونز على  
هيئة قرص منقوش عليه رأس آدمية  
تحتل وسط التكوين وتحيط بها  
الزخارف . من لورستان . بإذن من  
متحف اللوفر .



لوحة ٣٣ دبوس من البرونز على هيئة قرص . القرن ٧ أو ٨ ق . م . مجموعة  
خاصة .





لوحة ٣٥ دبوس على هيئة قرص  
زخرفت مساحته بالنسبة لمحور  
الدبوس لا بالنسبة لوسطه . من  
البرونز . بإذن من متحف اللوفر .  
لورستان .



لوحة ٣٦ دبوس على هيئة قرص من  
البرونز تزينه أشكال الأسود . بإذن  
من متحف اللوفر . لورستان .

لوحة ٣٧ تمثال عابد من البرونز .  
لورستان . القرن ٨ - ٧ ق.م .  
إذن من المتحف القومي للفنون  
الشرقية بروما .



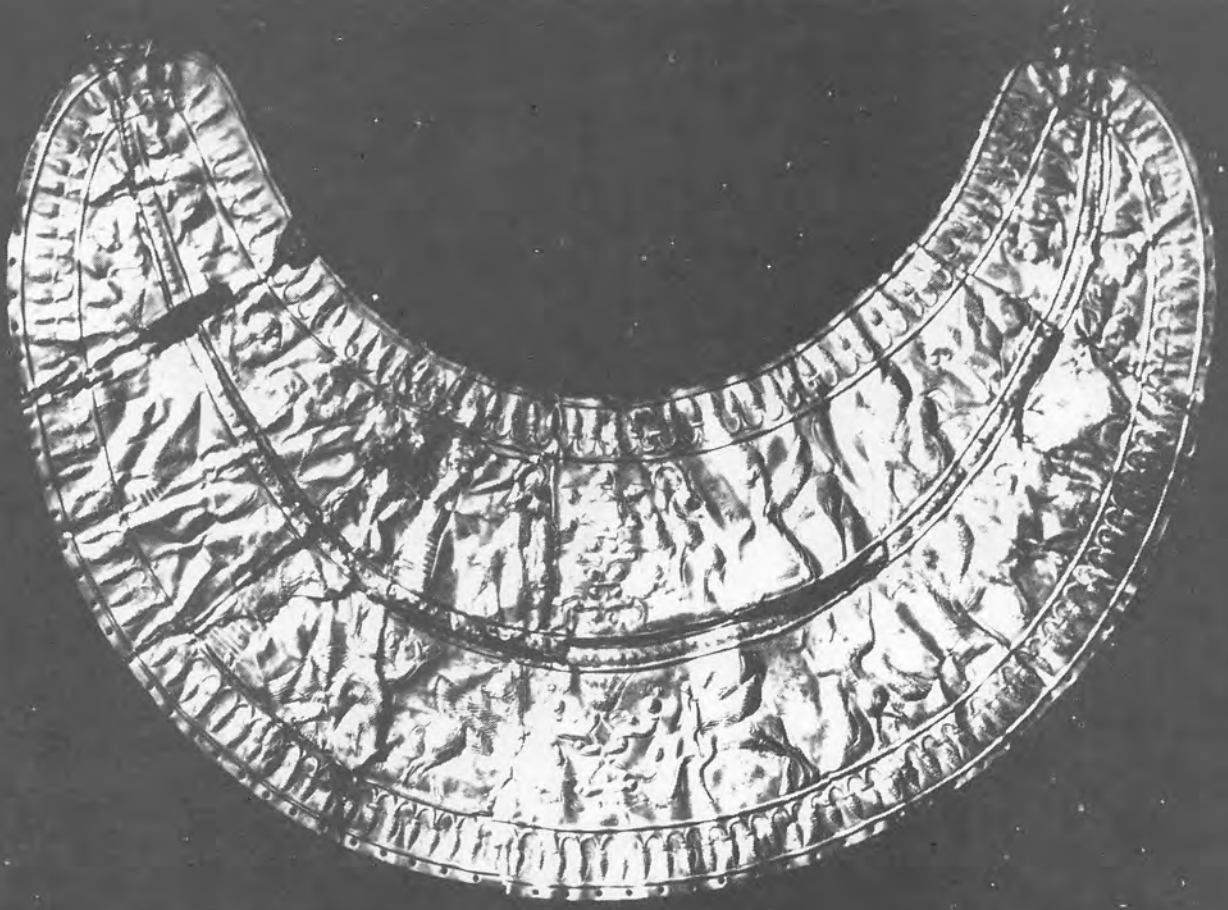
لوحة ٣٨ تمثال إله محارب من البرونز . لورستان . القرن ٨ — ٧ ق.م .  
بإذن من متحف طهران .



لوحة ٣٩ سوار عريض من الإلكتروم . من زاغروس . مستهل الألف  
الأول ق.م . بإذن من متحف اللوفر .

لوحة ٤٠ زخارف برونزية فوق حزام جلدي . منظر قنص . لورستان . النصف الأول من الألف الأول ق.م . بإذن من متحف  
اللوفر .





لوحة ٤١ رقية من زيفيه ذات نقوش . النصف الأول من الألف الأول . بإذن من متحف طهران .



لوحة ٤٢ لجام من البرونز .  
لورستان . القرن ٧ ق.م . بإذن من  
متحف اللوفر .



لوحة ٤٥ مقبض خنجر من الفضة  
ذو كرة شبه دائرية منقوش عليها  
رسوم حيوانات . لورستان . القرن  
٧ - ٨ ق.م . بإذن من المتحف  
البريطاني .



لوحة ٤٤ بلطة من البرونز ذات  
ماسورة وصل ، تحلت بأطراف مدببة  
ورأس عقاب ، ونقش على النصل  
صورة شخص يحمل سمكة بين  
ذراعيه . لورستان . القرن ٨ - ٧  
ق.م . بإذن من متحف طهران .

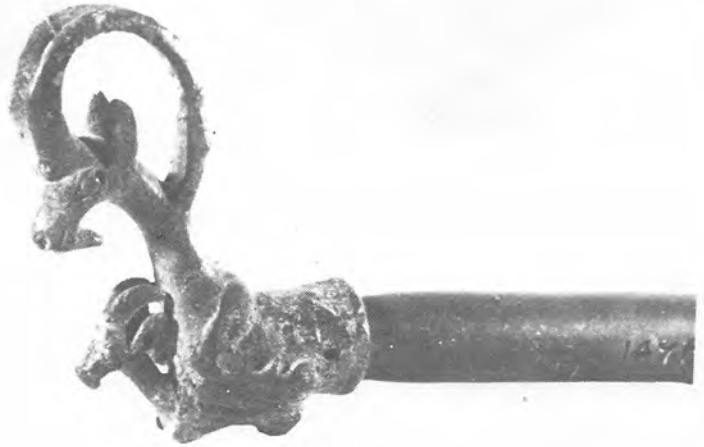


لوحة ٤٣ بلطة من البرونز .  
لورستان . أواخر الألف الثاني ق.م .  
بإذن من متحف طهران .



لوحة ٤٦ مسنّ من البرونز مقبضه على شكل وعل . لورستان . الألف  
الأول ق.م . بإذن من متحف طهران .

لوحة ٤٧ مسنّ من البرونز مقبضه على شكل رأس آدمي . لورستان .  
الألف الأول ق.م . بإذن من متحف طهران .





لوحة ٤٩ سطل شعائري من البرونز  
ذو رسوم حيوانية . لورستان . القرن  
٧ - ٨ ق.م . بإذن من متحف  
طهران .



لوحة ٤٨ سطل شعائري من  
البرونز . لورستان . النصف الأول  
من الألف الأول ق.م . بإذن من  
متحف اللوفر .

فرانك الميدين





## حضارة المدين

**أشرفت** حضارة المدين منذ امتدت امبراطوريتهم حتى آسيا الوسطى بعد غلبتهم على الأشوريين خلال القرن السابع تحت قيادة سياكسارس بن قشتاريتى . وتتكون مقابر المدين المنحوتة في الصخر خلال هذا العصر من رواق خارجي ذى أعمدة مستديرة منتصبة فوق قواعد ، ومن غرفتين إما متابعتين أو تعلو إحدهما الأخرى ( لوحة ٥٠ ) .

ولم تبلغ معارفنا عن الفن المعماري الميدي حداً ذا بال ، وما بين أيدينا غير مقابر صخرية نحتت في جبال كيزپاكان وساكاغاند هي التي تلقى بعض الضوء على عمارة هذا العهد ، وينتهي الدارس لها إلى نتيجتين : أولهما المشاركة السكوذية «السقيشية» ، وثانيتهما ذلك الأثر الملحوظ للورستان . فمقابر كيزپاكان تشبه مقابر السقيثيين ، إذ نجد فوق الأعمدة الملتصقة بالجدار التي تحمل سقف المدخل ثلاث جامات مستديرة ذات نقوش خفيفة البروز لعلها ترمز إلى أهورا — مزدا ، وميترا ، وأناهيتا ( لوحة ٥١ ) .

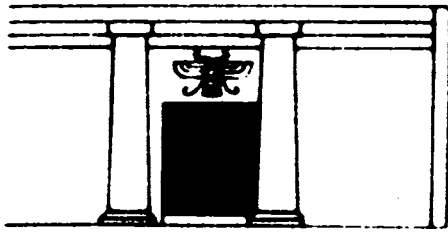
وتم قبران في ساكاغاند الواقعة جنوب بيستون على الطريق الذي يخترق لورستان والمتجه نحو سهل سوزيان يوحى منظرهما بأنهما كانا مخصصين لجمع عظام الموتى ، يعلو أحدهما نقش ذو أسلوب محلي إلى حد ما ، وتشبه وقفة الشخصية الرئيسية وقفة العابد للورستاني ، أما رفيقه الأقصر قامة والواقف إلى الجانب الآخر من ركام حرق الجثث فقد رفع ذراعيه مولولاً بالحركة المألوفة عن تماثيل لورستان الصغيرة ( لوحة ٥٢ ) .

وميديا هي موطن المدين ، وهي الاسم القديم للطرف الشمالي الغربي من إيران الذي يضم الآن آذربيجان وكردستان وجانبا من كرمنشاه وكانت عاصمتها إكباتانا [همذان الحالية] . وفيما بين عامي

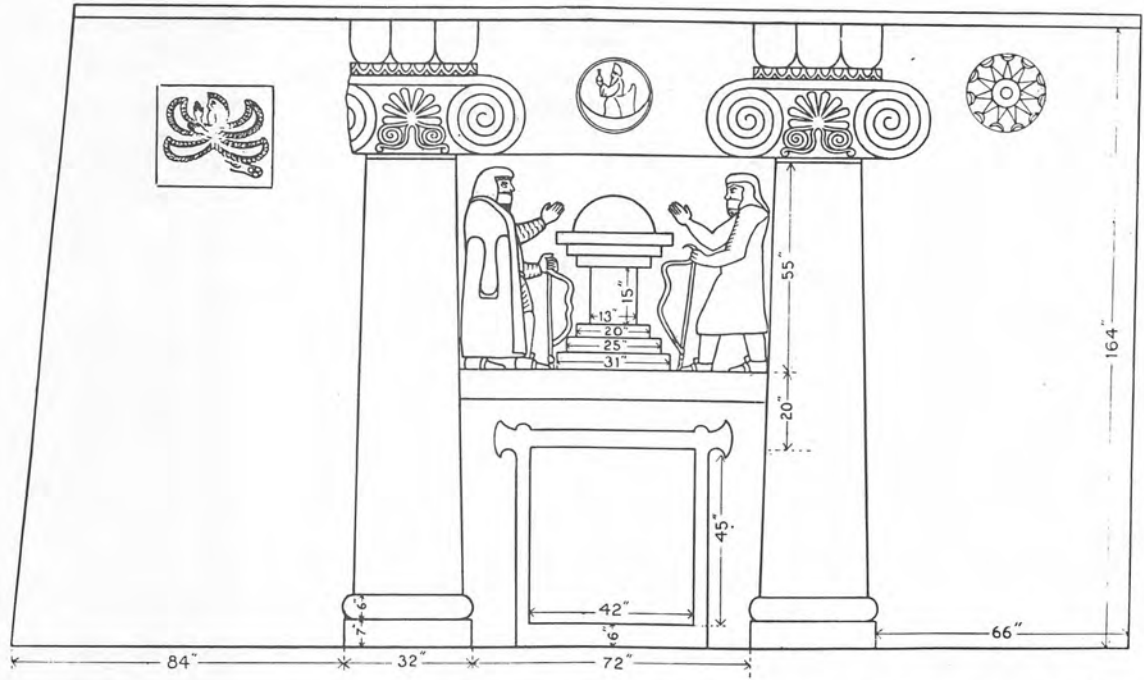
٦٨١ و ٦٦٩ ق . م زحفت القوات الأشورية إلى وسط إيران سعياً وراء الاستيلاء على خيل الجيش الملك الأشوري أسرحدون الذي انتهى به الأمر إلى عقد تحالفات تبعية مع عدد من الحكام الميدين وغير الميدين بهدف الحيلولة دون قيام مملكة ميديّة موحّدة ، غير أن سياكسارس بن قشتاريتى نجح عام ٦٢٥ ق . م في لم شمل العديد من القبائل الميديّة الناطقة باللغة الإيرانيّة وبعض العشائر السكوزيّة وأقوام المانّا من غير الإيرانيين في دولة موحّدة . وإذ كان على علاقة حميمة مع بابل ومع السكوزيين فقد استولى على آشور في ٦١٤ ق . م . ومالبت بعد عامين بعد أن تحالف مع نابو بيلاصر البابلي أن اقتحمت قواته نينوي عاصمة آشور ، ووزع الحلفاء أقاليم آشور فيما بينهم . وكان من نصيب ملك ميديا شطر كبير من إيران وشمال آشور وأجزاء من أرمينيا حيث كانت تقوم من قبل مملكة أورارتو . والمعروف أن التنظيم الداخلي للامبراطورية الميديّة كان يشبه إلى حد بعيد تنظيم آشور .

ومع ثورة قورش الثاني ملك فارس على سيّده الميدي الملك أستياجيس بن سياكسارس في عام ٥٥٣ وانتصاره عليه في عام ٥٥٠ ق . م خضعت ميديا لدولة الفرس الأخمينيّة واحتل أهلها بين أقوام الامبراطورية مرتبة متميزة تلى الفرس مباشرة وتقلد الكثير من أشراف الميدين مناصب الدولة الكبرى كالولاء وقادة الجيش كما أخذ الملوك الأخمينيون بقواعد البلاط الميدي . وإذ لم يعثر بعد على أية وثائق ميديّة مدوّنة أصبح الحديث عن الحياة الروحيّة والاقتصاديّة بين الميدين مجرد ضرب من التخمين .

ومع غيبة الآثار الميديّة المحددة الهوية يتعذر الخوض في خصائص الفن الميدي وإن كان الواضح أنه كان فنا تلفيقياً . وعلى غرار السكوزيين وأقوام لورستان كان الميديون مولعين بالأسلحة المزخرفة والأواني المشكّلة من المعادن الثمينة وبالثياب الملونة المطرزة . وما من شك أيضاً في تأثرهم بالفنون الأشورية ، كما أن بعض المعالم المعماريّة التي اتسمت بها المباني الفارسيّة اللاحقة في پاسارجاديّه وپرسپوليس نقلا عن أورارتو قد وصلت إلى الفرس عن طريق الميدين .



لوحة ٥٠ فاخرىكا : مقبرة صخرية . القرن ٧ - ٦ ق . م . فرهادوشيرين : فن ميدي .



لوحة ٥١ فن ميدي . كزباكان . مقبرة صخرية مخصصة لجمع عظام الموتى ترمز نقوشها للآلهة أهورا مزدا وميترا وأناهيتا .



لوحة ٥٢ سكاغاند : مقبرة منحوتة في الصخر مخصصة لجمع عظام الموتى ، نحت يصور رجلا مولولا يرفع ذراعيه بالحركة المألوفة عن تماثيل لورستان القرن ٧ - ٦ ق.م .

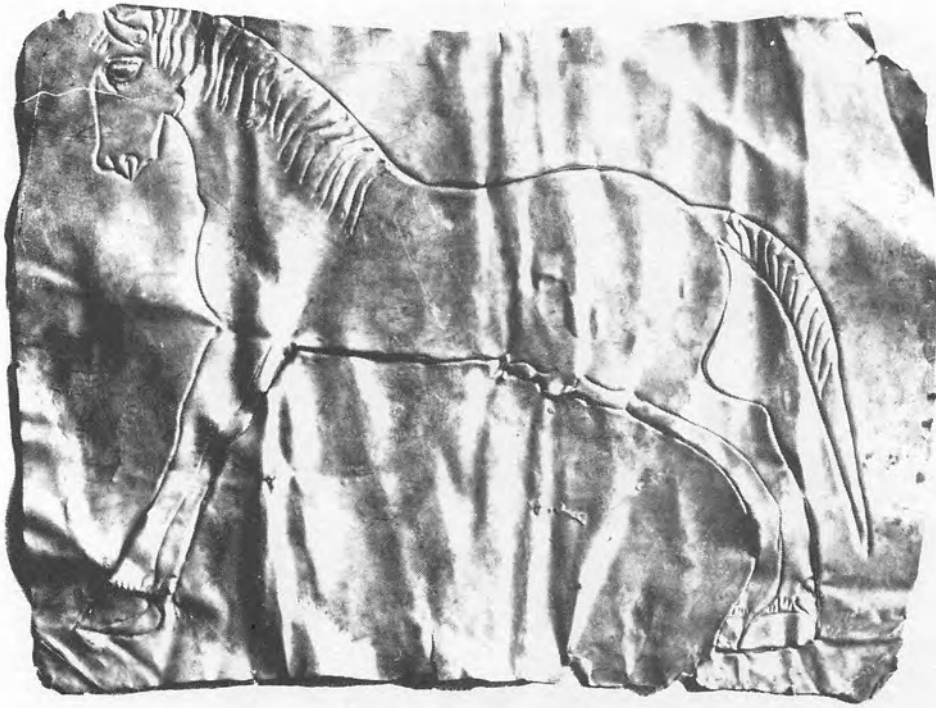
## — ٢ — كنز جيحون

**كان** الكشف عن مجموعة الآثار الثمينة التي أطلق عليها اسم «كنز جيحون» نظرا للعثور عليها بمنطقة بختياري على ضفة نهر جيحون الذي يصب في بحر آرال معينا جديدا لإثراء معرفتنا بالفن الفارسي قبل الحضارة الأخمينية ، فهذا الكنز الذي سنعرض هنا لجانب من جوانبه يرجع إلى القرنين السابع والسادس ق . م وينتظم مجموعة تحمل اليوم اسم تَحْتِ — قباذ أو «عرش قباذ» ويضم الكنز عشرات من اللوحات الذهبية نقشت عليها شخصيات يحمل أكثرها حزمة الأغصان التي تمثل القربان النبائي «بَرَسُوم» كان يقدمها إلى آلهة المعبد أصحاب الحاجات من النساء الراغبات في الإنجاب ، والرعاة الشغوفون بتكاثر القطيع ، وصانعو الفخار وصانعو الذهب المترقبون الرواج ، والجنود المؤمنون في النصر . ولم تكن قيمة هذه اللوحات تتوقف على الناحية الجمالية فيها وإنما كان ثمنها يقدر بما تحوي من ذهب لا بما يبذل فيها الفنان من إبداع ( لوحة ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ) . وقد وجدت مع هذه اللوحات عربة ذهبية ذات مقاعد تجرها جياذ أربعة ( لوحة ٥٦ ) يرتدي سائقها ومساعدته ثيابا وحليًا إيرانية . وتمثل هذه العربة هي الأخرى أحد النذور المقدمة للآلهة ، وهذا يعني أن هذه المجموعة التي تحمل بعض الملاحح التي تركها فن أورارتو في الفن الإيراني والمسماة «كنز جيحون» كانت خاصة بأحد المعابد .

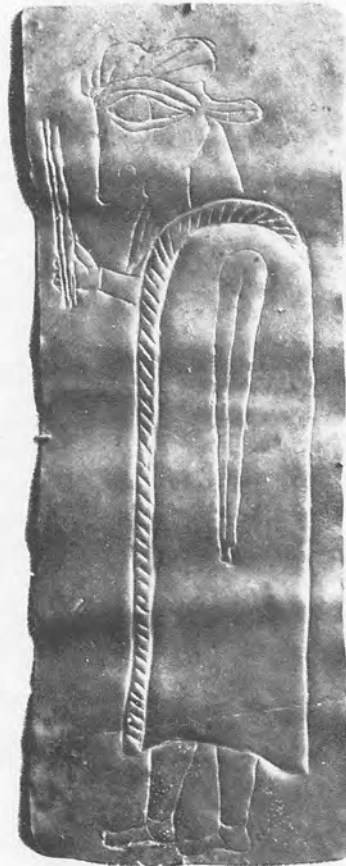
وقد عرف الميديون قرون الشراب — أي أوعية الشراب المتخذة على شكل قرن أو رأس حيوان — التي ظهرت في الحضارات السابقة ( لوحة ٥٧ ) ، واستخدم السكوديون هذه الأوعية المصنوعة من قرون الحيوانات بدلا من التيجان في حفلات التنصيب . كذلك نحّت الميديون حيوانات بأسلوب واقعي ، كما نرى على وعاء كالاردشت الذهبي المزين بأسود منقوشة بالنحت الخفيف البروز في وضعة جانبية ، على حين يبرز الرأس كاملا في تشكيل مجسم ذي أبعاد ثلاثة ( لوحة ٥٨ ) .



لوحة ٥٣ فن ميدي من كنز جيحون : لوحة ضراعة لشخص يحمل «بارسوم» من الذهب . القرن ٧ - ٦ ق.م . بإذن من متحف البريطاني .



لوحة ٥٤ فن ميدي من كنز  
جيجون . بختياري : شخصيتان تحمل  
إحداهما حربة والأخرى بارسوم ،  
ويحتمل أن يكون الغرض من صورة  
الحصان الضراعة إلى الإلهة حامية  
الخيول . القرن ٧-٦ ق.م . بإذن من  
المتحف البريطاني .

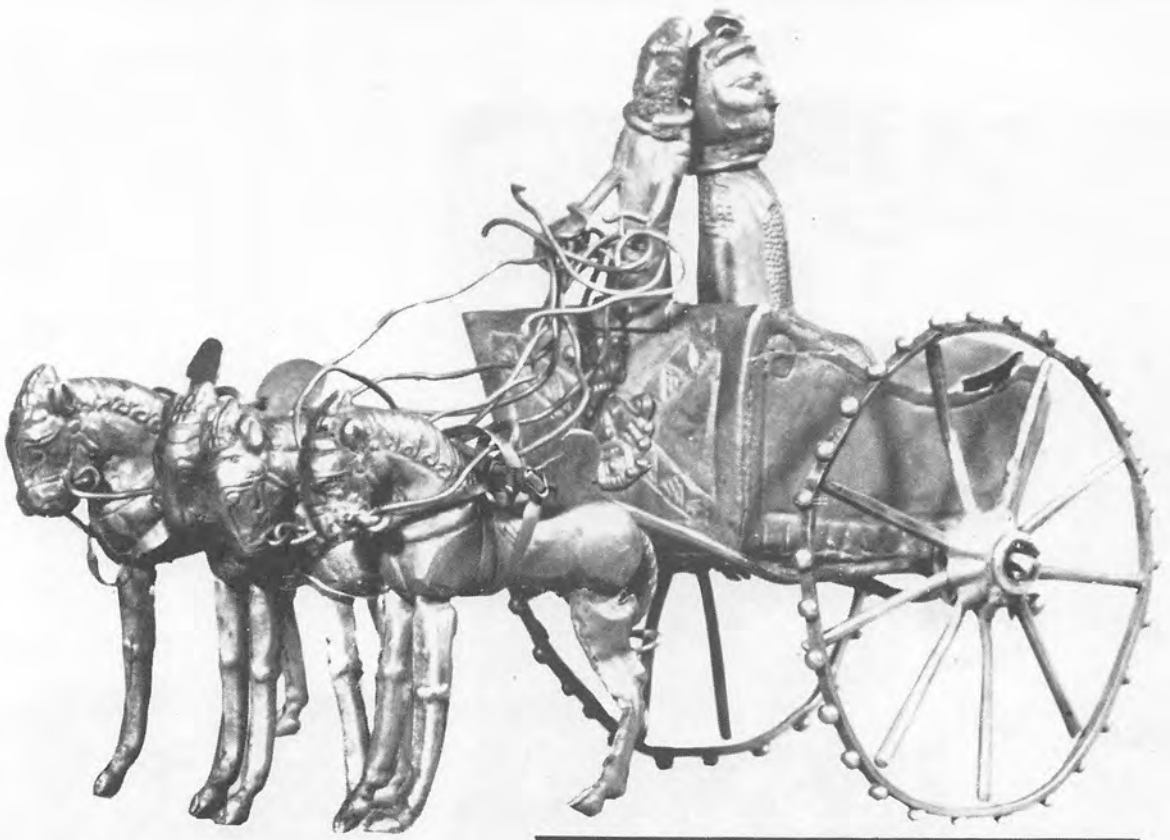




لوحة ٥٥ فن ميدي من كنز  
جيجون . بختياري : لوحات  
ضراعة . باذن من المتحف البريطاني .







لوحة ٥٦ فن ميدي من كنز  
جيجون . بختياري . مركبة من  
الذهب ذات مقاعد تجرها أربعة  
خيول . القرن ٦-٤ ق.م . باذن من  
المتحف البريطاني .



لوحة ٥٧ فن ميدي : قرن شراب  
من الفخار على شكل غزال . القرن  
٧-٨ ق.م . باذن من متحف  
طهران .



لوحة ٥٨ فن ميدي من  
كالارداشت . وعاء من الذهب  
مزدان بأسود في وضعات جانبية .  
القرن ٧-٨ ق.م . مجموعة خاصة .

## الفن السقيثي « السكوذي »

**وفي** عام ١٩٤٧ كُشف عرضاً عن موقع زيفييه في المنطقة التي احتلها السكوذيون واتخذوا منها قاعدة لغزواتهم صوب أواسط آسيا . وقد عثر على كنز داخل قبر ملكي منحوت في تل صخري ، دفنت به جثة الملك بعد تحنيطها والطواف بها ثم وضعها على سرير بجوار إحدى محظياته التي تُحنقت ودفنت معه ، لوفق تقليد كان يقضي بأن يخنق ويدفن على مقربة من الملك محظيته وساقيه وطاهيه وسائقه وأمينه وحاجبه وعدد من الخيل وبعض الأواني الذهبية وشيء من حصاد حقوله الجديد . وقد احتوت هذه المقبرة على مجموعة من الأدوات الخاصة بالملك مثل درعه وغمد خال من سيفه ، وأثاث مطعم بالعاج ، ودبابيس لضم أطراف الملابس من معادن مختلفة نظراً لتفاوت طبقات النساء اللاتي يستخدمنها ، وأوان فخارية للخدم بجانب أواني الذهب الملكية . ويفيض الكنز بتقنية وأسلوب وموضوعات تصويرية ذات سمات زخرفية . وكان الوضع السياسي في هذه الرقعة من غرنى إيران سريع التقلب آنذاك حتى أن أحد الملوك السكوذيين قد اعتلى عرش أشور حوالي عام ٦١٥ ق . م وأخذ يتقبل ولاء الميدين مكان الملك السابق .

وبقيت اللوحات الأفقية والرأسية المصنوعة من الذهب أو العاج التي تزين الأثاث — سواء كان عرشاً أو سريراً — آشورية . وتمثل الأفقية منها مناظر صيد ( لوحة ٥٩ ) تدور حول تيوس على جانبي الشجرة المقدسة التي تتوسط اللوحة ، على حين ضمت اللوحات الرأسية مواكب الأشراف والمحارين المشتركين في صيد الأسود والثيران ( لوحة ٦٠ ) .

ولكن ثمة أكثر من دافع يجعلنا نعزو صناعة قطعة أثاث عاجية أخرى إلى أحد المحارف المحلية ، إذ هي تحكي زخارف قصر أسرحدون بنمرود في أعقاب المعاهدة التي عقدها مع راماتيا الزعيم الميدي .

وتقودنا هذه القطعة إلى آفاق جديدة في تاريخ الفنون الإيرانية خلال القرن السابع ق . م حينما اعتنق فيها الأسلوب السردى المقتبس عن الأسلوب الذى كانت تمارسه الامبراطورية الآشورية قبيل انهيارها .

وما أشبه النقش المحفور على التمثال السكودى العاجي ( لوحة ٦١ ) بالتقنية الفينيقية التى كانت تقتصر على نقش مساحات صغيرة . وتذكرنا الدمية العاجية الجنائزية التى تمثل ثورا ( لوحة ٦٢ ) بتقنية صنّاع أورارتو الذين كانوا يؤثرون نقش التحف المصنوعة من العاج أو البرونز أو الحجر بعد تطعيمها بالزجاج أو بالمعادن ( لوحة ٦٣ ) . كما تؤكد الصّدريّة العريضة السكودية ذات الشكل الهلالي تأثير فن أورارتو ( لوحة ٦٤ ) ، لأن هذا الشكل بالذات لم يكتب له الانتشار إلا في هذه المنطقة ، بل لقد اقتبست زخارف الصّدريّة من موضوعات فن أورارتو وإن شوّهما الفنان السكودى لعجزه عن إدراك معناها ، مكتفيا بنقش أشكال العالم الخيالي الذى تقدمه له تصاوير الفن الشرقى فيما بين القرنين التاسع والسادس . وتحتوي الصّدريّة الذهبية على صفتين من النقوش المختلفة محاطين بإطار من ثمرة الصنوبر . ونلاحظ على الفور اختلافا في أشكال الحيوانات الملققة عنها في مثيلاتها الآشورية ، وهو ما نلمحه في وضعة الثور والتمسك الواقفين على جانبي الشجرة المقدسة المحوّرة القائمة وسط كل من الصفتين ، والتي تختلف هي الأخرى عن الشجرة الآشورية ، على حين يزداد الشبه بين الشجرة المقدسة والحيوانات الملققة في هذه الصور وبين مثيلاتها في الفن الأورارتي . ولهذا الأشكال لاشك مغزى رمزي يضمن لمرتبديها الحماية والوقاية من عوادي الزمن ، كذلك نرى في الصّدريّة أحد الحيوانات الملققة التي لا يزال تفسيرها غامضا وهو ذلك الإسفنج أو السفنكس « الأسد المجنح ذو رأس السيدة المتوّج » ( لوحة ٦٥ ) .

كما نرى في الصف الأعلى تيسا يلتفت نحو الإسفنج وقد بدت أذناه حلزونيتين على العكس من الآذان الشرقية ، بينما يحمل وجه « اللاماسو » أذنى إنسان لا أذنى حيوان مدبّتين ، ولا يظهر الطابع الشرقى في جانب وجهه بل يبدو شبيها بوجه الرجل — الثور أو « التمثال الحامل » الإغريقي في استطالته ونحوه ، وما أقرب شبهه بوجه الإسفنج الصغيرة الجالسة في الصف الأسفل . ومع أن هذا الفن الأورارتي قد عرف « الرجل — الثور » فقد صوّر دائما حاملا شيئا ما . ومع قرب أجنحة هذه الحيوانات الملققة من الحيوانات الأورارتيّة باستقامة حركتها وافتقارها إلى المرونة ( لوحة ٦٦ ) فإن أسود « الإسفنج » المجنحة ترتدي مئزرا مزدانا بجوز رأسية وليست أفقية ، على الرغم من شبه هذه الحيوانات بمثيلتها الآشورية الموروثة عن الفينيقين .

ويكشف السوار الذهبى الفخم الرائع الصنع الذى كان يملكه الأمير السكودى الراقد في زيقبيه عن أن الفن السكودى قد استمد طابعه من مصادر آشورية وأورارتيّة . وثمة قلادتان ذهبيتان للأمير إحداهما من صفوف ثلاثة تضمها حلقات أسطوانية الشكل ، وتنتهي القلادة بمجموعة من الخيوط الذهبية المجدولة تحمل تسع أزهار على شكل أجراس ( لوحة ٦٧ ، ٦٨ ) وتعكس اللوحة الذهبية التى تصور في تصميم زخرفى رؤوس الحيوان الغزلان الراقدة في العراء نهج الفن السكودى في رسم أعناق الحيوانات

ممتدة إلى الأمام ( لوحة ٦٩ ) .

وضمت مقبرة زيقويه جملة من التمام التي كانت تعلق أو تخاط في الملابس ، وهي تمثل زهورا أو صلبانا أو تيوسا صغيرة ، كما ضمت قفازا مجدولا من خيوط ذهبية في شكل الشباك وبه خمسة خواتم مزدانة باللؤلؤ ، وكان وضع خواتم في كافة الأصابع عادة شائعة في إيران خلال الألف الأول قبل الميلاد ، الأمر الذي تؤكدّه جثة السيدة التي وجدت بمقبرة سكودية بمجنوب روسيا والتي ازدانت أصابعها العشر بالخواتم .

ويتجلى امتزاج الفن السكودي بالفن الشرقي في الأسلحة وعدّة الخيل . وثمة سيف مصنوع من الذهب والعاج . وهو وإن انتهى إلينا مهشمًا غير أنه يكشف لنا في يسر عن التقاليد السكودية في صياغة الذهب ، ثم عن التأثير الإيراني الأورارتي في تشكيل العاج ونحته . وتعدّ الكرة الذهبية التي تمثل مقبض هذا السيف من أروع ما بقى لنا من آثار ، إذ يتجلى فيها اهتمام الصائغ بإبراز معالم الحيوان دون التقيد بالواقع ، وذلك في إطالته للذيل وجعله يلتف حتى يكاد يبلغ الفم تعبيرا عن الحركة ، وإضافته القوة على مخالب القدمين بنقشهما مطويتين تحت الرأس والجسد ( لوحة ٧٠ ) ، كما زين الغمد المصنوع من الذهب برؤوس كباش متراسة برزت قرونها الملتوية في وضعة مواجهة ( لوحة ٧١ ) . وكان كل ما يتصل بالخيل ومعدّاتها محط عناية الفنان ، ويدلنا على ذلك ماتضمّه مقبرة زيقويه من أجراس أحد عشر صغيرة برونزية مختلفة الأحجام والأشكال ، مما يوحي بأن ثمة أحد عشر جوادا دفنت مع الأمير .

وإذا كان أثاث هذه المقبرة يرهص بما سيكون عليه الفن الإيراني في العصر الأخميني ، فإن محتوياتها لتعدّ المفتاح إلى معرفة جميع الفنون التي نشأت في آسيا وخاصة الفن الأشوري الذي انتشر في منطقة ما بين النهرين وفي آسيا الصغرى ، ثم اندثر مع اندثار دولتهم . كما يظهر أيضا تأثير أورارتو في أطراف الأوعية الجنائزية التي كانت تتخذ شكل رأس أسد أو رأس حيوان خرافي ( لوحة ٧٢ ) .

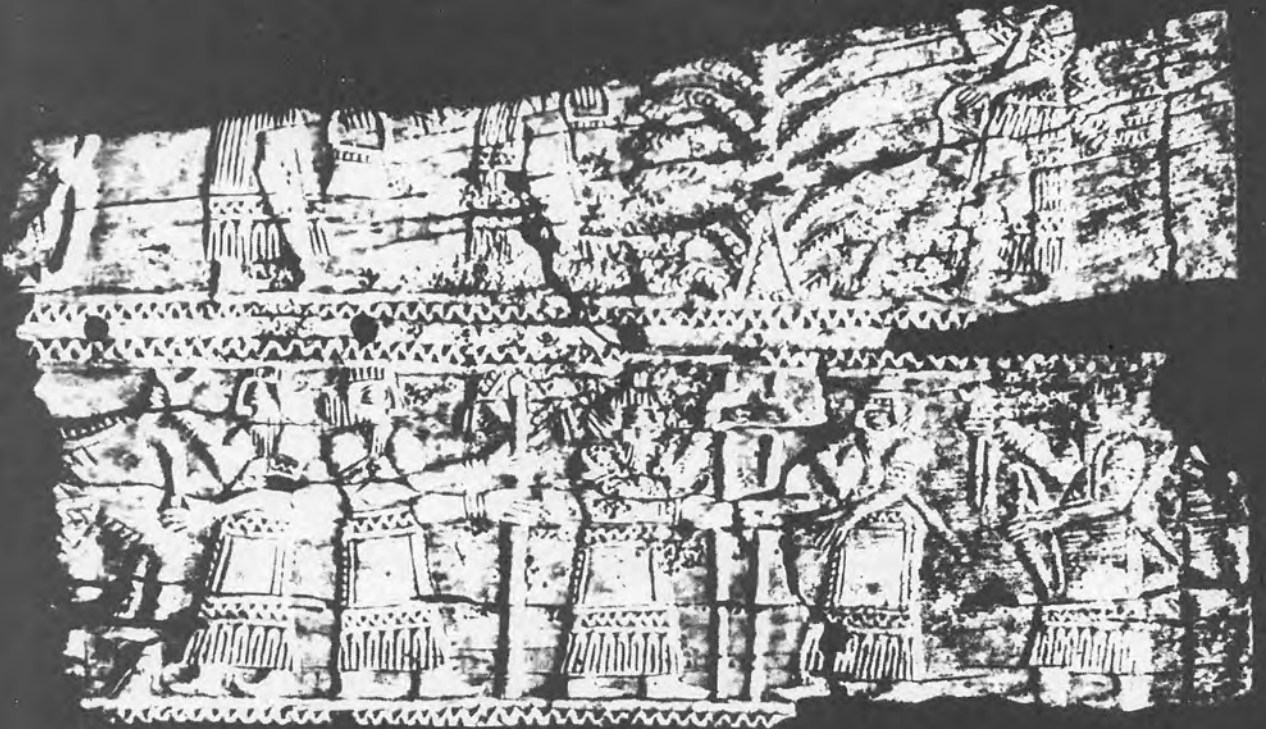
وقد خلف السكوديون مجموعة من قرون الشراب يمكن تقسيمها إلى مجموعات أربع : جاءت أولها على وفق أشكال البطة ( لوحة ٧٣ ) . وثانيها تحاكي أشكال رؤوس الطباء الشاردة في براري آسيا ( لوحة ٧٤ ) ، والثالثة مجموعة الكفوس البديعة العريضة الحواف والمتخذة شكل رؤوس الكباش والأغنام ( لوحة ٧٥ ، ٧٦ ) . ويبدو أن استعمال قرن الشراب الذي على شكل كوب له رأس حيوان قد انتشر في بلاد الميديين أثناء القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . ثم تلاها الكأس المتخذ شكل قرن حيوان منته برأس غزال أو جدى ( لوحة ٧٧ ) .

ولقد شكّل فن لورستان وفن أورارتو العناصر الرئيسية في فن السكوديين الذين استبدلوا بالعظام والقرون والخشب المعادن الثمينة ، وظلوا يقدمون فنا تطبيقيًا أو بالأحرى فن قبائل رحّل .



لوحة ٥٩ كنز زيفيه . لوحة عاجية تمثل منظر صيد . القرن السابع ق.م .

لوحة ٦٠ كنز زيفيه . لوحة عاجية تمثل موكب الأشراف والمخاربن المشتركين في صيد الأسود والثيران . القرن السابع ق.م .





لوحة ٦١ فن سكودزي . زيفيه  
[ كردستان ] . عاج محفور لشخص  
واقف يعقد ذراعيه أمام بطنه . نهاية  
القرن السابع ق.م . باذن من  
متحف طهران .

لوحة ٦٢ زيفيه . دمية من العاج  
تمثل ثورا للاستخدام الجنائزي .  
باذن من متحف طهران .

لوحة ٦٣ فن أورارقي . دمية لإله  
من الخشب والبرونز . من  
كارميريلور . القرن الثامن ق.م .  
باذن من متحف أرمينيا التاريخي .

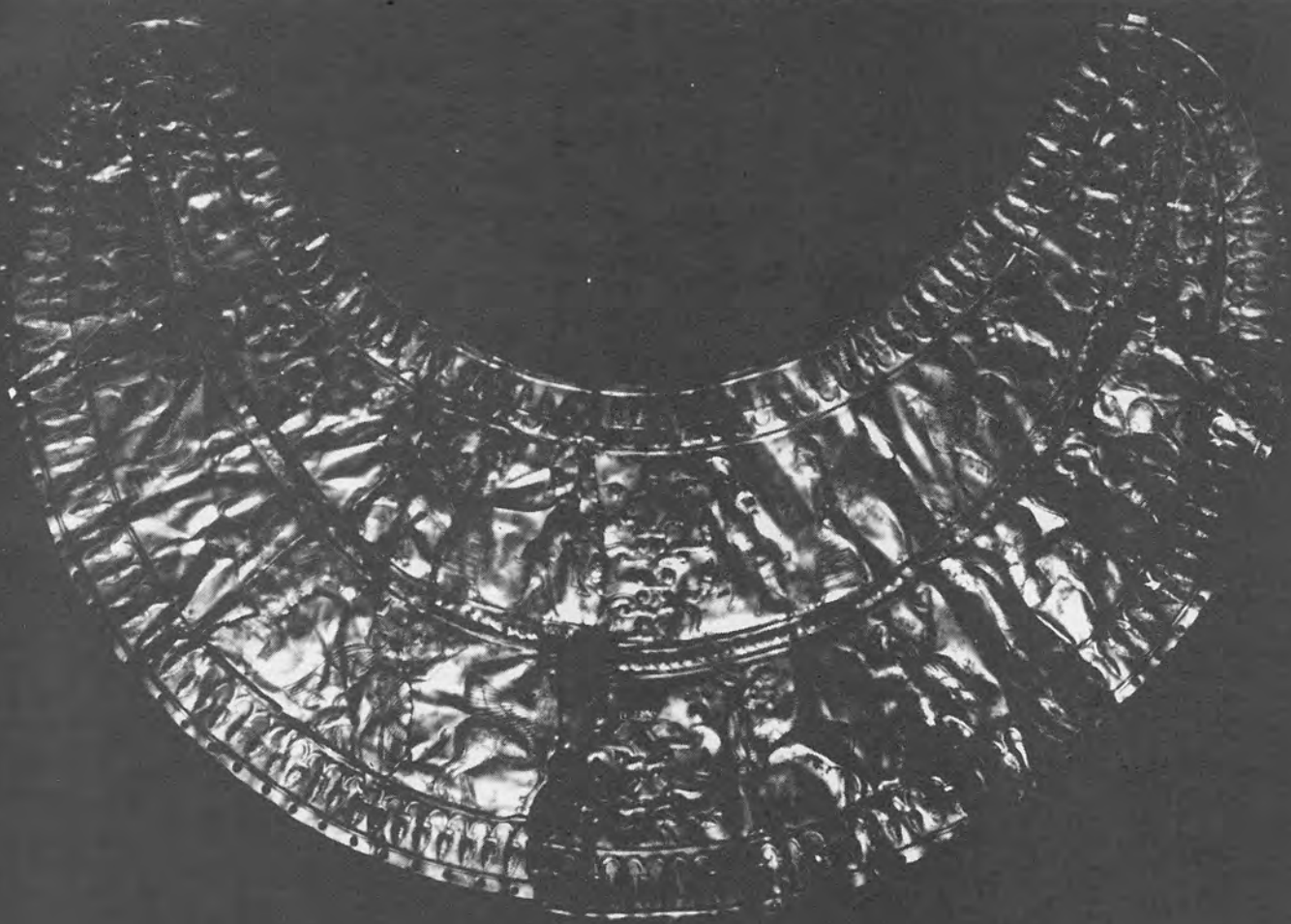
٦٢



٦١

٦٣





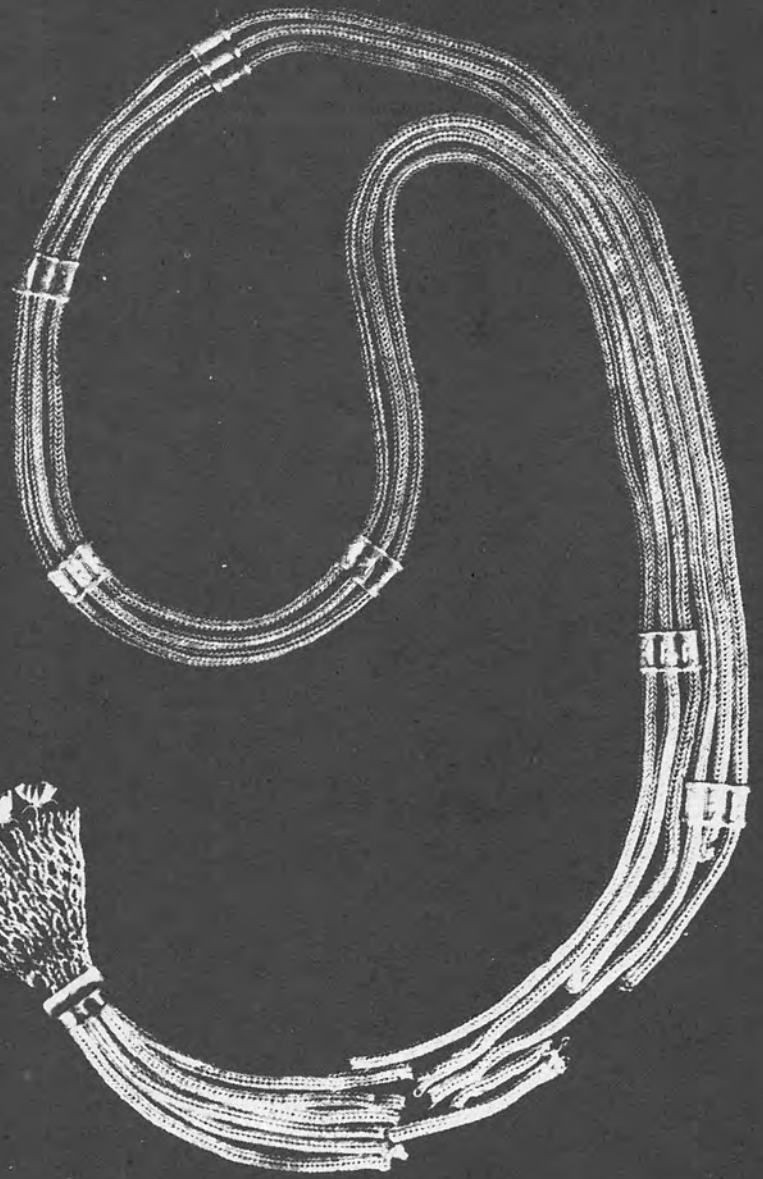
لوحة ٦٤ من خليط من عناصر سكوذية وإيرانية وأورارتية من زيفيه : صدره منقوش عليها موكبان لكائنات ملفقة تقصد شجرة الحياة التي يكتشفها زوجان من الحيوانات . وفي الطرف هرّ وأرنب ، وعلى حواف الصدرية يصطف ثمر الصنوبر . ويتوسط الصف العلوي شجرة الحياة المخوّرة يحيط بها تيسان وقفا على أرجلها الخلفية يتطلعان إلى الأسفل التي ترتدى تنورة طويلة تغطي قوادمها . ويتوسط الصف السفلي ثوران مجتّحان يجيطان أيضا بشجرة الحياة وكأنهما يجرسانها ويلتفتان إلى شخصين لهما جذع الإنسان ورأسه وذراعيه في حين أن جزءه الأسفل لثور ، ولهما أيضا جناحان هابطان بينما رفعا أذرعتهما وكأنهما يتضرعان بالدعاء أو كأنهما يتبيان لحمل عتب . القرن ٧ ق.م . بإذن من متحف طهران .

٦٥

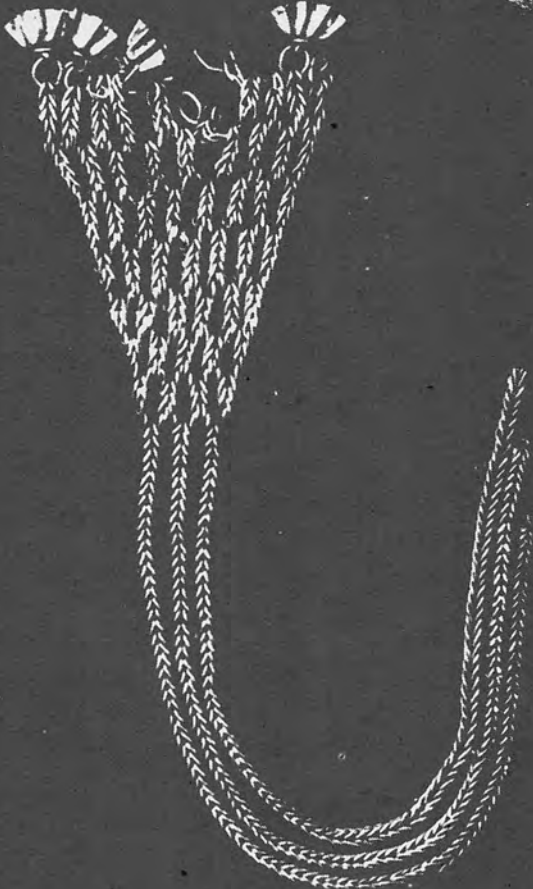
٦٦



لوحة ٦٧ فن سكوذي . زيفيه .  
قلادة ذهبية من ثلاثة صفوف تضمها  
حلقات متحركة . نهاية القرن  
السابع ق.م . بإذن من متحف  
طهران .



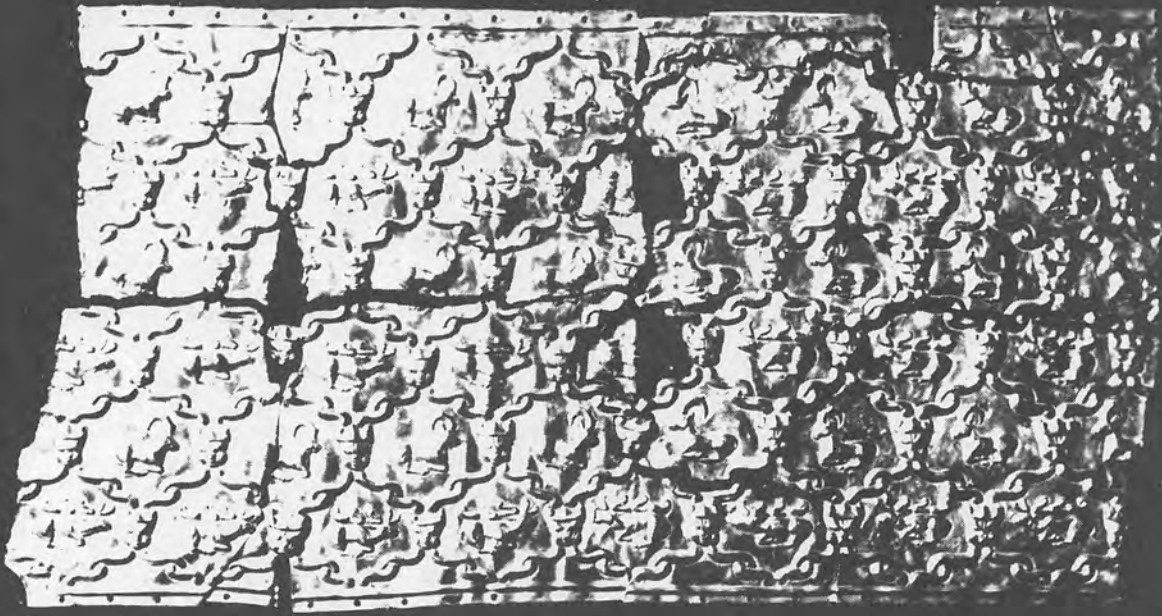
لوحة ٦٨ قلادة ذهبية .  
تفصيل .



لوحة ٦٥ دمية لأسفنج من البرونز  
المذهب . الوجه من الحجر الأبيض المطعم  
بأحجار ملونة . تفصيل من كرسي  
عرش . توبر كالي . القرن ٧-٨ ق.م .  
إذن من متحف الإرميتاج بلنجراد .

لوحة ٦٦ فن أورارتو . توبر كالي . جزء  
من عرش على شكل الأسفنج من  
البرونز . القرن ٧-٨ ق.م . بإذن من  
متحف برلين .

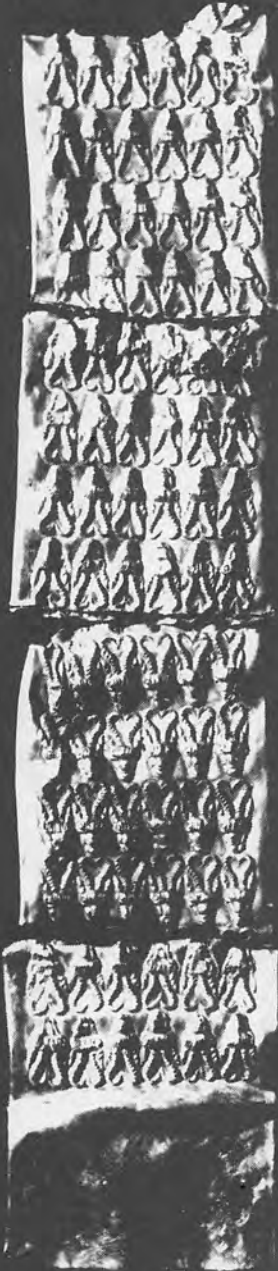




لوحة ٦٩ فن سكودي أورارقي . زيفيه . لوحة ذهبية كانت مثبتة على حزام من الجلد . رؤوس حيوان ممتدة للأمام بالإضافة إلى غزلان وتيوس . نهاية القرن ٧ ق.م . باذن من متحف طهران .

لوحة ٧١ فن سكودي . زيفيه . جزء من غمد سيف من الذهب مزين برؤوس كباش نهاية القرن ٨ ق.م . باذن من متحف طهران .

لوحة ٧٠ فن سكودي أورارقي . كرة ذهبية بمقبض سيف . القرن ٧ ق.م . باذن من متحف المتروبوليتان .





٧٣



٧٢

لوحة ٧٢ فن سكودي أورارتي زيفيه. مقدم حيوان خرافي من الذهب. نهاية القرن السابع ق.م. بإذن من متحف طهران .

لوحة ٧٣ فن سكودي من زيفيه . قرن شراب على شكل بطة من الفخار المزجج بالألوان الصفراء والبيضاء والسوداء وبعض آثار خضراء . القرن ٧ ق.م. بإذن من متحف طهران .

لوحة ٧٤ فن سكودي . زيفيه . قرن شراب برأسي ظبي «سايجا». من الفخار المزجج . أواسط آسيا. نهاية القرن ٧ ق.م. بإذن من متحف الآثار بطهران .



٧٥



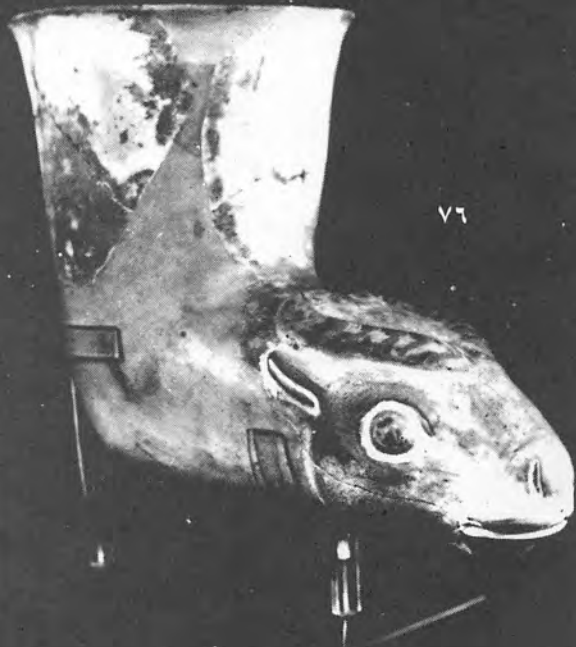
٧٤

لوحة ٧٥ فن سكودي . زيفيه .

قرن شراب على شكل رأس كبش من الفخار المزجج . نهاية القرن ٧ ق.م .

لوحة ٧٦ زيفيه . قرن شراب على شكل إحدى الأغنام . من الفخار المزجج . بإذن من متحف الآثار بطهران . نهاية القرن ٧ ق.م .

لوحة ٧٧ فن ميدي . مازندران . كأس شراب على شكل قرن حيوان ينتهي برأس غزال من الفخار الأحمر . القرن ٨-٧ ق.م . بإذن من متحف الآثار بطهران .



٧٦



فن الا خمسين



## — ١ — الملك البناء

**كان** الميديون والفرس إحدى موجات الزحف الآري التي استقرت فوق الهضبة الإيرانية . وكان الميديون شأنهم شأن السيميرين الوافدين من طراقيا وفرجيا والسكوديين — شعبا من الفرسان لايملكون غير ما يحملونه على صهوات جيادهم من أسلحة وأوعية وحلى معدنية ، وقد تأثر فنهم كما أسلفنا بفن جيرانهم الشماليين السكوديين وخصوصهم الآشوريين .

أما الفرس الذين استقروا في الجنوب بعد إقامتهم عهدا شمالي إيران في ظل الميديين ، فقد أخذت فنونهم تمثل مزيجا من فن الشمال وفن الجنوب . وكانت أوامر الوحدة بين الفرس والميديين قد قويت على أثر زواج قميير ملك الفرس من إبنة ملك الميديين ، كما استوعب هذا الفن عناصر من فنون أجنبية في أعقاب توسع هذه الامبراطورية التي امتدت من نهر النيل إلى نهر السند . وهكذا ظهر فن مملق كان أحمينيا في جوهره ، غير أنه لم يبق من هذا الفن الأحميني إلا بضعة أعمال أنجزت للبلاط الملكي .

وبعد أن احتل قورش الكبير مدينة بابل عام ٥٣٨ ق . م اتخذ من سوسة عاصمة للامبراطورية الأخمينية ومن ثم فقدت مدن دجلة والفرات البابلية قيمتها السابقة على الغزو الفارسي بعد أن غدت مدنا تابعة فحسب ، ومالبت فن هذه المنطقة أن اصطبغ بصبغة جديدة . وإذا نظرنا في ضوء العوامل المؤثرة في خلق كل فن والتي تتبع من الواقع المادي والفكري أي من فكر المجتمع ودينه وعاداته رأينا أن دولة سومر التي كانت تعوزها الحجارة للبناء قد تغلبت على هذه المشكلة باستخدام قوالب الطين اللين على نطاق واسع ، مما كان له أشد التأثير على كافة الفنون التي تتكامل مع بعضها البعض ، في حين أن الطبيعة قد خصت الهضبة الإيرانية بوفرة من الحجر أحدثت تغييرا جذريا في فن العمارة ، فقد كان من الممكن

أن يُحدث استخدام قوالب اللبن في هذه المنطقة من المصاعب ما يحدثه استخدام الحجر في بلاد ما بين النهرين ، كما تعلم الفرس حين كانوا في الشمال باقليم أورارتو كيف يشيدون الأسوار المحيطة لحماية القرى ودور الزعماء ضد غارات سكان الجبال من قطاع الطرق الذين كانت شهرتهم تنشر الذعر في القلوب .

وعكف المهندسون الأخمينيون على تشييد «المدن الملكية» على غرار مدن الملوك الأشوريين كمدينة سرجون الثاني في خرصاباد ، وإن اتسمت مدن الأخمينيين بضخامة جديرة بملكهم الذي امتد من النيل إلى السند ، وبما بذله الفنانون الزخرفيون هم الآخرون من جهد في تزيين هذه المدن بما يناسبها من جلال الملك .

## رمزية الفن الأخميني

**ولا يكاد** المرء يسرح الطرف في أعمدة المباني الأخمينية حتى يلحظ ارتباطها بالعدد ٤ ومضاعفاته ٤ ، ٨ ، ١٢ ، ١٦ ، ٣٦ ، ٧٢ ، ١٠٠ ، وسرعان ما تستيقظ في نفسه رغبة تفسير هذه الظاهرة التي ذهبت مرجريت روتان إلى أنها تتبع قانونا يخضع «لرمزية الأعداد» . ولقد شاع منذ العصور المبكرة الارتباط بين الإلهة نيسابا السومرية وبين الأعداد ، كما يقدم برج بابل نموذجاً للتطبيق المعماري للأعداد المقدسة . وأغلب الظن أن شيوع العدد ٤ في بيرسيبوليس مرده إلى أن هذا العدد يرمز إلى عناصر الكون الأربعة : النار والهواء والماء والأرض .

وبدأت تباشير التأثير الأغرقي في الظهور في بعض موضوعات النقش عند الفرس الأخمينيين ، مثل صراع الملك مع الوحش الخرافي الذي حل محل صيد الملك الأشوري للوحش بإغماده خنجره في أجسادها . وقد انعكس هذا التأثير الفني بتطور مفهوم الصراع فأصبح صراعا بين روح الخير «أهورا مزدا» وروح الشر «أهرمين» كما بات هذا الموضوع يرمز إلى انتصار إله النور الآري الذي كان يصور وهو يصرع التنين . والراجح أن الفرس هم الذين ابتدعوا النمط الجديد «للإله الفارس» الذي كان أحد عناصر الإيقونوغرافية المألوفة ، والذي تبناه الفن القبطي بمصر حيث نرى حورس فوق ظهر جواده يقتل تمساحا ، كما نراه في الإيقونوغرافية المسيحية مرتبطا بالقديس جورج «مار جرجس» . وقد طوّر الأخمينيون هذا المفهوم للصراع بين الخير والشر ونشروه وإن يكن هذا الموضوع قد سبق ظهوره في بابل عند تصويرهم انتصار الإله مردوك على تعامت ، أي انتصار النظام على الفوضى ، وما من شك في أن هذه الفكرة ترجع إلى عهد سحيق .

وقد تسللت فكرة الأخمينيين الدينية التي تستقطب الخير والشر إلى العالم القديم بأسره ، فلجأ الفنانون إلى استخدام موضوعات من التصاوير المحلية للآلهة والجنان الحارسة أو الشريرة المسيطرة على البشر ينظرون إليها نظرة أسلافهم ، واستخدم الفنانون الفارسي موضوعات متداولة بين الناس ، وطورها



لاني اتجاه التصوير الواقعي فحسب وإنما في اتجاه تحقيق الهدف الذي صُوِّرت في الأصل من أجله .  
 واتسمت معالجة الفنانين لهذه الموضوعات بالجمود والتجرد من الإنفعال ، فظهر الأبطال غير  
 مبالين بما يفعلون ، هذا الجمود والتجرد من الانفعال اللذان صبغا فيما بعد فن التصوير الإسلامي  
 وخاصة الفارسي منه . كذلك اقتصر الفنانون على تقديم مجموعة مشاهد ثابتة لا تتغير وإن تألفت روعتها  
 كزخارف معمارية ، مثال ذلك مشهد الأسد وهو يفتك بالثور ، فهو يرمز إلى الموضوعات الدينية التي  
 ارتفع شأنها فيما بعد ، وهو موضوع ذبح ميترا إله الشمس للثور . وفي هذا الوقت بالذات رسخت  
 فكرة الحياة بعد الموت ووساطة الروح أو الإله مرشد الأرواح . وانبثقت المقابر الملكية التي كانت  
 مطمورة تحت الأرض شأن مقابر مصر وبابل وتجلت شامخة في الأفق كضريح قورش الثاني العظيم الذي  
 كان يؤمن بوجود روح خالدة منفصلة عن الجسد الفاني ، تحاسب في العالم الآخر . وتختلف مقبرة  
 قورش في باسارجاديه اختلافا تاما من حيث فكرتها وتصميمها عن غيرها من مقابر الملوك الميديين  
 والأخمينيين . وتبدو المقبرة وكأنها نداء إلى الإيمان بالروح أو إعلان بثبوت الروح والجسد . وكان قورش  
 من غير شك يتوق إلى عودة المعتقدات السابقة التي اهترت خلال عهد الميديين وبابل الحديثة . وفي  
 مقبرته التي جاء تصميمها على غرار الطراز السكودي ، وكذلك في النقش الذي يصور روحه المتسامية  
 ما يؤكد هذا المعنى .

ولا نجد هذه الرمزية في الأضرحة التي أقامها الأمراء الميديون والأخمينيون والتي بدت متأثرة  
 بالروح المصرية ، فقد شيدت على هيئة دور عالية زاخرة بالخيرات حافلة بكل ما يحتاج إليه المرء في  
 حياته المادية إذ كانوا يعتقدون أنه لا وجود للروح المنفصلة عن الجسد ، أو على الأقل أنه لا يمكن للروح  
 أن تحيا بلا احتياجات مادية . ثم ظهرت مقابر الملوك الصخرية في نقش رسم<sup>(٦١)</sup> وبيروسيبوليس<sup>(٦٢)</sup>  
 مكشوفة أمام الناس ، وهو ما يفسر سبب نهبا . ونرى فوق مقبرة نقش رسم صورة الملك واقفا فوق  
 المنصة يعلو الواجهة المنقوشة في الصخر أمام النار في حماية الإله أهورا مازدا الذي تحيط بوجهه دائرة  
 ترمز إلى الخلود . ولقد اقتبس الفرس من جيرانهم الرموز الدينية ، بيد أن الراجح أن قرص الشمس  
 المجنح المصري الذي يتوسطه الصلّ — والذي عمّ استخدامه الشرق الأدنى باستثناء بابل خلال الألف  
 الثاني — قد ناله التحوير في إيران فغدا قرصا يتوسط دائرة . وكان هذا الشعار معروفا للفرس نظرا  
 لاستخدامه في تمثيل الإله آشور في آشور ، وأغلب الظن أن الفرس لم يفكروا في تمثيل صورة آلهتهم قبل  
 احتكاكهم بالشعوب المحيطة بهم ، كما ينبغي ألا يفوتنا أن أهل العراق القديم أيضا لم يصوروا كبير آلهة  
 السماء آنو في شكل كائن حي . وقد بقى الفن الأخميني في معظمه فنا ملكيا تألق في تشييد العواصم  
 الأربع لملك الملوك في عهد كل من قورش العظيم وداريوش الأكبر ، وإن كان الحمود قد أصابه خلال  
 فترات الركود السياسية .

(٦١) قبور خشايارشا وداريوش الأعظم وأردشير الأول وداريوش الثاني .

(٦٢) قبرا أردشير الثاني وأردشير الثالث .

## العمارة الأخمينية

**يبدو أن الأخمينيين** قد اتخذوا في البداية مقرا لعاصمة مُلكهم في الموقع المعروف باسم مسجد سليمان<sup>(٦٣)</sup> حيث أقاموا مصطبة عالية فسيحة ملتصقة بأسفل سفح الجبل في مكان حصين ، وشيدوا فوقها قصر الملك ( لوحة ٧٨ ) . وثمة سلم من درجات عشر يبلغ عرضه خمسة وعشرين مترا يؤدي إلى المصطبة من جهات متعددة . ويحيط بكامل المسطح سور من الحجارة المرصوفة بلا ملاط ، به دخلات وخرجات . ومن حوله تنتشر أطلال التجمع السكني بأساساته المشيدة من الحجر ( لوحة ٧٩ ) . ويمثل هذا المقر نموذجا مستحدثا في العمارة الفارسية ، إذ لم يحدث من قبل أن استخدمت كتل الأحجار في تشييد القصر الملكي المقام فوق المصطبة بـ « سيالك » خلال العهد الممهد للتاريخ . وهكذا غدت مصاطب مسجد سليمان مثلا يحتدى على ماسنرى في تحت جمشيد « پرسپولیس » وإن فاقتها اتساعا .



ونقل قمبيز الأول عاصمة ملكه من مدينة مسجد سليمان إلى پاسارجاديه ذات الموقع الخلاب مستهدفا توحيد البلاد إلى أن أحالها قورش العظيم ( الثاني ) من بعده إلى عاصمة امبراطورية تزدهو بكثرة فصورها الفخمة ( ٥٥٠ ق . م ) . ولقد اختلف طراز مدينة پاسارجاديه التي كان اسمها القديم

(٦٣) في إقليم خوزستان بالجنوب الغربي من إيران ، وقيل إن الفرس دعوه بهذا الاسم حتى لايناله التدمير على يد الغزاة العرب .

«پارساجادا» أى معسكر الفرس عن طراز مسجد سليمان ، حيث نتعرف فيها على بقايا ثلاثة مبان أساسية هى بوابة القصر وقصر الجلسات وقصر الاستقبال . ونلاحظ فيها استخدام الأعمدة فى تشكيل أروقة خارجية طويلة وأبهاء داخلية ، وهو تخطيط معماري يغلب على الظن أنه منقول عن العمارة المصرية ، على حين اعتمد الفرس فى الزخرفة على الاقتباس من بلدان أقرب إليها من مصر فاستعاروا لبوابة النصر حُرُاسا على هيئة ثيران مجتحة بينما اختاروا للداخل المبنى ثيرانا لها وجوه البشر . وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من سور الموقع المحتوى على قصرى قورش شيدت بوابة النصر المؤلفة من قاعة يستند سقفها إلى ثمانية أعمدة وزّعت على صفين متوازيين .

وتقع المداخل الرئيسية المؤدية إلى الموقع على الضلعين القصيرين للسور ، وعلى جانبي كل منها تنتصب ثيران مجنحة ضخمة ، على حين اختص الضلعان الأكثر طولاً من السور بمدخل أقل اتساعاً ، ولم يبق للأسف من هذه المباني كلها سوى عمود واحد مازال فى موقعه .

وعلى بعد مائتى متر من المدخل يقع الإيوان «قصر الجلسات» فى الجهة الشمالية الغربية (لوحة ٨٠ ، ٨١) ويتكون من بهو أعمدة تحيط به أروقة ثلاثة من الشرق والجنوب والغرب .

وكان بهو الأعمدة يرتفع فوق مستوى هذه الأروقة كما يفتح رواق المدخل الرئيسي ذو الأربعة والعشرين عموداً ممتداً بعرض المبنى . وتضم ساحة تجملها الحدائق وقنوات المياه الجارية قصراً آخر «للإقامة» يتصدّره رواق ذو أعمدة فى الجهة الجنوبية الشرقية ، وبه باب إلى يمين الداخل يقوده إلى بهو الأعمدة . ويتصل هذا البهو من الجهة الشمالية الغربية برواق أعمدة آخر على جانبيه حجرتان (لوحة ٨٢) . وكانت كافة الأعمدة الحاملة للسقف المستخدمة فى هذا المبنى خشبية ملساء البدن مزدانة بصور الفريسك على حين كانت قواعدهما من الحجر الأسود والأبيض مربعة الشكل ذات قوالب طوقية . وثمة نقوش من النحت الخفيف البروز تمثل الملك متبوعاً بحامل مظلته محيطة ببابى الدخول إلى بهو الأعمدة . وتظهر فى هذه النقوش طيات الثياب — للمرة الأولى — فى النحت الفارسي . واكتست أسفل جدران القصر بيلاطات منحوتة وفقاً للتقاليد الحيثية والأشورية ، بينما تعلو الأعمدة تيجان فريدة التركيب . وتذكرنا قاعدة العمود وبدنه بالطراز الأيونى<sup>(٦٤)</sup> على حين تمثل قمته ابتكاراً محلياً وأخمينياً خالصاً . وثمة ميل واضح إلى تعدد الألوان يتجلى فى استخدام الأحجار البيضاء والرمادية الداكنة وإضافة الألوان المتضادة .

ولم تكن العمارة فى پاسارجاديه سكنية فحسب بل كانت تضم العمارة الدينية أيضاً . فإلى الغرب من الموقع ، وعلى بعد كيلو متر ونصف أقيم معبد لم يتبق منه إلا قاعدته التى يرقى إليها سلم من ست درجات ، وهيكلان لعبادة «النار الأبدية» (لوحة ٨٣) . كما أقيمت فى الطرف الجنوبي للموقع وسط

(٦٤) الطراز الأيونى نسبة إلى أيونيا وهى القسم الأوسط من شاطئ آسيا الصغرى الغربى والجزر المجاورة ، وكان قد استعمرها مهاجرون من شبه جزيرة البلقان فروا أمام زحف الدورين . ويتميز العمود الأيونى بتاجه ذى اللفتين الحلزونتيتين المتجاورتين ويبدنه المشقوق الأنيق .

فناء مستطيل محاط بسور من الطوب اللبن مقبرة قورش الأعظم التي لاتزال تظفر بنوع من التكريم بعد أن سماها العرب مقبرة «أم سليمان» ( لوحة ٨٤ ) . وتقع المقبرة فوق قاعدة ذات ست درجات متنوعة الارتفاع مما يكشف عن أنه لم يقصد استخدامها كسلم .

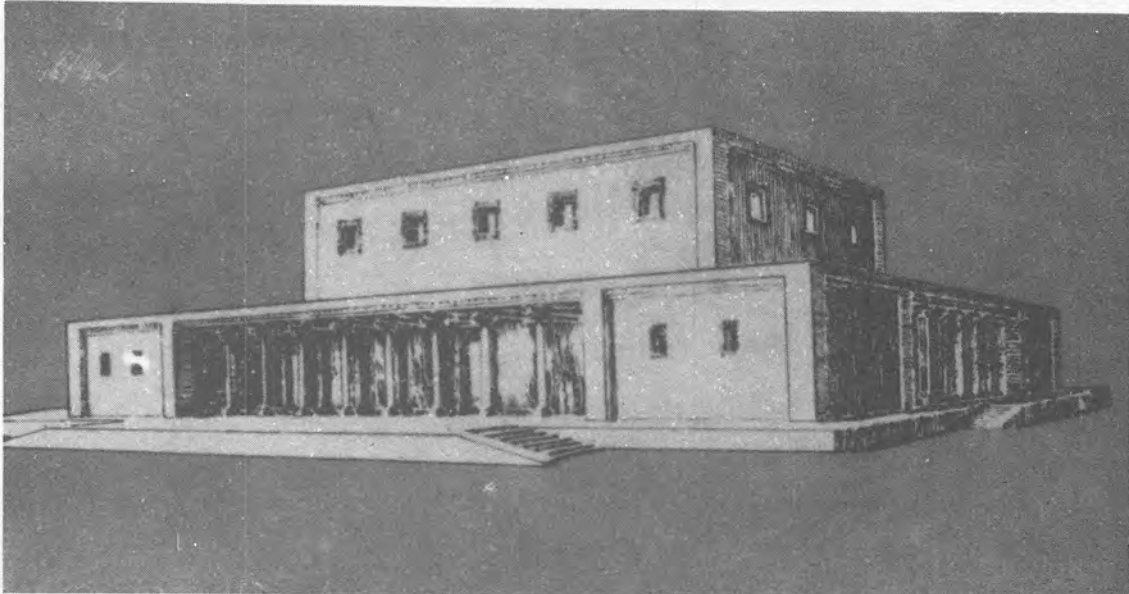
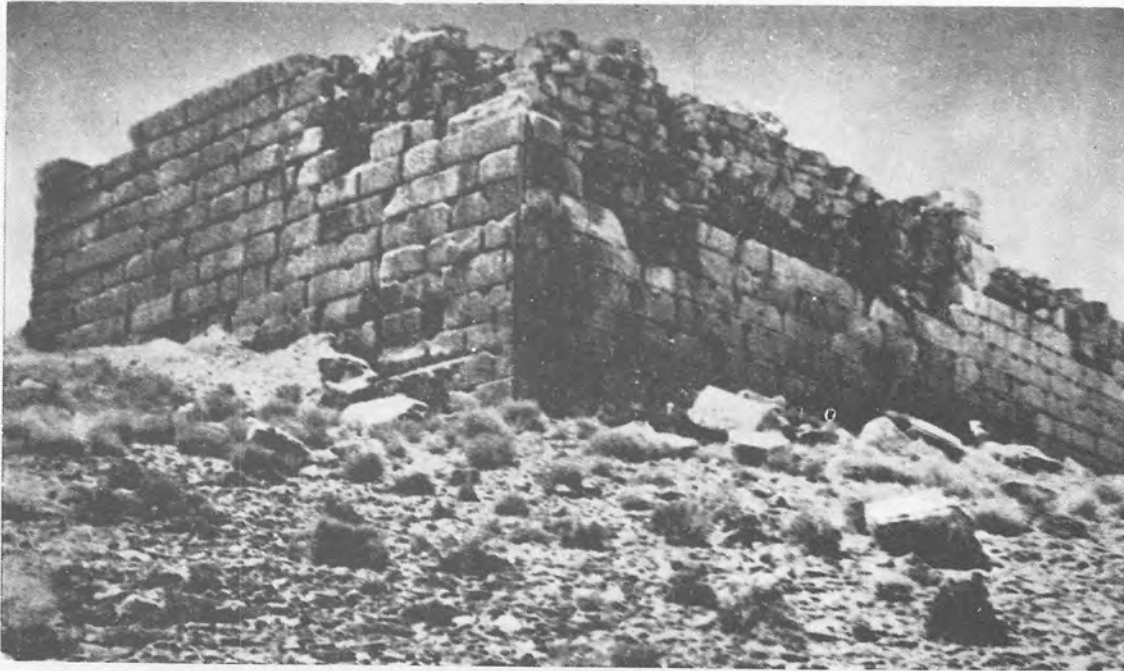
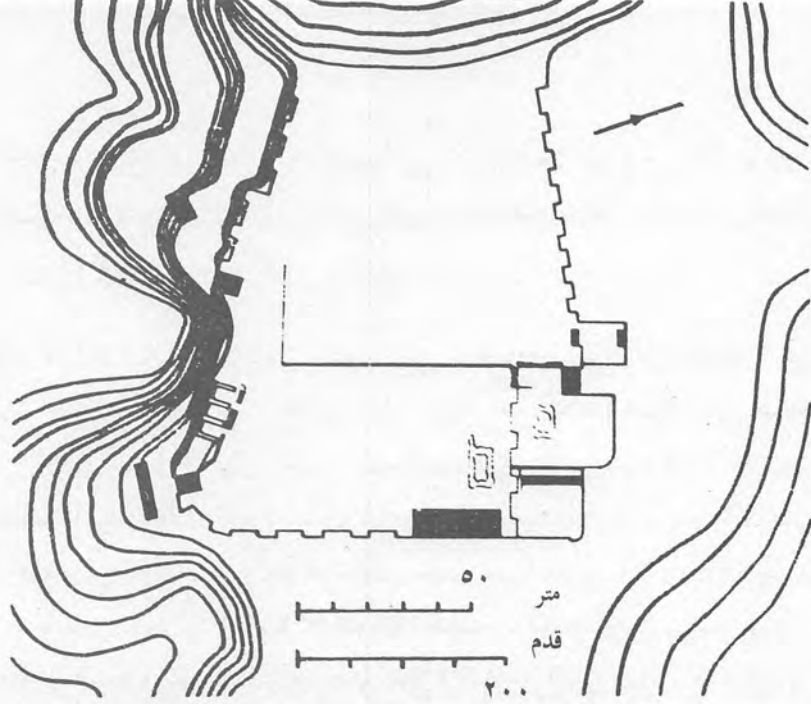
وثمة فتحة بالجهة الشمالية من هذه المقبرة لايزيد ارتفاعها عن مائة وخمسة وثلاثين سنتيمترا لها بابان متتاليان يقع أحدهما على الجدار من الخارج ، والآخر على الجدار من الداخل مطلا على غرفة الدفن . وقد شيدت المقبرة من الحجر الجيري الأبيض الجميل المنحوت بعناية والذي يبدو كالرخام وجاء السقف مستمًا من بلاطات ضخمة . ولما كانت المقبرة السكوذية حسبا وصفها هيرودوت — وأيد علم الآثار ما قال — تنتهي بأربعة أعمدة من الخشب ، ويعلوها سقف مستم من الخشب أيضا ، فإن مقبرة قورش الثاني في پاسارجاديه تعد النظير الحجري للمقبرة السكوذية الخشبية . وقديما أجرى زينوفون على لسان قورش قوله : « لم أوقط على أن أقنع بأن تلك الروح التي تحل في الجسد الفاني تخمد مع خروجها منه ، فهي باعثة الحياة في الجسد حين تأوى إليه . فإذا مات الإنسان تستحيل أعضاء الجسد إلى عناصرها الأولى . وما في مُكنة العين أن ترى الروح قارة في الجسد أو مغادرة له » . وتأتي النظرية الساسانية فيما بعد فتضيف إلى العناصر الأربعة المكونة لجسد الإنسان عنصرا خامسا وهو الروح . فعلى حين تعود الأجزاء الدنيا إلى عناصرها الأساسية النار والماء والأرض والهواء وهي الأسس الرمزية الأربعة للعالم السكوذي يرقى العنصر الأعلى صوب السماء .

وقد عثر في پاسارجاديه على ثلاثة نقوش سجلت عليها عبارة «قورش الملك الأخميني العظيم» مكتوبة باللغة الفارسية على النقش الأول وباللغة العيلامية على النقش الثاني وباللغة البابلية على النقش الثالث . ويظهر قورش مرتديا ثوبا فارسيا لاميديا ، وبدا وكأنه أضاف إلى أطرافه الأربعة الفانية — يديه ورجليه — أربعة أجنحة ، كما علت الروح رأسه . وقد رُمز لهذه الروح بذيل طاووس لم يظهر منه سوى ريشات ثلاث تتجلى أسفلها عيون ثلاثة ، ومثلها تعلو الرمز الملكي ( لوحة ٨٥ أ ، ب ) . وتعد مدينة پاسارجاديه معرضا شاملا للفن الفارسي الذي نلمس أثر الفن الميدي فيه . ومع أن هذا الفن يبدو مزيجا من عناصر مختلفة من الثيران الأشورية المنحثة والألوان البابلية المتعددة والرموز المصرية إلا أنه يشكل فنا قوميا متميزا .

لوحة ٧٨ مسجد سليمان . مسقط  
الشرفة .

لوحة ٧٩ باسارجاديه . شرفة تخت  
سليمان .

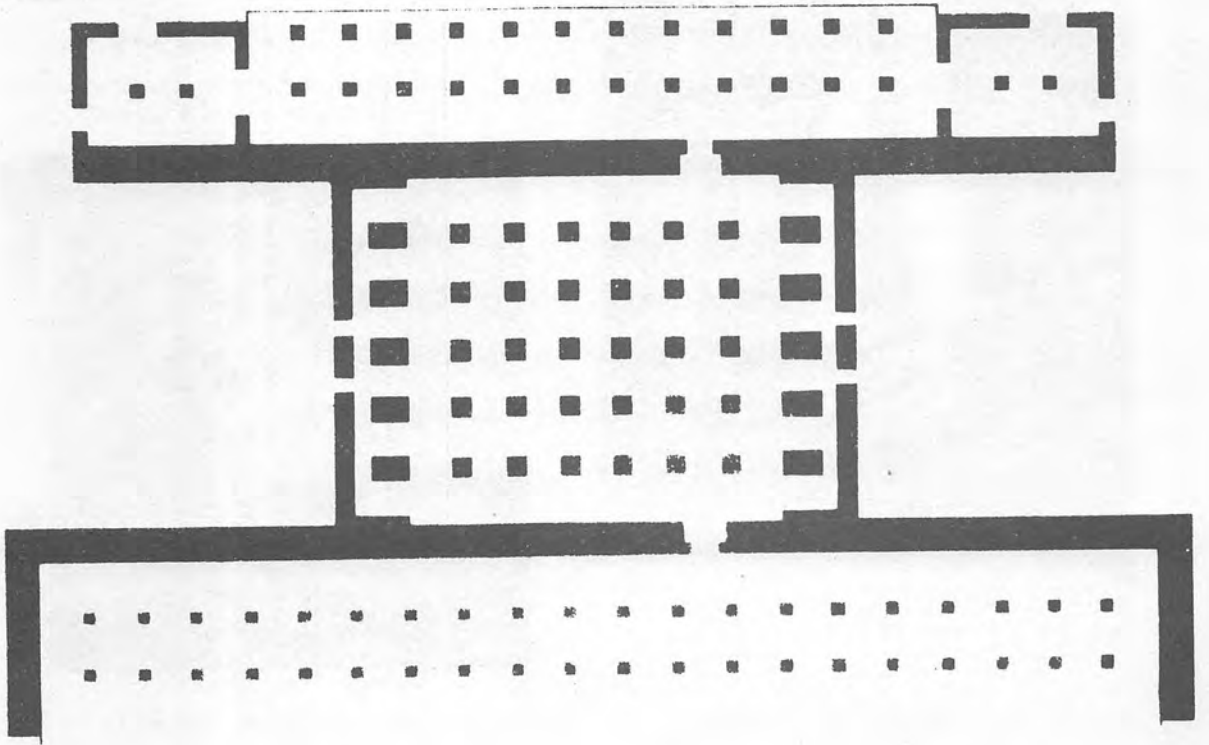
لوحة ٨٠ باسارجاديه . قصر  
جلسات قورش الأعظم ( الثاني )  
رسم تخيلي .



لوحة ٨١ باسارجاديه . قاعة  
الجلسات . نقش بارز يمثل إله الماء  
بساق آدمية وذيل سمكة يليه إله  
الخصب على شكل ثور . تصوير  
كاتب هذه السطور .



لوحة ٨٢ باسارجاديه . قصر إقامة  
قورش الأعظم . القرن ٦ ق.م .





لوحة ٨٥ ب نصب قورش  
الأعظم ، وقد كتب فوقه بثلاث  
لغات . رسم تخيلي .



لوحة ٨٣ اصطخر . بيوت النار .



لوحة ٨٤ باسارجاديه . مقبرة  
قورش الأعظم . القرن ٦ ق.م .  
تصوير كاتب هذه السطور .



لوحة ٨٥ أ باسارجاديه . فن  
أخميني . نصب قورش الأعظم القرن  
٦ ق.م . تصوير كاتب هذه السطور .

## سوسة

**وما كاد** داريوش يتولى الحكم حتى نقل عاصمته السياسية إلى سوسة ( لوحة ٨٦ ) .  
دون أن يهمل شأن العاصمة القديمة التي أصبحت مركزا دينيا ذا شأن يتوّج فيه الملوك . وقد وقع اختياره على سوسة لوقوعها بالقرب من الخليج العربي — الفارسي ، ولأنها كانت نقطة البداية لخطّين ملاحيين ينطلق أحدهما إلى مصر ويمضي الآخر إلى الهند ، كما عبّدت طرق رئيسية لربط سوسة بكل من پاسارجاديه وإكباتانا [ همدان الحالية ] وبابل .

ومنذ اكتشف إنسان الهضبة الإيرانية سهل سوسة ذا الطقس الجاف في الألف الرابع ق . م اكتسبت سوسة خلال أكثر من خمسة آلاف عام شأنها هاما في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فوق هذه الرقعة من إيران القديمة . وكان إنسان ما قبل التاريخ في سوسة خزّافا من الطراز الأول ومصورا جريئا ، عرف النحاس ونحت الأواني الحجرية وشكّل الدمى الفخارية ومارس الزراعة والتجارة وتربية الماشية وأخذ يتبادل مع جيرانه فائض إنتاجه كما عرف الكتابة حوالي عام ٣٠٠٠ ق . م .

وقدر لسوسة أن تصبح عاصمة مملكة قوية هي مملكة خوزستان [ عيلام ] ، وظلت العاصمة شاهدا على الحياة الممتدة لهذه المملكة الفريدة بين الامبراطوريات القديمة في آسيا الغربية ، وعرفت عهود رخاء وعظمة لا مثيل لهما ، إذ وضعتها عقيدتها الدينية وعلومها وفنونها على قدم المساواة مع الحضارات العظيمة المعاصرة في بابل وأشور ، وزحفت جيوشها المنتصرة صوب الغرب والشمال في غزوات مظفرة ، فكان أهلها خصما عنيدا للأشوريين الذين ألحقوا بعيلام فيما بعد هزيمة فادحة حين استباح جيش الملك أشور بانيبال المدينة فأشعل فيها النيران . غير أن فرحة أشور بانتصارها على عيلام لم تدم أكثر من ثلاثين سنة حتى ذاقت نينوى عاصمة الأشوريين المصير نفسه . فعلى أطلال الامبراطوريات



الآسيوية القديمة ولدت امبراطورية جديدة هي امبراطورية الفرس . وما كادت سوسه تنفض عن نفسها غبار الكارثة حتى نعمت من جديد باختيارها عاصمة للامبراطورية الأخمينية ، فأسس داريوش العظيم عاصمته الجديدة سوسه . وفوق البقايا العيلامية القديمة شيد قصرا شامخا وفق الطراز المعماري لپاسارجاديه ومسجد سليمان وسط شرفة فسيحة تضم أجزاءه الرئيسية الأربعة : المدخل الكبير وقاعة الجلسات وقاعة الاستقبالات ، وجناح السكنى ، وارتفعت أسقف القصر للمرة الأولى في تاريخ العمارة في العالم فبلغت عشرين مترا .

وعلى الرغم من تشابه صور الثيران الفارسية التي تزين تيجان الأعمدة مع النماذج الآشورية أو البابلية فإننا نستطيع أن نتبين الميل إلى « الطبيعية » والاتجاه إلى محاكاة القصر العيلامي ( لوحة ٨٧ ) .

وقد سجل أحد النقوش التي اكتشفت أخيرا أن داريوش استطاع إنجاز هذا العمل العظيم بمشدد موارد الامبراطورية كلها من أجل المشاركة في بناء هذا القصر ، فاستجلب خشب الأرز من لبنان ، والذهب من بختاري ، والفضة والأبنوس من مصر ، والعاج من الحبشة . وشارك الميديون في صياغة الذهب ، كما قام المصريون بنقش الخشب ، مما يكشف بجلاء عن مدى اتساع رقعة الامبراطورية ومدى مشاركة شعوبها استجابة لنداء هذا الملك العظيم ، ولقد رأينا مصر عند وفاة داريوش ترسل جرانيتها الوردية لإرساء قواعد أعمدة ضريحه .

وعاشت شعوب عدة في أرجاء هذه الامبراطورية الفسيحة الفتية من الإثيوبيين إلى الميديين ومن الإغريق إلى الهنود مشاركين بمهارتهم في تشييد هذا القصر المنيف . وما لبثت سوسه أن شدت إليها الرّحال سفراء أقطار العالم ، ولجأ إليها الملوك المخلوعون عن عروشهم وسياسيو الإغريق المبعدون بتهمة ممالأتهم الفرس . وما أكثر الشعراء والكتاب والفنانون والأطباء الذين وفدوا من منطقة بحر إيجه يملأون أهباء هذا القصر المنيف الحافل بالألوان الساطعة عارضين خدماتهم لملك الملوك .

ونحن لانشهد على جدران سوسه تلك المواكب الوقورة التي ستصادفنا في بربسيوليس ، وإنما نشهد مدينة خرافية يشكلها الضوء والألوان . وقد زحرت جدران القصر بوفرة من المشاهد الثرية الألوان تجمع أطياف قوس قزح<sup>(٦٥)</sup> ، وازدانت قوالب الآجر المزجج برماة السهام والحيوانات الخيالية النابعة من نفس الجنود التي نبعت منها الأفكار المصاحبة للديانات الآسيوية ، على غرار الأشكال المتناسقة التي ابتكرها الفنانون البابليون وتجمع بين حيوانات غير متجانسة .

والراجع أن تلك الألوان الساحرة التي استخدمها الفنانون فوق أجساد الجان وأجنحتها لأغراض سحرية في أغلب الظن قد أوحى بها عالم الأحلام الذي تسيطر عليه شطحات الخيال ، مثال ذلك اللوحة المزججة التي نشهد فيها بوهولين يلتفتان برأسيهما للوراء صوب باين ( لوحة ٨٨ ) ، وكانت مثل هذه

(٦٥) حين شاهد الأوريون نقوش داريوش في سوسه ويستون ظنوا أنها تروى قصة إستر العبرية التي ادعى اليهود فيها أن زوجة قورش كانت إستر اليهودية ، بينما يؤكد هيروودوت أن زوجة قورش كانت كاساندان .

اللوحات توضع على جانبي الباب فلا يعبر إنسان دون أن يلاحظه بنظرة عينيهما الغامضتين العسليتين . كما نرى إلى جانب الحيوانات الملققة الحارسة ( لوحة ٨٩ ) « موكب الخالدين »<sup>(٦٦)</sup> من أفراد حرس داريوش الخاص وأوفياؤه الذين خاضوا إلى جانبه الكثير من المعارك ( لوحة ٩٠ ، ٩١ ) . كذلك نشهد في سوسه مثلما سنشهد في پرسپوليس أفاريز بأكملها مخصصة لصفوف من الحرس ، غير أنها تتألق في سوسه فوق قوالب الآجر المزجج ، وتنبض في الضوء بفعل الألوان العسلية والصفراء المنبثقة على غرار بابل من خلفية زرقاء . ومن يدري ، فلعل هذا كان إرهاسا بزرقه قباب جوامع أصفهان التي بقيت حتى اليوم بلا نظير . وقد وجه الفنان عناية خاصة إلى الفروق العنصرية بين رماة السهام ، مميزا بين بشرة أهل الجنوب الداكنة وبين بشرة أهل الشمال الشقراء . وارتدى الرماة قمصانا بألوان صفراء ، أو قمصانا بألوان عسلية وأحذية صفراء ، وانسدلت شعورهم ولحاهم في خضرة الزيتون . ولم تكن هذه الثياب بوحداتها الزخرفية التي تصور النجوم المستديرة المنتشرة أو القلاع المربعة تتفق وثياب القتال لطلوها الذي يعوق الحركة ( لوحة ٩٢ ) .

ويصف هيروودوت هؤلاء الرماة الفرس بقوله : كان الثوب طويلا معوقا ، والأسلحة خفيفة من رماح تنتهي كعوبها بكرات معدنية من الذهب أو الفضة ، وأقواس أنهكت سهامها السيرطيين في معركة ثرموبيل ، وإن كانت قد عجزت عن تحقيق النصر في معركة « پلاتيه »<sup>(٦٧)</sup> .

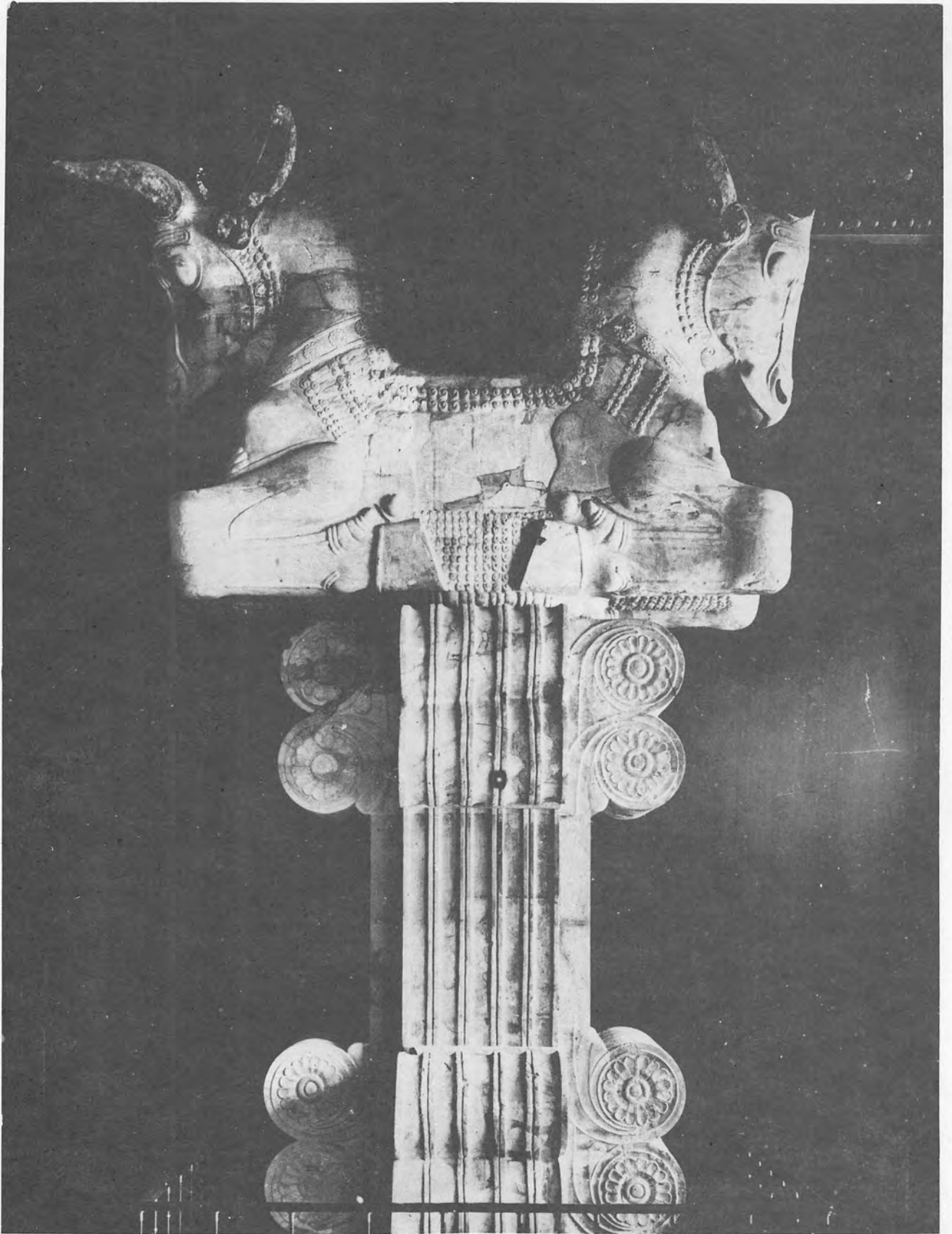
و حين أتى الحريق على قصر داريوش ولم يعد صالحا لاتخاذ مقر الملك شيّد في مدينة سوسه في الربع الأخير من القرن الخامس ق . م « قصراً منمنماً » يضم إلى حجرات السكن بهو أعمدة صغيرة بدلا من الإيوان « أبادانا » وقاعة الاستقبال المجاورة لجناح السكنى ، إذ لم يكن من المقبول أن تظل هذه المدينة دون مقر للملك . ولقد وصلت إلينا كافة الأحجار ذات النحت البارز المتبقية من القصر الصغير ، وهي المرة الأولى التي يشهد فيها سكان هذه المدينة زخارف القصر الملكي المنقوشة بالنحت البارز على الحجر . وعلى الرغم من أنها صيغت جميعها على وتيرة واحدة لالتزام النحات بتقاليد « الإيقونوغرافية التصويرية » إلا أننا نلاحظ اتسام إزميل النحات بالطابع الإنساني الذي يكشف عن تأثر بالفن الإغريقي ، فنرى خادما يسعى في رفق حاملا كأسا في مقدمته رأس بطة ، كما نلمس واقعية صارخة مرتسمة على فم الأسد المكشّر عن أنيابه ( لوحة ٩٣ ) .

(٦٦) هم الحرس الملكي المكون من عشرة آلاف فارس من أبناء النبلاء والأشراف يتقلدون سيوفا ذات مقابض ذهبية كبيرة ، وإذا سقط أحدهم في حومة الوغى حل مكانه آخر من صفوف الاحتياط بحيث لا يقل عدد الحرس عن عشرة آلاف في أية لحظة .

(٦٧) مدينة قديمة في بويوتيا باليونان على الجانب الشمالي الشرقي من سيطرون حيث تحدى پاوزانياس وأرستيديس الفرس عام ٤٧٩ ق . م .



لوحة ٨٦ سوسه — منظر عام ..



لوحة ٨٧ سوسه . تاج عمود مكون من رأسين لثورين متعارضى الاتجاه . من المرمر الأشهب . القرن ٥-٤ ق.م . بإذن من متحف اللوفر .

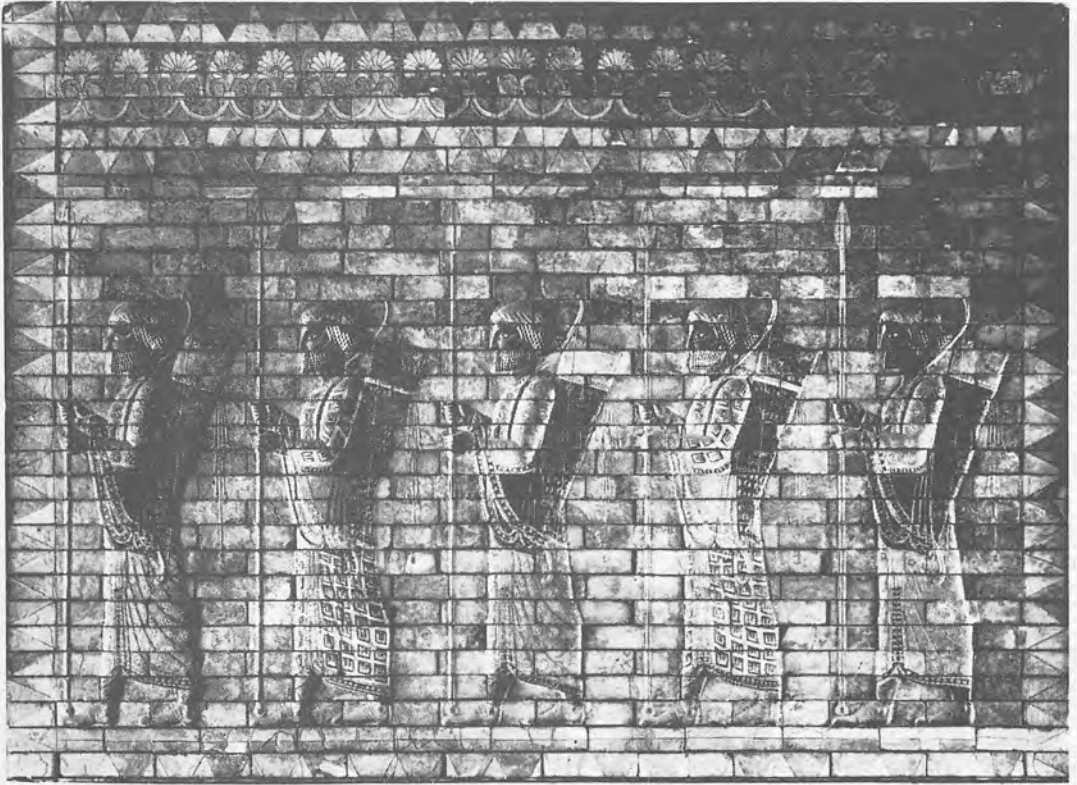


لوحة ٨٨ سوسة . لوحة جدارية  
من الحجر المزجج تمثل زوجا من أبو  
الهل المزجج وعلى رأسهما التاج .  
بإذن من متحف اللوفر .

لوحة ٨٩ سوسة . أسد خرافي  
بقصر داريوش . قرميد مطلي بالمينا  
[ آجر مزجج ] القرن ٥ ق.م . بإذن  
من متحف اللوفر .



لوحة ٩٠ سوسة . رماة الحرس  
الملكي [ الخالدون ] . من الآجر  
المزجج . القرن ٥ ق.م . بإذن من  
متحف اللوفر .



لوحة ٩١ سوسة . الحرس الملكي [الخالدون] . من الآجر المزجج . القرن ٥ ق.م . بإذن من متحف برلين .

لوحة ٩٢ سوسة . محارب من الحرس الملكي . القرن ٥ ق.م . بإذن من متحف اللوفر .

لوحة ٩٣ شطقة من نحت بارز تمثل أسدا مجنحا من الحجر . بإذن من متحف طهران .



## يرسيبوليس

**وللمرة الثانية** يقرر داريوش بناء عاصمة جديدة جديدة بعظمة الامبراطورية التي دعم أركانها بجمع كل ترمد ، والممتدة من مصر إلى نهر السند ومن الدانوب إلى نهر سيردريا ، واختار للعاصمة موقعا يبعد أربعين كيلو مترا جنوبي پاسارجاديه في موطنه الأصلي بإقليم فارس . وبدأ في تشييد يرسبوليس حوالي عام ٥٢٠ ق . م ، غير أنه قضى نجه قبل أن يكتمل بناؤها الذي اتصل ستين عاما فتابع عمله ابنه ثم حفيده .

ولقد حافظ المعمار يون هذه المرة أيضا على التقاليد الأخمينية المتوارثة بتشيد هضبة مستندة إلى جبل الرحمة « كوه رحمت » بعد تسوية الجزء البارز من سفحه ، مقيمين عليها أعظم مباني آسيا حتى ذلك العصر . واتخذت تلك العاصمة الجديدة طابعا خاصا ، فهي لم تكن عاصمة سياسية أو إدارية بل كانت تمثل قطعة تامة مع تقاليد الدول الآسيوية الكبرى مثل بابل وأشور وعيلام التي سبقت الامبراطورية الفارسية في هذه الرقعة من العالم . وقد دفعت الروح الانفصالية التي انتشرت في أنحاء الامبراطورية داريوش إلى تشكيل حكومة مركزية تقوم على أساس المساواة والعدالة عن اقتناع بأنه إذا شاء أن يحكم امبراطورية قوية سليمة . فلا معدى عن أن تحيا الشعوب الخاضعة حياة كريمة دون أن تعاني إذلالا . وكانت الثورات الدامية التي اجتاحت الامبراطورية البابلية والعيلامية والأشورية والتي سبقت الامبراطورية الأخمينية على أرض فارس قد أقتعت داريوش بأن الشعب السيد هو وحده الجدير بالثقة ولهذا اختار ولاية الأقاليم المغلوبة من الأسر الفارسية والميدية الرفيعة ، وآثر أن يحتفظ كل شعب من شعوب الامبراطورية بلغته ونظمه وعميدته على أن يحترم سلطة الامبراطورية ووحدها المتمثلة في شخص الملك المتربع على العرش بإرادة أهورا مزدا خالق كل شيء ( لوحة ٩٤ ) . كذلك أفسح داريوش للغات ثلاث أخرى أن تعيش إلى جانب اللغة الأرامية التي سادت في المعاملات اليومية . وأقيمت حفلات عيد النوروز تحت رعاية الإله الكبير مسامرة للشعور القومي ، وكان على الشعوب المحتلة أن تقدم الهدايا للشعب الغازي من الفرس والميديين .

وقد امتدت الهضبة على مساحة طولها خمسمائة متر مربع وعرضها ثلاثمائة متر ، وارتفعت المباني فوقها إلى ثلاثة عشر مترا ( لوحة ٩٥ ) . وتعد بيرسيبوليس النموذج الأمثل للمدينة الملكية الأخمينية التي نطالع فيها فنا ابتدع خصيصا للبلاط الملكي ، فقد شيد المهندسون الأخمينيون أمام سفح الجبل غابة كثيفة من الأعمدة التي تعلوها التيجان الضخمة . وليست ثمة صلة بين هذه الأعمدة وبين النسب الإنسانية المألوفة ، إذ ترتفع إلى مدى واحد وعشرين مترا حتى ليبدو البشر إلى جوارها كالأقزام . وقد استقر التصميم المعماري الأخميني بصفة قاطعة منذ فجر الامبراطورية دون أن يطرأ عليه أى تغيير حتى أصبح العمود — هو كما سنرى تلك الظاهرة الأساسية في العمارة الأخمينية التي أهدمت المعمارين تشييد الإيوان أو « الأبادانا » — أشبه بهاجس يستحوذ على أفكار المعمارين ، وقد أسرف الأخمينيون في استخدامه فزحموا به القاعات والأبهاء والغرف في بيرسيبوليس . ولو أننا أعنا الفكر في ذلك العدد المذهل من الأعمدة الذى كان يزيد على خمسمائة وخمسين عمودا مشيدا في تلك المساحة المحدودة لتولانا الدهول أمام هذه المغالاه . ولا شك أن الفنانين الفرس كانوا يتطلعون إلى الإيحاء بعظمة ملكهم عن طريق تكرار صيغة واحدة بعينها ، وهو الأمر الذى نشهده كذلك في النقوش الأخمينية الزخرفية .

وقد اتخذت قواعد الأعمدة شكلا مربعا أو شكل ناقوس مقلوب أو باقة من سعف النخيل وكأنها تاج عمود مصري مقلوب ( لوحة ٩٦ ) . وتحمل الأعمدة تيجانا على هيئة تويج الزهرة ، تعلوه كتلة مربعة يزين كل سطح من أسطحها أربع لفائف حلزونية على غرار التاج الأيوني ، يعلوها صدرا حيوانين يولى أحدهما ظهره للآخر من ثيران وعقبان أو ثيران ذات وجوه بشرية ( لوحة ٩٧ ، ٩٨ ، أ ، ب ، ٩٩ ، ١٠٠ ) . وعلى حين استخدمت الأعمدة الكاملة في الداخل استخدمت الأعمدة التي تتركز الحيوانات المتدابرة فوق أبدانها مباشرة دون التاج في أروقة المدخل ( لوحة ١٠١ ) . وقد ابتكر المعماريون أربعة طرز من تيجان الأعمدة تستخدم في مختلف أجزاء القصر من رواق المدخل حتى قاعة العرش ( لوحة ١٠٢ ) الأمر الذى لم تعرفه سوسه ، وارتكزت أطراف كمرات السقف بين الفجوات التي تفصل بين ظهرى الحيوانين المتدابرين ( لوحة ١٠٣ ) . وأغلب الظن أن فكرة هذا التكوين مستوحاة من نماذج إنشاءات خشبية شاعت في شمال البلاد ، حيث كانت أطراف كمرات السقف تندس داخل فجوة بالطرف العلوي للعمود . وقد لجأ الفرس إلى تحويل هذه الفكرة الإنشائية في خلق تكوين معماري زخرفي يعتمد على الإيقونوغرافية الفارسية التي لعبت فيها أشكال الحيوان دوراً رئيسياً منذ قرون عدة .

ومن المشاهد في العمارة القديمة — مصرية كانت أو إغريقية — أن الحجر أو الرخام كانا المادة المستخدمة في تشييد الأعتاب فوق الأعمدة . ولما كانت جهود الشد والانحناء في الأعتاب الحجرية تقضي بالأزيد باع الفتحات بين عمود وآخر عن ستة أمتار فقد أتاح استخدام الأخشاب كأعتاب للسقف فوق الأعمدة وضع كمرات ذات أطوال تفوق ذلك الحد الأقصى ، ومن ثم تسنى للفرس باستخدامهم الكمرات الخشبية الحد من عدد الأعمدة ، وأمكنهم أن يكتفوا بإقامة ستة وثلاثين عمودا



فقط داخل مربع طول ضلعه ستون مترا لحمل سقف «الأبادانا» موقرين بذلك باعا يزيد عن ثمانية أمتار (لوحة ١٠٤) .

وتكشف لنا دراسة تخطيط پرسپوليس عن أن داريوش لم يدر بخبلده أن تكون حصنا بل ملتقى لتجمع الشعوب التابعة للامبراطورية ، ويؤكد درج القصر الكبير المنفتح على الخارج الطابع السلمي له وكأنه يرحب بالوافدين الذين لاتقع أبصارهم على أسوار أو أبراج توحى بالبطش والطغيان ، بل على منظر القصر المنيف الذى لايزال حتى الآن وكأنه يدعو الزائرين إليه وهم مازالوا على مبعده .

كذلك فإن مجموعة المباني لم تنقسم إلى قسمين : رسمي وخاص بالمعيشة على محور التخطيط ، لأن مثل هذا التقسيم كان يتعارض مع فكرة الانفتاح التى اعتنقها كل من داريوش وخشايارشا . وكان كبار رجال الدولة يرتقون في عيد النوروز<sup>(٦٨)</sup> ذلك الدرج العريض منطلقين إلى ساحة القصر ، ثم يدلفون من بوابة خشايارشا بعد مرورهم بالحيوانات الحارسة ( لوحة ١٠٥ ، ١٠٦ ) ليعبروا قاعة الاجتماعات التى أودع داريوش في أساسها ( لوحة ١٠٧ أ ، ب ) صندوقين قُدا من الحجر يمتوى كل منهما على لوحين تذكارتين إحدهما فضية والأخرى ذهبية ، نقش عليهما نص باللغات الثلاث الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية ، وأقيم درجان ضخمان في الجانبين الشمالي والشرقي ( لوحة ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ) يقودان إلى داخل القصر ، يتوسط كل منهما حراس ثمانية حول نقش ملكي من لوحين تملان انتصار قوى الخير على قوى الشر في صورة أسد يفتك بثور وحيد القرن ( لوحة ١١٤ أ ، ب ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ) . ونقش على السطح الخارجي من سور الدرج مشهد موكب ممثلي الدول الخاضعة للامبراطورية ( لوحة ١١٨ ، ١١٩ ) ، في حين نقش على السطح الداخلي صفان متقابلان من الحراس الفرس والميديين يمر بينهم الملك وكبار رجال الدولة ( لوحات ١٢٠ أ ، ب ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ) . ومن المرجح أن الملك ورجال حاشيته كانوا يشاهدون موكب الشعوب الحاملة للجزية من المقصورة الملكية . ويعلو جدار سور القصر نقش يصور موكب الشعوب الثلاثة والعشرين<sup>(٦٩)</sup> التابعة للامبراطورية . وتجمع هذه النقوش إلى جانب قيمتها الزخرفية قيمة إخبارية ، إذ تروى الوقائع والأحداث التى يشهدها ضيوف الملك للعامة من الناس العابرين بالمبنى .

فنشاهد في الصف العلوي أهل سنوسه يحملون الحراب ( لوحة ١٢٥ ) والعيلاميين يحملون أقواسا وخناجر ولبؤة وشلبها ( لوحة ١٢٦ ، ١٢٧ ) والبارسيين يقدمون جملا ذا سنامين وجلد حيوان ( لوحة ١٢٨ ) ، والسغديين أهل تركستان يقدمون أوعية زاخرة بالنفائس وجلد حيوان ، والبختياريين سكان سيستان يقدمون أوعية وجملا ذا سنامين ( لوحة ١٢٩ ) ، والميديين يقدمون ثيابا وجوادا ( لوحة ١٣٠ ، ١٣١ ) . ثم نرى في الصف الأوسط الأرمن يقدمون جوادا ووعاء ( لوحة

(٦٨) هو عيد رأس السنة ، ونو بمعنى يوم وروز بمعنى جديد ، وهو أهم أعياد الديانة الزردية .

(٦٩) الواقع أنهم ثمانية وعشرون شعبا لم يظهر منها في النقوش غير ثلاثة وعشرون .

، والبابلين يقدمون أوعية مليئة بالذهب والفضة وأقمشة وثورا ( لوحة ١٣٤ ، ١٣٢ ) ، وأهل سيليسيا بآسيا الصغرى يقدمون أوعية وجلودا مدبوغة وثيابا وكيشين ( ١٣٥ ) ، والسكوذيين بأغطية رؤوسهم المدببة يقدمون جوادا وأساور ذهبية ولفافات أقمشة وسراويل [يحتمل أن يكونوا أهل طراقيا] ( لوحة ١٣٧ ) ، والسكوذيين الوافدين من قرب سمرقند يقدمون خنجرا وأساور وبلطات وجيادا ( لوحة ١٣٨ ) ، والأشوريين يقدمون ثورا ودرعا وحرية ( لوحة ١٣٩ ) . على حين نرى في الصف الأول الفينيقيين يقدمون أواني زهور ذهبية وأوعية وأسلحة ومركبة يجرها جوادان ( لوحة ١٤٠ ، ١٤١ ) ، والكبادوكيين، بآسيا الصغرى يقدمون جوادا وأردية والليديين من سارديس يقدمون أوعية مليئة بالفئاس ولفافات الأقمشة ( لوحة ١٤٣ ) ، والأراخوزيين قرب أفغانستان يقدمون أوعية وجملا ذا سنامين ، والهنود يتقدمهم أحد البراهمة ( لوحة ١٤٤ ، ١٤٥ ) . وتمثل الزخارف المنقوشة من الداخل على جدران الدرج الطراقيين وأهل شرق مقدونيا يقدمون الدروع والحراب وجوادا ( لوحة ١٤٦ ) ، والعرب يقدمون ثيابا وجملا وحيد السنام ، والأشوريين يقدمون درعا وحرية وثورا ، والصوماليين يقدمون عنزة جبلية ومركبة يجرها جوادان ، والأحباش يقدمون أنياب الفيل وزرافة .

وقد جاءت في نقوش الدرج العبارة التالية «أهورا مزدا رب الأرباب خالق السموات والأرضين . أنا خشايارشا ملك الملوك ، ملك الممالك ، ملك الشعوب المتعددة ، ملك هذه الأرض الفسيحة الممتدة ابن داريوش ملك الأخمينيين . كل ماحققته هنا وفي غير هذا المكان هو بمشيئة أهورا مزدا . ليت الآلهة تسبغ حمايتها علي وعلى مملكتي وعلى كل ما أنجزته» .

وأغلب الظن أن الملك كان يتجه تحت مظلته مع الأشراف ( لوحة ١٤٧ ) بعد انتهاء الموكب إلى قاعة ذات ثلاثة أبواب «تريپليون» بينما يقف الأشراف من الفرس على جانب من الدرج ، وأشراف الميديين على الجانب الآخر ، ثم يعبر الملك قاعة ذات أربعة أعمدة ( لوحة ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ) ، ( ١٥١ ، ١٥٢ ) .

وقد صورت النقوش على جانب سور الدرج الخدم وهم يحملون ألوان الطعام في الوليمة التي تقام في قصر داريوش ( لوحة ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ) ، وموكب الملك والمدعويين متجهين إلى القاعة ذات الأبواب الثلاثة والملك متربع على عرش يحمله ممثلون لثمانية وعشرين شعبا من شعوب الامبراطورية<sup>(٧٠)</sup> ، وخلفه ولي عهده خشايارشا ، ويعلو العرش هودج يتجلى فيه الإله الأعظم «أهورا مزدا» ( لوحة ١٥٦ ) ، ثم دخول الموكب قاعة العرش ذات الأعمدة المائة من الأبواب الملكية ، ومثول رؤساء الوفود مع بعض أفراد الحاشية بالباب الشمالي في انتظار الإذن لهم بالدخول لتقديم هداياهم الثمينة ، ويعلو البابين الشرقي والغربي نقش «البطل الملكي داريوش» الأعظم وهو يصرع حيوانا خياليا يرمز للظلام والأعداء ، وله رأس أسد وقرن ثور وحيد القرن وجناحا نسر وذيل عقرب قائمهما الأماميان

(٧٠) بلغ عدد شعوب الامبراطورية ثلاثين شعبا يستثنى منهم الفرس والميديين فلا يحملون العرش مع غيرهم من الشعوب المغلوبة .

والخلفيان مخلبا نسر . وقد ظهر داريوش وهو يقتل الحيوان بذراعه اليمنى بينما بدا في اللوحة المقابلة له يصرعه بذراعه اليسرى رمزا لقوة ساعديه وكأنه يريد بذلك إلقاء الرعب في نفوس الوفود التي تعود بعد تقديم الهدايا خارجة من بوابة خشارياشا ( لوحة ١٥٧ ) .

واعتماد علماء الآثار إطلاق اسم «الأبادانا» على القاعة ذات المداخل الثلاثة — والتي كان داريوش يطل من شرفتها رافعا يده تحية لرماة السهام الذين كانوا يضمون أيديهم . إلى افواههم علامة التقديس والولاء — كما أطلقوا اسم «قاعة العرش» على بهو الأعمدة الكبير ذى الأعمدة المائة المشيدة إلى الشرق من فناء القصر .

وخلال العهد التالي لداريوش اكتشف أردشير الأول أنه لا يستطيع فرض المزيد من الجزية على الشعوب الخاضعة له بعد ما خرجت عليه مصر وسوريا وكلدانيا وسوسه بل وفارس نفسها ، فلجأ إلى أنتهاب شعبه نفسه بفرض سائر أنواع الضرائب ليشتري خدمات اليونانيين والسكوديين بالمال . ونجد قاعة العرش التي شيدها أردشير الأول إلى الشرق من الفناء بالقرب من خزائن الكنوز التي سلبها من الشعوب ، مزدانة بنقش للملك مرتديا ثياب أهورا مزدا يتقبل الطاعة والولاء من أفراد حاشيته وهم يحرقون له البخور . ونشهد في نقشين بارزين العرش يرفعه صفوف عدة من الرجال ، يمثل كل منهم ولاية من الولايات التابعة لفارس بينما يتصاعد البخور من مبخرتين كبيرتين أمام ملك الملوك مثل تلك المباخر التي نجدها تحت عرش الإله . وتصور نقوش أبواب القاعة الشمالية الملك جالسا أمام هيكل النار المقدسة ، بينما يقف مدير المراسم ومعه معاونه الذي يتسلم خراج الشعوب المختلفة ، ويحيط به حراس مسلحون ينقلون الهدايا الثمينة إلى الخزائن الملكية ( لوحة ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ) .

على هذا النحو انبرى الفنان الفارسي يقدم للعالم صورة لعظمة تلك الامبراطورية الفارسية برعاياها الخاضعين لسيطرتها ، الذين يبلغون مئات الألوف ، فلجأ إلى النقش الخفيف البروز الذي زخرف به القصور وعكس من خلاله روعة البلاط الفارسي وجلاله والبذخ الذي كان يعيش فيه ملوكهم . وإذا كان الملوك الأشوريون قد أحاطوا أنفسهم بما أحبوا أن يحيط بهم من مشاهد الهمجية الوحشية مثل مشهد مأدبة أشور بانبيال وزوجته حيث تدلت أمامهما رأس ملك العيلاميين المهزوم ، ومشاهد الأكوام الهائلة من رؤوس الأعداء المفصولة عن رقابها وقد عكف الكتبة على إحصائها ، وأجساد الأعداء وقد نفذت في أدبارها الخوازيق فوق خلفية من المناظر الطبيعية ، ومثل المشاهد التي يعدونها تحذيرا للأمم من المصير الذي ينتظرها إذا تمردت ، ومشاهد المعارك الحربية التي تترك الأجساد ممزقة ملطخة بالدم في وحشية ، وأخيرا مشاهد الصيد الناطقة بشجاعة الملك ، فإن الفرس لم يلجأوا إلى هذه الوحشية وإنما زيتوا حاجز الدرج وجدران القصور بأفاريز زخرفية ضخمة كان موضوعها المختار هو الوليمة التي يحتشد فيها رجال البلاط حول الملك بينما يتقدم نحوه صف طويل من حاملي الجزية .

وقد وفق الفنان الفارسي في بث الحياة في هذه اللوحات الخلابية من خلال تنوع الشعوب والجزية المقدمة ، فبزت تلك المحاولة المتواضعة التي ظهرت على المسلة السوداء للملك شلمنصر بنمرود ، إذ

نرى الشخوص متشابكة الأيدي يلتفت أحدهم إلى من خلفه يحدثه ، ويضع آخر يده على كتف من يتقدمه ، وإن أحس المشاهد في النهاية بشيء من الإرهاق والملل في تتبع هذه المشاهد التي لا تفتأ تتكرر في كل القصور ، بل هي تتكرر أحيانا عدة مرات فوق جدران القصر نفسه ، وهو النهج ذاته الذي اتبع فيما بعد في تمثيل مشهد ميلاد المسيح وصلبه فوق الكاتدرائيات الأوروبية . لقد كان الهدف الأكبر للفنان الأخميني هو تقديم إفريز زخرفي ضخمة مماثل ، يضم موكبا من تماثيل حجرية ذات وضعات مجانبة ومنبثقة من الجدران .

ولقد أعد الأثريون رسما يبين مواقع المباني المختلفة التي أقامها داريوش وخلفاؤه في مدينة برسپوليس ( لوحات ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ) فإذا هي :

- ١ — الدرج الرئيسي الذي يؤكد الطابع السلمى للمدينة .
- ٢ — بوابة خشايارشا ( بوابة جميع البلاد ) .
- ٣ — طريق الموكب .
- ٤ — الدرج الشمالي للإيوان «أبادانا» .
- ٥ — الإيوان «أبادانا» .
- ٦ — الدرج الشرقي للإيوان «أبادانا» .
- ٧ — قاعة الأعمدة الثلاثة .
- ٨ — قصر داريوش المخصص للولائم الرسمية .
- ٩ — قصر خشايارشا المخصص للولائم الرسمية .
- ١٠ — بهو الأعمدة المائة أو قاعة العرش .
- ١١ — بوابة لم تكتمل .
- ١٢ — الشكنات العسكرية .
- ١٣ — الشكنات العسكرية .
- ١٤ — الشكنات العسكرية .
- ١٥ — بهو الأعمدة المائة ( الجزء الثالث من الخزانة الملكية ) .
- ١٦ — بهو الأعمدة التسعة والتسعين ( الجزء الأوسط للخزانة التي أقامها داريوش لتكون قاعة عرش مؤقتة ) .
- ١٧ — مخازن الخزانة الملكية .
- ١٨ — الواجهة الجنوبية للهضبة المطلة على السهل تتوسطها المقصورة الملكية .
- ١٩ — المقصورة الملكية .

ومن المعروف أن الأخمينيين قد عهدوا إلى اليونانيين والليديين بنحت الأعمدة — كما يروى نص داريوش — غير أن الاختلاف بين العمود الأخميني والعمود الإغريقي الذى لم يصل إلى ارتفاع العمود

الأخميني ولم ينحت له تاج مركب من حيوانات ، يجعلنا نعتقد أن اليونانيين الليديين لم يكونوا غير عمال منفذين لأعمال قام الفرس بإعداد تفاصيلها الدقيقة رغبة في احتفاظهم لأنفسهم بجزية التعبير . ولم تكن الأعمدة دائما من الحجر بل كانت تتخذ في كثير من الأحوال من الخشب المغطى بطبقة من الجص المطلي باللون مشرقة ، بيضاء وزرقاء وحمراء ( لوحة ١٦٤ ) .

وكانت البوابة الرئيسية ذات مسقط مربع على غرار بوابة باسارجاديه ، ويرتكز سقف قاعتها الداخلية على أربعة أعمدة ، ويحرس مدخلين من مداخلها زوجان من الثيران على نحو ما كان متبعاً في آشور ، بينما ازدان الطنف العلوي بين الأعمدة بزخارف منقولة نقلا دقيقا من الزخارف المصرية ( لوحة ١٦٥ ، ١٦٦ أ ، ب ) .

وعلى حين شيدت مقصورة الملك من الحجر شيدت بقية المباني الأخرى من الطوب اللبن ، وفتحات الأبواب والنوافذ والكوات من الحجر المنحوت سواء في كتلة حجرية واحدة أو بتجميع كتل ثلاث أو أربع بعضها مع بعض . وترتب على ذلك أن اختفت جدران قصر داريوش المبنية بالطوب اللبن بينما بقيت في مكانها حتى اليوم الأبواب الحجرية وإطارات النوافذ ، تشهد في صمت على المجد الغابر المندثر . وإذا كانت أغلب عمائر پرسپوليس قد تهدمت فإن زخارفها الرائعة ظلت مدفونة تحت الأطلال فخلصت بذلك من أيدي الغزاة ومن صروف الدهر .

وإذا كان الأخمينيون قد أولوا زخارف النقش الخفيف البروز عناية خاصة فإنهم لم يهتموا بالنحت الجسم إلا في تيجان الأعمدة ، ولهذا لم يتركوا لنا سوى نماذج قليلة من فن النحت سنعرض لها فيما بعد . وقد لجأوا إلى أسلوبيين في النقش الخفيف البروز أحدهما اعتبار الكتلة الحجرية كلا مستقلا بذاته ، وثانيهما استخدام عنصر متكرر يشكل تكوينا شاملا «پانوراميا» كبيرا ناشئا عن التجاوب بين العديد من العناصر المعدّة من قبل . والأمر الجدير بالملاحظة أن الأخمينيين قد حاكوا الأشوريين محاكاة صريحة وبالغوا في ذلك حتى باتوا عاجزين عن التغلب على الرتابة المثيرة للملل ، وتمادوا في هذا التكرار اللا نهائي للموضوع نفسه باعتباره نشيدا يخلد مآثر الملك وانتصاراته التي حققها في ميدان الحرب ، وإن حرصوا على تصوير مواكب دافعي الجزية الوافدين من ثمانية وعشرين دولة مختلفة وكأن هذه الشعوب تنزل عنها وتقدمها بمحض إرادتها وعن طيب خاطر منها إثباتا لتعلقها الشديد بملكها وتعبيرا عن ولائها له ، فيبدو الملك على الدوام مرحباً بمن يمثلون بين يديه ولكن في تحفظ ووقار . وإذا كنا نرى بعض أعضاء الوفود ينحنون أمام داريوش ، فقد كان ذلك عن رهبة من جنود الحرس الذين كانوا يقفون متحفزين للتدخل عند أبسط إشارة . وكانت حراسة قصور پرسپوليس ، شبيهة بحراسة قصور آشور ، بيد أن الأخمينيين قد استبعدوا الجنى واكتفوا بعدد قليل من تماثيل بوهول في الخارج رمز أهورا — مازدا ، ونحتوا فرقة «الخالدين» مكونة من عشرة آلاف من الجنود الحرس الامبراطوري كما مر بنا .

ومن العسير إنكار تأثر الأخمينيين بالأفكار الأشورية والبابلية في مجال الزخرفة المعمارية . فالنقش الذي يصور رجلا يحملون العرش منقول عن آشور ، شأنه في ذلك شأن البطل الذي يُخضع شبلا

بساعده الأيمن ( لوحة ١٦٧ ) الذى يذكرنا بالنقش الأشوري الذى يصور منظرا لجلجامش ممسكا بالشبل في خرصاباد . كذلك فإن مواكب دافعي الجزية منقولة عن قصر سرجون الأكدي ، غير أن التقنية مختلفة إذ تتجلى الرقة والعناية بالتشكيل ، والجهد الكبير في إضفاء الحيوية على الملابس بطياتها وتموجاتها ، على غير ما هو معهود في أثواب الآشوريين ، مما يوحى بتأثرهم بالغرب . وقد حرص داريوش على أن يكشف في ميثاقه عن أن النحاتين كانوا أيونيين وليديين من سارديس ، وأنهم قد تفوقوا على الفرس والميديين في إضفاء الإحساس بنسمة الريح المتوجة فوق سطح الحجر ، وإن كانوا لم يتدعوا جديدا فقد استنسخوا تقنة الثياب المنسدلة ذات الطيات شاهدا على الحضارة المرفهة التى حرصوا على التأكيد بأنهم أصحابها . كذلك اقتبس الأخمينيون عن الإغريق الملابس الفضفاضة التى تحرّكها النسائم . وتبرز من بين الوجوه الأخمينية المتشابهة في وضعاتها وقسماتها وجوه أخرى تنقلنا إلى عالم الغرب ، وهو مانجده في أشكال خدم قصر داريوش أو خشايارشا ذوى الوجوه المُرْد المسكين بقنينة عطر في يد وبمنشفة مطوية في اليد الأخرى ( لوحة ١٦٨ ) ، فما أبعدهم عن «أغوات» الآشوريين الشبان المكتنزين لحما الذين أشار إليهم سفر دانيال حين وصف شبان بلاط بابل قائلا : «وعند نهاية الأيام العشرة ظهرت مناظرهم أحسن وأثقل لحما من كل الفتيان الآكلين من أطايب الملك»<sup>(٧١)</sup> ، فخدم برسبوليس ممشوقو القوام ، وأشبه بالفتيان الإغريق ، ولولا الثياب وغطاء الرأس لما ظن أحد أنهم من سكان الهضاب الإيرانية .

على أن فن النقش البارز الأخميني قد حافظ في مختلف القرون على أساليبه الفنية حتى رُمى بالجمود وقصوره في مجال التعبير التشكيلي وعجزه عن الإيحاء بالبعد الثالث ، وعن تنسيق المجموعات التى تتألف منها المواكب ؛ إلا أنه كان على الرغم من ذلك يتفق وعظمة القصور التى أقامها داريوش وخلفاؤه ، والتى تعد صورة صادقة للروح الفارسية الرفيعة . فلم يعن بالمشاهد الدموية كتلك التى ظهرت في بعض لوحات الفن الآشوري ، كما لم تظهر في المواقع الأثرية لوحات صغيرة تمثل حياة الأسرة كتلك التى تصور الملوك الآراميين الذين حكموا شمال سوريا .

وإذ كانت سوسة على مقربة من بابل فقد كانت أقرب شها بمدن بلاد الرافدين منها بمدن الأخمينيين . وكان الاختلاف بين سوسة وبرسيبوليس واضحا غير أنه لم ينطو على تناقض ما ، إذ كانت تسودهما حضارة واحدة وفن واحد وإن كان أثر البابليين على سوسة أقوى منه على برسبوليس ، وهو أمر واضح في مجال المعمار والزخرفة . ومانكاد نلقي نظرة على الأبنية الثلاثة المتجاورة في قصر سوسة الممتدة على محور واحد يصل بين الشرق والغرب حتى نستحضر في أذهاننا القصور البابلية . أما الجديد الذى يقدمه الفرس فهو بهو الأعمدة والأروقة الخارجية وتيجان الأعمدة ذات الوجهين ، وهى كما قدمت أخمينية أصيلة .

وإذا كانت برسيبوليس قد لجأت إلى تقنية بابل في الزخرفة بلوحات الآجر المزجج ولكن في حدود ضيقة أشد الضيق ، بينما مضت تتوسع في النحت البارز على الحجر ، فإن سوسه قد استخدمت النحت البارز في حالات نادرة وغطت جدرانها بزخارف الآجر المزجج على نحو الطراز البابلي الحديث . ولو أن أسودها قد حلت محل تلك التي كانت تزين طريق المواكب أو قاعة نبوخذ نصر في بابل قبل ذلك بمئتي سنة لما أحسنا فارقا ما ، إذ كانت ثيران سوسه نسخة من تلك التي كانت تزين قلعتي بوابة عشتار باستثناء الأجنحة .

وكانت ألوان الطنافس تتفق وألوان اللوحات ، التي تغلب عليها الألوان الصفراء والخضراء والزرقاء والبرتقالية والذهبية . وتأييدا لهذا تحكي بداية سفر «استر» قصة حفل أقيم في فناء حديقة قصر سوسه : «وعند انقضاء هذه الأيام عمل الملك لجميع الشعب الموجودين في شوش من الكبير إلى الصغير وليمة سبعة أيام في دار جنة قصر الملك ، بأنسجة بيضاء وخضراء واسمانجونية معلقة بجبال من بزّ وأرجون في حلقات من فضة وأعمدة من رخام وأسرة من ذهب وفضة على مجزّع من بهت ومرمر ودرّ ورخام أسود» (٧٢) .

. ولأول مرة يبدو أن الدين لم يكن مصدر الإلهام الوحيد في الفنون . والمعروف أن الأشوريين كانوا لا يعنون بإبراز قسمات آلهتهم العظمية في نقوش قصورهم مع أنها كانت عامرة بصور الكائنات السماوية ، في حين عزف البابليون الجدد عن تصوير الآلهة والكائنات السماوية معا مكتفين بالحيوانات الرمزية المنتسبة إلى آلهتهم . لقد تضاءل التصوير الديني عند الأخمينيين إلى حد بعيد واستعار بعض الأشكال الأشورية كالقرص المجنّح ، وإن جعل فوقه أحيانا الجذع الإلهي لأهورا — مزدا . وظهرت لوحات التصوير الديني النادرة في القصور وعلى واجهات المقابر المنحوتة في الصخر مثل مقبرة نقش — رسم ( لوحة ١٦٩ ) . وكان عزوف الأخمينيين عن بناء المعابد وإقامتهم للشعائر الدينية في العراء أمام بيوت النار سببا في اختفاء كل من فنّي نحت التماثيل والتصوير الديني . وأغلب الظن أنهم لم يقيموا تماثيل لآلهتهم ، وأنهم لم يفكروا في نحت تماثيل قط ، فلم يعثر على أي تماثيل يمكن أن ينسب إليهم ، على الرغم مما ذكر بيلوتارخوس عن تحطيم جنود الإسكندر لتماثيل كبير لخشايارشا بمدينة برسيبوليس . إلا أنه قد كشف مع ذلك عن بعض التماثيل الصغيرة ، مثل التماثيل الصغير المصنوع من عجينة اللازورد والذي وجد بتخت جمشيد ولعله يصور خشايارشا أيام شبابه بتاجه على شكل الحصن المسنّن ( لوحة ١٧٠ ) .

ولسنا نجد سببا لإحجام الفنانين عن نحت التماثيل وهم الذين لم يكتفوا بنحت أفاريز من النقش البارز تعدّى طولها مئات الأمتار بل برعوا أيضا في تجسيد الثيران المكونة لتيجان أعمدة القاعات واستخلصوها بمهارة من الكتل الضخمة التي قدّوها منها . ولعل سر إحجامهم عن نحت التماثيل هو عزوفهم عن تجسيد الإنسان ، وهو أمر يدعو إلى الحيرة نظرا لما نلمسه من قدرة تماثيلهم ومهارتهم التي

تجلت في إبراز الطابع الشخصي في الرأس الحجري الذي عثر عليه في منف ( لوحة ١٧١ ) ، وفي رقة  
تعبير ملامح تمثل أحد الأمراء الذي يغلب على الظن أنه «ارسام» حفيد داريوش وحاكم مصر  
( لوحة ١٧٢ ) ، وفي إضفاء سمات النبل والمثالية على الرأس الصغيرة لخشايارشا المنحوتة من حجر  
اللازورد ( لوحة ١٧٠ ) ، وفي جمال تماثيل كنز جيحون العديدة التي يقدم لنا أحدها ( لوحة ١٧٣ )  
فكرة متكاملة عن القواعد التي كان يستخدمها النحاتون في أنحاء الإمبراطورية من إضفاء شكل  
أسطواني على شعر الرأس وربط قمته بشريط وتصفيفه حول الأذنين وتهدل أطراف الشارب على شعر  
اللحية المربعة الشكل ، ومراعاة الملامح المميزة للجنس الفارسي كضيق الجبهة وتقوس الحاجبين واتساع  
العيون اللوزية الشكل واستقامة الأنف الطويل .

ومع رواج التجارة الدولية واستخدام الطرق البرية والبحرية أخذ الأحمينيون يبتدون النحاتين  
المصريين إلى بلادهم ويستخدمون بعضا منهم في تجميل قصورهم الملكية ، فلقد بعث الأمير ارسام حين  
اتجه إلى سوسه في أجازة إلى «نهور» نائبه في مصر يستحثه فيها على بذل العطايا للفنان المصري ولنساء  
بيته حتى يقوم بنحت تمثال لفارس على ظهر جواده وحمله إليه سريعا .

وقد عثر أخيرا على رأس بالغ الجمال احتفظ به في متحف اللوفر ، في نchte دقة تكشف عن مقدرة  
الأحمينيين الفاتحة في النحت . ففي هذا الوجه قوة تعبيرية رائعة نلمس من خلالها اعتزازا وزهوا وثقة  
بالنفس ، وتعلو الشفتين ابتسامة متحفظة يخفي الشارب جزءا منها ، وكأنما قيد صاحبها انطلاقها لتوائم  
وقاره ورفعة مكانته حتى ليحس المرء أنها رأس أحد الملوك ( لوحة ١٧٤ ، ١٧٥ ) . وثمة رأيان بصدد  
نسبة هذا الرأس ، فعلى حين يرجح البعض أنه رأس أحميني يعتقد البعض الآخر أنه رأس ميدي . ولو أننا  
عقدنا المقارنة بين هذا الرأس ولوحات النقش البارز الموثوق بأنها أحمينية لما انتهينا إلى رأى قاطع ، أما إذا  
اتجهنا إلى نسبته للفترة الميديّة التي سبقت فترة حكم قورش وداريوش وخشايارشا وأردشير لما طال  
التردد في رده إما إلى الملك سيكساريس بن قشتاريتي الميدي قاهر نينوي أو إلى أستياجوس «ازدهاك»  
آخر ملوك الميديين الذي هزمه قورش . وهو في الحق اختيار عسير ، فخطوط هذا الوجه الجليل البديع  
الذي قام بنحته فنان سيقى مجهولا إلى الأبد تشي بأنه رأس أحد هذين الملكين .

وقد أثبت الأحمينيون إلى جانب تفوقهم في الفن المعماري وهيامهم بالزخارف الواسعة النطاق ،  
براعتهم في الأعمال التي تتطلب إلى جانب الذوق الرفيع الدقة التامة ، أى الفن المتمسم بالإبداع المفرد  
في التكلفة . فمضى النحت الدقيق عند الأحمينيين على نهج التقاليد البابلية ، وإن كانت الموضوعات التي  
طرقها بصفة عامة قليلة ورمزية . ومن الغريب أنهم تناولوا في هذا المجال موضوعات كبرى لاتطرقها غير  
الزخرفة المعمارية مثل موضوع البطل وهو يصارع حيوانا أسطوريا أو يُخضع أسدين مزودين بقرون .  
ونجد دلائل التأثير الأشوري واضحة في خاتم داريوش الأسطواني الذي يمثل الملك فوق مركبته يطارد  
أسداً ( لوحة ١٧٦ ) ، وفي خاتم آخر يمثل اثنين من الرماة يرفعان القرص المنحج ، إلا أنهما جامدان  
يفتقران إلى الانطلاقة الأشورية ( لوحة ١٧٦ ، ١٧٧ ) .



ويبدو أن ملوك الأخمينيين ، كانوا لايتحلّون بالحلى كما يتبين ذلك من النقوش على عكس ماكان يفعل ملوك آشور . غير أنه قد عُثِر في مقبرة سليمة بسوسه على مجموعة متناسقة من الحلىّ معروفة التاريخ تضم إلى جانب الأقراط والقلائد العادية ذات الدلايات عقد من الذهب فريد في نوعه ، فهو مكون من حبلين مجدولين متداخلين أحدهما في الآخر مشبتين بواسطة مشبك . وينتهي كل طرف منهما برأس أسد مطعم بدقة متناهية ، فالوجنتان واللبد من الفيروز ، والقلم مغشى باللازورد ، والعينان مرصّعتان بالصدف ( لوحة ١٧٨ ) . وهكذا يتجلى بوضوح ولعهم المفرط بتعدد الألوان . ولم تكن الدقة في التنفيذ امتيازاً مقصوراً على حلىّ الملوك وحدها بل شاعت هذه الدقة في كافة الصناعات المعدنية .

وانفسح المجال أمام فن نحت الحيوانات على المعادن الذى يحتاج إلى دقة إحساس وقوة ملاحظة . وإذا كانت النماذج في هذا الصدد نادرة فذلك لأن المعادن كانت أهم مادة تتعرض للسلب والنهب . وقديماً باع الأشوريون التماثيل التى انتزعوها من المدن المهزومة ، ونقل البابليون الجدد نحاس معبد القدس وبرونز الأعمدة إلى عاصمتهم بين الغنائم الأخرى .

ولقد زحم الملوك الأخمينيون قصورهم بكنوز لاحصر لها ، ويروى بـلوتارخوس أن الإغريق استخدموا عشرة آلاف بغل وخمسمائة جمل حين نهبوا پرسببوليس ، وقد حملوا من سوسه وحدها حوالي تسعة وأربعين ألف تالنت من الذهب والفضة وهو مايعادل الآن ملايين الجنيهات .

وقد خلّفت إيران كثرة من القطع الفنية التمثلية وخاصة من الحلى والكفوس المصنوعة من معادن ثمينة . وتتجلى الدقة والمهارة الفنية في الأساور وآذان الكفوس والحيوانات ( لوحة ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ) . ولعل أروع ما خلفه لنا الفن الإيراني هى تلك الكأس الذهبية التى نقش عليها أسد مجنح تقليدي الطابع ( لوحة ١٨٣ ) ، وهى دقيقة القاعدة والفوهة تحتضنها تلافيف متسقة بارزة تبدأ من قاعدتها إلى فوهتها حيث تتسع تلافيفها العليا لرقوش من ثمار الصنوبر والمراوح النخيلية . وتميل قاعدتها لتتصل بجسم الأسد القابع بين يدى الكأس على أماميته محتضنا الكأس بجناحيه ، مزجراً فاغراً فمه ، وغطت لبدته رقبته إلى صدره ، وتميز ريش جناحيه بالتدرّج من الغلظة والكثافة إلى الدقة والخفة وكأنه ثلاثة صفوف ، وأحيط وجهه بدائرة من رقوش كالأصابع ، وملاّت صدغيه وأنفه التجاعيد واستدارت أذناه .

وكانت سنة الكثرة من بلاد الامبراطورية الفارسية أن تهدى في «أعياد پرسببوليس» أوإني معدنية مشكّلة على هيئة الحيوان وفق ما تمليه التقاليد الإيرانية القديمة . وكانت الحيوانات تصور على الكفوس يواجه بعضها بعضاً ، إشارة إلى رعايتها لما في تلك الكفوس . ومن حول تلك الحيوانات كانت ترسم الزخارف المكوّنة من وحدات نباتية في أشكال هندسية . وفي متحف اللوفر كأس من البرونز نقش عليها مشهد لقص النعام ، تتميز المطاردة فيه بالحيوية النادرة إذ يشترك فيها أحد القناصة راكبا جملاً ( لوحة ١٨٤ ) .

وهكذا أثبت الأحمينيون مهارتهم في صياغة المعادن وبرهنوا على أنهم أصحاب ذوق رفيع . وكانت أواني المائدة الملكية جديرة بملكهم الذى كانوا يعدون العالم كله قد اتسع له ، تشهد على ذلك الصحاف الفضية ذات القاعدة المحوّرة على شكل النصف الأمامي لتيسر أو وعمل .

وثمة تمثال فريد يعد آية من آيات الرهافة والرشاقة والجمال لوعل من الفضة مطعم بالذهب ، يقفز في رشاقة وقد اعتمد قائمها الخلفيان على حلية مروحة نخيلية تتوّج قناعا لسيلينوس الخمور إله سكان مقاطعة فرينجيا ومرىي باكخوس الذى عدته الأساطير الإغريقية مهرج الأولمپوس ( لوحة ١٨٥ ) .

وعرفت إيران صناعة الزجاج الذى صنعت منه خوزستان « عيلام » أواني عديدة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وتشير إحدى مسرحيات أرسطوفانيس إلى تناول سفراء أثينا في بلاد الفرس نبذا صافيا حلوا في كحوس من الزجاج والذهب .

كذلك احتلت صناعة البرونز مكانه كبيرة في صناعة الأثاث والتماثيل الصغيرة . ومن أجمل القطع البرونزية تمثال الأسد الراقد الذى كان يستخدم صنجة ميزان لوجود حلقة في ظهره ( لوحة ١٨٦ ) ، وكانت الموازين على جانب كبير من الأهمية في الحياة الاقتصادية للإيرانيين ، فالميزان رمز العدالة . والمملك في العقيدة الإيرانية ظل للإله ولعدالته ، لذا يطلق على لسان الميزان اسم « الملكي » و« العادل » . وكما أن ثمة موازين ومكاييل زائفة ، كذلك كان ثمة أمراء جائرون ولصوص موازين ينالون جزاءهم بإرسالهم إلى أعماق الجحيم حيث يتولى أهرمين بنفسه عقابهم . وقد اتخذت صنجات الموازين المصنوعة من الديوريت والتي كشف عنها في سوسه وسومر ( ٢٤٥٠ - ٢٥٣٠ ق.م ) شكل البط الراقد ، وهو رمز لسطح الماء الراكد ، وكذلك لكل ماهو مستو ولكل ماهو متوازن .

واتخذ الإيرانيون غزاة الهضبة في النصف الثاني من الألف الثاني رمزا جديدا هو الأسد الراقد ، بأحجام مختلفة مصنوعة من البرونز وفي أحيان قليلة من الحديد ، ولعل اختيار الإيرانيين للأسد يعود إلى أن المساواة عندهم كانت تعني العدالة التي تجسدها الملكية . وكانت كلمة شاه الإيرانية تعني في مبدأ الأمر الأسد والصيد والمحارب ، ويقول هيرودوت إن كلمتي خشايارشا وأردشير في لغة الفرس أيامه كانت تعني المحارب والمحارب الأعظم على التوالي . وكانت الصنجات التي على شكل الأسود تصنع خلال القرن التاسع ق.م بطريقة بدائية ، ثم تطور الفن الإيراني في تشكيل الكائنات الحية ، فوجدنا في القرن الرابع قبل الميلاد صنجات موازين على شكل أسود تتفق والقواعد الكلاسيكية ، مثل الصنجة التي نعرض لها هنا التي عثر عليها بحسنلو والموجودة بمتحف اللوفر . وتبين العناية التي كان يوليها الفنانون لصناعة هذه الصنجات على شكل الأسد من أصغرها إلى أكبرها حجما مدى اهتمام الأحمينيين بالموازين والمكاييل ، إذ كانوا يعتقدون أنهم يعززون عرشهم حين يفرضون قواعد الدين الفارسي على التجارة . وسار الساسانيون على النهج نفسه ، فخلال الرحلة التي قام بها أرد - فيراز إلى العالم الآخر شاهد في أعماق الجحيم شقيبا يتعرض لعقاب أليم ، ولما سأل عن الخطيئة التي ارتكبها في حياته واستحق

عنها هذا العقاب أجاهه الملكان الحارسان سراهوشا وأدهور أنه قد ارتكب جريمة ضد الإله ميترا بأن دلّس على المؤمنين فطفّف في الكيل والميزان .

كذلك أولع الأخمينيون باللوحات الصغيرة التي كانت تثبت في الملابس ، وهي اللوحات التي كان يقصر أهل ما بين النهرين استخدامها على تزيين ثياب الآلهة فاستوردوا بعضها المصنوع من العاج من مصر واليونان وآسيا الصغرى . كما أتاح فن الحفر الدقيق نقل الرمزية الشرقية من المستوى الديني إلى المستوى الدنيوي ، فرى الملك ممتطيا ظهر أسد ممسكا بالقوس في يد وبسهام ثلاثة في اليد الأخرى . وما من شك في أن هذا المشهد مستوحى من صور الآلهة الشرقية القديمة ، وكذلك كان القوس علامة للسلطان الملكي فراه ممثلا في نقوش بيستون<sup>(٧٣)</sup> ونقش رستم . وفي جميع هذه المنجزات نلاحظ أن الفنان قد استوحى تكوينات المشاهد من الفن القديم — الذى يجهل البعد الثالث — وكثيرا ما كان الموضوع الرئيسي يصور إلهها أو مذبحا أو ملكا ، يحيطه الفنان بما يملأ المساحة الخالية كى يبعث فيها نوعا من التوازن . وحتى في مشاهد الحرب بين الميديين والسكوديين نراه يخضع لهذه القاعدة ، ولكى يوحى لنا الفنان أننا بصدد منظر طبيعي يصور شجرة منعزلة من النخيل لا صلة لها بالموضوع . ولعل تقنية الحفر الدقيق على الحجر هي التي تكشف لنا عن جهود الفنان الإيراني في التعبير عن الحركة ومحاولة الإيحاء بالبعد الثالث ، غير أن عدم الترابط الداخلي بين العناصر المكونة للموضوع وبعده صور الأشخاص والحيوانات عن الواقعية يكاد يوحى بأنها من إنتاج فنانيين من فارس كانوا يستلهمون الفن الإغريقي . وما من شك في أن الفن الفارسي لم يكن خالصا تماما وأنه كثيرا ما استوعب هذه العناصر وأحالتها إلى عناصر تحمل بصماته الخاصة به .

لقد تركزت في فارس مختلف أنواع النشاط الإنساني كله ، ففي عام ٥١٢ أمر داريوش القبطان سكيلاكس [من كاريا بآسيا الصغرى] أن يبحر صوب نهر السند مفتتحا خط الملاحة بين فارس ومصر . وكان الطبيب اشتيسياس اليوناني يعيش في بلاط داريوش الثاني ، كما كان تليفانيس من فوكايا يعمل لحساب ملك الملوك ، وهو ما يفسر تسلسل التأثيرات الإغريقية إلى فارس التي لم تكف عن استخدام الأيدي العاملة الأجنبية . وقد اتصل اللقاء بين كافة مناطق الامبراطورية المختلفة والدول المجاورة ، ومضى السفراء والعلماء والفنانون يتجولون من بلد إلى آخر فذاعت شهرة الشرق في العالم كله يمثلهم الفرس ، حتى وفد الإغريق للحصول على المعارف العلمية لبابل القديمة فكانوا يتلقونها في حلقات خاصة ، غير أنه كثيرا ما أدى هذا التبادل إلى صراعات حادة ، وقيل إن فيثاغورس كان يرتدي غطاء الرأس الذى كان يرتديه طلاب المعرفة .

وقد انتعشت التجارة باستخدام «الداريك» تلك العملة الفارسية الذهبية التي سميت باسم داريوش ، ودعمتها المصارف الكبرى التي أسسها موراشو وأبناؤه في بابل . وامتد الطريق العظيم العريق

(٧٣) بنج ستان أى مكان الإله .

المسمى بسميراميس صوب سوسه ، وأقيمت على مسافات متساوية من هذا الطريق نصب أثرية لتخليد ذكرى ملك الملوك ، مثل صخرة بيستون التي لاشك أن تسلقها قد تطلب شجاعة نادرة من النحاتين كى يتسنى لهم حفر نقوشهم البارزة تمجيدا لداريوش وتسجيل خطابه الذى ألقاه من فوق العرش باللغات البابلية والعيلامية والفارسية . وكان لاستخدام الأحمينيين للغتين آخرين بالإضافة إلى الفارسية لتيسير التعامل مع رعايا الامبراطورية الفضل في اكتشاف العلماء الكتابة المسمارية بمعاونة إهليلج مصري فوق قنينة زيت مصرية ظهر عليها اسم خشايارشا . ونستطيع أن نتبين تسلل التأثير الفارسي [الميدي] إلى بابل من إقامة نبوخذ نصر الثاني البابلي الحدائق المعلقة لإرضاء زوجته أميتيس حفيدة أستياجوس ، وكانت الحدائق جزءا لا يتجزأ من القصور الأحمينية ، تلك الحدائق التي بقيت حتى اليوم فخر إيران وسحرها ، كذلك سميت المباني في بابل «أبادانا»<sup>(٧٤)</sup> ، كما تكشف أطلال قصر في صيدا — التي كانت وقتذاك إحدى العواصم الفارسية — احترق خلال تمرد أحد الولاة ، عن تغلغل الطراز الفارسي في جميع المجالات الفنية سواء في الثياب أو العمارة .

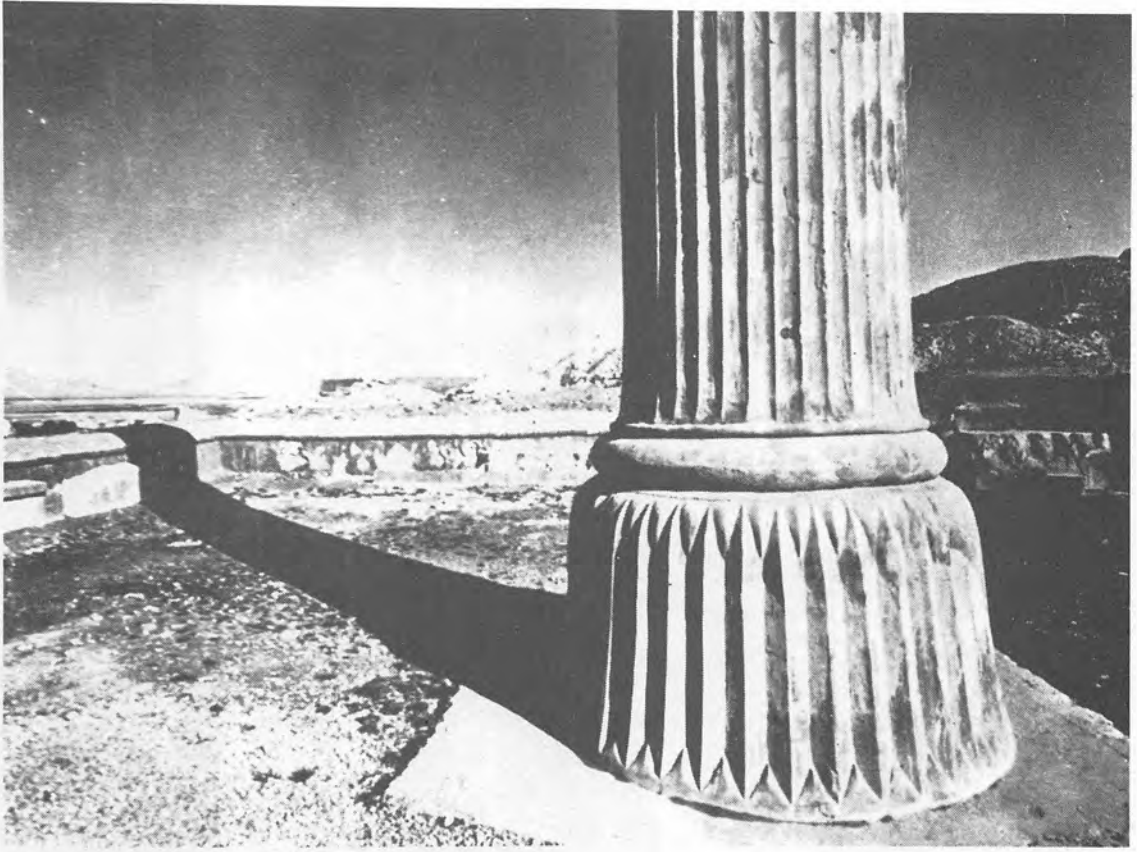
(٧٤) بمعنى الوفرة والرخاء هنا .



لوحة ٩٤ تحت جمشيد «برسيبوليس» البوابة الشرقية للتريبيلون : شارة أهورا مزدا على الباب الشرقي لقاعة العرش . بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .

لوحة ٩٥ برسيبوليس . منظر عام من الجو لتخت جمشيد . بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .





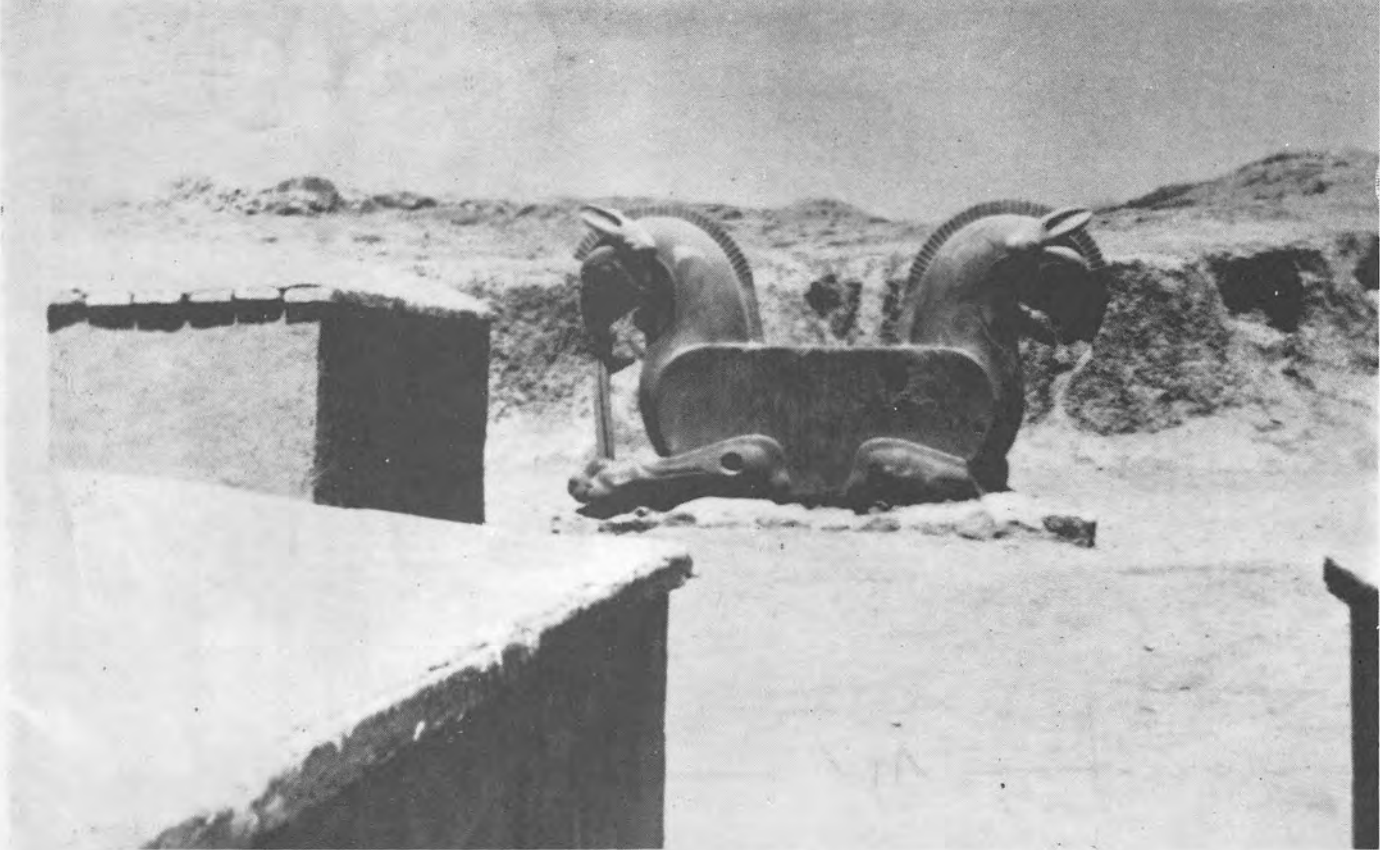
لوحة ٩٦ برسيبوليس . العمود الشمالي من بهو أعمدة خشايارشا .

لوحة ٩٧ برسيبوليس . قاعة المائة عمود من عهد داريوش .





لوحة ١٩٨، ب برسيبوليس . تفصيل من تاج عمود . ثور برأس رجل . القرن ٥ ق.م . بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .



لوحة ٩٩ برسيبوليس . تاج عمود  
على شكل عقاب . تصوير المؤلف

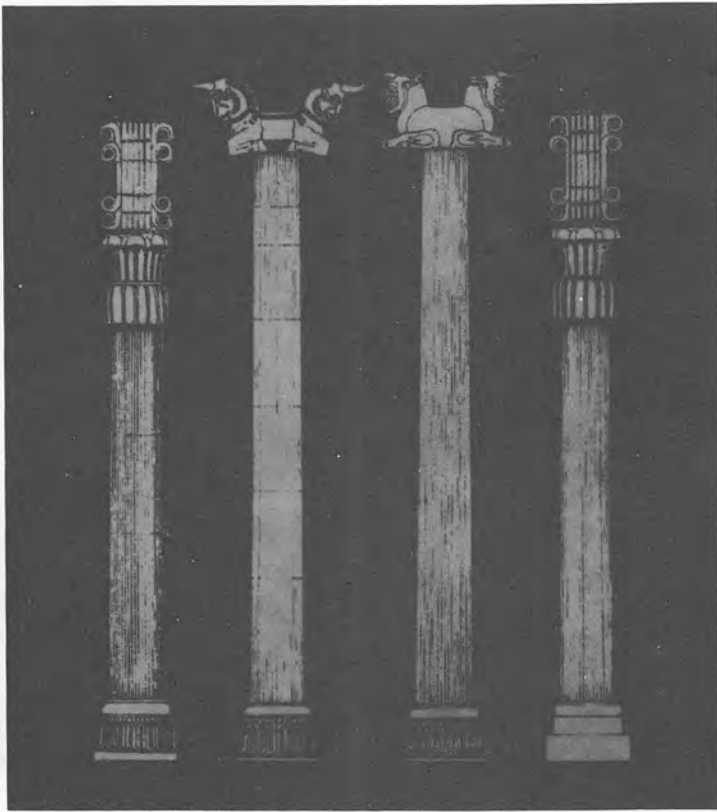


لوحة ١٠٠أ برسيبوليس . تاج  
عمود على شكل أسد . تصوير  
كاتب هذه السطور .



لوحة ١٠٠ب برسيبوليس . تاج  
عمود على شكل أسد . تصوير  
كاتب هذه السطور .





لوحة ١٠٣ سوسه . رأس ثور يزين  
تاج عمود . القرن ٤ ق.م . بإذن من  
متحف اللوفر .



لوحة ١٠٢ برسيبوليس . أعمدة  
ذات تيجان مختلفة .



لوحة ١٠٤ برسيبوليس : الأبادانا أى بهو الأعمدة من عهد داريوش .

لوحة ١١٠١ برسيبوليس . البوابة الأمامية لقصر خشايارشا . ثور مجنح برأس رجل . القرن ٥ ق.م . بإذن من معهد الدراسات  
الشرقية بجامعة شيكاغو .

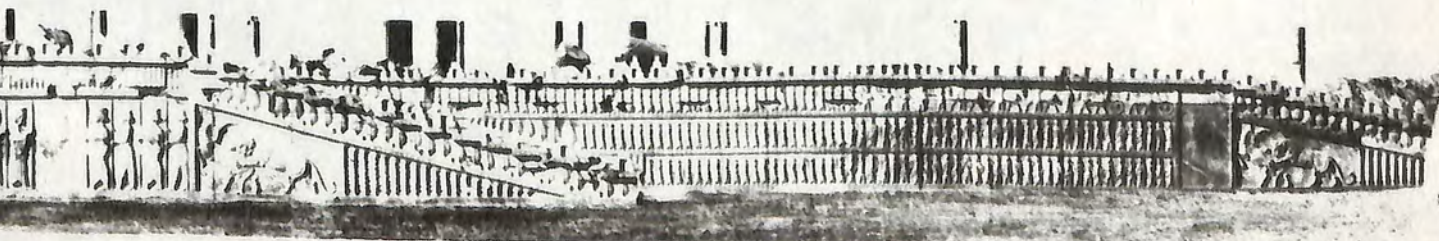




لوحة ١٠٦ برسيبوليس : المدخل  
الكبير البوابة الأمامية لقصر خشايارشا  
الأول : نور برأس رجل . القرن ٥  
ق.م .



لوحة ١٠٥ برسيبوليس : المدخل  
الكبير البوابة الأمامية لقصر  
خشايارشا الأول القرن ٥ ق.م .



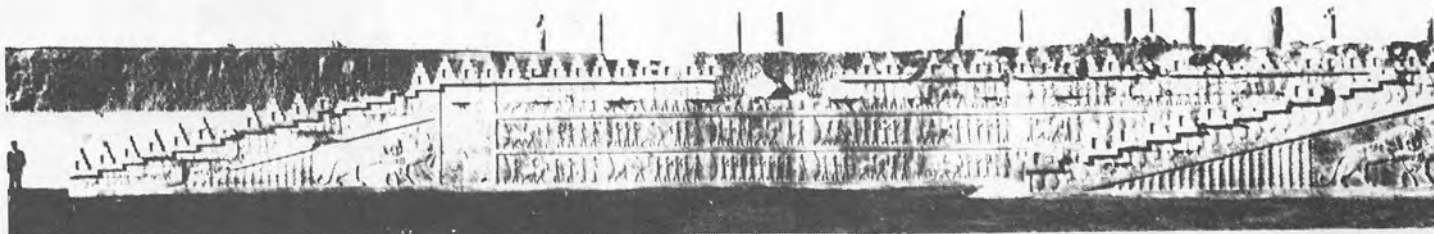


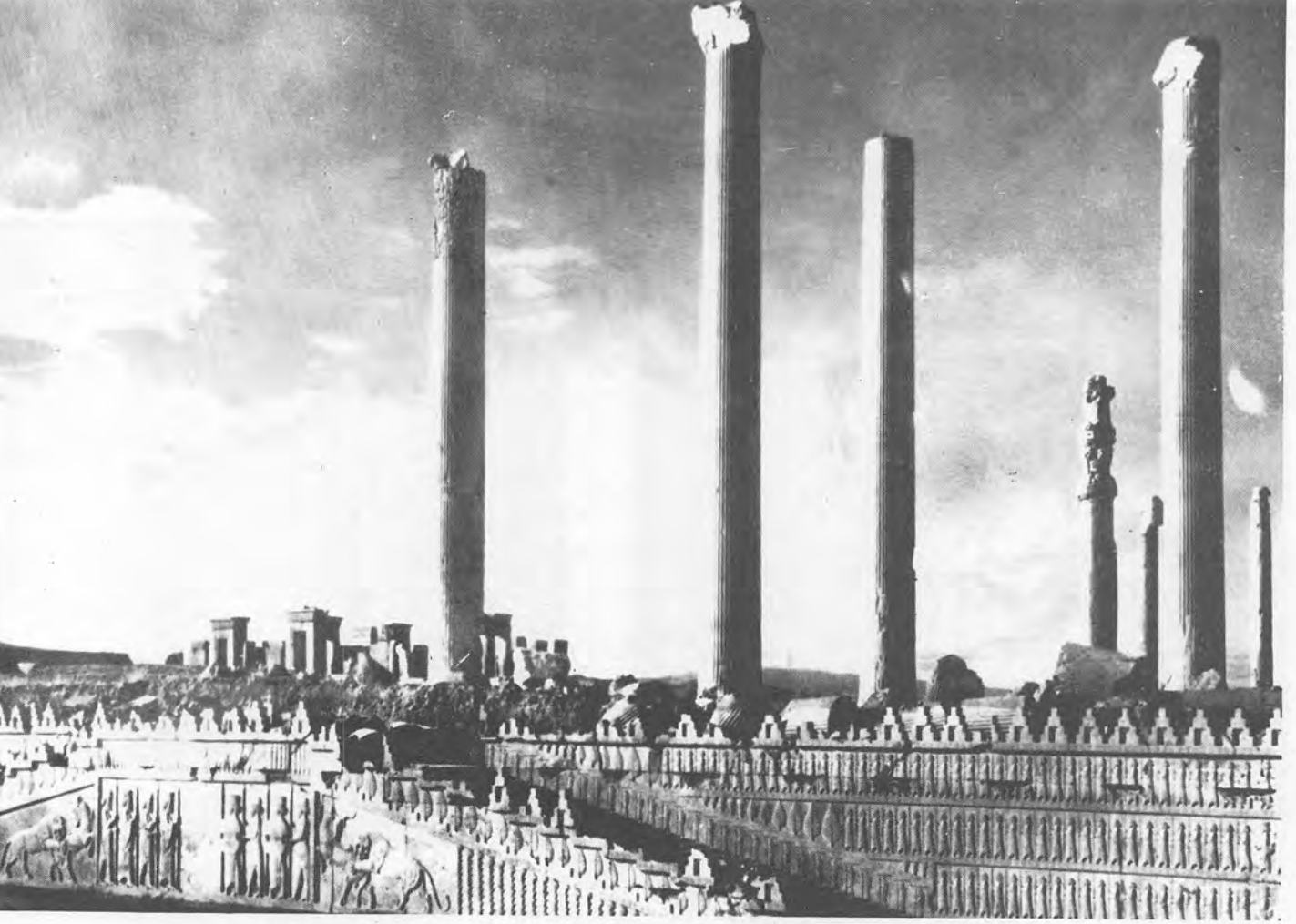
لوحة ١٠٧ ب. برسيبوليس : لوحة  
داريوش ( تفصيل ) .



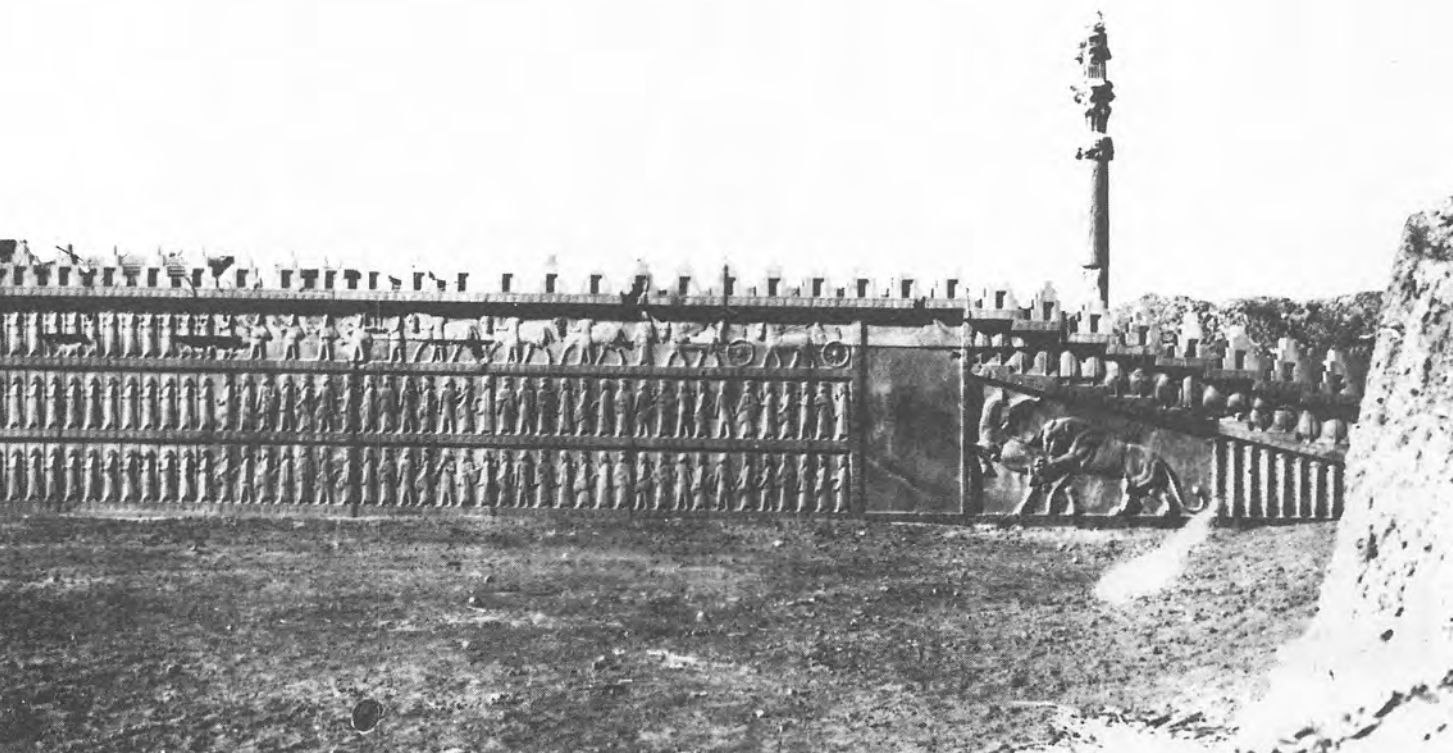
لوحة ١٠٧ أ برسيبوليس : لوحة  
داريوش بأساس الأبادانا . من  
الذهب . وجدت في صندوق  
حجري مع لوحة فضية . نهاية القرن  
٦ ق. م . بإذن من متحف طهران .

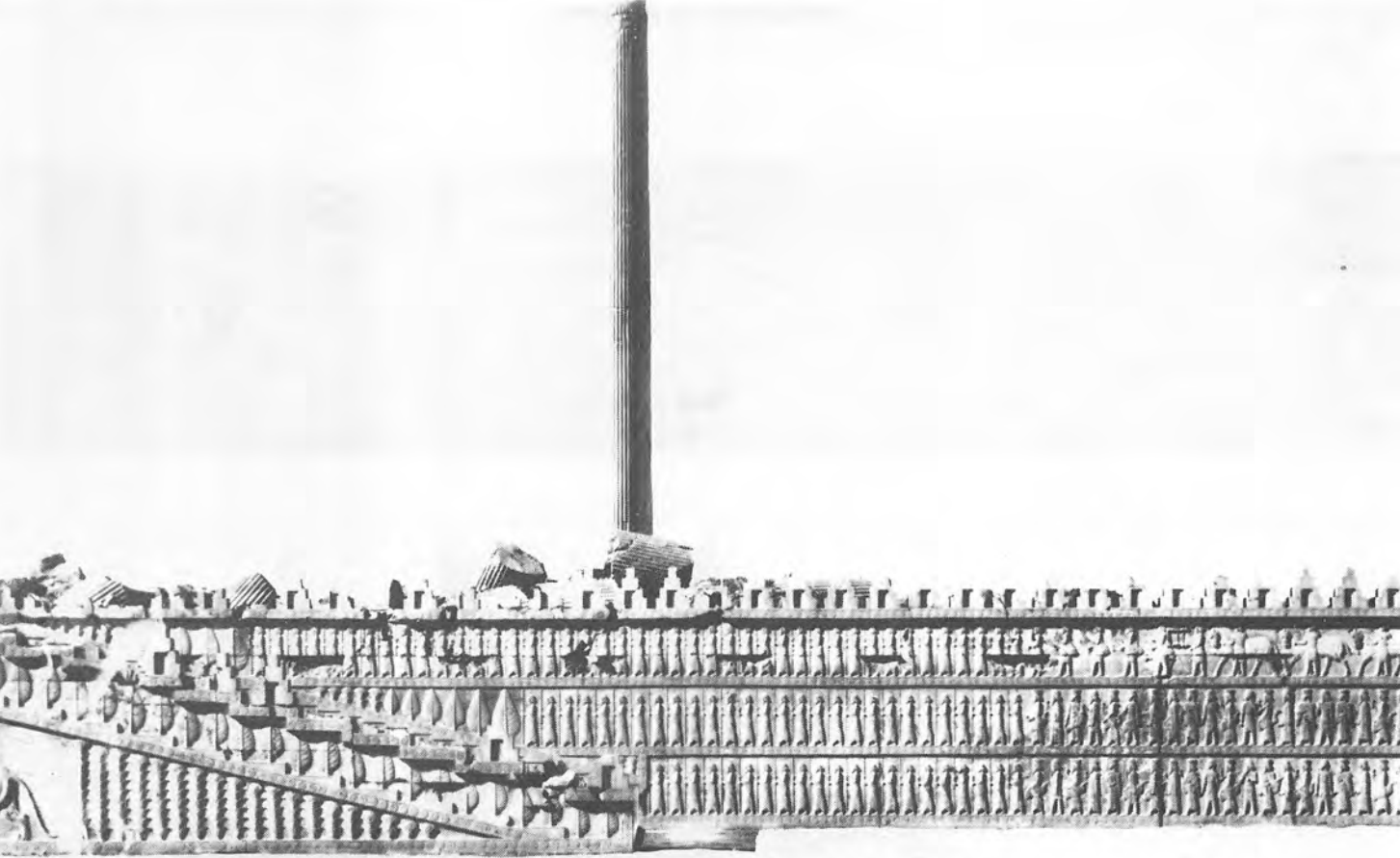
لوحة ١٠٨ برسيبوليس : منظر عام للدرج الشرقي المؤدي إلى الأبادانا [صورة مركبة من خمسة لقطات لصقت بعناية إلى جوار بعضها البعض] بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .



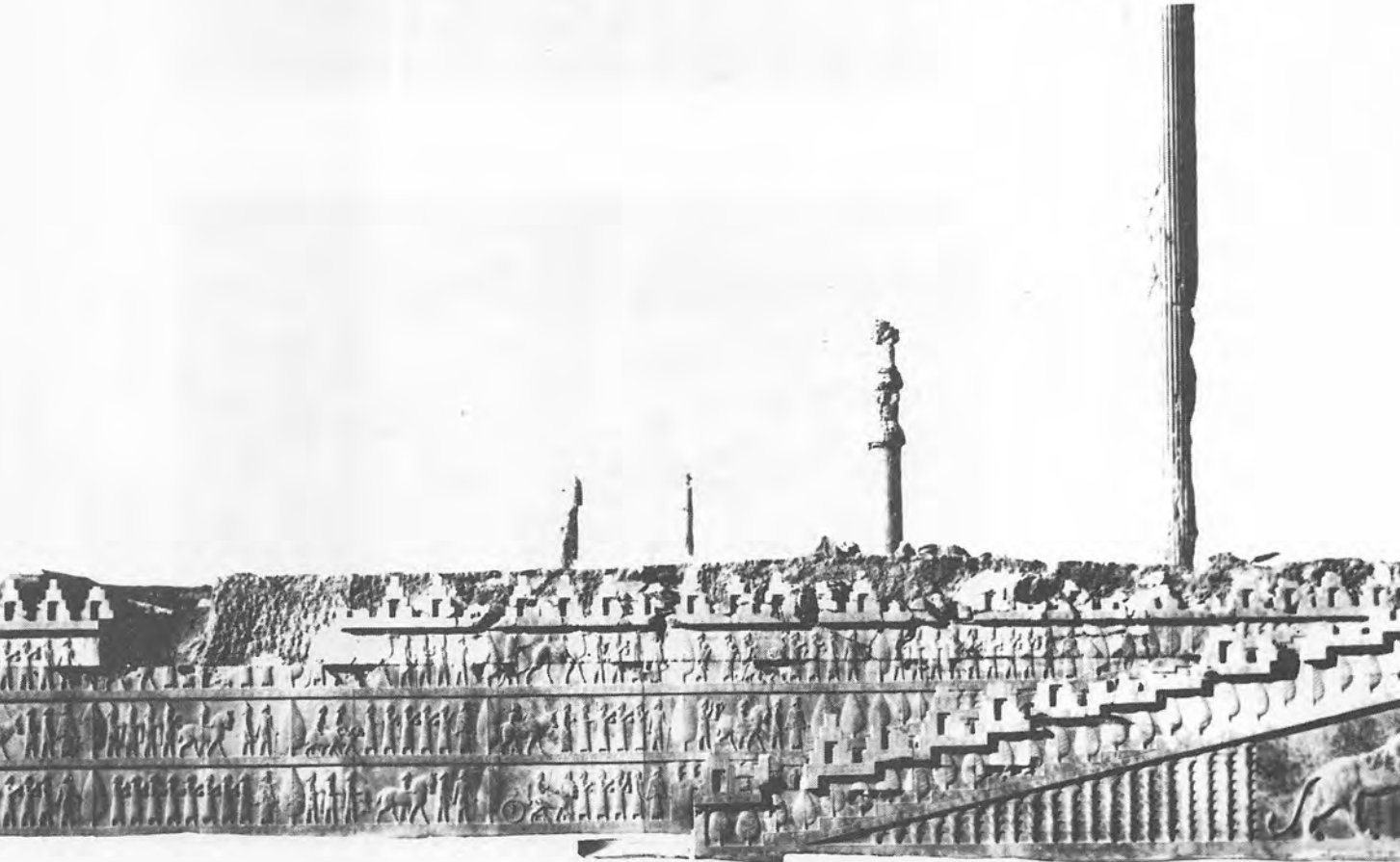


لوحة ١٠٩ برسيبوليس : منظر عام لدرج الأبادانا . جانب من الدرج الشرقي ، وقد ظهر قصر داريوش في خلفية اللوحة . بإذن  
من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .  
لوحة ١١٠ برسيبوليس : الجانب الشمالي للدرج الشرقي المؤدي إلى الأبادانا [ من نهايته ] . بإذن من معهد الدراسات الشرقية  
بجامعة شيكاغو .



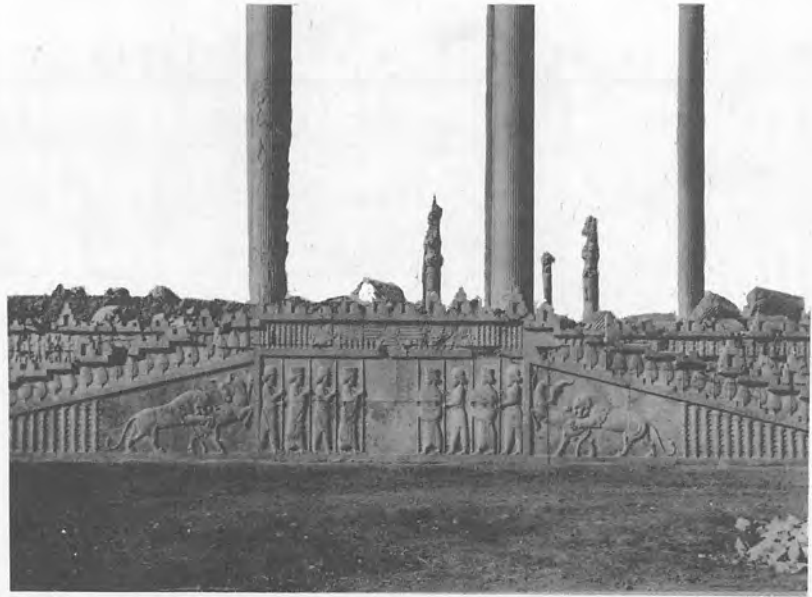


لوحة ١١١ برسيبوليس : الجانب الشمالي للدرج الشرقي [منطقة الوسط من الدرج] المؤدي إلى الأبادانا . بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .  
لوحة ١١٢ برسيبوليس : الجزء الجنوبي من الدرج الشرقي [منطقة الوسط] المؤدي إلى الأبادانا . بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .

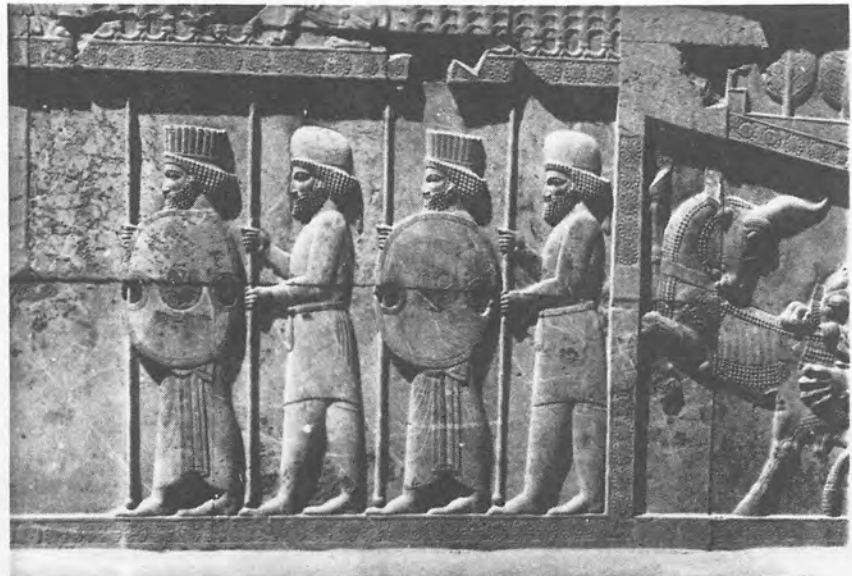




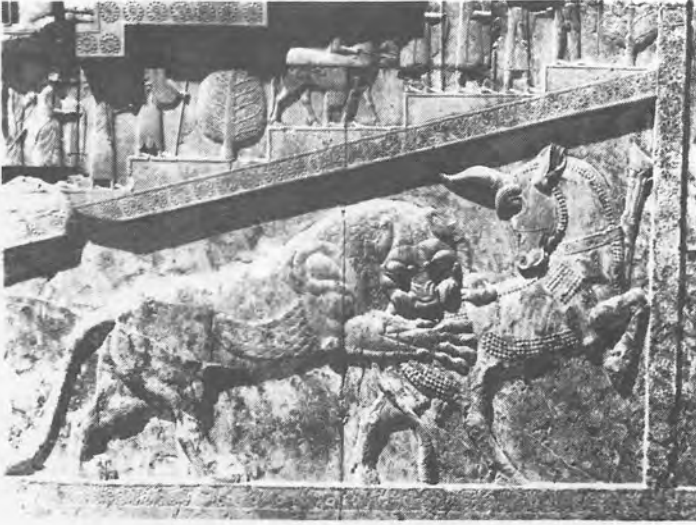
لوحة ١١٣ برسيبوليس : الجزء  
الجنوبي من الدرج الشرقي [طرف  
الدرج] المؤدي إلى الأبادانا . بإذن  
من معهد الدراسات الشرقية بجامعة  
شيكاغو .



لوحة ١١٤ ب برسيبوليس : نقش  
على الدرج يمثل الحراس الميدين  
والفرس . تصوير د . مايكل  
روجرز .



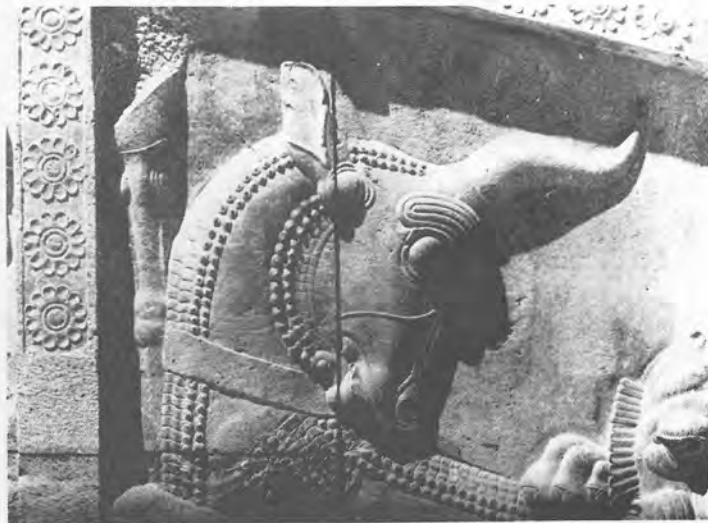
لوحة ١١٤ أ برسيبوليس : الحراس  
الثانية . نقش يتوسط الدرج الشرقي  
المؤدي إلى الأبادانا . بإذن من معهد  
الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .



لوحة ١١٥ برسيبوليس : قصر  
داريوش . نقوش الدرج . خدم  
وحراس وصراع بين أسد وكركدن .  
القرن ٦-٥ ق.م . تصوير مايكل  
روجرز .

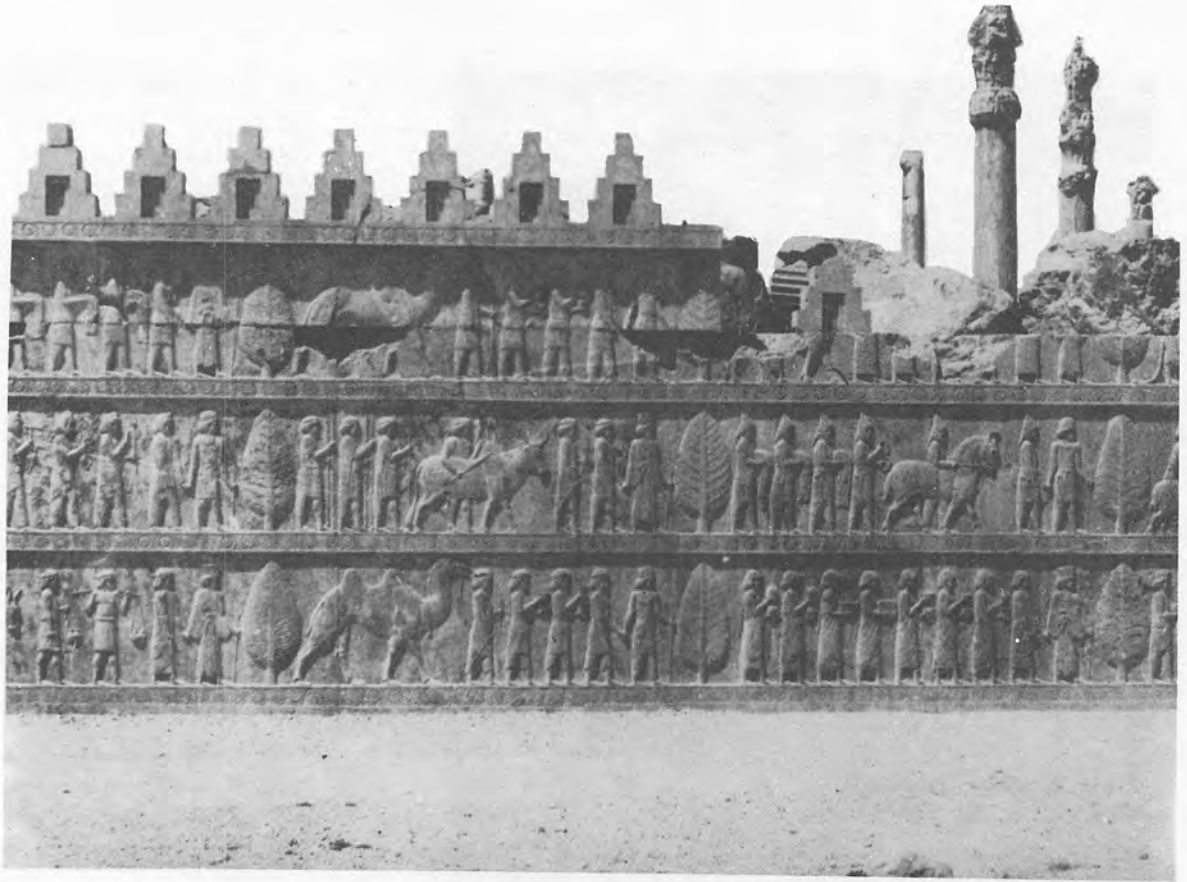


لوحة ١١٦ برسيبوليس : قصر  
داريوش . نقوش الدرج . الصراع  
بين الأسد رمز الفرس والقوة والحق  
والنور والكركدن أو الثور رمز  
الأعداء والظلام . تفصيل . القرن  
٦-٥ ق.م . تصوير مايكل  
روجرز .

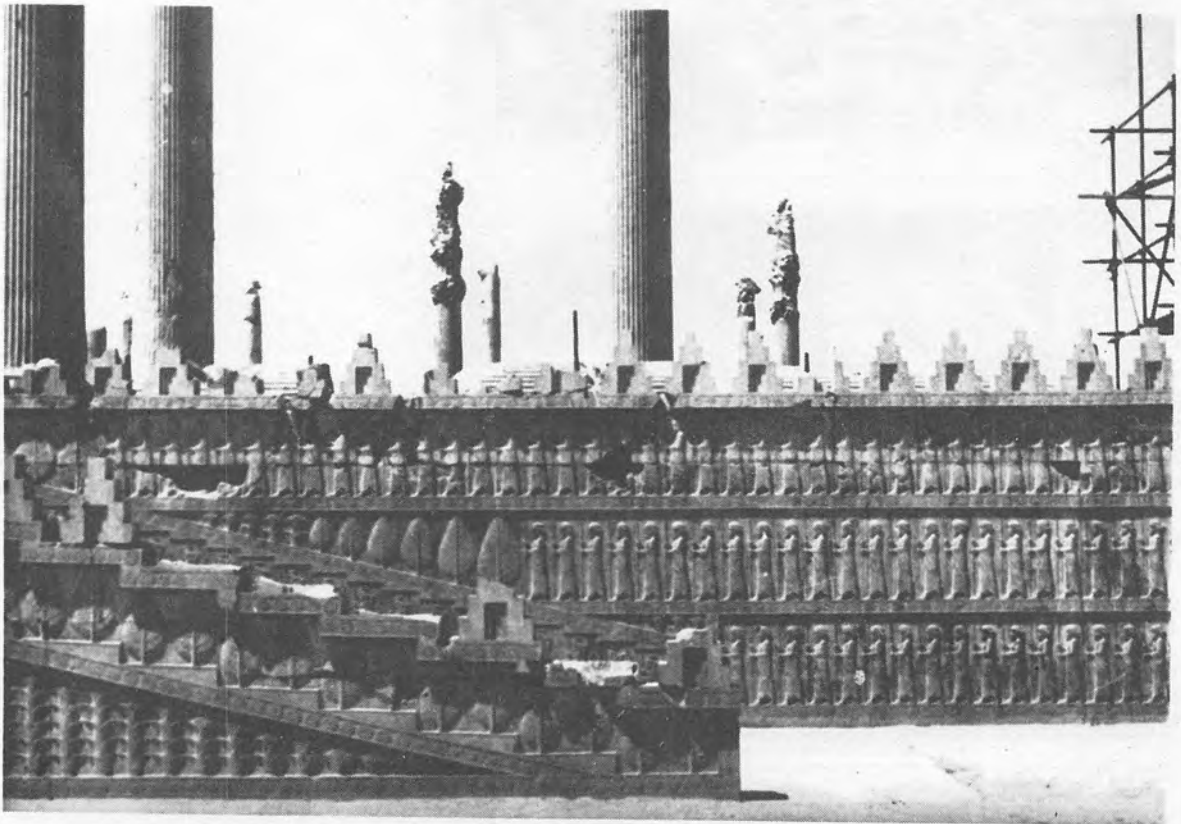


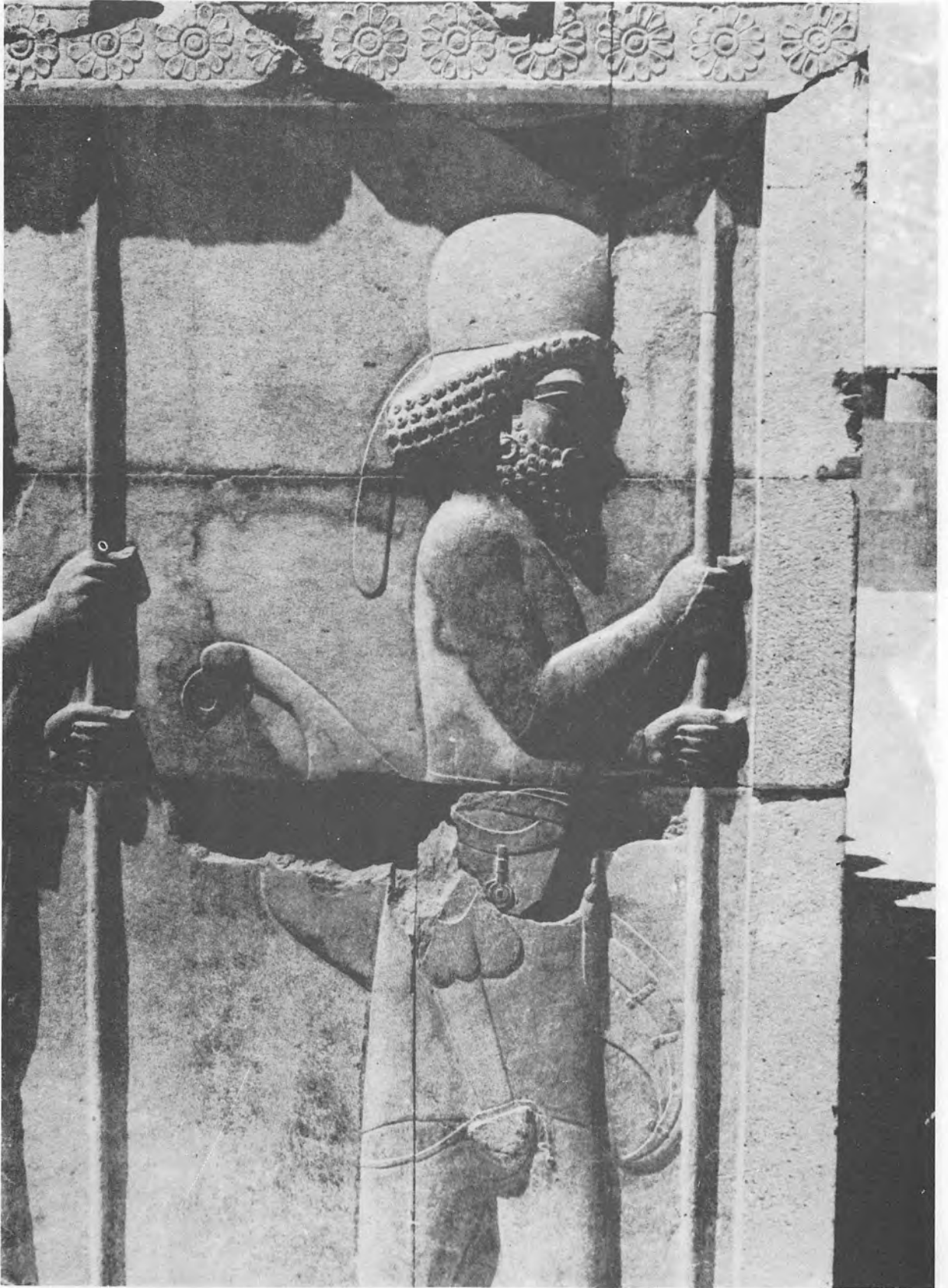
لوحة ١١٧ برسيبوليس : تفصيل  
من اللوحة السابقة .





لوحة ١١٨ برسيبوليس : الدرج الشرقي للأبادانا . ممثلو الدول الثامن والعشرين الخاضعة لداريوش الأعظم ، يفصل بين كل وفد وآخر شجرة سرو . تصوير مايكل روجرز .  
 لوحة ١١٩ برسيبوليس : موكب ممثلي الدول الخاضعة لفارس . تصوير مايكل روجرز .





لوحة ١١٢٠ برسبوليس : حارس ميدي يتدلى من وسطه السيف الأشوري . درج التريلون . تصوير مايكل روجرز .



لوحة ١٢١ برسيبوليس : حارس من الفرس ، ونلحظ السهام مدلاة من جمعيتها ومن ورائها القوس . تصوير مايكل روجرز .

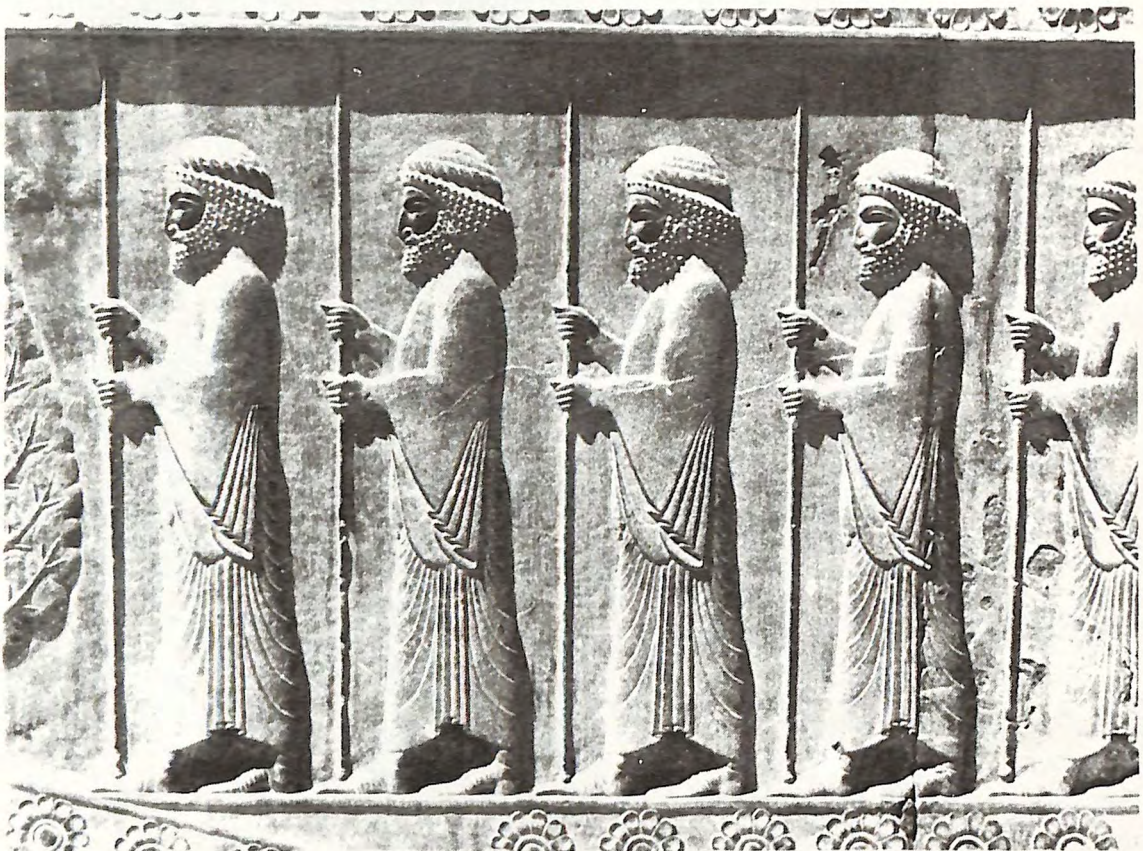


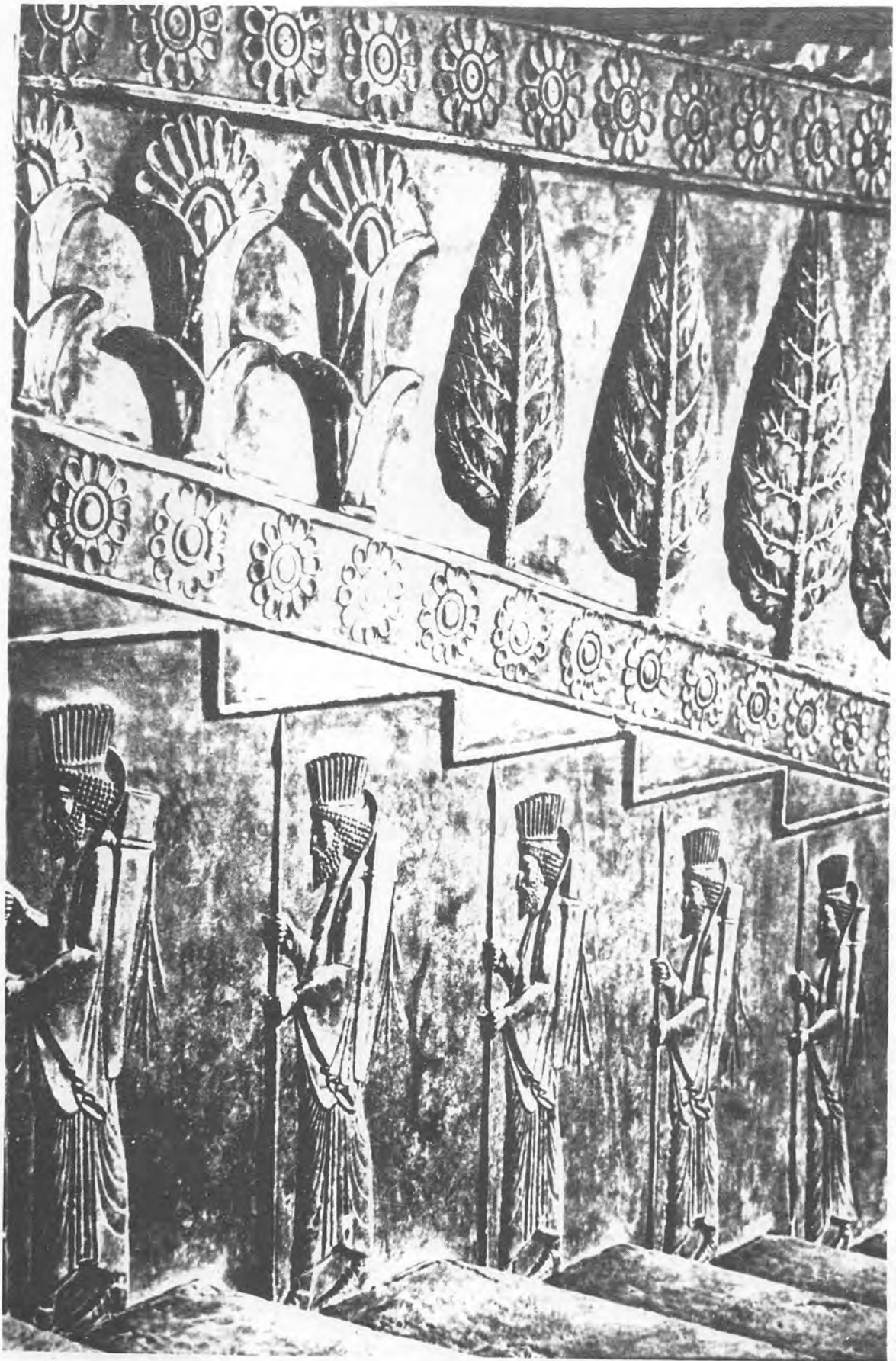
لوحة ١٢٢ برسيبوليس : حارس من الفرس . تصوير مايكل روجرز .

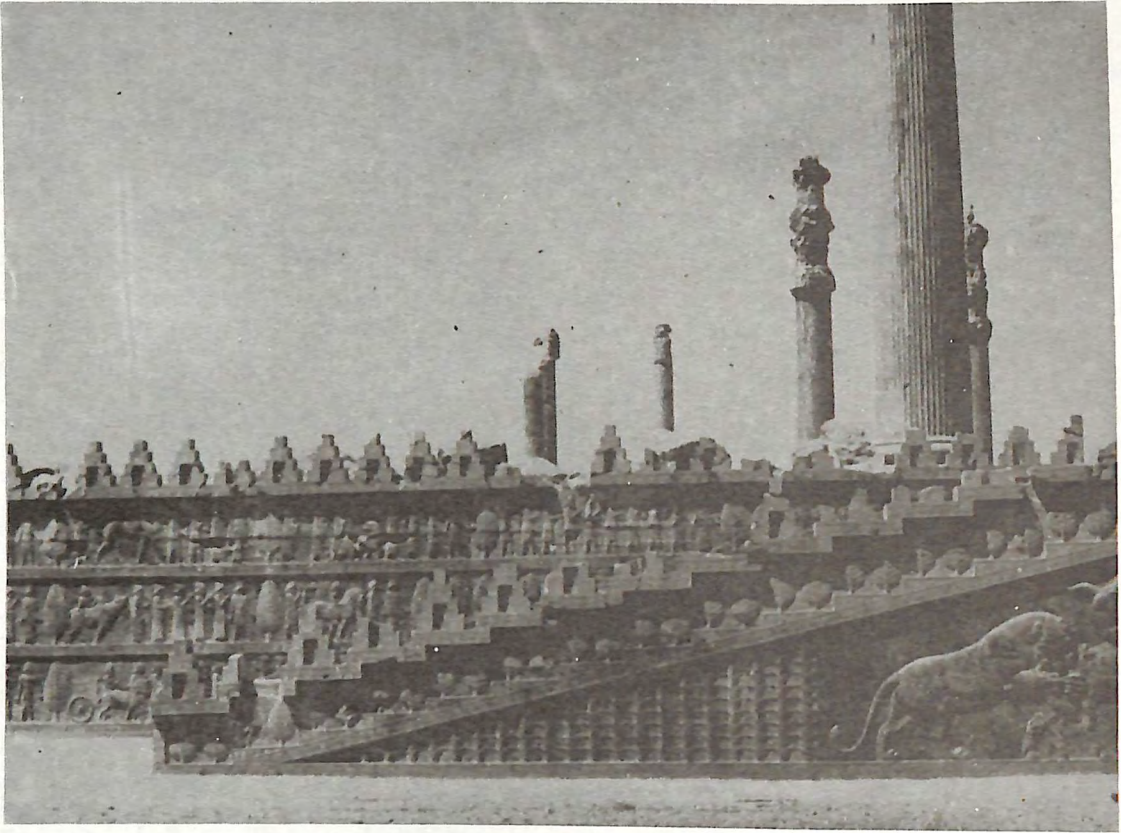


لوحة ١١٢٣ برسيبوليس : الحرس الميدي والفارسي ، ونلاحظ رأس الكلب على الغمد . درج التريبلون . تصوير مايكل روجرز .

لوحة ١٢٥ برسيبوليس : أهل سوسه من خوزستان [عيلام] . تصوير مايكل روجرز .

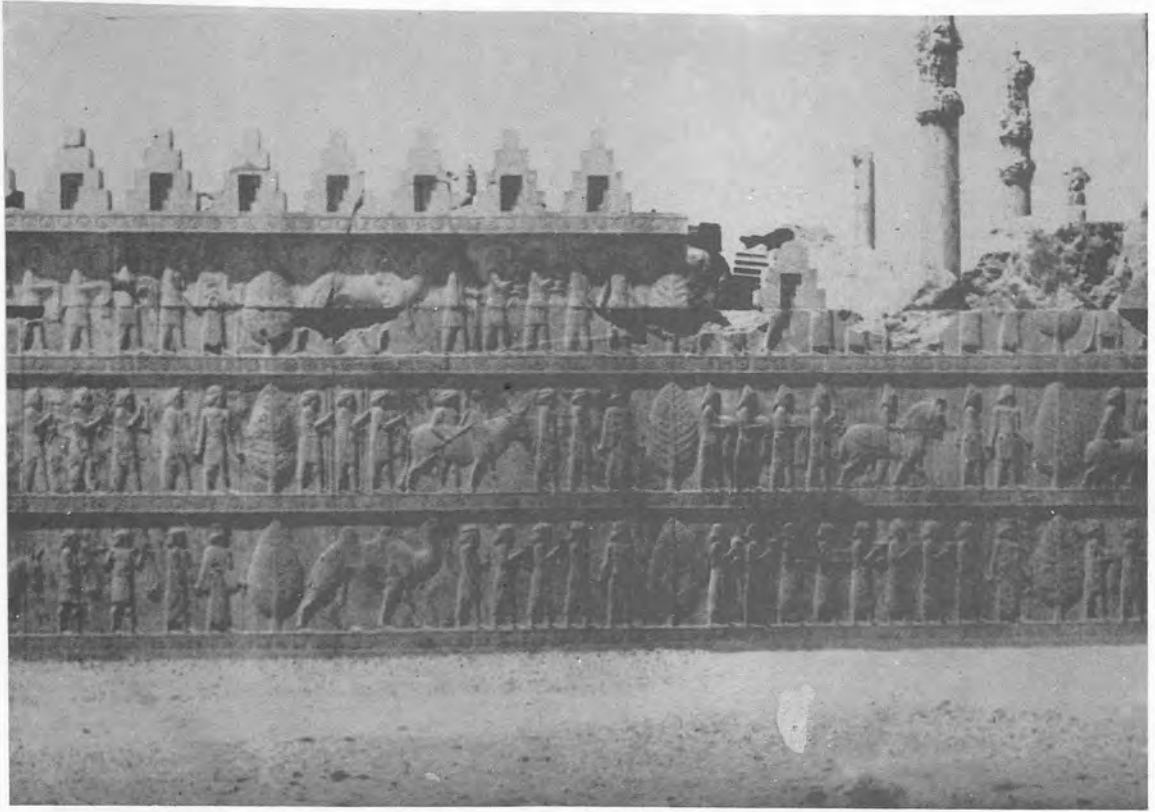






لوحة ١٢٦ برسيبوليس : ونرى العيلاميين في الصف الأول يقدمون لبؤة وشبليها . الدرج الشرقي للأبادانا . تصوير مايكل روجرز .  
 لوحة ١٢٧ برسيبوليس : ممثلو الدول المختلفة : العيلاميون . تصوير مايكل روجرز .





لوحة ١٢٨ برسيبوليس : بارسيون يقدمون جملا ذا سنامين . الدرج الشرقي . تصوير مايكل روجرز .  
لوحة ١٢٩ برسيبوليس : ممثلو الدول المختلفة . الأفغانيون أو البخاريون . الواجهة الشمالية . تصوير مايكل روجرز .







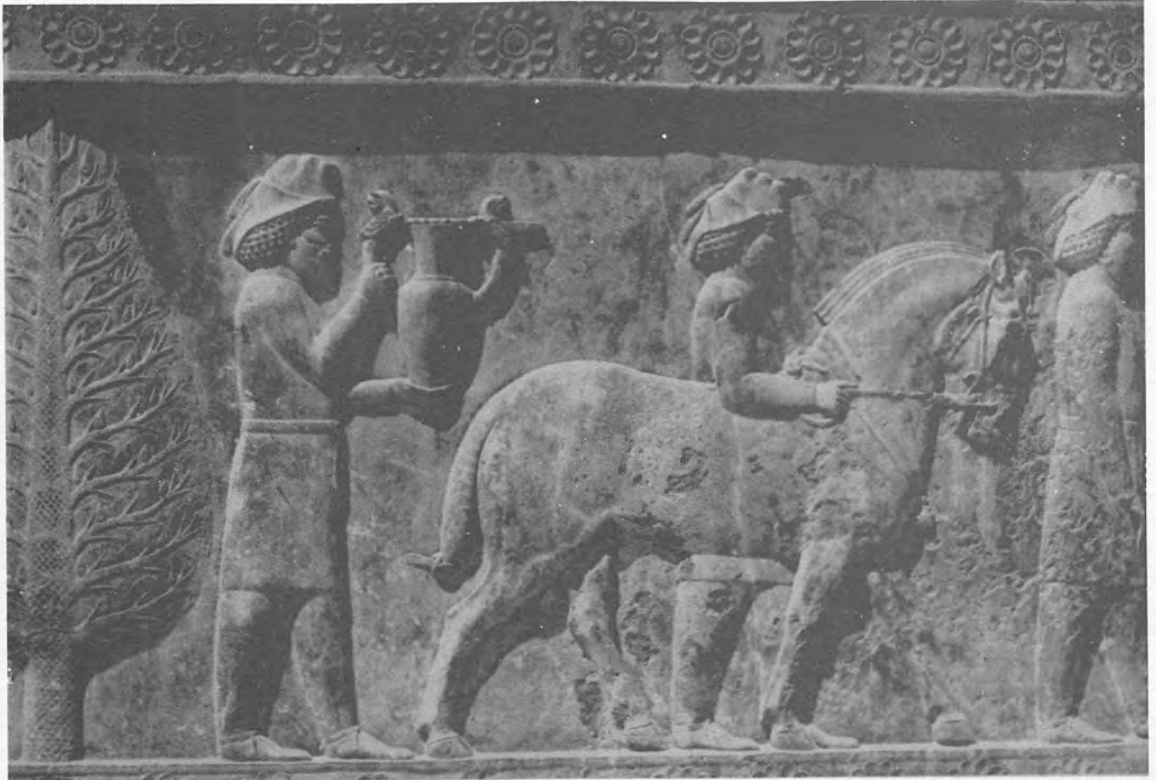
لوحة ١٣٠ برسيبوليس : الميديون . تصوير مايكل روجرز .  
لوحة ١٣١ برسيبوليس : الميديون . تصوير مايكل روجرز .

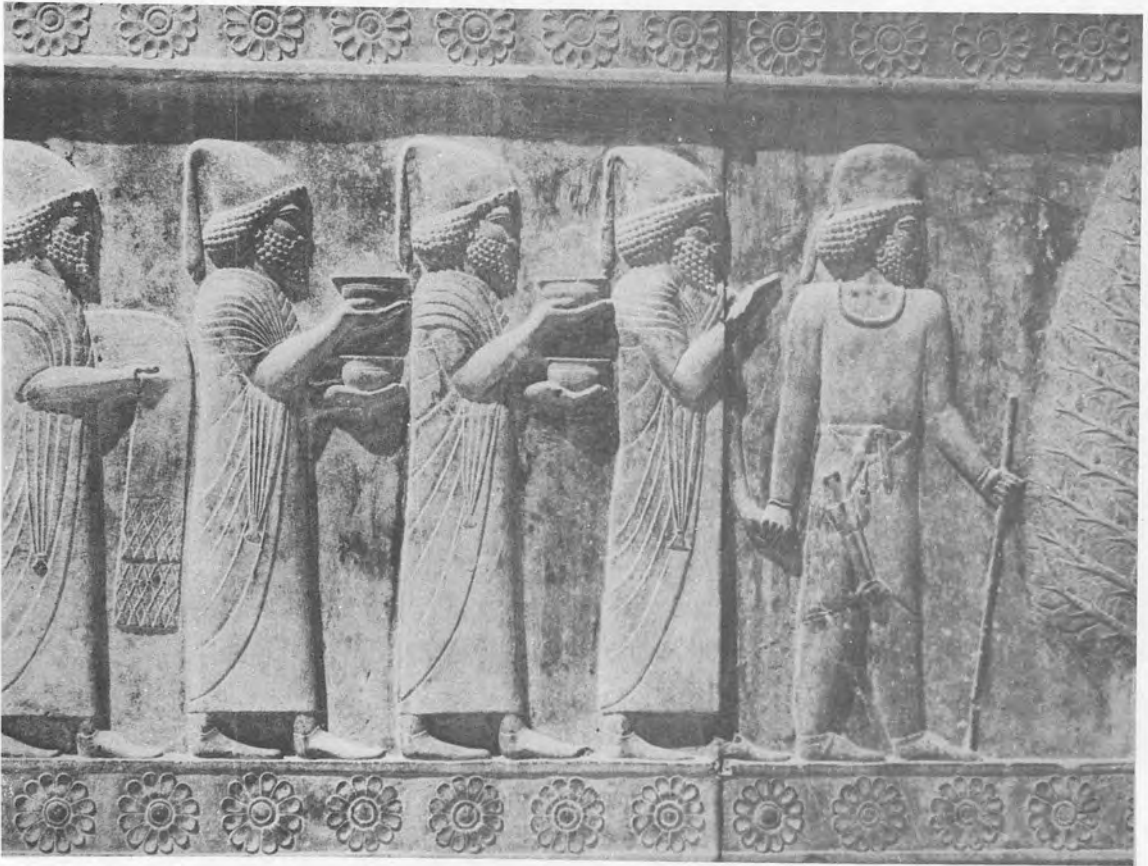




لوحة ١٣٢ برسيبوليس : أرمني يقدم آنية معدنية ثينة . تصوير مايكل روجرز .

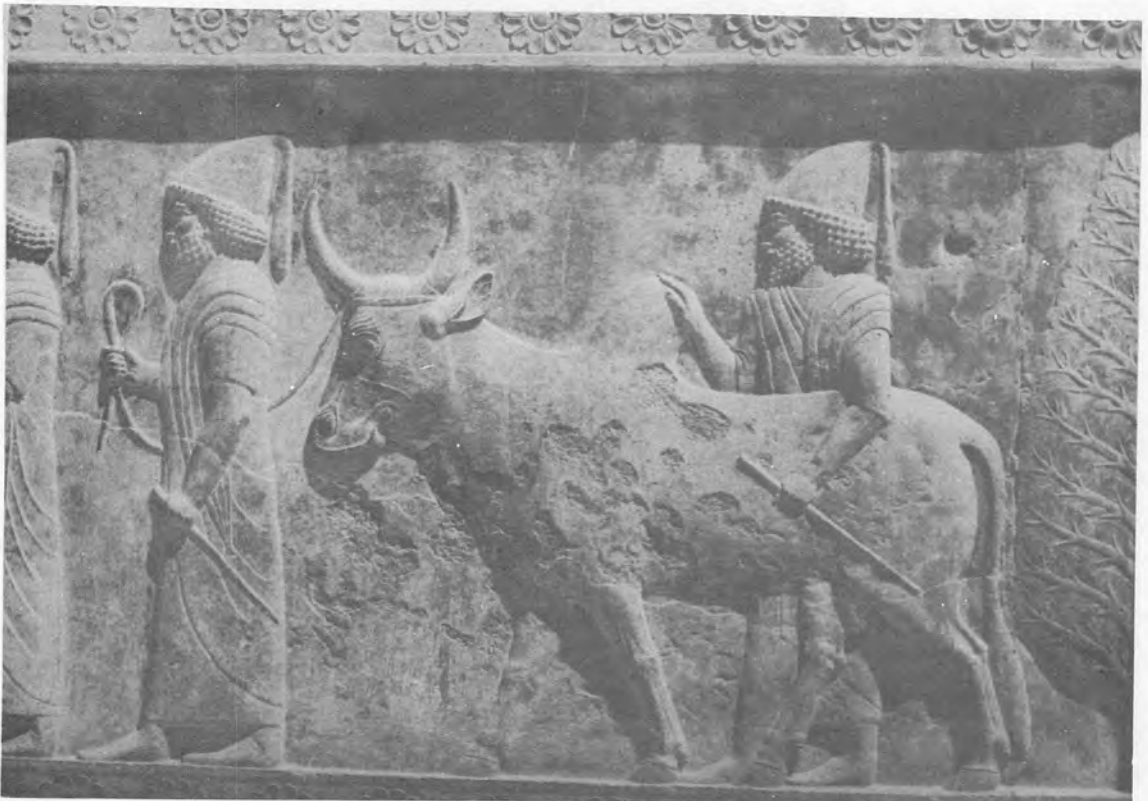
لوحة ١٣٣ برسيبوليس : وفد الأرمن يقدم الهدايا . الدرج الشرقي للأبادانا . تصوير مايكل روجرز .

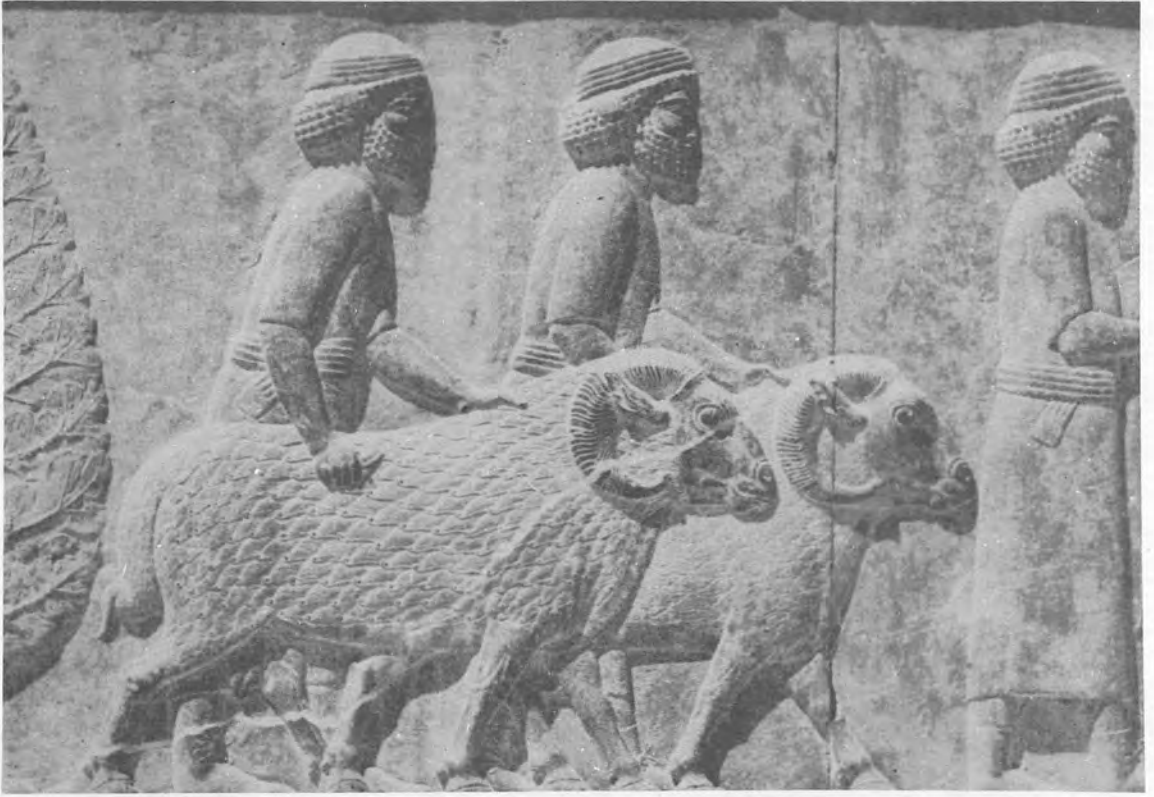




لوحة ۱۳۴ برسیبولیس : وفد بابلی . تصویر مایکل روجرز .

لوحة ۱۳۵ برسیبولیس : وفد بابلی . تصویر مایکل روجرز .

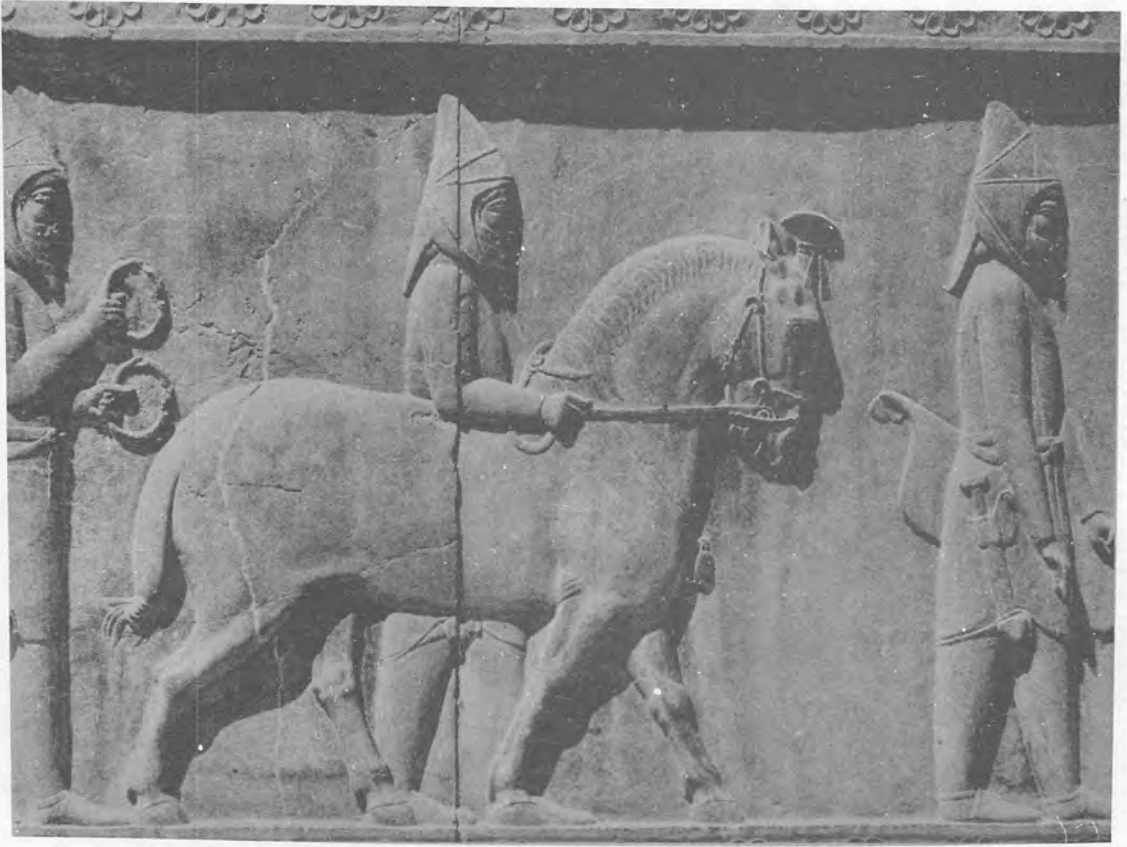




لوحة ١٣٦ برسيبوليس : وفد سيليسيا بأسيا الصغرى يقدمون الكباش . تصوير مايكل روجرز .

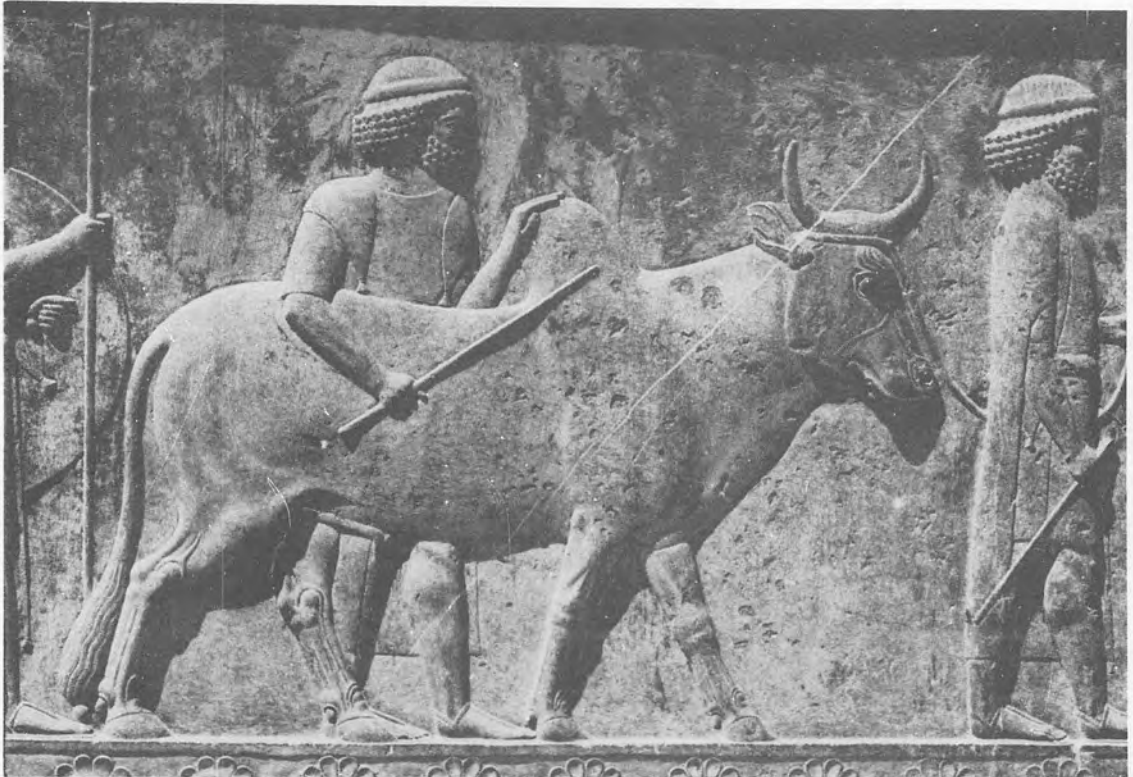
لوحة ١٣٧ برسيبوليس : السكوديون يعتمرون بقلنسوات مديبة يهدون الأقمشة . تصوير مايكل روجرز .

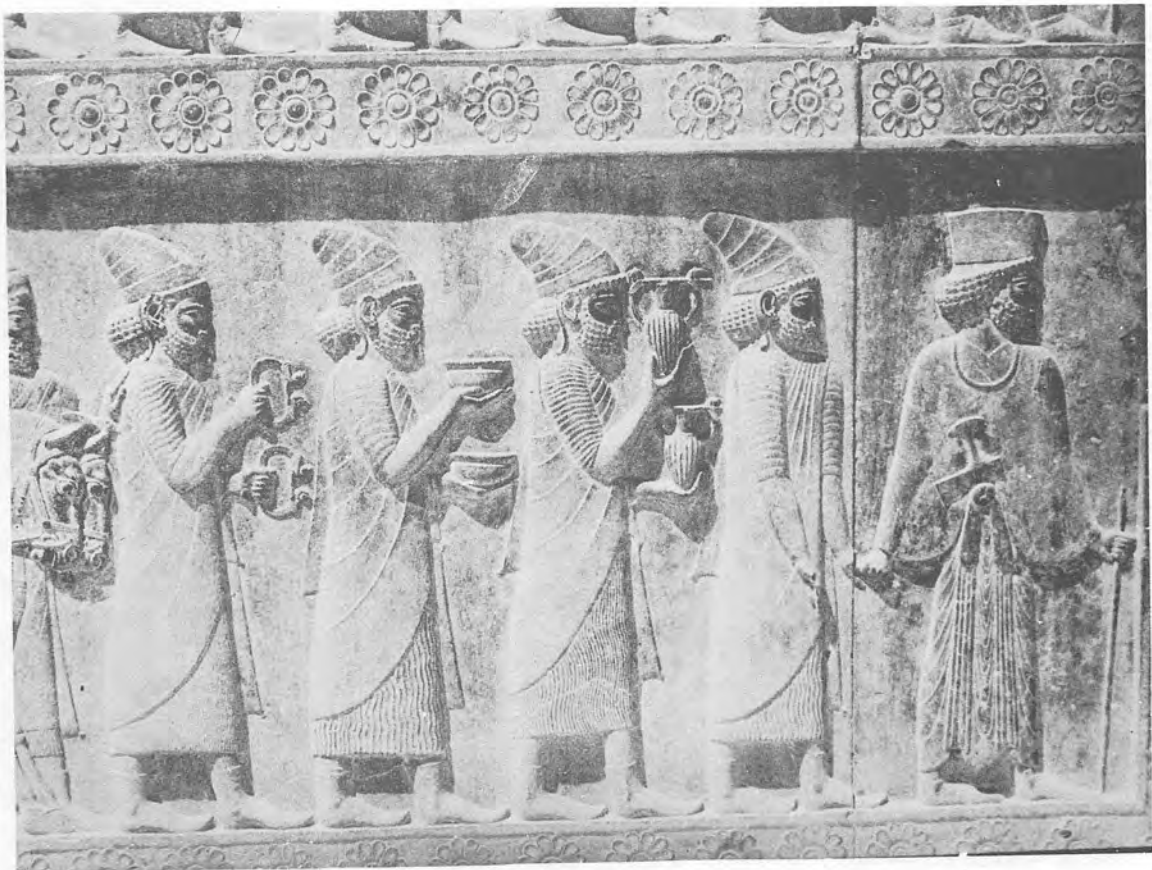




لوحة ١٣٨ برسيبوليس : السكوديون يقدمون جوادا واساور ذهبية . تصوير مايكل روجرز .

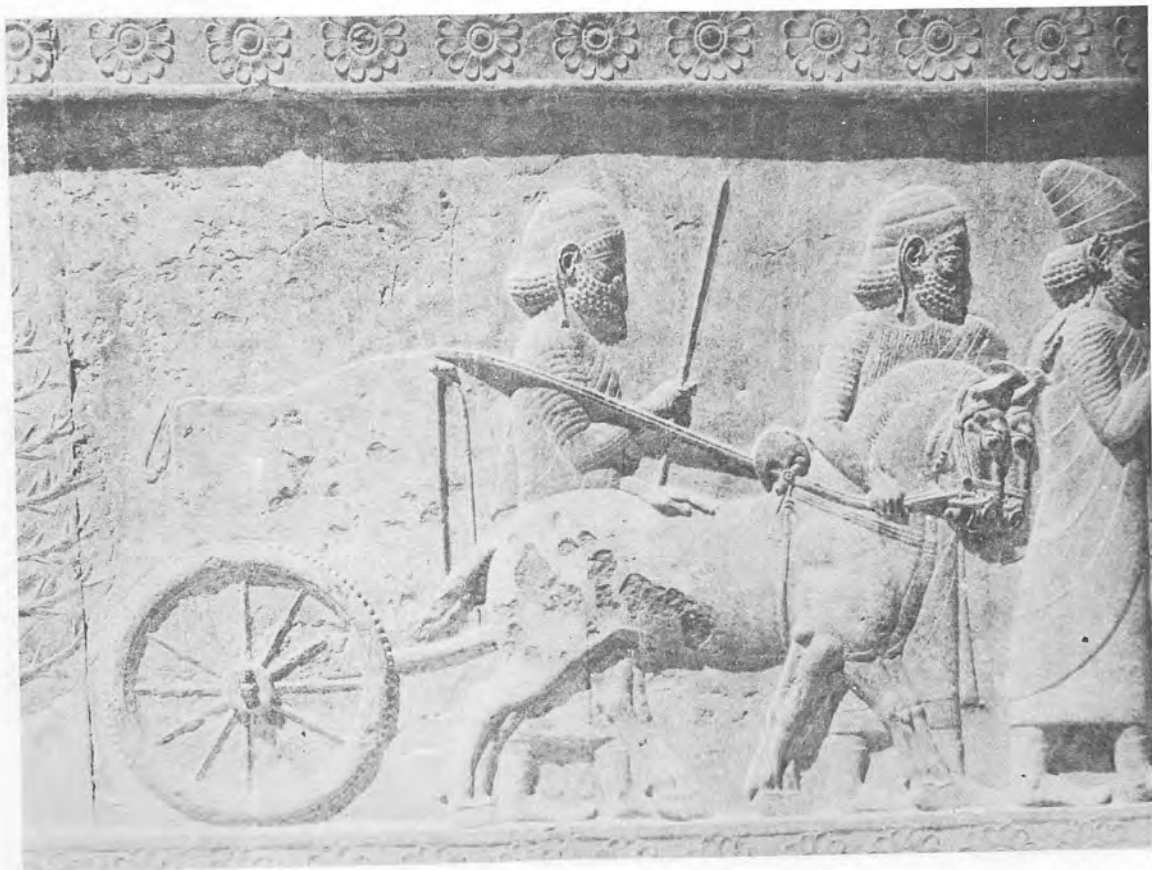
لوحة ١٣٩ برسيبوليس : الأشوريون يقدمون ثورا . تصوير مايكل روجرز .





لوحة ١٤٠ برسيبوليس : الفينيقيون يقدمون أواني وأساور ذهبية . تصوير مايكل روجرز .

لوحة ١٤١ برسيبوليس : الفينيقيون يقدمون مركبة يجرها جوادان . تصوير مايكل روجرز .

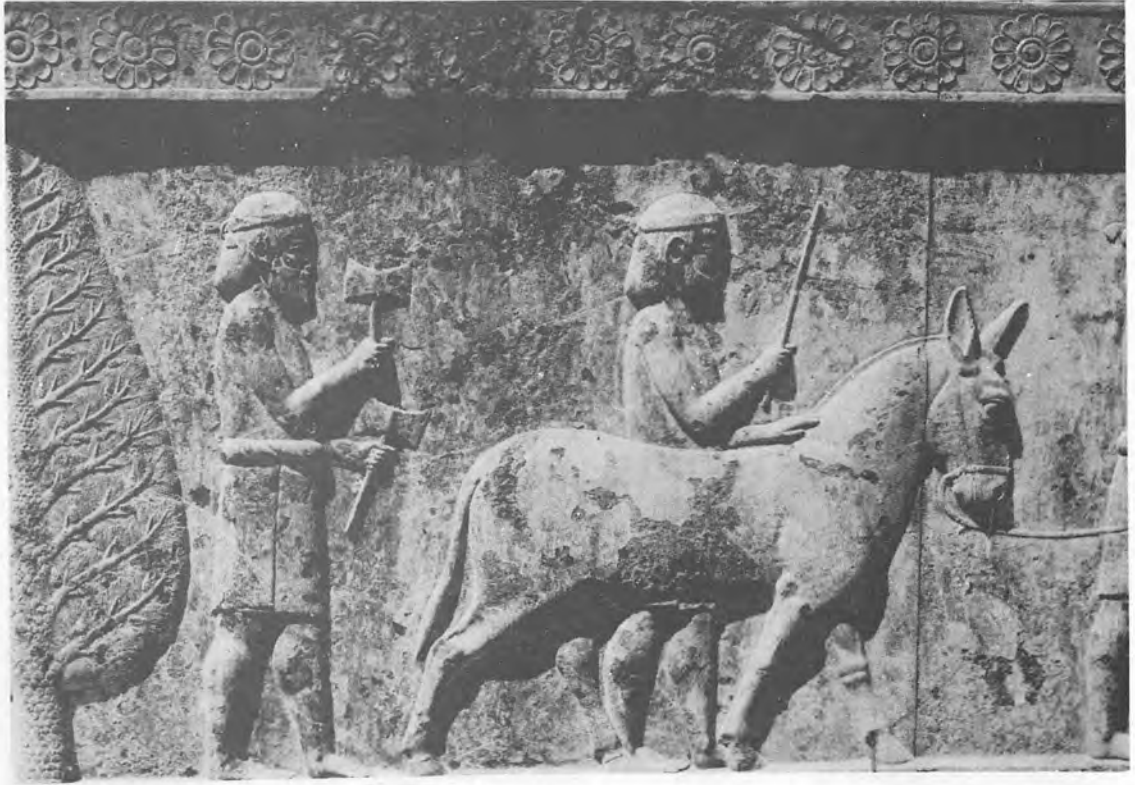




لوحة ١٤٣ برسيبوليس : أهل لبديا يقدمون أوعية مليئة بالنفائس . تصوير مايكل روجرز .

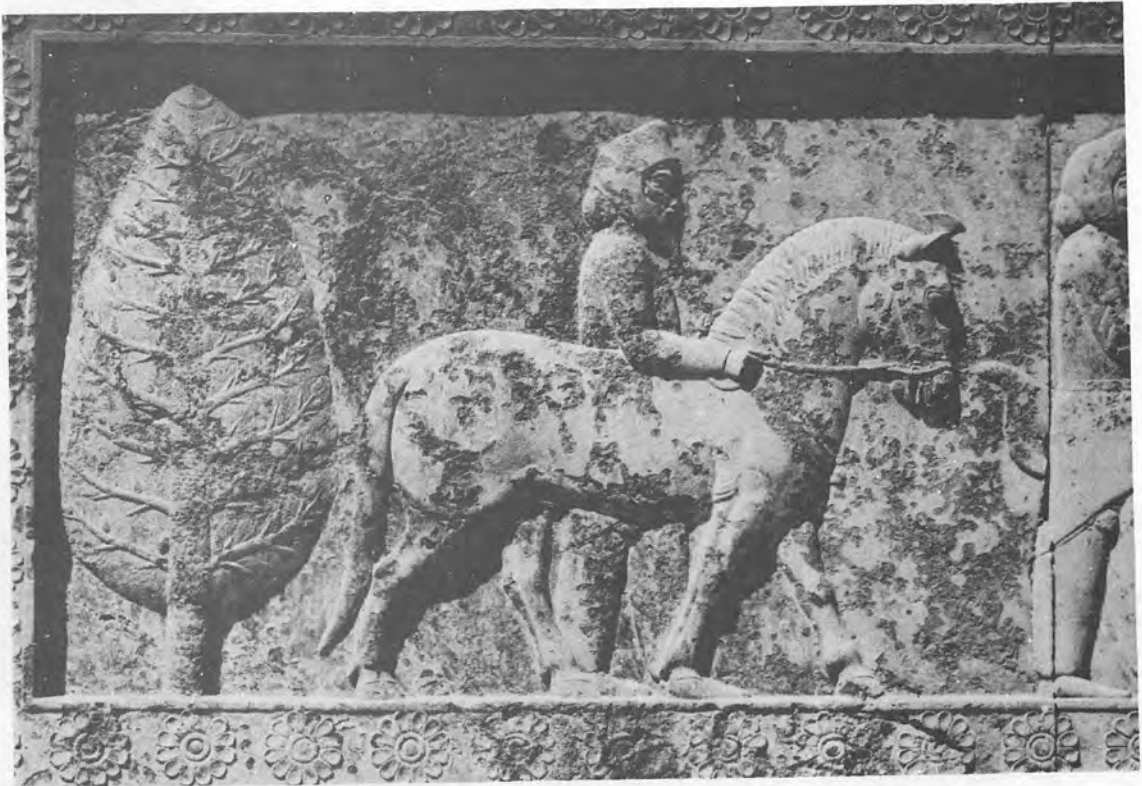
لوحة ١٤٤ برسيبوليس : نبيل فارسي يقود أحد البراهمة الذي يترأس وفد الهند . تصوير مايكل روجرز .





لوحة ١٤٥ برسيبوليس : وفد الهند . تصوير مايكل روجرز .

لوحة ١٤٦ برسيبوليس : الطراقيون وأهل شرق مقدونيا يقدمون جوادا . تصوير مايكل روجرز

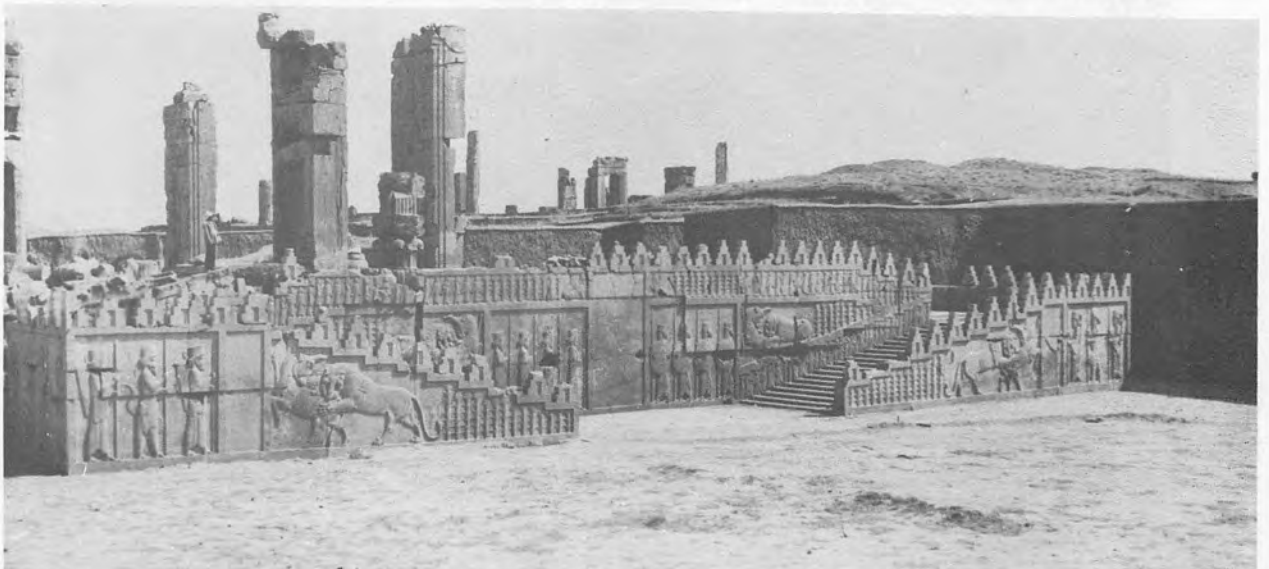


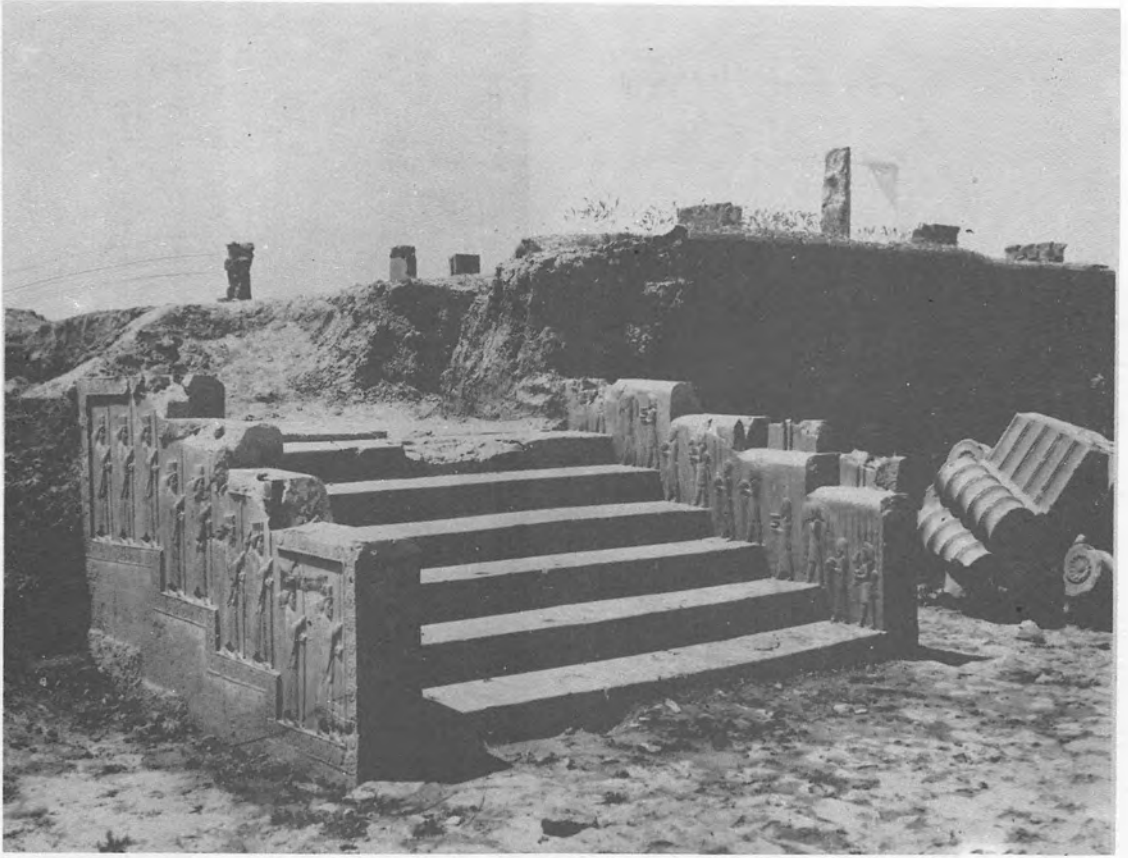




لوحة ١٤٧ برسيبوليس : باب التريبيليون . داريوش الأول تحت المظلة .

لوحة ١٤٨ برسيبوليس : الدرج المؤدى إلى داخل القصر . بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .



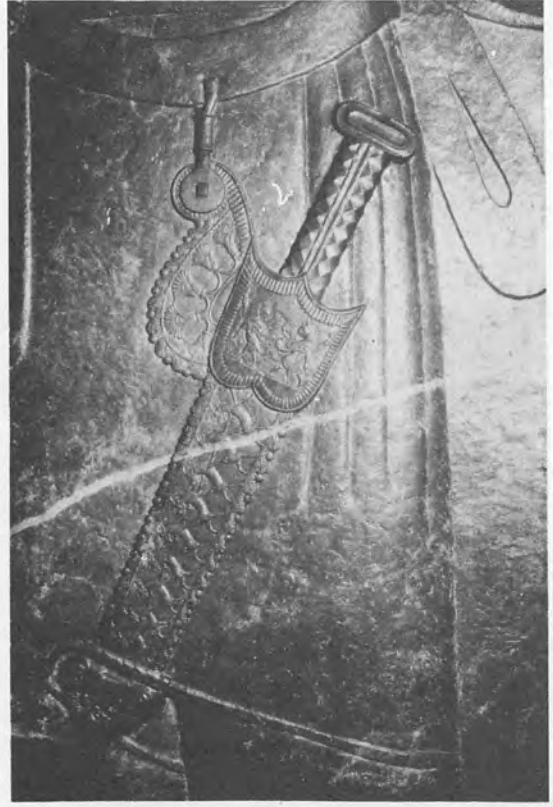


لوحة ١٤٩ برسيبوليس : الدرج  
المؤدى إلى قاعة الأعمدة . بإذن من  
معهد الدراسات الشرقية بجامعة  
شيكاغو .

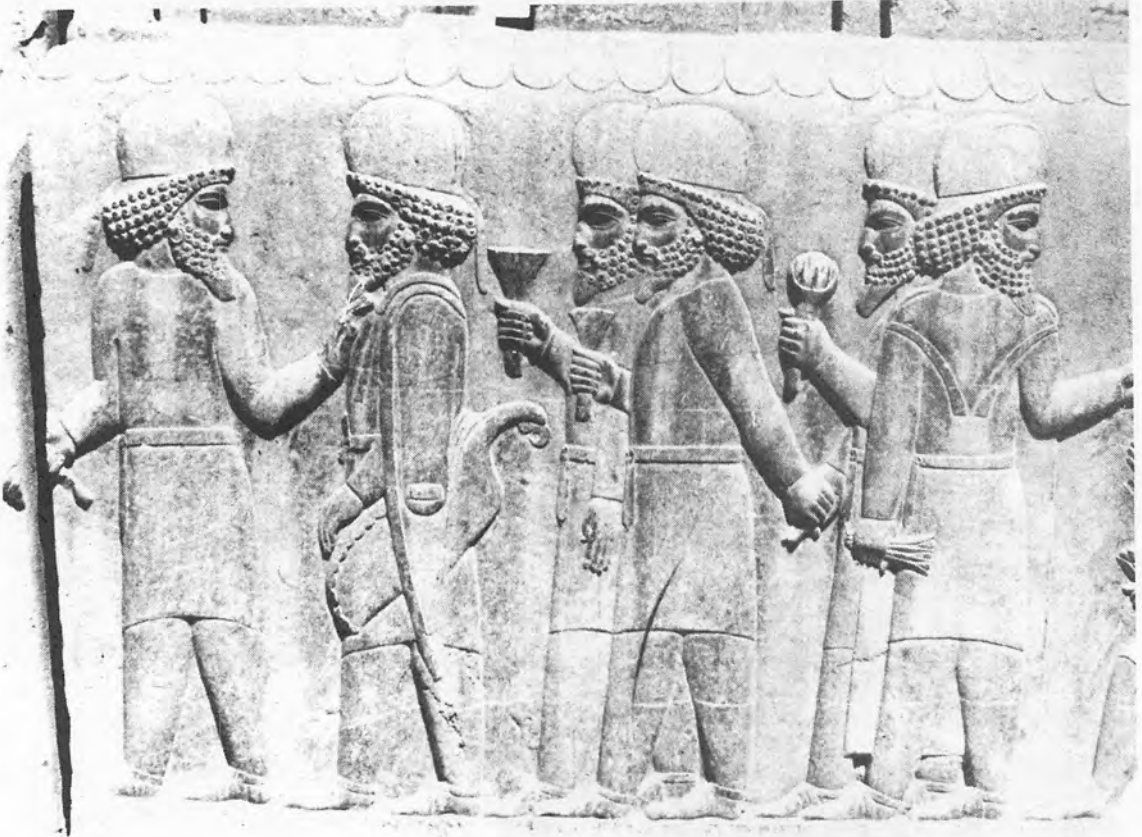


لوحة ١٥٠ برسيبوليس : أشرف  
الفرس . تصوير مايكل روجرز .

لوحة ١٥١ ، ب برسيبوليس :  
خنجر منقوش على الحجر . درج  
الأبادانا . بإذن من متحف طهران .



لوحة ١٥٢ برسيبوليس : أشرف  
الميدان . القصر الأوسط . تصوير  
مايكل روجرز .





لوحة ١٥٣ برسيبوليس : قصر خشايارشا . الدرج الغربي : خادمان يحملان الطعام .

لوحة ١٥٤ برسيبوليس : خدم القصر يحملون أواني العطر .



لوحة ١٥٥ برسيبوليس : داريوش تحت المظلة .





لوحة ١٥٧ تحت جمشيد .  
برسيبوليس : البطل الملكي داريوش  
الأعظم يصرع حيوانا خياليا يرمز  
للظلمة والأعداء ، له رأس أسد وقرن  
ثور وحيد القرن وجناحا نسر وذيل  
عقرب ، قائماه الأماميتان لأسد  
والخلفيتان بمخالب نسر . الباب  
الشرقي للقاعة الرئيسية . وقد ظهر  
داريوش وهو يقتل الحيوان بذراعه  
اليمنى على حين ظهر في اللوحة  
المواجهة له يقتله بذراعه اليسرى تعبيرا  
عن قوة ساعديه .



لوحة ١٥٦ برسيبوليس : داريوش  
ومن خلفه ولي عهده خشايارشا .  
بإذن من معهد الدراسات الشرقية  
جامعة شيكاغو .

لوحة ١٥٨ برسيبوليس : القاعة الشمالية . نقش بارز جنوب الرواق : داريوش جالسا أمام هيكل النار بينما يقترب منه مقدم  
القرن السادس ق.م . بإذن من متحف طهران .



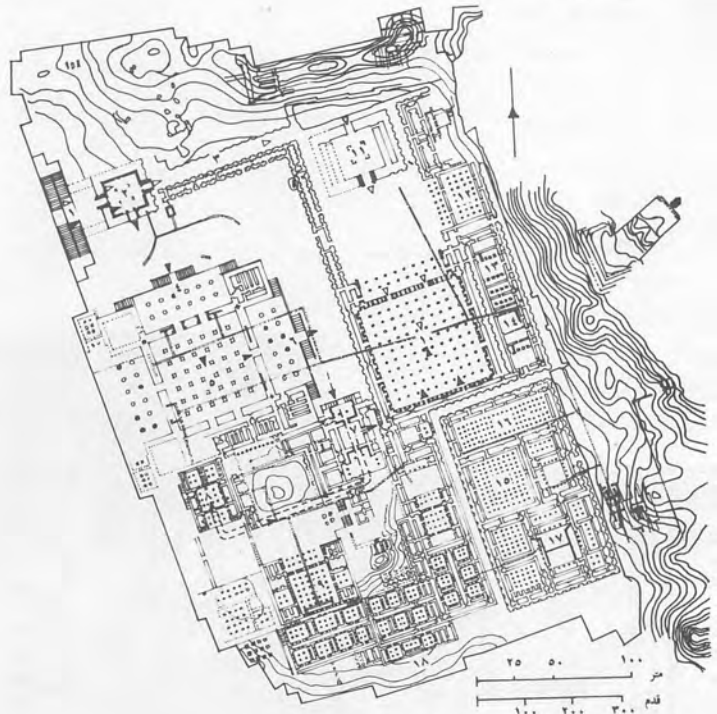


لوحة ١٦٠ برسيبوليس : الحراس  
المسحون .



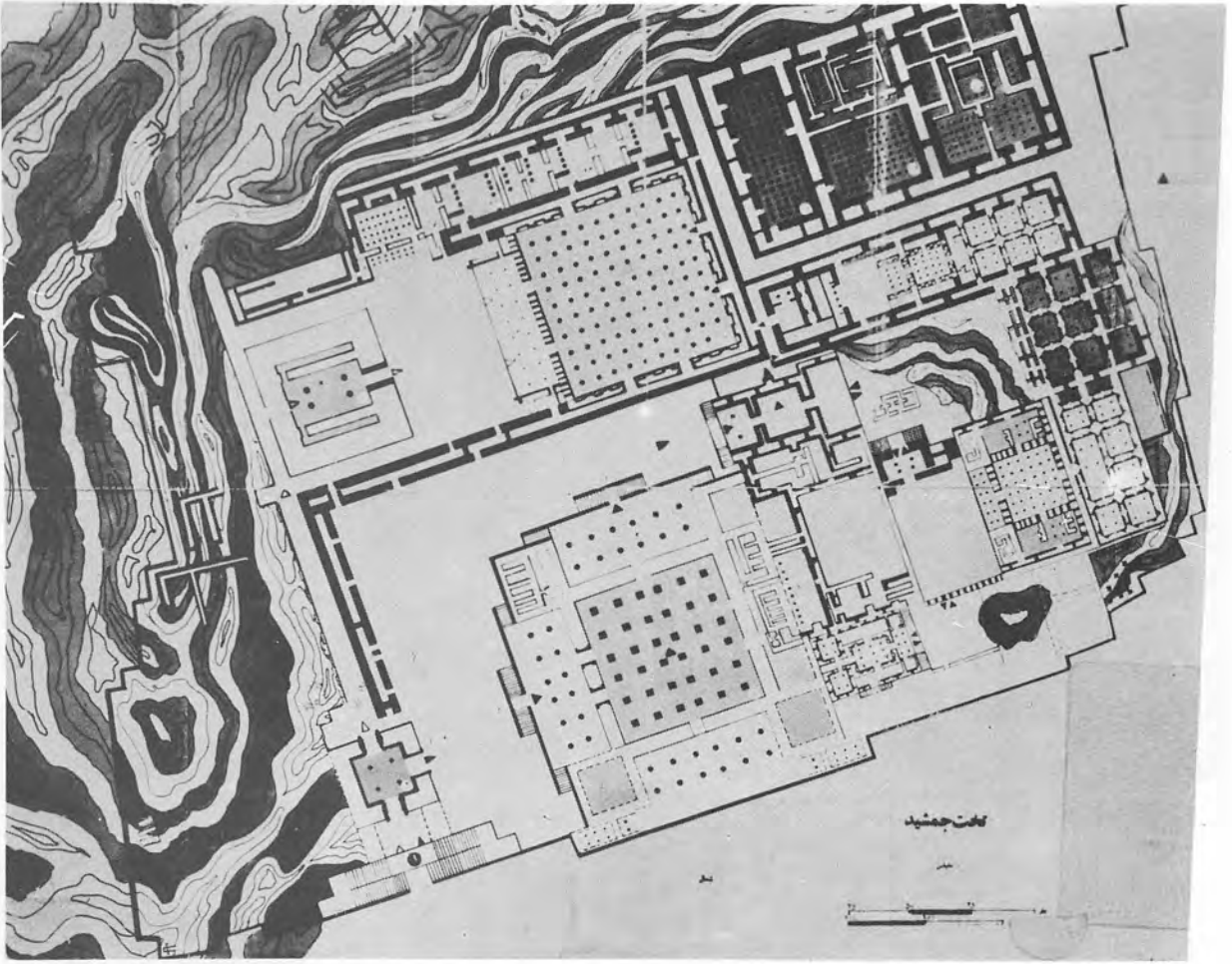
لوحة ١٥٩ برسيبوليس : الحراس  
المسلحون .

- لوحة ١٦١ برسيبوليس : مواقع  
المباني المختلفة :
- ١ - سلم المدخل  
الكبير
  - ٢ - مدخل خشايارشا  
المعروف بمدخل جميع  
الشعوب
  - ٣ - طريق المواكب
  - ٤ - السلم الشمالي  
للأبادانا [للإيوان]
  - ٥ - الأبادانا  
[الإيوان]
  - ٦ - السلم الشرقي  
للأبادانا [للإيوان]
  - ٧ - قاعة المجلس  
« تريبولون »
  - ٨ - قصر داريوش  
(قاعة الولايم)



لوحة ١٦١

برسيبوليس : مواقع المباني المختلفة



لوحة ١٦٢ تحت جمشيد . برسيبوليس .

- ٩ - قصر نخشايارشا  
( قاعة الولايم )
- ١٠ - بهو الأعمدة المائة
- ١١ - المدخل الناقص
- ١٢ ، ١٣ ، ١٤ -  
الثكنات العسكرية
- ١٥ - بهو الأعمدة المائة
- ١٦ - بهو الأعمدة  
التسعة والتسعين
- ١٧ - الخزانة الملكية
- ١٨ - الجهة الجنوبية  
المشرفة على الصحراء
- الطريق الذى  
يسلكه امراء الفرس  
والمدينين
- الطريق الذى  
يسلكه رؤساء البعثات  
ووفودهم





لوحة ١٦٣ صورة تبين المنظر العام للمباني المختلفة بتخت جمشيد .

لوحة ١٦٥ برسيبوليس : عمود  
أعيد تركيبه بتاجه كاملا . القرن  
الخامس ق.م . بإذن من متحف  
طهران



لوحة ١٦٤ برسيبوليس : تاج عمود  
أخميني





لوحة ١٩٦٦ برسبوليس . قاعة الأعمدة المائة : تاج عمود على هيئة ثور .  
القرن الخامس ق.م . بإذن من متحف الفن بمدينة كانساس . ميسوري



لوحة ١٦٦٦ برسبوليس : نفس التاج بالمواجهة .



لوحة ١٦٨ فن أخميني .  
برسيبوليس . خادم أمرد من قصر  
داريوش . القرن ٦ أو ٥ ق . م .



لوحة ١٦٧ برسيبوليس : الملك  
يخضع شيلا بساعده . القرن  
السادس / الخامس ق.م .

لوحة ١٦٩ نقش رستم : قبر داريوش الأعظم منحوتا في الجزء العلوي من جبل كوه حسين ، وأسفله مشهد لمعركة من العهد  
الساساني تمثل الامبراطور الروماني فيليب العربي يستعطف شابور الذي أمسك بذراعي الامبراطور فاليريانوس . القرن السادس /  
الخامس ق.م . بإذن من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو .





١٧١



١٧٠

لوحة ١٧٠ برسيبوليس : رأس  
أمير ذي تاج مستن . من  
اللازورد . القرن الخامس / الرابع  
ق.م . بإذن من متحف طهران .

لوحة ١٧١ فن أحميني . منف .  
رأس رجل . القرن الخامس /  
الرابع ق.م . بإذن من متحف  
اللوفر .



١٧٢

لوحة ١٧٢ فن أحميني : أمير  
أحميني لعله أرسام . مجموعة خاصة .



لوحة ١٧٣ فن ميدي أو أمخيني . كنز جيحون : تمثال مقدم القربان . من  
الفضة . القرن السادس ق.م . بإذن من المتحف البريطاني .

لوحة ١٧٤ ، ١٧٥ فن ميدي أو أمخيني : رأس ملكية لعلها  
لأستياجوس . بإذن من متحف اللوفر .

١٧٤

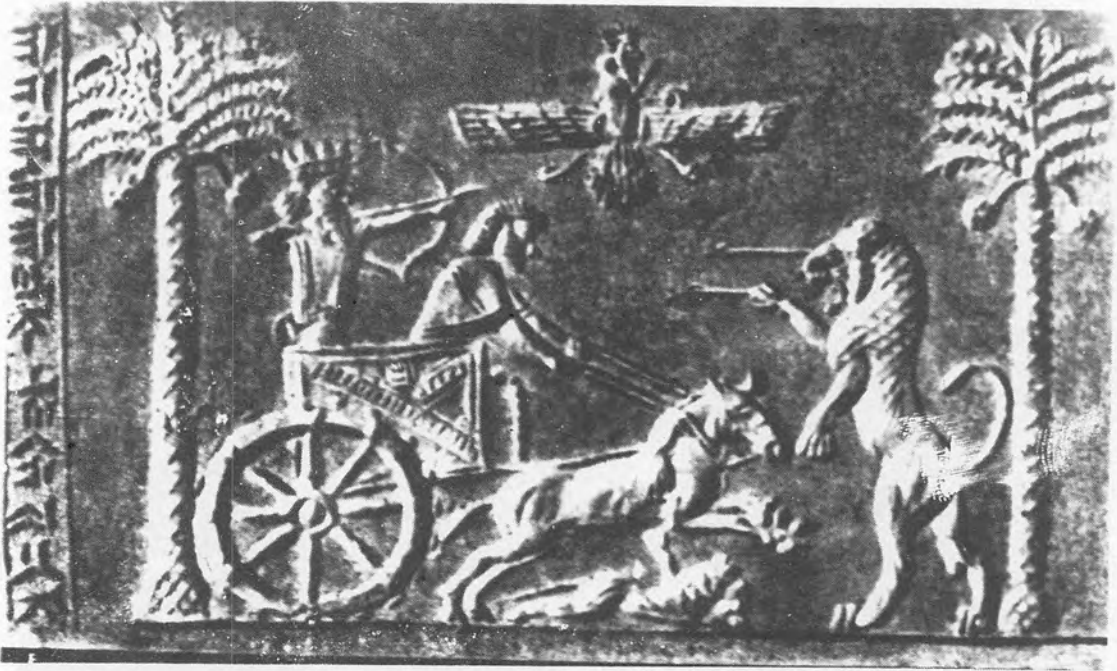


١٧٣



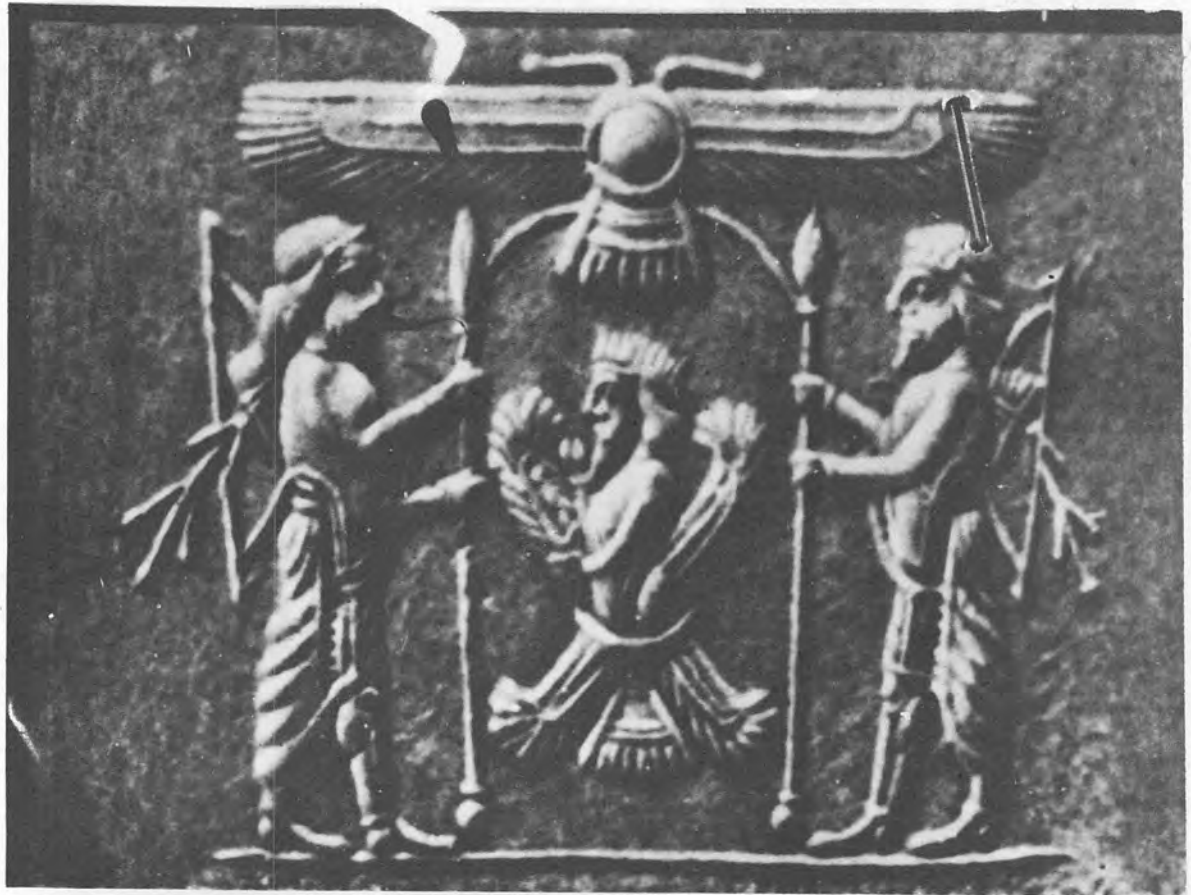
١٩٧

١٧٥

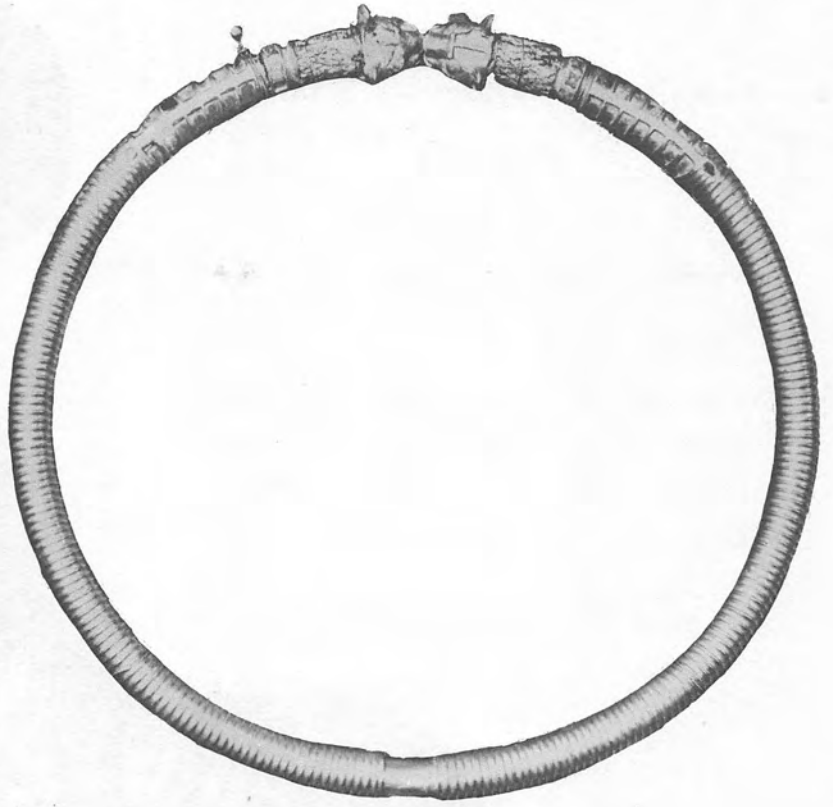


لوحة ١٧٦ . خاتم أسطواني يمثل الملك داريوش يطارد أسدا .

لوحة ١٧٧ خاتم أسطواني : اثنان من الرماة يرفعان القرص المجتّح .



لوحة ١٧٨ كنز جيحون : عقد  
ذهبي مجدول وقرط وقلادة . بإذن  
من متحف اللوفر .



لوحة ١٧٩ كنز جيحون : أسورة  
ذهبية مطعمة . بإذن من المتحف  
البريطاني .



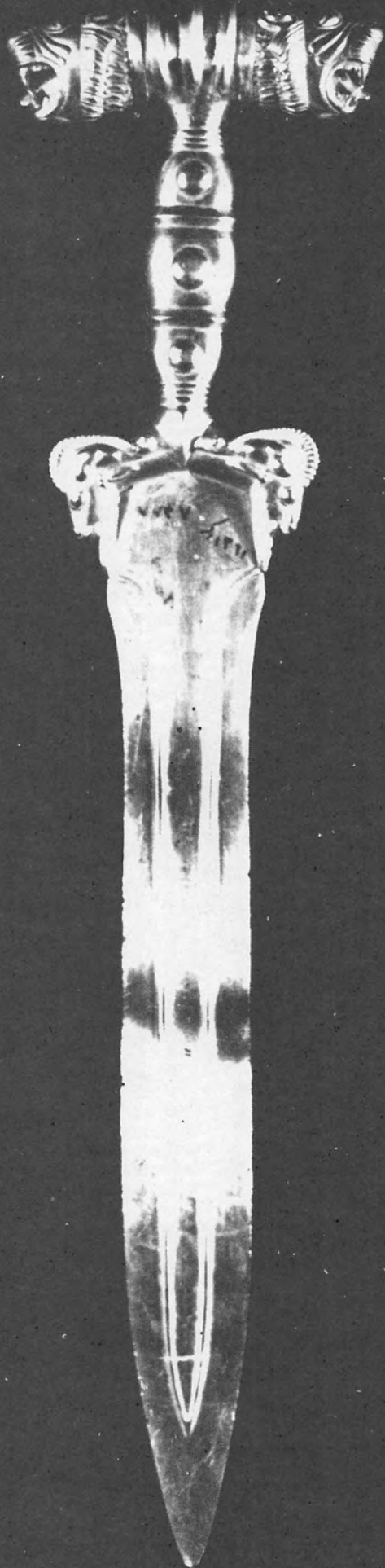


لوحة ١٨٠ كنز جيحون : أذن وعاء من الفضة على شكل وعل . بإذن  
من المتحف البريطاني .

لوحة ١٨١ كنز جيحون : أيايل من الذهب . من المتحف البريطاني .

لوحة ١٨٢ كنز جيحون : همدان [كياتانا] . خنجر من الذهب يبدأ  
مقبضه بشكل رأس الكبش وينتهي برأس أسد . بإذن من المتحف  
البريطاني .







لوحة ١٨٣ همدان . كأس شراب  
على هيئة أسد مجنح من الذهب . بإذن  
من متحف طهران .



لوحة ١٨٥ فن أخميني : من سمسون أو أرمنية : وعل مجنح من الفضة  
مطعم بالذهب . بإذن من متحف اللوفر .



لوحة ١٨٤ فن أخميني : كأس برونزية عليها مشهد صيد النعام . بإذن من متحف اللوفر .

لوحة ١٨٦ فن أخميني : من سوسه : أسد رابض من البرونز كان يستخدم صنجة ميزان . بإذن من متحف اللوفر .



## المعابد والمقابر الأخمينية

**لقد** اتسم الحاكم الفارسي بطابع جديد يختلف عن سبقوه ، فعلى حين كان الحاكم السومري يسمى «ولّي الإله في أرضه» وملك بابل وأشور يسمى ملك «كل مكان» أسبغت المراسم الملكية على الحاكم الفارسي لقب ملك الملوك الذى بعثه أهور مزدا ليحكم العالم الممتد ، ومنحه مملكته الشاسعة بمحاربيها المختارين «وخيولها الرائعة» اعترافا من الإله بفروسية أسلافه . كذلك اصطبغ الفن بصبغة جديدة ، فلم يعد كما كان في أشور وقفا على الزهو بشجاعة القائد العسكري ، ولا مثل فن بابل مسخرا لخدمة الملك الورع العاكف على عبادة الآلهة ، بل صار فنا يمجّد «الإنسان الأسمى» وكأن ذلك المفهوم كان إرھاصة مبكرة بأفكار نيتشه ، فلم يعد الحاكم ملكا سلّطه الآلهة أداة للإرھاب بل ملكا عادلا خيرا وقع عليه اختيار الآلهة جميعا . ويمكن أن نستنبط من ذلك أن الإله الذى كان يعبده قورش كان إله النور ، وهو ما يكشف عن مدى الارتباط بين العقائد السائدة وقتذاك .

وتدلنا المعابد المزديّة على أنه كانت ثمة عقيدة أخمينية تقدم فيها القرابين وهى تقطر دما إلى الآلهة في حفلات بدائية تذكّرنا بماضي الشعوب الهند — أوربية<sup>(٧٥)</sup> ، تحت إشراف الكهنة الذى كانوا يرافقون الجيوش أثناء زحفها للإشراف على تقديم القرابين ، وللقيام بتفسير الأحلام ، وإعداد «الهوما» — شراب الآلهة المقدس — الذى يُعدّ من نبات يبعث النشوة ويقدم أثناء الطقوس الدينية ، رمزا «للھوما» السماوية التى تمنح الخلود للبشر يوم البعث . كذلك كانوا يسهرون على النار المقدسة في المعابد ( لوحة ١٨٧ ، ١٨٨ ) ويجرسون مقابر الملوك ويؤدون الطقوس في العراء حول مذابح النار التى كانت في الأكثر مزدوجة ، ولعل ذلك هو الذى جعل هيرودوت يظن خطأ أن الفرس لم يعرفوا الهياكل ولا المعابد ولا صور الآلهة .

وقد أقيم المعبد المربع الذي يسمى الآن «كعبة زردشت» مواجهها لقبر داريوش المحفور في الصخر بنقش رسم<sup>(٧٦)</sup> قرب پرسپولیس . ويثير هذا المعبد الرهبة في النفوس حيث يشمخ برج من الحجر الجيري ارتفاعه أحد عشر مترا وعرضه سبعة أمتار ، صممت به ثلاثة صفوف من نوافذ صماء من حجر أسود توحى بأن البرج مكون من ثلاثة طوابق ( لوحة ١٨٩ ) . وكما هو الشأن في پاسارجاديه كان ثمة مذبحان منحوتان في الصخر خارج المعبد ، على غرار «التشاهارتاج»<sup>(٧٧)</sup> ، وهي سقائف مفتوحة من الجهات الأربع تتركز على أربعة أكتاف تحمل أربعة عقود تتوجها قبة ، وكانت الطقوس تقام حولها عهد الساسانيين في العراق .

وصور الفرس إلههم الرئيسي «أهورا مزدا» وقد بدا جذعه من خلال قرص الشمس في صورة تكاد تكون صورة حورس بأجنحته المبسوطة في التصوير المصري القديم ( لوحة ١٩٠ ) ، واتخذوا من ميترًا إلهًا للشمس والمواثيق والخلاص ، ومن «أناهيتا» إلهة للخصوبة والإنجاب والمياه . ويرجح بعض علماء الآثار أن المعبد المربع في نقش رسم قد أقيم ليكون معبدا لها ، ولقد عبد الأخمينيون كما سبق القول هذا الثالوث المكون من أهورا مزدا — ميترًا — أنا هيتا .

وانتشر في عهد الأخمينيين الدين المزددي كما أسلفت بعد أن أجرى زردشت عليه بعض التعديل ، وأقبلت عليه طبقة الأشراف التي كانت تنفر من الطقوس الدموية في الأديان الآرية القديمة ، وتخلي الفرس عن عادة دفن الموتى أو حرقهم أو إلقائهم في الأنهار ، واكتفوا بترك الجثث فوق الجبال أو فوق أبراج خاصة ، خشية تدنيس العناصر المقدسة الثلاثة وهي الأرض والماء والنار ، حتى إذا بليت الجثث جمعوا عظامها ووضعوها في مقابر خاصة «داخمه» ، غير أن الملوك الأخمينيين ظلوا يُدفنون بعد موتهم في أضرحة تشمل غرفة للموتى ، مثل ضريح داريوش المكون من ثلاثة صفوف من الكوى المحفورة في الصخر ( لوحة ١٨٨ ، ١٩١ ) ، وترتفع واجهته الخارجية إلى اثنين وعشرين مترا ونصف متر ، مقسمة إلى ثلاثة أقسام مختلفة يضم أعلاها نقوشا بارزة تصور الملك واقفا أمام هيكل ممسكا بقوسه ، بينما يخلق أهورا مزدا في الجو ، وكان الميديون قد نقلوا التصوير الرمزي من آشور إلى الفرس بعد أن أضفوا على إلههم صورة أكثر إنسانية .

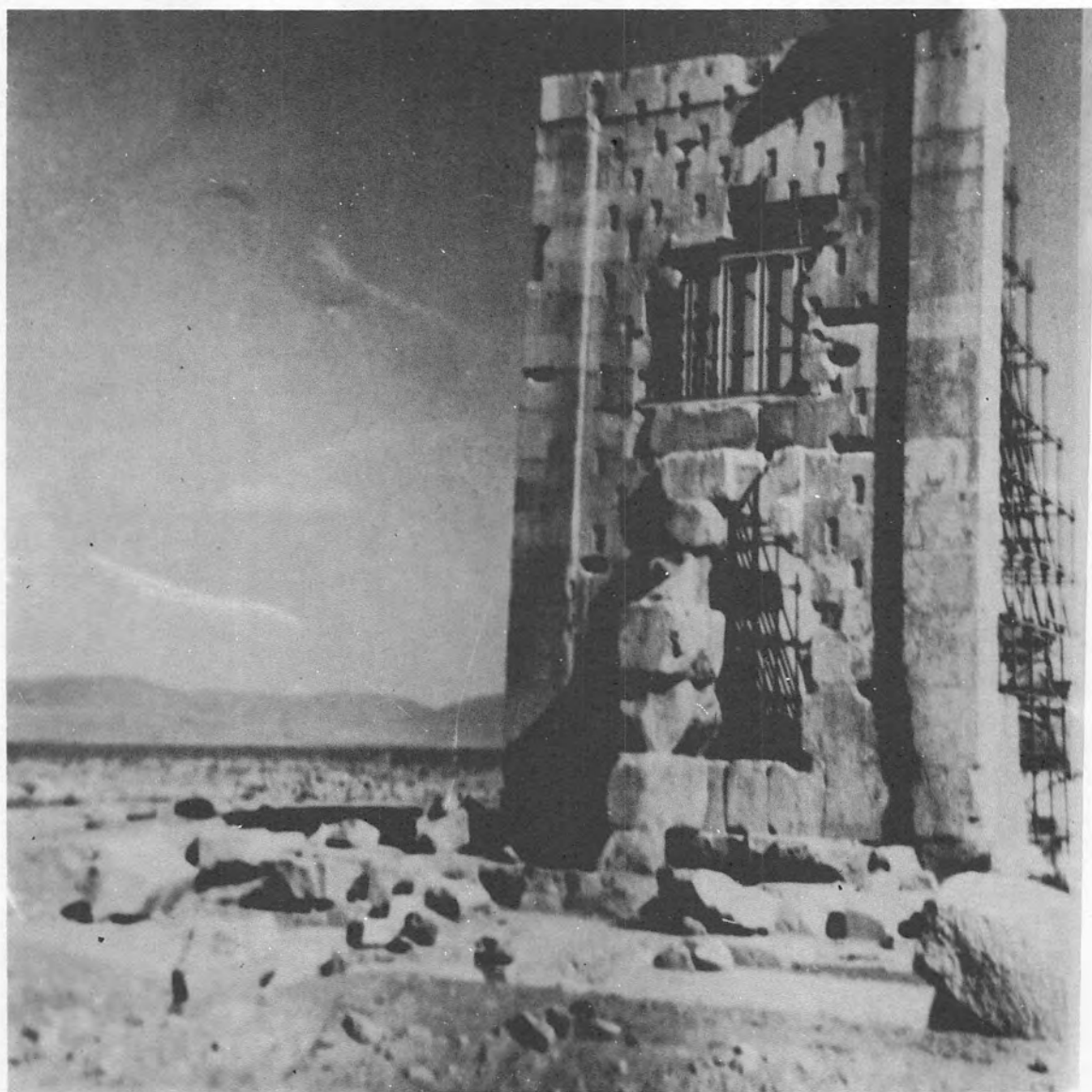
ولا جدال في أن العهد الأخميني ، يعد بداية تاريخ الفن الإيراني ، وهو على الرغم مما فيه من أصالة قد احتفظ بأعمدة حوض البحر المتوسط ، وحاكى بهو الأعمدة المصري وتمثل القصر البابلي بزخارفه ، وتأثر تأثرا كبيرا بالفن الميدي رغم قصر عهده . وهكذا ترك الأخمينيون فنا معماريا خالدا خلود الذكرى التي خلقتها سياستهم ، فقد رفعوا أطنانا من الحجارة على شكل ثورين يولى كل منهما ظهره للآخر ، فوق عمود رشيق يبلغ ارتفاعه عشرين مترا . وتركوا هذه الإنشاءات عرضة للإنهيار لدى أية هزة أرضية مهما هان شأنها . وكذلك ظلت الامبراطورية الفارسية شاحخة على قوائم هشة حتى أطاح بها

(٧٦) الكسرة تحت الشين توضع تحت آخر المضاف في اللغة الفارسية في جميع حالاته الإعرابية .

(٧٧) لعلها تحريف جهارتاج ( الأعمدة الأربعة ) .

غاز جسور هو الإسكندر الذي انقض على رأس خمسة وثلاثين ألف جندي ، وظل يعصف بهذا المارد الأخميني حتى ترتج وهوى . واكتسح الإغريق شطآن البحر المتوسط حتى ضفاف نهر السند ، وكانت هذه أول خطوة للغرب على أرض الشرق . ولم تقف هذه الخطوة عند حد تحقيق نتائج سياسية بعيدة المدى فحسب ، بل كان لها كذلك أثر على الدين والحضارة والفن وبدء عهد جديد في هذه المنطقة الهامة من العالم .

لوحة ١٨٧ باسارجاديه . معبد النار . تصوير كاتب هذه السطور .



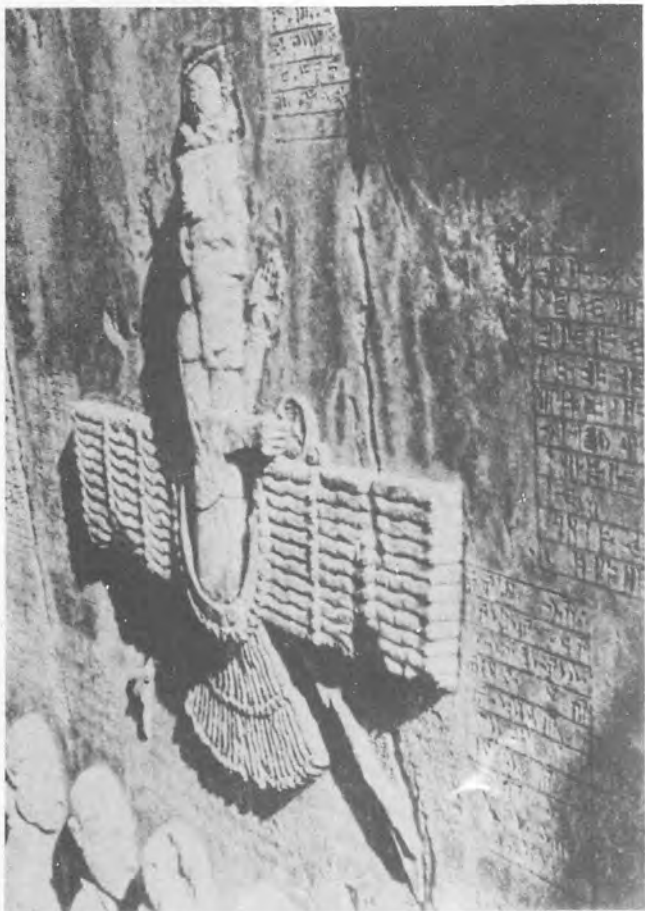




لوحة ۱۸۹ نقش رستم . معبد النار [المعبد الرابع] . كعبة زردشت  
بالنوافذ الصماء .

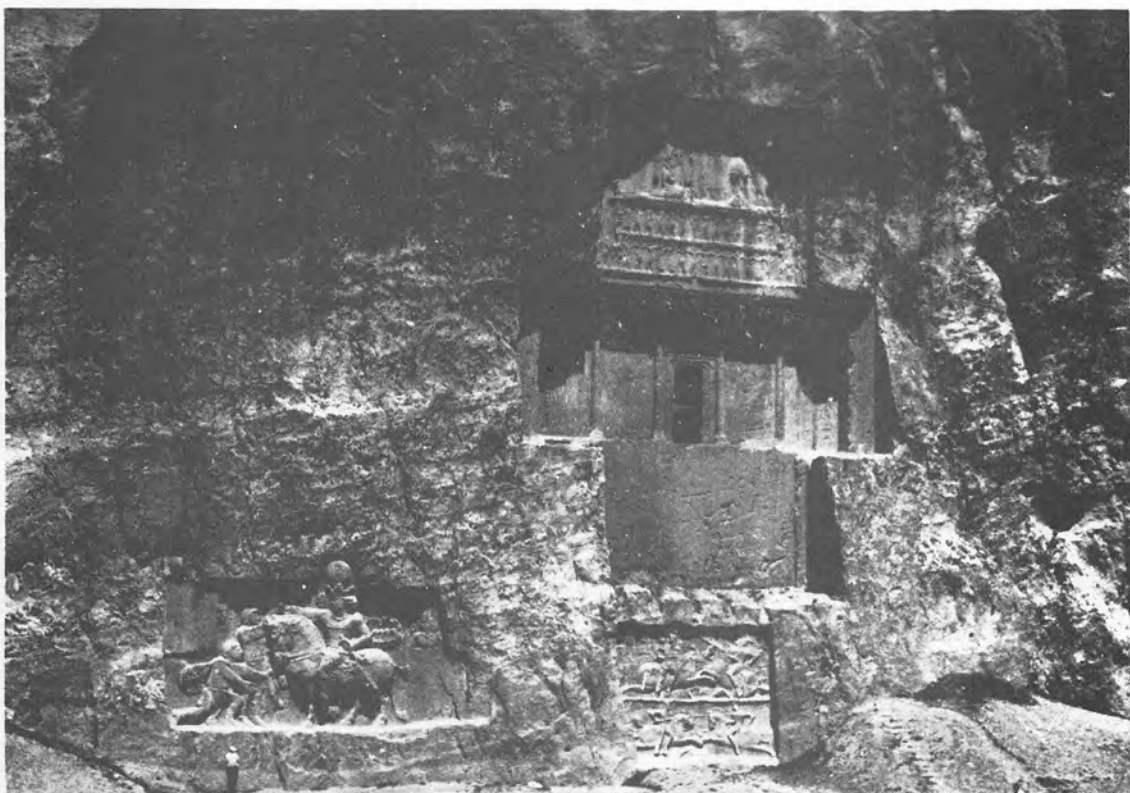
لوحة ۱۸۸ نقش رستم . معبد النار و بجواره ضريح داريوش .





لوحة ١٩٠ بيستون بکردستان .  
أهورا مزدا وقد بدا جذعه من خلال  
قرص الشمس .

لوحة ١٩١ ضريح داريوش المنحوت في الصخر .





فن البازئين



## — ١ — بين التأغرق والأصالة

**وفي** تلك الحقبة التي عاشتها إيران بعد غزو الاسكندر وامتلاك السلوقيين ناصية الحكم عليها ، حتى استرد متبرادات الثاني مؤسس الأسرة الهلنستية<sup>(٧٨)</sup> عرش فارس ، سادت البلاد فوضى سياسية خلفت آثارها في مجال الفنون . وكانت قد تكونت في إيران جالية يونانية كبيرة ظلت متمسكة بروحها الغربية وتقاليدها المتأغرقة ، ظهرت إلى جانبها طبقة إيرانية كبيرة تأثرت بالتقاليد اليونانية مما تجلّى أثره في إبداع الفنانين الإيرانيين الذين لم يبق غير القليل منهم ملتزم بطابع الفن الأخميني . وهكذا اجتمعت في إيران خلال هذه الحقبة أنواع ثلاثة من الإبداع الفني : نوع متأغرق خالص تعذر تحديد جنسية مبدعيه ، ونوع إيراني متأثر بالتقاليد المتأغرقة ، وثالث إيراني خالص .

ونرى آثار الفن المتأغرق الخالص في التماثيل الصغيرة لآلهة الإغريق كديميتر وأثينا وزيوس (لوحات ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤) وتمثال المرمر النصفي المكتسي لإحدى الإلهات (لوحة ١٩٥) . وكذا نلمس تأثير الفن الإيراني بالفن اليوناني في أطلال معبد في «كنجور» على الطريق بين كرمانشاه وهمدان ، وهو مبنى تبلغ مساحته حوالي مائتي متر مربع ، وقد اتبع المعماري في قطع أحجار أسطح جدرانه الأسلوب عينه الذي اتبع في مباني مدينة پرسسبوليس (لوحة ١٩٦ ، ١٩٧) ، بينما زوّدت الأعمدة ذات التيجان الدورية بوسائل كورنثية<sup>(٧٩)</sup> .

(٧٨) ولو أن أشكّ هو مؤسس الأسرة الهلنستية إلا أن متبرادات الثاني هو الذي انتزع عرش فارس .

(٧٩) Abacus وسادة العمود هي كتلة من الحجر المسوّى التي تفصل في رقة بين الأجزاء المستديرة أسفلها والأجزاء العلوية التي

تسمى بالتضد Entablature .

ويتجلى إضفاء الصبغة الإيرانية على العناصر الإغريقية المعمارية أكثر ما يتجلى في «كورها» حيث نرى الأعمدة الأيونية قد استطلت واتخذت نسبا جديدة وشكلا يتفق مع الروح الإيرانية (لوحة ١٩٨). ومنذ احتلال المقدونيين لإيران لم تهدأ ولم تكف عن التمرد والثورة ولم تجد سياسة المصاهرة المتبادلة التي ابتدعتها الإسكندر وطبقها في حياته الخاصة إلا في تهدئة مؤقتة. ولا عجب في ذلك فقد كان الصراع القائم جوهريا بين فكرين مختلفين، فلم يكن الشعب الإيراني يرى في السلوقيين غير قوم من غلاة الكذابين والمهريين المفطورين على الخداع، كما كان السلوقيون يعدون «أشك» الأول مؤسس دولة الأشكانيين قاطع طريق سوقي ومثيرا للفتن شأن غيره من المتمردين!

وتعنى كلمة پارث المغتربين المُبعدين عن وطنهم، ولم تكن اسم قبيلة أو شعب معين، فقد هاجر عدد من الشباب الفرس والميديين أثناء حكم السلوقيين إلى الحدود ممارسين حياة مهجر «پارثية». وهذا مايفسر خطر هذه الحركة الدينية والاجتماعية والحربية التي اكتسحت السلوقيين بعد أن طردهم الفرس وجدوا في إثرهم حتى بلغوا ضفاف دجلة والفرات ووصلوا إلى البحر المتوسط. وهكذا حملت كلمة البارث أيضا معنى «بطل الشعب» و«البطل القومي»، وأصبح تاريخ إيران ملحمة كبرى تمثل سلسلة من مظاهر الأخذ بالثأر.

وتتضح آثار الفن المعماري البارثي الخالص في المعابد البرجية الشكل المخصصة لعبادة النار التي ظل الإيرانيون محلصين لها وأوفياء دون تبني العقائد الدينية اليونانية، وإن جاءت أحجامها دون المعابد الأخمينية في پاسارجاديه ونقش رسم. وقد تكون التعديلات التي أدخلت على بناء هذه المعابد — التي يُعد معبد مدينة نوراباد نموذجا لها (لوحة ١٩٩) — وليدة تجديدات طرأت على عقيدة عبادة النار نفسها، فقد أضيف إلى المعبد سلم داخلي يؤدي إلى السطح حيث أصبحت تقام الهياكل الخاصة بعبادة النار، وخلت الجدران من الكوى والنوافذ الزائفة «الصماء» التي كانت توحى باحتواء المعبد على عدة طوابق، كما خلعت أعتاب الأبواب من الحليات المعمارية الزخرفية، وافتقدت عشيق الأحجار دقة خطوط اللحامات.

على أن الأبنية المعمارية والفنون التشكيلية قد تقاسمت معا هذا التدهور الفني الذي نلاحظه في تمثال حجري مشوه أغلب الظن أنه لنبييل پارثي عمر عليه بين أطلال قصر ملكي أقيم في سوسه يشبه عمودا خامدا لاجياة فيه، وإن تمنطق بحزام أنثوى يتدلّى منه سيف طويل ثقيل، وعلى جانبه مقبضا خنجرين (لوحة ٢٠٠).

وكان غزو سوسه هو أحد الأهداف الرئيسية للإسكندر المقدوني، فما كاد يفرغ من حملة الهند حتى عاد إلى سوسه بجيش جرار حيث قضى بعض الوقت فيها واقترن بكودومان ابنه داريوش، واحتفل في الوقت نفسه بزواج قاداته وعشرة آلاف من محاربيه بفتيات إيرانيات. وكانت هذه إحدى الخطوات لتحقيق حلم الغازي بمزج العالمين الغربي والشرقي: هيلاس وإيران. وقد تم في السنوات القليلة الماضية اكتشاف معسكر الإسكندر في سوسه حيث عثر على قطع من النقود والفخاريات الإغريقية ترجع إلى

القرن الرابع ق.م وعلى أسلحة وبقايا تماثيل رخامية ونقوش يونانية وأدوات صغيرة الحجم تشير في إيجاز إلى قصة ذلك الماضي من حياة سوسة التي احتفظت خلال بضعة قرون بطابع متأغرق . وإذ كانت اللغة

اليونانية هي اللغة الشائعة فقد صيغت بها المراسيم التي كان يبعث بها الملوك البارثيون إلى الولاية وشعب سوسة . وكانت ثمة حركة تجارية واسعة النطاق تربط بين سوسة ومدن بحر إيجة الإغريقية ، ودليل ذلك العثور حديثا على الجبانة التي ترجع إلى ذلك العهد ، وتحتوي على قطع من أثاثهم الجنائزي وجرات فخارية ذات أختام يونانية تشهد أن «النيبذ وافد من اليونان» .

ومنذ وقت قريب كُشف عن نقش خفيف البروز يمثل الملك أرتبان الخامس ، يعد أول أثر ملكي يخرج إلى النور خلال الحفائر الأخيرة ، مما يلقي الضوء على ما كان للمدينة القديمة من شأن في نهاية العهد البارثي ، كما ثبت أيضا قيام ثورة ضد الأسرة البارثية . وكانت المنطقة حول سوسة موقعا من المواقع الأخيرة التي قاومت فيها هذه الأسرة ، غير أن الساسانيين الذين خلفوهم في الحكم لم يولوا هذه المدينة الملكية القديمة اهتمامهم . كذلك نشبت ثورة قام بها المسيحيون خلال القرن الرابع الميلادي أدت إلى رد فعل عنيف من الملك شاپور الثاني ، ويروي المؤرخون أن أوامر الملك قضت بأن يطأ ثلاثمائة فيل من فيلة الجيش الفارسي مدينة سوسة ويدمروها تدميرا .

لوحة ١٩٢ فن متأغرق . نهاوند :  
دميتر . من البرونز . القرن الثالث إلى  
الثاني ق.م . بإذن من متحف  
طهران .







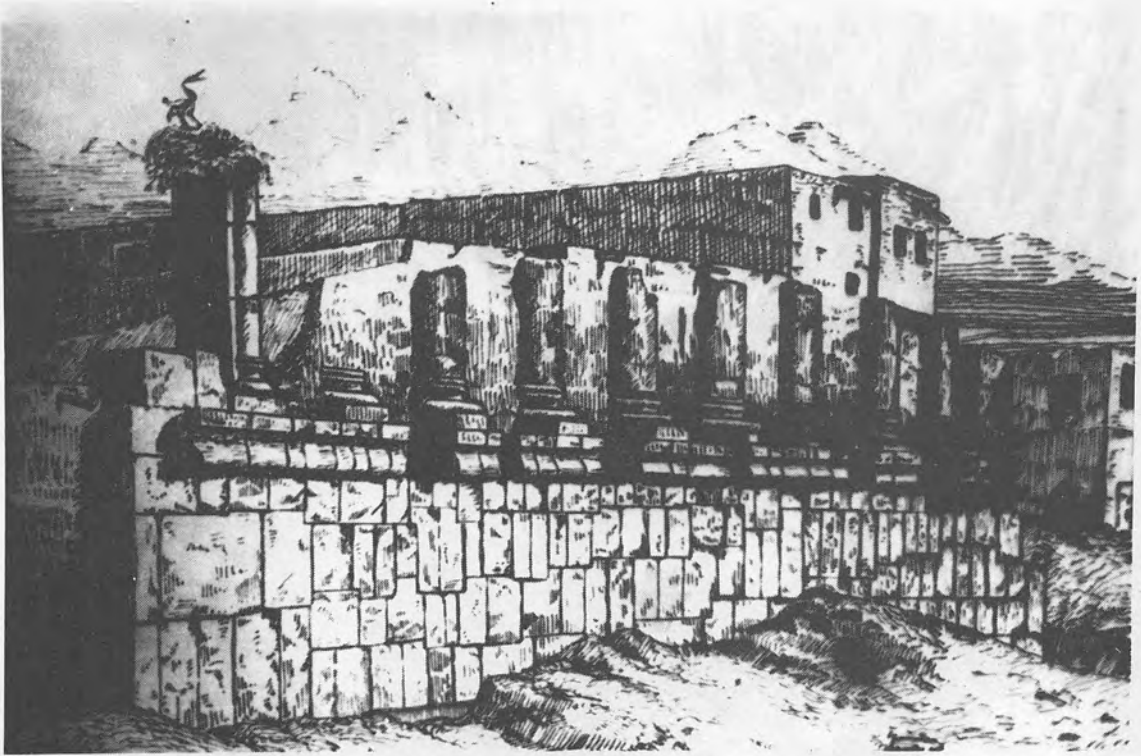
لوحة ١٩٤ فن متأغرق . نهاوند .  
زيوس . من البرونز . بإذن من  
متحف طهران .



لوحة ١٩٣ فن متأغرق . نهاوند .  
أثينا . من البرونز . بإذن من متحف  
طهران .

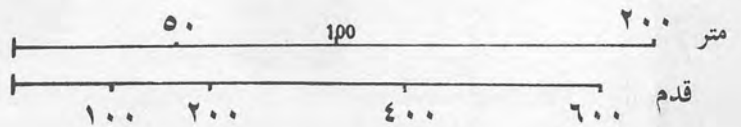


لوحة ١٩٥ فن متأغرق  
نهوند تمثال صغير لإحدى الربيات  
من البرونز بإذن من متحف  
طهران



لوحة ١٩٦ كنجور . معبد .

لوحة ١٩٧ كنجور .  
مسقط المعبد .





لوحة ١٩٨ كورها . فن إغريقي  
روماني . عمودان ذوا أصول أيونية  
حوالي عام ٢٠٠ ق.م .



لوحة ١٩٩ نوراباد بفارس . معبد  
النار . القرن الثاني ق.م .

لوحة ٢٠٠ تمثال حجري مشوه ،  
أغلب الظن أنه لأمير بارقي ، القرن  
الثاني ق.م .

## العمارة البارثية

**نشط** البارثيون في بناء المدن وإقامة المعابد والقصور ، وشيدوا « نيزا » عاصمتهم الأولى على الحافة الغربية لصحراء « قره قرم » قرب السهول التي كانت تقطنها قبائلهم ، وأقاموا بها قصرا ملكيا محاطا بالأبنية الطقسية . وتنتمي تعشيقات حجارة الواجهات إلى الفترة المتأثرة بالروح الإغريقية ( القرن الثالث — الثاني ق.م ) . وتبين الميثوبات والأفاريز والأكتاف — وكلها من الطين المحروق — مدى الثراء الذي بلغته الحصيلة الزخرفية المتميزة بتجاور الموضوعات البارثية الخالصة ، مثل الجعبة والسهام والأقواس مع العناصر اليونانية ممتزجة في موضوعات إيرانية مثل هراوة هرقل التي يحملها الإله « فيترانيا » (٨٠) .

وثمة قاعة مركزية تناولتها يد التعديل مرات عديدة يرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي ، يرتكز كل جانب من سقفها على أربعة أكتاف مركبة يتكون كل منها من أربعة أعمدة ملتصقة ( لوحة ٢٠١ ) ، مما غدت معه القاعة ذات ثلاثة مجازات . وقد قسّمت جدرانها إلى جزئين يعلو أحدهما الآخر ، ونحتت في الأجزاء العلوية منها كوى تضم تماثيل ملونة للآلهة التي اتخذها أسلافهم . وإلى الجنوب من القصر يقع « البيت المربع » الذي يحتوي على أربعة إيوانات تطل على صحن مكشوف .

وقد ارتبطت عمارة البارثيين بحياة البدو الرّحل ، وإلهم تعود فكرة المبنى ذى الإيوان السامق المفتوح بكامل ارتفاعاته وعرضه على واجهته . ولعل فكرة الإيوانات مستمدة من الخيمة التي تفتح من إحدى نواحيها على الخارج . وأغلب الظن أن البارثيين قد عرفوا نوعا واحدا من الأقبية هو القبو البرميلي

الذى ابتكروه أو أخذوه عن أسلافهم في شرقي إيران . وقد غدا هذا الإيوان فيما بعد قاعة الاستقبال في عهد الملوك الساسانيين ، كما أصبح في العهد الإسلامي يزيّن واجهات وأفنية المدارس وخانات القوافل والجوامع في إيران وغيرها .

ويُعدّ البيت المربع بفنائه المكشوف وإيواناته الأربعة من أقدم النماذج على هذا الطراز الذى أدخله البارثيون في إيران ، ثم امتد إلى «الحضر» في العراق . وكانت القاعة ذات المجازات الثلاثة إرهاصة بتقسيم واجهات قصور البارثيين إلى الأقسام الثلاثة التى شاعت فيما بعد ، وغدا القبو هو العنصر الإنشائي السائد ( لوحة ٢٠٢ ) .

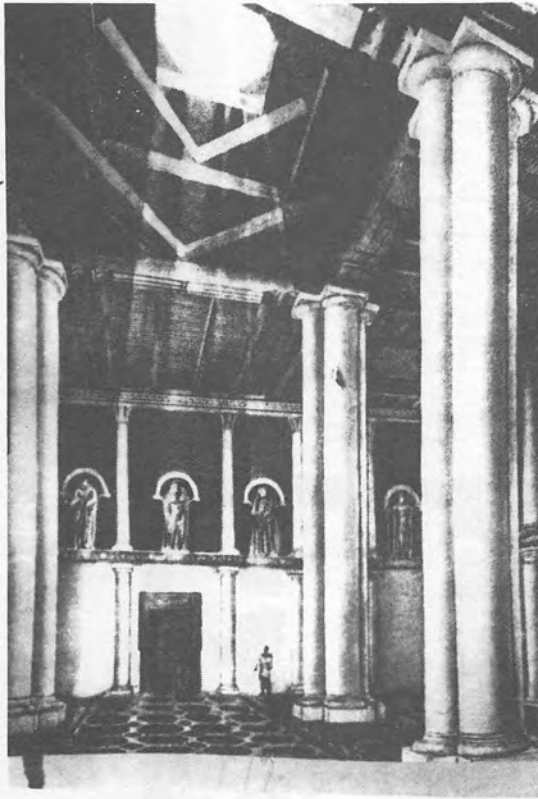
وعلى نسق ماكان عليه الحال في عهد الأخمينيين فقد اتخذت مبانيهم تصميمين مختلفين ، أحدهما هو الذى ظهر في دورا أوروبوس حيث المنزل البابلي ذى الفناء الداخلي مثل قصر داريوش بسوسه ، والثاني هو التصميم الإيراني الكلاسيكي للمنزل ذى الإيوان ، كما هى الحال في آشور والحضر ( لوحة ٢٠٣ ) .

واحتفظ البارثيون أثناء زحفهم نحو الغرب بالشكل الدائري في تخطيط مدنهم بعد أن اقتبسوه من تخطيط المعسكرات الدفاعية . ومما يسوّغ مواصلتهم اتباع هذا التخطيط حالة الاضطراب التى سادت إيران خلال عهد التحرير الذى بدأه بالثورة على الاحتلال ، فقد اتبعوا هذا التخطيط في «الحضر» على حدود العراق دفاعا عن بلادهم ضد الجيوش الرومانية . أما العمارة البارثية في الهضبة الإيرانية فلم تحظ من الدراسة الأثرية إلا بقدر ضئيل ، وذلك لقلّة ماتخلف من مبانيها ، وإن كنا نلاحظ بصفه عامة أنهم قد شيّدوا عمائرهم على أطراف هذه الهضبة في العراق بالوركاء وأشور والحضر وفي الأقاليم الشرقية في نيزا وكوه خوجا .

غير أن ثمة تغييرا قد لحق بالمنزل البارثي ، فأقيم من ثلاث قاعات إحداها رئيسية تتوسط قاعتين جانبيتين أقل منها مساحة ، واستبدل بالسقف المسطح القبو الذى تنسب نشأته إلى شرقي إيران ، وفقدت الأعمدة دورها كدعامات تحمل السقف ، وغدت مجرد عناصر زخرفية تلتصق بالأكتاف ، وظل الآجر مادة البناء الرئيسية . ومع ذلك فقد احتفظ البارثيون في بعض مبانيهم بالتقاليد الرومانية فشيّدوا جدرانها بكتل الحجر المُسوّى وغير المُسوّى على مانشهده في مباني الحضر ، ولم يكن الأشوريون والبابليون يعتمدون في جماليات عمارتهم على زخرفة الأسطح الخارجية لمبانيهم ، وورث الأخمينيون عنهم هذا التقليد ، ولو أنهم استخدموا الآجر المزجج والنقوش الخفيفة البروز التى تنتمي إلى تصميمات الأزرر الأشورية . وقد انصبّت جهود المعمارين تحت حكم البارثيين على الواجهات بحيث يتركز التأثير الجمالي في التشكيل على الجدران المرئية ، مستخدمين الجص في تشكيل الحليات والعناصر المعمارية القومية لتزيين جدران قصورهم . ولم تعرف العمارة الإيرانية الطلاء الجصي إلا في عهد البارثيين ، حيث اكتفى العهد المتأغرق وخاصة في نيزا بطلاء من الطين ، وليس ثمة ما يدل على التأثير الشرقي في عالم العمارة اليونانية الرومانية أكثر من استخدام الجص معماريا في تشكيل الواجهات . ويعزو

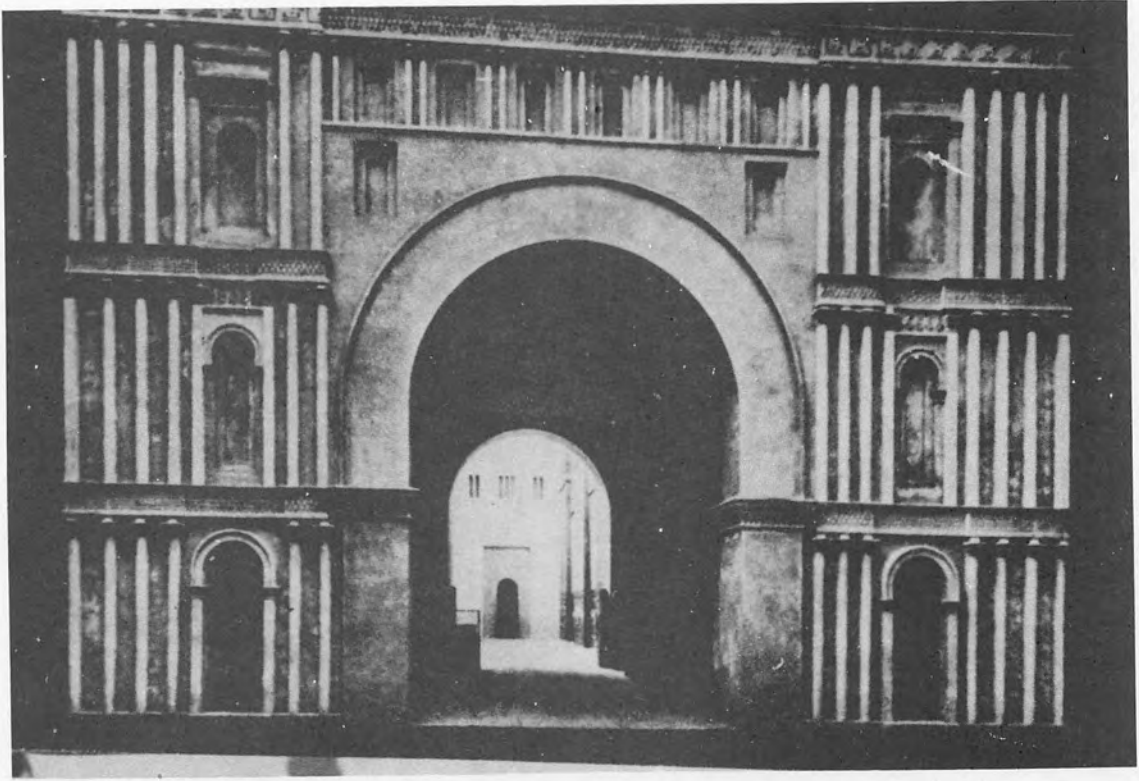
البعض مصدر هذه التقنية إلى أقاليم شرقي إيران ، وقد استبدلت بها فيما بعد لوحات الفخار المحروق التي انتشرت من كوه خواجه شرقا حتى آشور والوركاء غربا . ومن العناصر الزخرفية الإيرانية الخالصة تلك الأقنعة المنحوتة في الحجر والتي نراها في مباني الحضرة وما هي إلا ردة للعصر الإيراني الممهّد للتاريخ ( لوحة ٢٠٤ ) على نحو ما نشهد في جبانة سيالك . وهكذا بُعث هذا الموضوع الإيقونوغرافي من جديد في الفن البارثي ، ودليل ذلك قرون الشراب من نيزا التي تعد أقدم الآثار البارثية المعروفة ( لوحة ٢٠٥ ) . وقد امتد تقليد الأقنعة هذا إلى دورا وبابل وإكباتانا [ همدان ] وقم ، كما انتشرت في العالم الروماني وجنوب روسيا وسييريا .

ولقد شيد البارثيون معبدهم من قاعة رئيسية مربعة يفصلها عن العالم الخارجي ممر ، ونحتوا سلّما داخل الجدار يؤدي إلى السطح ، حيث وضعوا بيوت النار ، وكان الأخمينيون من قبل يقيمونها إلى جانب المعبد ويؤدون طقوسهم الدينية في العراء . وقد ظل البارثيون يعبدون الثالوث « أهورا — ميترا — أنا هيتا » غير أن أناهيتا إلهة الماء مالبت أن احتلت بالتدريج مكان الصدارة من هذا الثالوث .



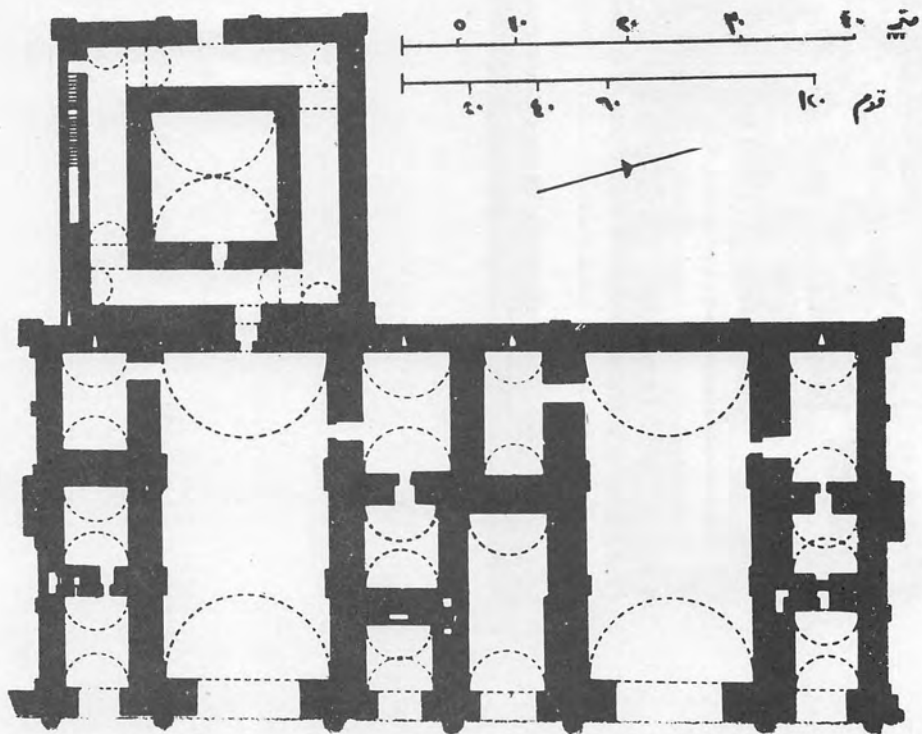
لوحة ٢٠١ قصر نيزا .





لوحة ٢٠٢ شكل يبين مكان عليه القصر .

لوحة ٢٠٣ تصميم الطراز الإيراني الكلاسيكي ذي الإيوانات . القرن الثاني ق.م .





لوحة ٢٠٤ الحضر بالعراق . واجهة  
قصر مزينة بوجوه منحوتة . القرن  
الثاني ق.م .



لوحة ٢٠٥ كنوس شراب شبيهة  
بقرون حيوانات من الكنز الملكي .  
من العاج :  
أ — كأس في مقدمته أسد مجنح يعلو  
فوهته إفريز أسطوري .  
ب — كأس في مقدمته جريفون يعلو  
فوهته إفريز أسطوري .  
ج — كأس في مقدمته إلهة .  
القرن الثاني ق.م .

## التصوير اليارثي

**آثر** الفن البارثي الإبقاء على نماذج الفن الأخميني التي كانت تجمع بين الروح الإغريقية والفارسية ، وخاصة في لوحات الولايم الجنائزية المقامة لتطهير روح المتوفي وفقا للشعائر الجنائزية ونشهد هذا التأثير في لوحة من مدينة دورا أوروبوس تمثل صيادا يطارد حمامين وحشيين ممتطيا جواده في وضعة جانبية ، مرتديا قميصا يصل إلى ما فوق الركبة وسروالا طويلا ضيقا ، وتتجه أصابع قدميه نحو الأرض ، وقد أبرز المصور أدق تفاصيل عُدّة الجواد ( لوحة ٢٠٦ ) . وتوحي بعض الأعشاب بجو المشهد الطبيعي ، ويتخذ الوحش وضعة «الركض الطائر» التي كانت شائعة في النقوش الإغريقية الفارسية . وبرغم ذلك كله وبرغم محاولات الفنان إضفاء عنصر الحركة في المطاردة إلا أن اللوحة ظلت يثقلها الجمود .

والراجع أن التصوير الجداري قد صادف في عصر البارثيين تطورا وازدهارا متأثرا في ذلك بالتيارات الوافدة من الغرب ، كما ارتبط بلوحات الجص البارزة ، غير أنه فرض طابعه عليها بما أضفاه من تشكيلات مفرغة ورسوم هندسية وكأنها التطريز تغشى مسطح اللوحة كله . وتعد اللوحة التي تزين جدران قصر كوه خواجا خير مثال لهذه التقنية التصويرية ، فهي تبرز أشكال المياندرا الإغريقية والدوائر المتداخلة والشُرَافَات الأسيوية وكأنها أشكال من نور فوق خلفية من الظلال . وتثرى لوحة الآلهة الثلاث ( لوحة ٢٠٧ ) الفن بتجربة جديدة سواء لمضمونها الديني الحقاص أو لقيمتها الفنية المجردة ، فللمرة الأولى نرى محاولة لتصوير تراكب الشخصوس مما يعد خطوة تقدمية في أسلوب التصوير ، غير أنها للأسف محاولة فريدة لم تتكرر .

وتصور لوحة أخرى الثنائي الملكي ( لوحة ٢٠٨ ) حيث تنسرب حرية الإيقاع إلى الصورة خلال محاولة لإطلاق الوضعة — التي تظهر فيها الملكة — من الجمود ، فراها وقد مالت نحو الملك ليعبر الفنان بهذا الميل الطفيف عن العاطفة التي تكتنّها الزوجة لزوجها . ويعد هذا الموضوع غريبا على الفن الأخميني الذي كان ينأى عن تصوير المرأة ، ولو أنها كانت تظهر في الفينة بعد الفينة كما هي الحال في النقش الموجود في إرجيلي العاصمة القديمة لدولة فريجيا وفي النقوش الإغريقية الفارسية . ويتجلى المفهوم الشرقي لتصوير البورتريه في صورة رجل رُسمت رأسه في وضعة جانبية بينما بدا صدره في وضعة مواجهة .

وإذ افتقدت الجماليات الإيرانية عنصر الحركة ، كما كانت تجهل الأسلوب السردي ، وابتعدت البعد كله عن تصوير نبض الحياة في أشكائها ، لذا كانت عصيّة على التأثر بالاتجاه الإغريقي الروماني . فنرى المصور في قصر كوه خواجه يعود إلى نفس أساليب المعالجة الخاصة بالأشوريين من حيث التقنية ، ونرى الأشكال مسطحة تحددها خطوط داكنة اللون ولمسات هنا وهناك لتأكيد بعض التفاصيل مثل الذقن أو الشعر على سبيل المثال . ونرى كذلك أن المدّ الغربي قد انحصر أمام قصور الفنان الذي وإن نزع إلى تقبّل النماذج الأجنبية إلا أنه عجز عن تمثيلها .

وما زال الفن البارثي في كوه خواجه رهن البحث والتحصيل لم تتضح خصائصه كاملة حتى نستطيع الكشف عن المنبع الذي تسلسل منه التأثير المتأغرق إلى هذا الفن ، ويلحظ هرتزفيلد في هذه اللوحات الجدارية التي اكتشفها واستنسخها تأثير الفن الإغريقي البختياري ، وذلك الفن الذي لم يتحدد طابعه حتى في نيزا نفسها على الرغم من وجود الآلهة والعبادات الإغريقية مما يوحي بهبوب موجة جديدة من التأثير الإغريقي الروماني تُعد امتدادا لتلك الموجة التي تركت أثرها على فن الحضرة في القرن الثاني الميلادي ، والتي انتشرت صوب الشرق ولوّنت بصبغتها إلى حد ما الفن الإغريقي — البوذّي في الجزء الشمالي الغربي للهند ، فإذا كانت ورقة الأكانثا تبشّر بلوحات الجص في القصور الساسانية في القرن الثالث ، فإن للوحة الآلهة الثلاث ما يماثلها في النقوش الجدارية الساسانية للحقبة نفسها .

ولعل محافظة البارثيين على جمود الصورة وخلوها من الحركة وبعدها عن الأسلوب السردي النابض بالحياة كان نوعا من التمرّد والصمود في وجه الغزو الفني الإغريقي الروماني ، وهو ما يفسر الاستعانة بالأساليب الأشورية المتمثلة في استواء القوام فوق سطح الجدار ، وتحديد المحيط الخارجي للأشكال بالخطوط القائمة اللون ، وإبراز بعض التفاصيل كاللحية والشعر بلمسات سوداء . وتعد لوحة « الكونون » ( لوحة ٢٠٩ ) أشهر اللوحات الجدارية التي خلفها البارثيون والتي تصور كاهنين في ثياب بيضاء وعلى رأسهما عمامة الكهنوت وهما يقدمان قربانا للآلهة باسم إحدى العائلات . وقد تجلّت فيها — على الرغم من الصرامة والجمود الإيرانيين الواضحين — تيارات عدة مختلفة تؤكد تأثر الفن البارثي بالفن « السامي » المنتشر في بلاد الرافدين والذي ينزع إلى الروحانيات ، وتأثره كذلك بالفن اللورستاني في أطراف إيران إذ تبنّى قاعدة المواجهة التي استبعدها الفن الأخميني ، والتي توحي هنا بطابع شعائري ، وتأثره أيضا بالفن المتأغرق في ترتيب الشخصوس والميل إلى حشد اللوحة بشخصوس

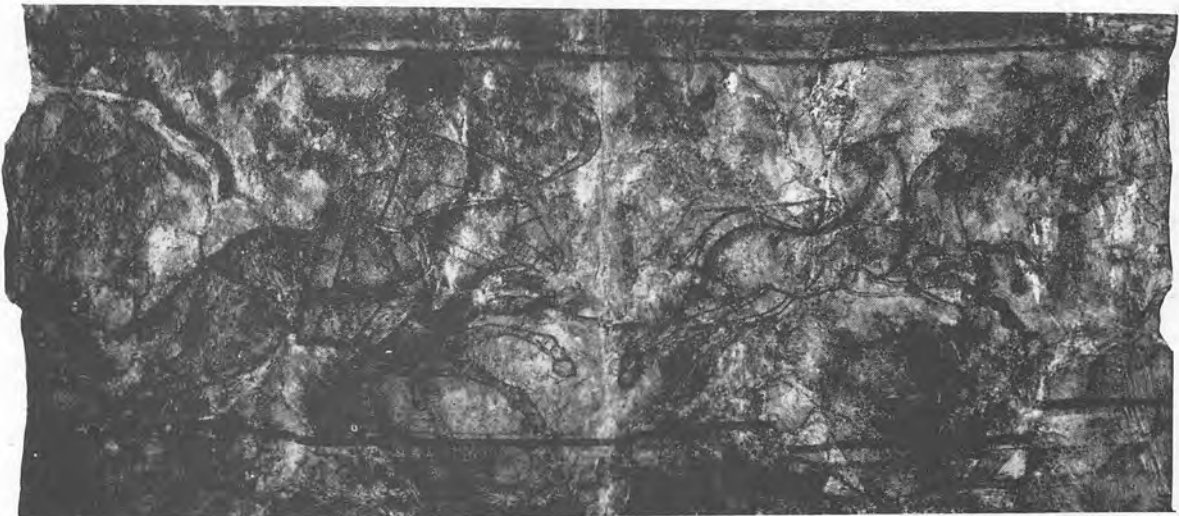
ثانوية . ولا ترجع شهرة هذه اللوحة إلى جمالها بقدر ما ترجع إلى أهمية التيارات المختلفة التي تلاقت فيها . ولقد تجاهل الفنان في هذه اللوحة البعد الثالث وتشكيل الجسم الأدمي وتحديد خطوط الرداء ، كما نرى الثياب مشكّلة من خطوط إجمالية . وعلى الرغم من تداخل التيارات المتأغرقة والسامية النابعة من بلاد الرافدين في الفن البارثي إلا أن التصوير في دُورا أوروبوس ظل متمسكا بالنظام والأسلوب الإيرانيين .

وتكشف لنا النقوش البارزة الدينية بمدينة تدمر حقيقة الفن البارثي ، وخاصة مشهد تقديم القربان الذي يرجع إلى عام ١٥٤ م والذي يقف فيه مقدّم القربان أمام مذبح النار في قلب اللوحة بين إلهين حربيين في وضعة مواجهة على ظهرى جوادين في وضعة جانبية ( لوحة ٢١٠ ) .

وعلى الرغم من تأثر الفنان البارثي بنقوش بريسبوليس المتوارثة عن الفن العيلامي ، حيث يمثل الفنان الملوك وأتباعهم متعاقبين في وضعة جانبية ، إلا أن الفن البارثي قد آثر المحافظة على الوضعة المواجهة التي تجلت في النقوش الجدارية التي تصور آلهة تتقبل قربان البخور يحاكي كل منها الآخر تمام المحاكاة ( لوحة ٢١١ ) ، وهكذا جرّد الفن البارثي — حين لجأ إلى الوضعة المواجهة — المنظر من طابعه « المركّب » إذ أفقده عنصر الحركة ليبتعد بالمشاهد عن الجو الواقعي ويشير فيه إلى إحساس برمزية المشهد .

واتجه الفنانون البارثيون إلى الأدب يستمدون منه موضوعاتهم ، وبدأوا يعبرون من خلال فنونهم عن قصص البطولة ومآثر الشخصيات التاريخية . وقد يكون الفن الإغريقي هو الذي أيقظ هذا الاتجاه الجديد فبادر الفنان البارثي إلى احتذائه ، واستوحى — على غراره — فنون قصصه الشعبي الذي كان رواته الجائلون يلقون ترحيبا كبيرا في القرى والقصور ، كذلك كانت مسرحيات أوريبيدس مصدر وحي الفنانين الإيرانيين ، وتسجل إحدى الكئوس مشهدين من مسرحية سولوس ، أولهما يصور هرقل حين اشتراه سولوس عبدا ، ويصور الآخر هرقل وهو يقتل سيده سولوس ( لوحة ٢١٢ ) .

لوحة ٢٠٦ تصوير جداري بارثي : فارس يطارد حمارين وحشيين . تصوير جداري . بإذن من متحف اللوفر .



لوحة ٢٠٧ تصوير جداري بارتي : الآلة الثلاثة . ملون .



لوحة ٢٠٨ تصوير جداري بارقي : الملك والملكة . كوه خواجه [فن اغريقي إيراني] .



لوحة ٢٠٩ تصوير جداري بارقي : لوحة الكونون . دورا أوروبوس .





لوحة ٢١٠ فن بارتقي تدمري : مشهد تقديم قربان ، ويقف مقدمه أمام  
الموقدين إلهين في وضعة مواجهة على ظهري جوادين في وضعة جانبيه  
( ١٥٤م ) . بإذن من متحف اللوفر .

لوحة ٢١١ إلهة تتقبل قربان البخور .





لوحة ٢١٢ كأس مزدانة بنقوش تمثل مشهدين من مسرحية سولوس الإغريقية . باذن من متحف الإرميتاج .

## النحت البارثي

**ومن** بين نماذج النحت البارثية يبرز التمثال البرونزي الضخم الذي عثر عليه بمعبد شامي ( لوحة ٢١٣ ، ٢١٤ ) ويبلغ ارتفاعه مترين ويتكون من جزئين أساسيين هما الرأس وبقية الجسم . ولأول وهلة يتجلى أن الرأس صغير بالمقارنة إلى الجسد ، كما يختلف المعدن الذي صنعت منه عن المعدن الذي صُبَّ منه بقية الجسم ، وقد رُكبت الرأس فوق الجذع وثبتت عند الرقبة بمادة لاصقة وأحيطت بطوق يشبه القلادة مما يشير إلى أنهما لم يصنعا في مكان واحد ، كما أن ثقل الجسد يرجح أنه قد صُبَّ في شامي نفسها . وتشير الواقعية في الأسلوب الذي نحتت به الرأس إلى أن المثال الذي أنجزها فنان أجنبي قد يكون إغريقيا أو رومانيا أو من جنسية أخرى ، فلم نر إيرانيا يشكّل الأنف على هذه الصورة الناطقة بالحياة القريبة من الواقع . وقد حاول الفنان الذي أبدع هذا الرأس جاهدا أن يبرز الروح الكامنة أو جوهر الشخصية التي نحت لها تمثاله . وهذا الأسلوب بعيد كل البعد عن الروح الإيرانية والشرقية عامة ، فالمعروف أن الفن الإيراني فن زخرفي أساسا . وعلى الرغم من الدقة والمهارة التي نفذت بها مشاهد النحت الجداري بيروسيبوليس إلا أن الفنان الإيراني كان يعني بالشكل العام دون التفاصيل ، ويهتم بالحشود الساعية بفروض الولاء والطاعة للعاهل الجالس فوق عرشه ، ولم يكن ليلتفت قط إلى الطابع الخاص والشكل الفريد الذي يميز أنفا بالذات التي كان يشكّلها على هيئة منقار النسر في أغلب الأحيان . ويبدو أن الفنان الذي صُبَّ جسم التمثال كان دون زميله الذي شكّل الرأس مهارة ، فهو برغم براعته في نحت عضلات الصدر وطيات الرداء لم يراع النسب بين حجم الرأس والجسد . ويتضح من الأسلوب الذي اتبعه الفنان في نحت تمثال هذا الأمير البارثي المتميز بالمهابة والوقار شغف الإيرانيين بالضخامة والعظمة ، كما نلمس قدرا من التحرر ، فالذراع تؤدي حركة واسعة ينفرد بها هذا التمثال بين التماثيل البارثية الأخرى التي تبدو جامدة ، حيث تلتصق الأذرع فيها ببقية الجسم .

وجاء إبداع البارثيين في مجال الفنون الزخرفية أقل شأنًا ، فلقد شكّلوا بعض أوانهم في هيئة حيوانات على النسق الأخميني ، فصاغوا ذراع مبخرة على هيئة فهد مرن ممشوق القوام يحمل في رقبته طوق الصيد ( لوحة ٢١٥ ، ٢١٦ ) ، وصاغوا كئوس الشراب الشبيهة بقرون الحيوانات في أشكال شرقية ( لوحة ٢١٧ ) ، وحاكوا المنجزات الأخمينية في تشكيل الجزء الأمامي من الحيوانات الخرافية . وإذا كانوا قد رسموا بعض المناظر الأسطورية اليونانية على حوافي بعض هذه الكئوس ( لوحة ٢١٨ ) ، فقد كانت الأفنعة التي نراها على حوافي بعضها الآخر موضوعات زخرفية إيرانية قديمة . ومعنى هذا أن تيارات ثلاثة قد ساهمت في تشكيل هذه الكئوس أحدها غربي والآخران شريقيان ( لوحة ٢١٩ ، ٢٢٠ ب ، ٢٢١ ) .

وحافظ البارثيون على تقاليد الأخمينيين في النقش على الصخور ، فنرى للملك البارثي ميترادات الثاني في القرن الأول قبل الميلاد نقشًا أسفل نقش داريوش على صخرة بيستون للإيجاء بأنه من سلالة ملك الملوك ، كما نتعرف على مُقدّم قربان لوحة الـ « كونون » في كتلة الصخر التي نقشت عليها صورة أمير يارثي يقدم القربان أمام هيكل وهو في وضعة مواجهة يبدو فيها جمود الحركة وإن وضحت التفاصيل الدقيقة للثياب ( لوحة ٢٢٢ ) .

وفي ظل حكم البارثيين الذي استمر خمسمائة عام بدأت من القرن الثالث ق.م اتسعت رقعة الامبراطورية الإيرانية وشملت المساحات الممتدة بين نهر الدانوب ومصب نهر السند وبين الفرات ومشارف الصين . فنشرت بها الحضارات الشرقية القديمة ، وأوقفت الزحف الإغريقي الروماني ، وصبغت المنطقة بصبغة فنية واحدة تستمد أسسها من حياتهم المرتبطة بالفروسية والحرب وصراع الحيوان ، وتظلّ بجناحيها التيارات الفنية التي كانت تسائر نقلة شعوبها المختلفة أتى سارت في آسيا . وقد حوّل البارثيون الموضوع الديني الشائع عند الأخمينيين ، وهو تصوير الملك الذي يقدم القربان واقفاً تحت تمثال «أهورا مزدا» النصفي إلى موضوع سياسي يرمز إلى التآلف بين الإله والملك ، وذلك بواسطة حلقة التحالف الرامزة للسلطة ، وهو المصدر الذي استمدت منه مشاهد التنصيب والتي أصبحت — تحت التأثير اليوناني — تصور الإله واقفاً أو ممتطياً جواداً وهو ينصبُّ الملك ( لوحة ٢٢٣ ) . واحتل مشهد الصيد مكاناً بارزاً في تزيين الكئوس ( لوحة ٢٢٤ ) ، وكذا موضوع الوليمة القديم الذي عاش خلال الفن الإيراني ، وإن قدّمه في شكل وليمة جنائزية شعائرية يصاحبها مشهد صيد يؤديه المتوفي . وشاعت النقوش والفنون الدقيقة البارثية في البلاد المجاورة التي مضت تحاكي الحلّي من عقود وأساور وأقراط مزدانة بالأحجار الكريمة ، وخاصة في الوركاء ونيبور بأرض الرافدين . وقد استعمل ملوك الصرماط في روسيا الجنوبية القلائد التي تنتهي برأس الحيوان والتي كان يضعها ملوك لورستان والأخمينيون حول أعناقهم ( لوحات ٢٢٥ ، ٢٢٦ ) . كما عثر على تمثال صغير من الذهب يرجح أنه جزء من قلادة لإله الحب إيروس المجنّح وهو يمتطي دابة ملفّقة شبيهة بالنتين ، ترصّع الأحجار الكريمة المختلفة الألوان جسده وقوائمه ( لوحة ٢٢٧ ) .



وانتشرت اللوحات الجدارية في روسيا الجنوبية وتركستان ، كما انتشرت فيها وضعة المواجهة المألوفة في فن لورستان تصويرا ونقشا . وقد حرص الفنان على تصوير الفارس ممتطيا جواده في وضعة يبدو فيها صدر الجواد ووجهه بالمجانبة ، وذلك ليكون الفارس في وضعة مواجهة ( لوحة ٢٢٨ أ ) ، وإن شدت عن هذا الأسلوب بعض الدمى التي شكلها الفخّارون وعثرنا عليها بالعشرات إلى جوار الجبانات ( لوحة ٢٢٨ ب ) .

لوحة ٢١٣ فن بارتّي : تمثال من البرونز . شامي . بإذن من متحف طهران . القرن الثاني ق.م .

لوحة ٢١٤ فن بارتى : تمثال الأمير  
البارتى . تفصيل .



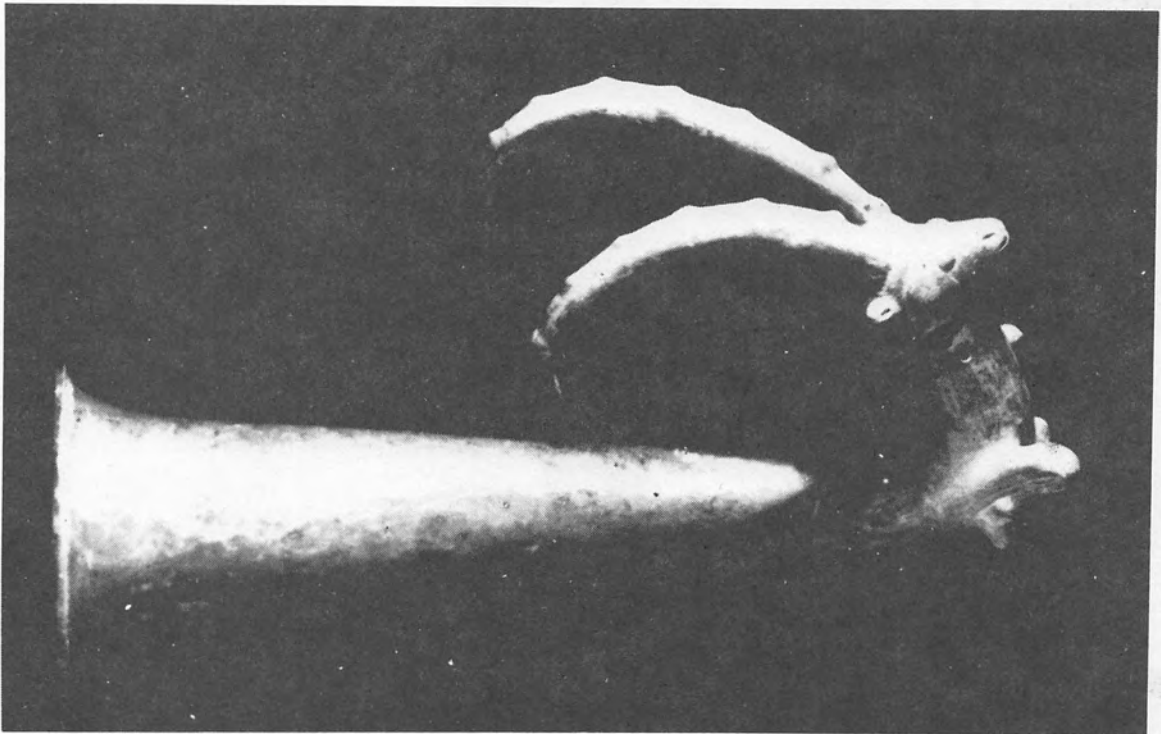
لوحة ٢١٥ فن بارتى لورستان : ذراع مبخرة على هيئة فهد ممشوق القوام من البرونز . القرن الأول الميلادي . بإذن من متحف  
كليفلاند للفنون .

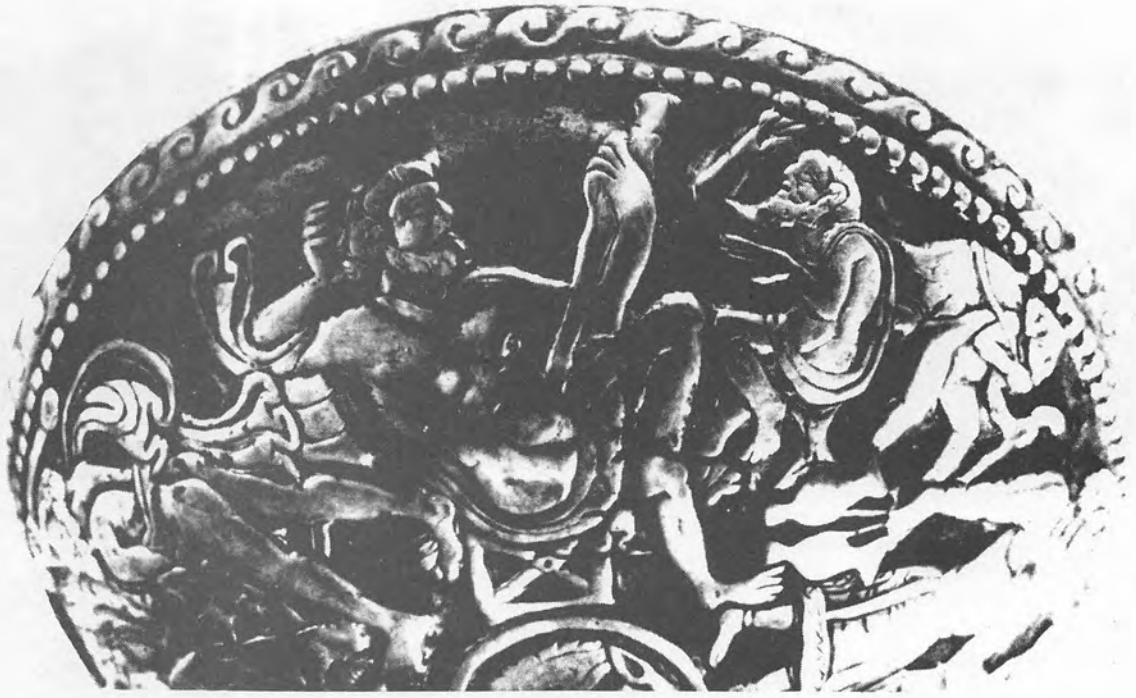




لوحة ٢١٦ من بارتى : ذراع كأس على شكل فهد . من البرونز . بإذن  
من متحف طهران .

لوحة ٢١٧ فن بارتى : رأس تيس . مجموعة أمير موناكو .



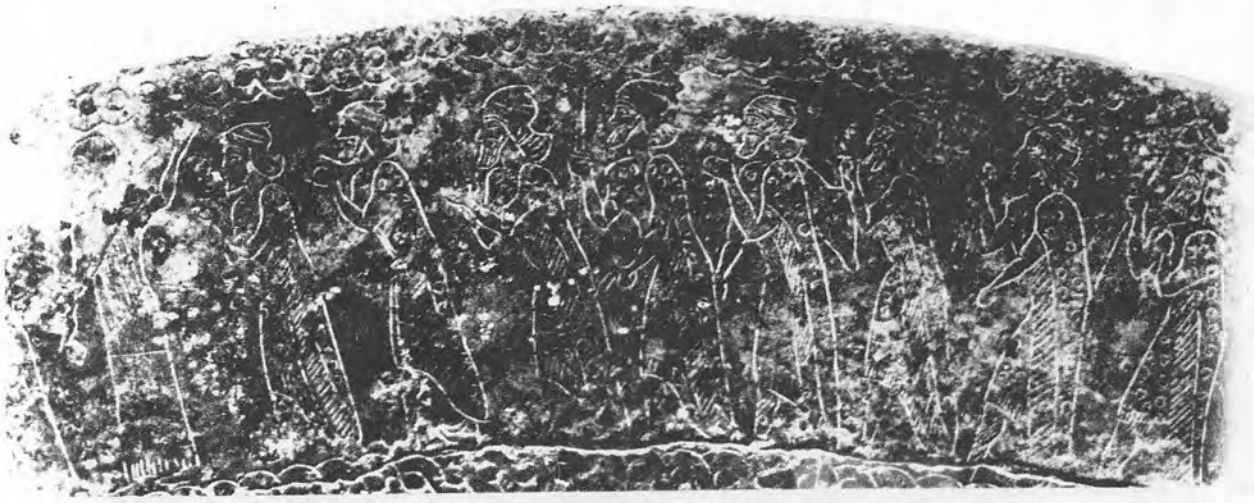


لوحة ٢١٨ فن بارتّي : كأس ازدانت بنقوش تمثل إحدى التراجيديات .  
[إغريقي إيراني] . بإذن من متحف الإرميتاج .



لوحة ٢١٩ فن بارتّي : أدمية من البرونز لمخارب بارتّي . من أمارلوجيلان .





لوحة ١٢٢٠ زيفيه : وعاء برونزي . بإذن من متحف طهران .

لوحة ٢٢٠ زيفيه : وعاء برونزي . بإذن من متحف طهران . القرن التاسع ق.م .

لوحة ٢٢١ لورستان : طبق من البرونز . القرن ١٢ ق.م . بإذن من متحف طهران .





لوحة ٢٢٢ فن بارتى : أمير  
بارتى يقدم القربان أمام هيكل  
القرن الأول - الثاني الميلادي

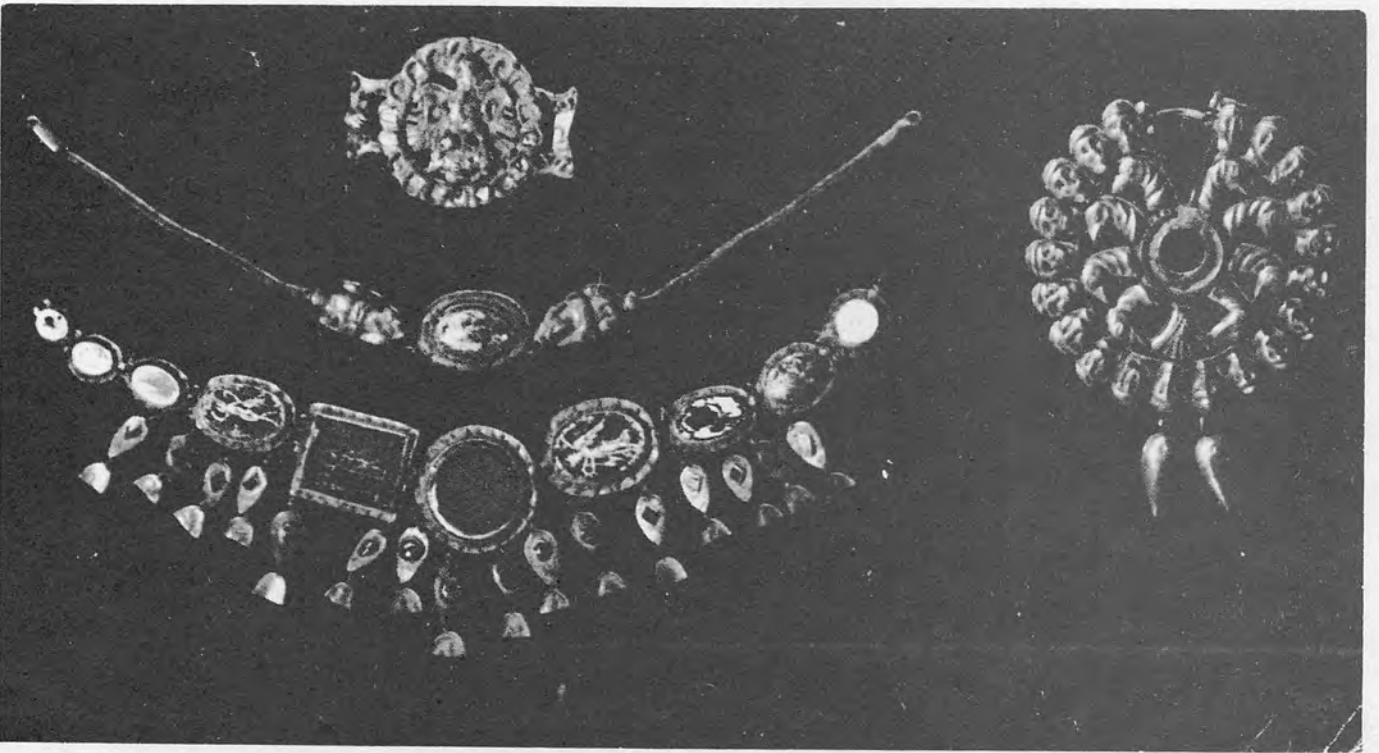


لوحة ٢٢٣ سوسه : أرتبان  
الخامس يسلم الحلقة رمز السلطة إلى  
والي سوسه ( ٢١٥ ميلادية )  
بإذن من متحف طهران



لوحة ٢٢٤ فن بارتى : [إغريقي إيراني] : كأس مزدانة بنقوش تمثل مشهد صيد . بإذن من متحف الإرميتاج .

لوحة ٢٢٥ فن بارتى : أقراط وعقود . ملون .



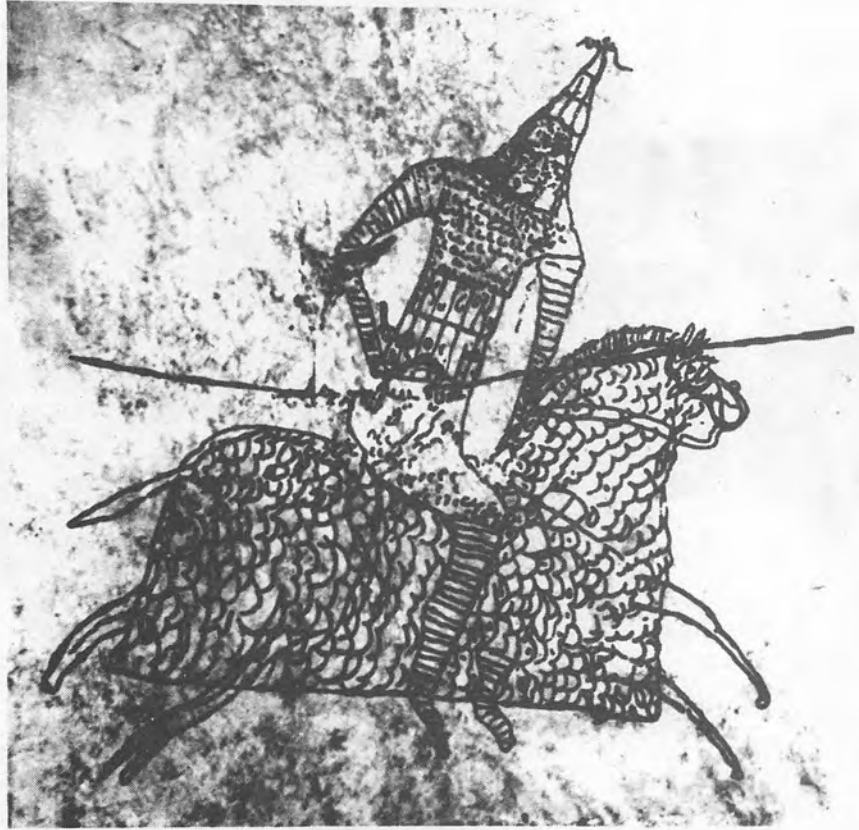


لوحة ٢٢٦ فن بارتى . نهاوند :  
 حلى بارتية تستوحى منجزات  
 الأحمينيين . توكة حزام . نسر  
 وفريسته داخل رصيعة مطعمة  
 باللازورد . باذن من متحف  
 المتربوليتان .



لوحة ٢٢٧ فن بارتى نهاوند : تمثال  
 صغير من الذهب لإله الحب إيروس  
 وهو يمتطي حيوانا ملففا شبيها  
 بالتنين ، الراجح أنه جزء من قلادة .  
 باذن من متحف طهران .

لوحة ٢٢٨ أ فن بارتى . دورا  
أوروبوس . فارس يعدو بجواده . القرن  
الثالث — الثاني ميلادي .



لوحة ٢٢٨ ب فن بارتى : لوحة  
فخارية لفارس بارتى . القرن الثالث  
ق.م . بإذن من متحف برلين .



## فن تدمر [ بالميرا ]

**يقول** بعض المؤرخين إن اسم تدمر في اللغة السُريانية واسم بالميرا في اللغة اللاتينية يعني مجموعة ضخمة من النخيل ، وهو ما ينطبق على هذه المدينة القديمة التي كانت واحة وسط الصحراء السورية على مبعدة ١٥٠ كيلو مترا شرق مدينة حمص وعلى مبعدة ٢٤٠ كيلو مترا من الفرات . غير أن البعض الآخر يذهب إلى أن اسم بالميرا لا علاقة له بمجموعات النخيل ، وإنما هو المقابل اليوناني واللاتيني لكلمة تدمر ، وهو الاسم ما قبل السامي للموقع ، والذي لا يزال مستخدما حتى الآن . وإذا كانت مركزا هاما لطرق القوافل فقد بلغت في القرن الأول الميلادي شأوا عظيما بفضل سيطرتها على التجارة وبفضل قوتها العسكرية ، وكانت وقتذاك تدور في فلك العالم الروماني فارتفع شأنها . وفي عام ٢٦٠ عين الامبراطور فاليريانوس سبتيموس أوديناثوس العربي حاكما على سوريا ، فتصدى للفرس الساسانيين بقيادة شاپور الأول وألحق بهم الهزيمة ، ومنح نفسه لقب «ملك الملوك» أسوة بشاپور ، كما زحف بقواته مرتين في عامي ٢٦٢ ، ٢٦٧ حتى أسوار عاصمة الفرس في تيسفون ، وتمت له السيطرة على معظم أرجاء الامبراطورية الرومانية في الشرق الأدنى . ومالبت أرملته زنوبيا أن غزت مصر واقتطعت بعض أقاليم آسيا الصغرى إلى أن ألحقت روما الهزيمة بتدمر سنة ٢٧٣ ودمرتها تدميرا . وكان الإله الرئيس لأهل تدمر الأراميين هو بعل ولعله النطق المحلي لبعل ، وما لبث أن صار بعل ، وكان يسيطر على حركة النجوم والأفلاك ، وربط التدمريون بينه وبين إله الشمس يارهييعل وإله القمر أجلييعل . وكما تتميز عقيدة تدمر الدينية بالتوفيق بين العقائد المختلفة تدرج حضارتها تحت قائمة الحضارات المركبة أو المهجنة ، فمن النظرة الأولى إلى أطلال هذه المدينة — التي مازالت تتيح لنا أن نتخيل تخطيط المدينة القديمة — نلمس اللقاء الذي تم بين الفن الإيراني والفن اليوناني والروماني ، فالفن التدمري هو أحد فروع الفن اليوناني الشرقي ، حيث الطراز الكورنثي يكاد يطغى على كل المنشآت ،

غير أن غزارة اللقائف والحليات المعمارية والنحت الخفيف البروز ، واتباع قاعدة «المواجهة» البارثية في صياغة التماثيل النصفية للموتى ( لوحات ٢٢٩ أ ، ب ، ج ، ٢٣٠ ) والطابع الكيهنوتي<sup>(٨١)</sup> لتماثيل الآلهة تكشف كلها عن مدى تأثير فنون ماين النهرين وإيران . كذلك تجلّى تزواج الذوق البارثي والذوق الإغريقي الروماني بصفة واضحة في ثياب أهل المدينة التي نجدها مصورة بدقة في تماثيلهم ( لوحة ٢٣١ ) ، فثياب موتى الأثرياء پارثية في حين أن ثياب تماثيل زبديبول [زبديبعل]<sup>(٨٢)</sup> النصفية إغريقية .

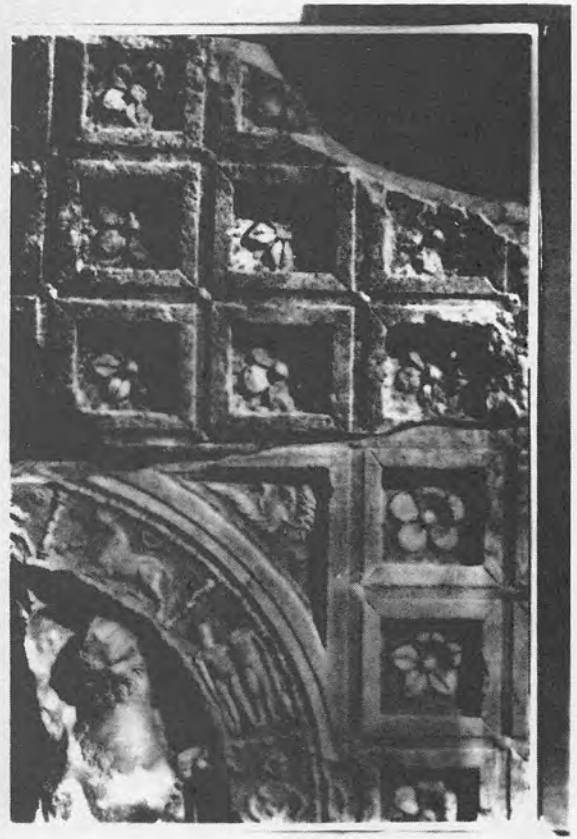
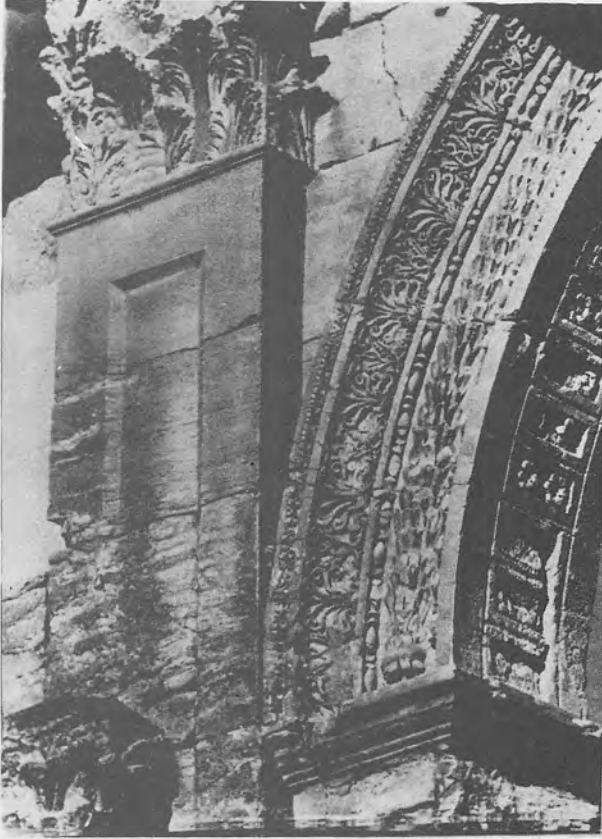
ومع احتفاظ أهل تدمر بأصلهم «السامي» فقد تأثروا بالرومان ، في نفس الوقت الذي تمسكوا فيه بالحضارة البارثية التي كانت تنجح إلى المادية ، تدفعهم حاجتهم الاقتصادية إلى الاهتمام بالشرق وعبور بلاد فارس للوصول إلى شمال الهند الغربي . وكانوا يشتركون تماثيل البرونز من سيلوقيه [سلوكيا] الواقعة على نهر دجلة أو من سوسة للتجار بها . وظلت تدمر حتى نهاية عهدها مركزاً لتأثير الفن البارثي وظهرت بها روائع خالدة لاتزال شاهدة على ما أولته هذه المدينة للفن من جهد عظيم ( لوحات ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ) .

وتسود قاعدة المواجهة البارثية فن تدمر الديني والجنائزي على نحو ما نرى في لوحة غرفة الطعام ذات الأسرة الثلاثة والتي تمثل وليمة جنائزية بمقبرة «ملكو» ( لوحة ٢٣٦ ) ، وفي لوحة النقش البارز التي تمثل سيدة تدمرية «بولايا» مع شقيقها «مولا» ( لوحة ٢٣٧ ) ، كما نشهدها في التماثيل النصفية للموتى . كذلك نلاحظ طابع التناسق البارثي في تماثيل زبديبول ، وهو التمثال المنحوت في القرن الأول الميلادي ( لوحة ٢٣٨ ) والذي يكشف عن جهد النحات الكبير في إبراز الجانب الروحي فيه .

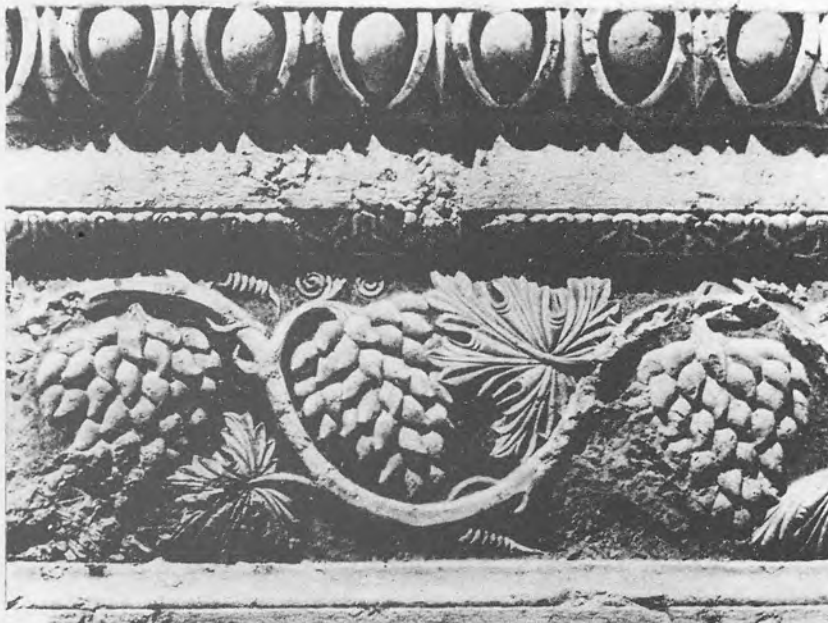
وثمة تماثيل للملك فيلوجيز الثالث يعدّ من التحف الفنية الممتازة لهذا العصر بدقة حجمه وصدق تعبيراته التي تفيض نبلا ووقارا ( لوحة ٢٣٩ ) ، ويوحى صغر حجمه بأنه من صنع مثال متخصص في نحت الأحجار الدقيقة ، ويكشف هذا التمثال بهدوئه واتزانه عن أن الشرق هو المهده الحقيقي لهذه التماثيل النصفية .

(٨١) Hieratic هي أشكال الشخص المهورّة ذات الصرامة التي لا تلتفت فيها ابتداء إلى السمات الطبيعية بل إلى إسباغ القداسة على الشخص أو الشيء المراد تصويره .

(٨٢) Bol, Boal and Bel



لوحة ٢٢٩أ فن تدمري : نقوش  
بارزة تجمع بين الفن الإغريقي  
والروماني .



لوحة ٢٢٩ب فن تدمري : نقوش  
بارزة تجمع بين الفن الإغريقي  
والروماني .

لوحة ٢٢٩ج فن تدمري : نقوش  
بارزة تجمع بين الفن الإغريقي  
والروماني .





لوحة ٢٣٠ فن تدمري : رأس أحد النبلاء . منتصف القرن الثالث الميلادي .



لوحة ٢٣١ فن تدمري : نقش  
جداري يصور رجلا يرتدي ثيابا  
إغريقية.



لوحة ٢٣٢ فن تدمري : نقش جداري يصور هودجا فوق جمل ، ومن خلفه ثلاث نساء محجبات .

لوحة ٢٣٣ فن تدمري : نقش جداري يصور قافلة .





لوحة ٢٣٤ فن بارتى تدمري : رأس  
نسر . القرن الثاني الميلادي .



لوحة ٢٣٥ فن بارتى تدمري :  
مذبح رب بلا اسم . اليد قابضة على  
الصاعقة . عام ٢٢٣ م .



لوحة ٢٣٦ فن تدمري : حجرة طعام ذات ثلاث أسرة تمثل وليمة جنازية من مقبرة ملكو بتدمر . بداية القرن ٣م بإذن من متحف دمشق .  
 لوحة ٢٣٧ فن تدمري : نقش بارز يمثل سيدة تدمرية «بولايا» مع شقيقها مولا . القرن ٢م — بإذن من متحف دمشق .





لوحة ٢٣٨ فن بارتّي تدمري : تمثال  
زابديبول النصفي . عام ١٠٠ م .  
بإذن من متحف دمشق .



لوحة ٢٣٩ فن بارتّي تدمري : تمثال  
نصفي للملك فيلوجيز الثالث . عام  
١٤٨-١٩٢ م .

## فن الحضرة

**كانت** الحضرة عاصمة مملكة صغيرة في شمال العراق غير بعيدة عن الموصل ، اشتهرت بأطلال حضارة غابرة في القرن الثاني الميلادي . وقد أخذت الحضرة عن البارثيين عمارتهم وخاصة البيت ذا الفناء المكشوف والإيوانات الأربعة .

وكشفت الحفائر بمدينة الحضرة عن نموذج مصغير لمعبد تتوسطه أسطوانة عليها حنية بداخلها النسرة رمز الشمس ، كبير آلهة المدينة . ويحيط بالأسطوانة ثمانية أعمدة من الطراز شبه الكورنثي ، زين جذع كل عمود منها براية من رايات الحضرة ، وقد أضيفت بعض أقنعة الشخوص في أركان المعبد فوق تيجان الأعمدة ، وكذلك أوراق الأكانثا التي تقوم مقام القرون في هياكل النار . ويعلو المعبد تمثال إله لعله زحل يحمل بإحدى يديه شعلة وباليد الأخرى سعفة نخيل وإكليل النصر ( لوحة ٢٤٠ ) .

وليس لدينا من وسيلة للتعرف على النقوش الدينية سوى ما نراه في مبنى معبد الحضرة ( لوحة ٢٤١ ) ، إذ تمثل اللوحة المنقوشة التي عثر عليها بالحضرة عام ١٩٥١ والمحافظة بمتحف الموصل بالعراق إله الجحيم « نرجال أهرمين » [المقابل لهاديس - بلوتو - إله العالم السفلي عند الإغريق والرومان] منتصباً في وضعة مواجهة وفقاً للقاعدة الإيرانية وقد اتخذ اسم نرجال القديم ، إله الجحيم لدى السومريين مرتدياً ثياب نبيل پارثي بما في ذلك سيفه رافعاً بيده اليمنى بلطة . وهو هنا الإله المقابل « لميترا » والمقابل « لأشك » . وبجواره نرى رمز الكواكب السبعة التي كانت توضع على تماثيل لورستان البرونزية . وتعتلي ابنته [المقابلة لأنهايتا] إلى يساره عرشاً من أسدين حاملة الرمز المشثوم للكواكب

السبعة . وتضم اللوحة إلى ذلك صورة كيريروس<sup>(٨٣)</sup> ذى الرؤوس الثلاثة [الفكر الأثيم والقول الفاحش والفعل الشرير] حارس العالم السفلي ، والأفاعي والعقارب والثعبانين شديدي القرب من التقاليد الإيرانية المنبثقين من كتفى الشيطان أهرمين ( لوحة ٢٤٢ ) . كذلك مثلت الكواكب السبعة الرامزة للأيام السبعة ووضعت في معبد خاص بمدينة الحضرة ( لوحة ٢٤٣ ) .

وأخص ما تتميز به بعض تماثيل الوجوه في الحضرة النزوع نحو الدقة الذى يدلنا على تأثره بالفن الأخميني تأثرا لم ينقطع ، إذ ثمة تصفيقات شعر معمارية الطراز من تلك التى كانت شائعة آنذاك ( لوحة ٢٤٤ ) مع عدم التحلي عن الواقعية . ويبدو جهد الفنان واضحا في إضفاء الطابع الروحي من خلال تفاصيل الثياب وتصفيف الشعر والحلي ( لوحات ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ) . ومن بين قطع النحت الطقسية التى وجدت بمعابد الحضرة والتى تعبر عن الفن البارثي خير تعبير ، لوحتان من النقش البارز على الحجر الجيري ، ظهر بالأولى ثلاثة تماثيل لثلاث نساء يقفن على أريكة أمامها أسد ، وكأما يظهرن واقفات على ظهر الأسد ، تشمل الوسطى الإلهة اللات وقد نحتت على هيئة أئينا إلهة الحكمة عند الإغريق . أما الأخرى فلعلهما تمثلان امرأتين أو ربّتين ، والراجح أن اللوح بأكمله يمثل الثالث العربي : اللات ومناة والعزى ، وقد وجد ضمن مجموعة معبد أشوريل ( القرن الأول الميلادي ) ( لوحة ٢٥٢ ) . وظهرت باللوحة الثانية واجهة معبد بهيئة إيوان داخله ملك يقدم البخور وبجانبه راية الحضرة «سيما» وهى مسلة سنطروق الأول ، وإلهة النصر فوق الملك تحمل بيدها أكاليل الغار ( لوحة ٢٥٣ ) .

وفي الوقت الذى ارتد فيه الفن البارثي إلى تقاليد الفن الإيراني المبكرة حقق تقدما ملحوظا في تحرير الفنان من الطابع الإغريقي الذى امتزج بالفن الإيراني خلال العصر الأخميني ( لوحة ٢٥٤ ) ، وشاع في معابد تدمر المتميزة بطابع متأغرق فريد سواء في أعمدها أو في نقوشها . وكانت هذه بداية لظهور تيار إيراني جديد اتضحت معالمه بعد ذلك خلال القرن الأول الميلادي . فلقد حشد الملك أنطيوخوس الأول الكوماچيني ( ٦٩ - ٣٤ ق.م ) مجموعة عظيمة من آلهة إغريقية الأصل ممتزجة بالآلهة الإيرانية ذات أحجام ضخمة فوق الجانب الغربي للتل الجنائزي بمدينة نمرود - داغ ( لوحة ٢٥٥ ، ٢٥٦ ) . وكان أنطيوخوس الأخميني الأصل يوناني الثقافة فأضاف إلى تمثال هرقل شاربا إيرانيا ( لوحة ٢٥٧ ) ونحت لنفسه تمثالا ( لوحة ٢٥٨ ) إلى جانب تمثال الإلهة كوماچين رمز بلاده وحامية مملكته ( لوحة ٢٥٩ ) ، وأضاف نسرا وأسدا لحراسة هذه التماثيل تذكّرنا وضعتهما بالحيوانات الحارسة لأبواب قصور اصطخر ( لوحة ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ) .

وتكشف هذه المجموعة من التماثيل عن الصلات التى ربطت بين الروح الإيرانية والروح المتأغرقة في الفن والدين ، كما تكشف عن رصيد إيقونوغرافي للمشاهد الإيرانية البحتة وخاصة مشاهد

(٨٣) ابن تفيون وإخيدنا في الأساطير الإغريقية وكانت إليه حراسة الجحيم ومنع من يدخل إليه من الإفلات



التنصيب ، وعن التأثيرات المتداخلة ، كأن يمزج الفنان بين شخصية أبوللو وشخصية ميترتا ، فيصور الهالة المشعة لإله الشمس بوصفها النور الذي كان الإله يغمر به الكون ، على حين يخلع البرسوم الإيراني على شخصية الإله ( لوحة ٢٦٣ ) فكما ظهرت الروح الأخمينية في النزعة إلى كل ما هو ضخيم هائل ، ظهرت التقاليد اليونانية في إضفاء الشكل البشري على الآلهة ، وفي اكتشاف نحاتي نمروذ — داغ ماينطوي عليه الجسم الإنساني من تناسق ومحاولة تقديمه في هذه المجموعة من التماثيل . ومن بين القطع الفنية التي تم العثور عليها بالحضر وترجع إلى هذه الحقبة أيضا ويتجلى فيها هذا الامتزاج بين الروح المتأغرقة والروح الإيرانية قناعان من النحاس أحدهما لباكخوس إله الخمر عند اليونان ( لوحة ٢٦٤ ) والآخر للجورجونه ميدوسا ( لوحة ٢٦٥ ) . أما القطعة الثالثة فهي نصب للنار والبخور من الحجر الجيري تعلوه أربعة قرون تحيط بجفنة يوضع بها البخور . وفي واجهة النصب محراب داخله ربة جالسة وقد وضعت يديها على رأس لبوتين ، والراجح أنها الربة اترعتا زوجة بعلشمين إله السماء ( لوحة ٢٦٦ ) .



لوحة ٢٤٠ فن باري . الحضر :  
مصغر لمعبد من الحضر .



لوحة ٢٤١ أ فن بارتى . الحضر : معبد الحضر . تصوير كاتب هذه السطور .

لوحة ٢٤١ ب فن بارتى . الحضر : معبد الحضر . تفصيل . تصوير كاتب هذه السطور .





لوحة ٢٤٢ فن بارتق . الحضرة . إله عالم الموتى | هاديس | نرجال أهرمين ممسكا بالكلب كبير بيروس حارس العالم السفلي  
القرن الثاني الميلادي . باذن من متحف الموصل .



لوحة ٢٤٣ فن بارتى . مجموعة من التماثيل الصغيرة من حجر الجبس تمثل الكواكب السبعة وتمثل بدورها الأيام السبعة . وجدت في معبد خاص بها بمدينة الحضر . القرن الثاني الميلادي .



لوحة ٢٤٤ سوسه . ملكة بارتية . القرن الأول ق.م .

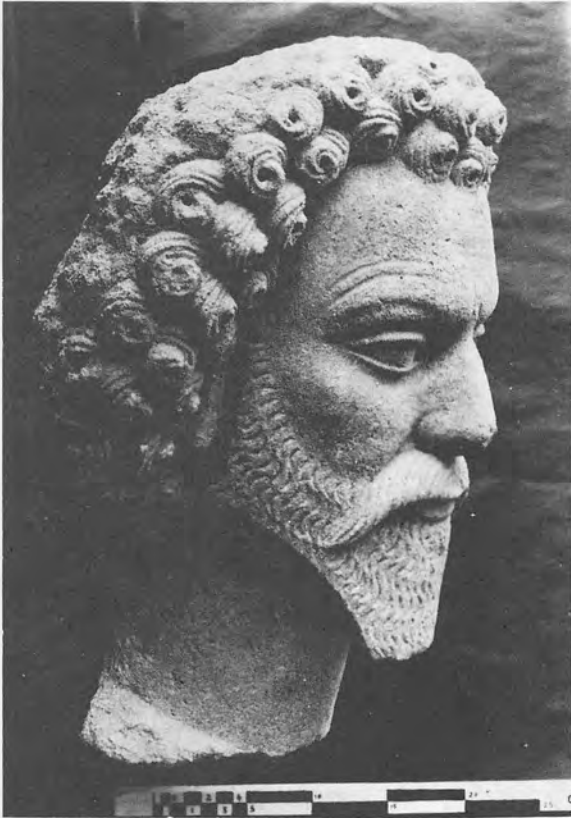


لوحة ٢٤٥ فن باري . الحضرة .  
تمثال بالحجم الطبيعي من حجر  
الجبس يمثل الملك سنطروق ، ويبدو  
كبير السن في هذا التمثال . القرن  
الأول والثاني الميلادي . بإذن من  
المديرية العامة للآثار بالعراق .

لوحة ٢٤٦ تمثل من المرمر يمثل  
سنطروق ملك الحضرة ( تفصيل ) .

لوحة ٢٤٧ فن باري . رأس أتلو  
ملك حداياب . وجد بالمعبد الثالث  
في الحضرة ، يعتمر بالقلنسوة الخاصة  
بملوك البارت ، وهي ذات شكل  
مخروطي من الأمام وتتصل بحافتها  
أغطية للأذنين والرقبة . بإذن من  
المديرية العامة للآثار بالعراق .

لوحة ٢٤٨ فن باري . رأس من  
الحجر الجيري وجد بالمعبد الرابع  
بالحضرة ويتميز بسيمائه وبلحيته شبه  
المديبة ويبدو أنه لكاهن من كهنة  
الحضرة . بإذن من المديرية العامة  
للآثار بالعراق .





لوحة ٢٥٠ فن بارتّي : تمثال من  
حجر الجبس يمثل كاهنا من كهنة  
الحضر اسمه بدّا . عثر عليه في معبد  
أشور بعل بمدينة الحضر . القرن الأول  
م . بإذن من المديرية العامة للآثار  
بالعراق .



لوحة ٢٤٩ فن بارتّي . الحضر :  
تمثال من الحجر الجيري بالحجم  
الطبيعي يمثل الأميرة دوشفري ابنة  
الملك ، وجد في معبد كُرس لعبادة  
إله آشور . بعل . القرن الثاني  
للميلاد . بإذن من المديرية العامة  
للآثار بالعراق .



لوحة ٢٥١ فن بارتق : مجموعة من التماثيل بالحجم الطبيعي . تمثل الأسرة المالكة الأولى في مدينة الحضر ، وتتكون من رأس الملك سنطروق وزوجته أبا ب بنت ديمون ووليدته عبد سميا ولى العهد ونهرا الابن الثاني . القرن الأول الميلادي . باذن من المديرية العامة للأثار بالعراق .



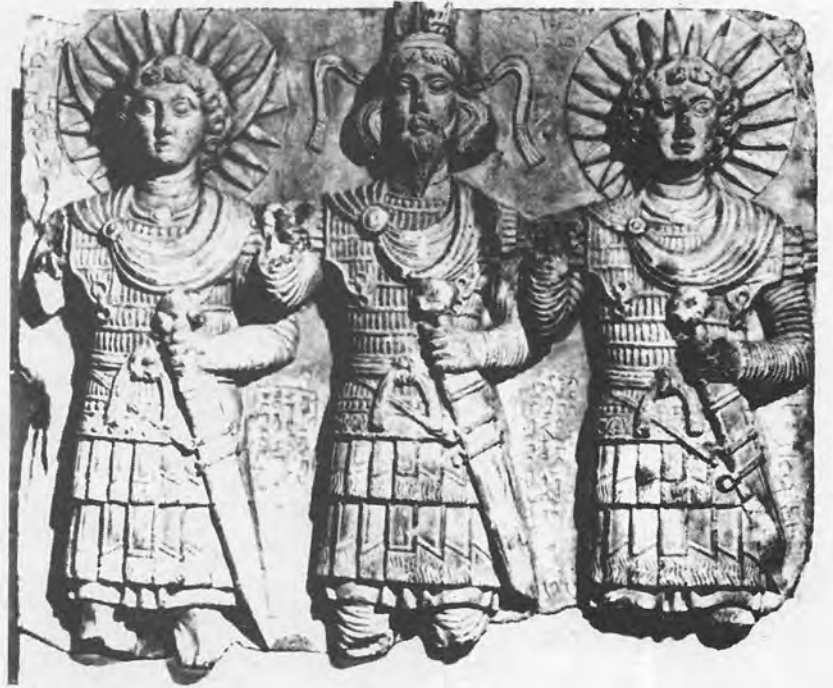




لوحة ٢٥٢ فن باري : لوح من  
الحجر الجيري منقوش عليه ربات  
ثلاث [الثالوث العربي : اللات  
والعزى ومناة] . مجموعة معبد آشور  
بعل . القرن الأول الميلادي . باذن  
من المديرية العامة للآثار بالعراق .

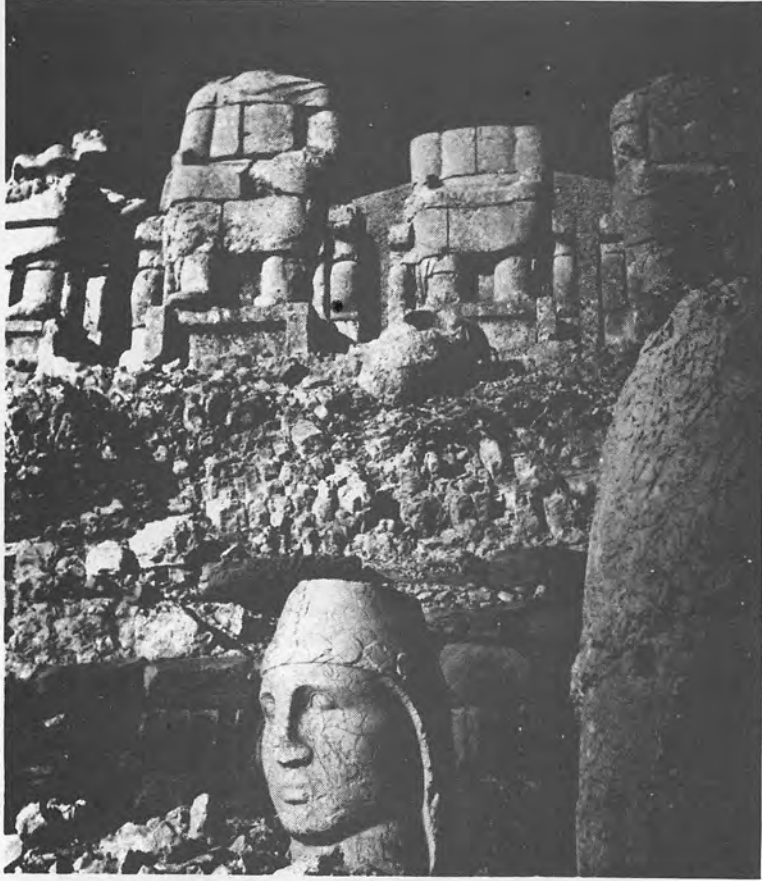
لوحة ٢٥٣ فن باري : الحضر .  
الملك يقوم بطقوس العبادة وبجانبه  
راية الحضر [مسلة سنطروق الأول]  
وفوقه إلهة النصر تحمل إكليل الغار .  
باذن من المديرية العامة للآثار  
بالعراق .

لوحة ٢٥٤ فن بارتى : تدمر :  
الثالوث التدمري . أجليعل  
وبعلشمين وملكبعل . القرن  
الأول م . بإذن من متحف اللوفر .



لوحة ٢٥٥ نمود داغ [فن إغريقي  
إيراني] : منظر عام للتل الجنائزي  
للملك أنطيوخوس الأول  
الكوماجيني . بإذن من وزارة التعليم  
والثقافة بتركيا .

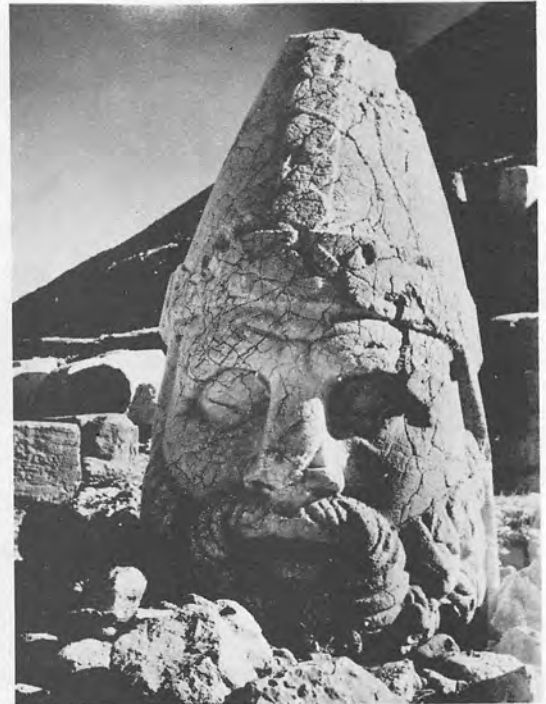
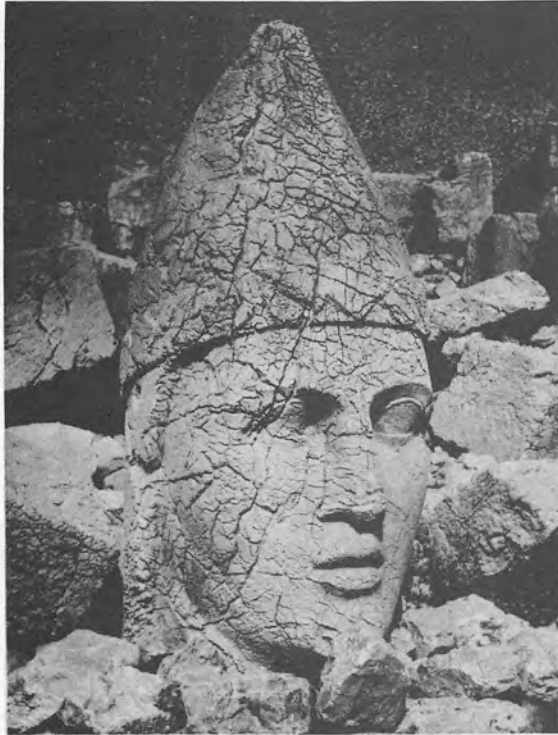




لوحة ٢٥٦ نمرود داغ : إلهة مقبرة  
أنطيوخوس . تفصيل .

لوحة ٢٥٧ نمرود داغ : رأس هرقل  
عام ٦٩ - ٣٤ ق.م . بإذن من  
وزارة التعليم والثقافة بتركيا .

لوحة ٢٥٨ نمرود داغ : رأس الملك  
أنطيوخوس الأول . بإذن من وزارة  
التعليم والثقافة بتركيا .



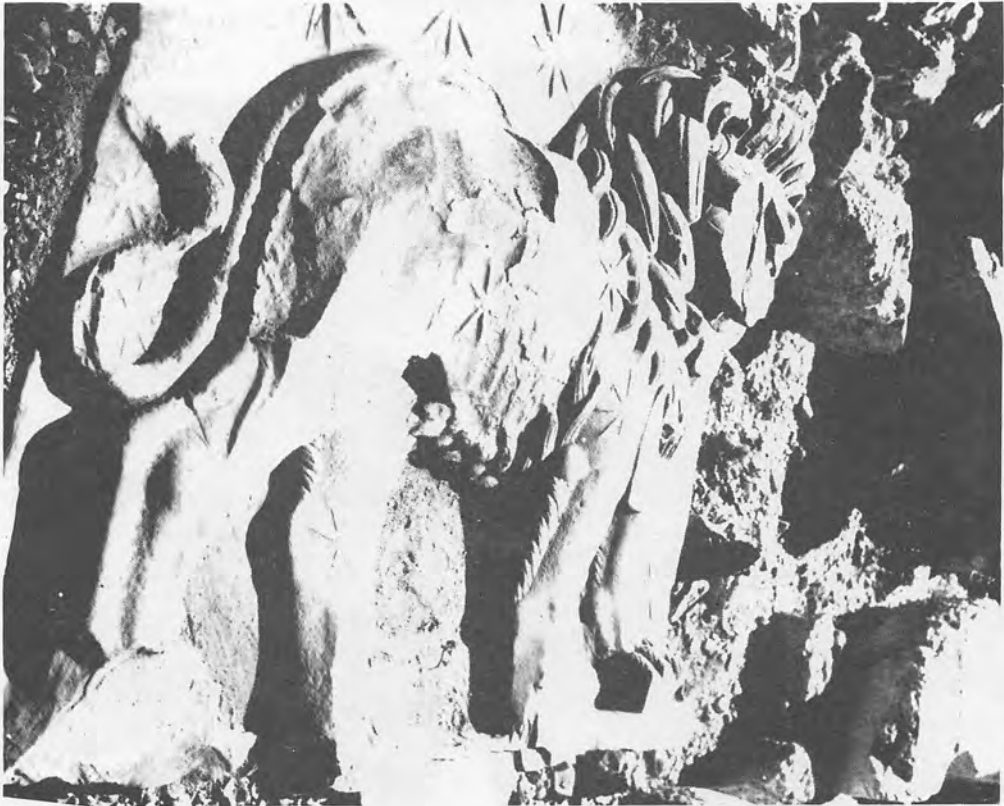


لوحة ٢٦٠ نمروود داغ : تمثال  
هرقل .



لوحة ٢٥٩ نمروود داغ : رأس الإلهة  
كوماجين . بإذن من وزارة التعليم  
والثقافة بتركيا .

لوحة ٢٦١ نمروود داغ : الأسد حارس القصر





لوحة ٢٦٢ نمرود داغ : الأسد  
حارس قصر اصطخر .



لوحة ٢٦٣ نمرود داغ : مشهد  
تسليم الملك أنطيوخوس مقاليد  
الحكم ، جمع فيه الفنان أبوللو وميترا  
في شخصية واحدة .

لوحة ٢٦٤ الحضرة : [فن إغريقي  
إيراني] قناع من النحاس : وجه الإله  
ديونيسوس [باكخوس] إله الخمر  
عند اليونان . ويظهر شعر الرأس  
مزين بورق وعناقيد العنب رمز  
الخمر . عثر عليه في واجهة المعبد  
الرئيسي [الإيوان الشمالي] وكان  
مكرسا لعبادة هذا الإله .



لوحة ٢٦٦ الحضرة : نصب للنار  
والبخور من الحجر الجيري : ربة  
جالسة وقد وضعت يديها على رأسها  
ليؤتينا ، والراجح أنها الإلهة أترعنا  
زوجة بعل شمين إله السماء .



لوحة ٢٦٥ الحضرة : قناع من  
النحاس يمثل وجه الجورجونه  
ميدوسا ، وكان هذا القناع بمثابة  
عوذة . القرن الثاني الميلادي .



الفنّ الإيراني

بين التأثير

والتأثر





## الفن الإيراني بين التأثير والتأثر

**ما من** شك في أن الإيرانيين قد وقعوا تحت تأثير الفن المعماري الأورارتي في هضبة سيالك<sup>(٨٤)</sup> ومسجد سليمان ، فلقد استوحوا منازل طوشبا عاصمة المملكة الأورارتية المكونة من طوابق عدة ، مثلما يتجلى في اللوحة البرونزية المحفوظة بالمتحف البريطاني ( لوحة ٢٦٧ ) . وكانت المنازل نوعين : نوعا ذا فناء فسيح رئيسي استخدم في المناطق الحارة بما يتفق مع طبيعة المناخ ، والنوع الآخر كان يحتوي على قاعة مركزية مسقوفة بدلا من الصحن المكشوف تحيط بها الغرف بما يتناسب مع جو المناطق الباردة . ومن يدري فلعل هذا النوع الأخير هو الذي أوحى بعمارة قصور پرسپولیس ، وليس ببعيد أن يكون مهندس « كعبة زردشت » في نقش رستم قد استوحى منازل طوشبا في إقامة برجه .

لعل رؤوس « الحراسة » ذات الوجهين التي هي على غرار رؤوس لورستان ذات اللحية الكثة وغطاء الرأس المدب تمثل « سراؤشا » الإله الأورارتي ( لوحة ٢٦٨ ) . كما يظهر تأثير الفن الأورارتي في تمثال إلهة من البرونز جالسة على كاهل جوادين متشابكين ( لوحة ٢٦٩ ) . ولقد كان للجياد شأن في الحياة الأورارتية السياسية والاقتصادية مما يحملنا على الظن بأنهم اتخذوا إلهة للجياد ، مثلما اتخذ اليونانيون « أثينا » ربة الخيل فيما بعد . كذلك تأثر الفن السكودي بفنون المنطقة الإيرانية الأورارتية ، ويبدو هذا التأثير واضحا في منطقة كوبان شمال القوقاز ، وخاصة في مقابرها المسقوفة التي كانت تضم إلى جوار جثة الأمير خدمه وجياده وأدواته الخاصة ، وهي المنطقة التي اكتمل فيها فن تصوير الحيوانات عند السكوديين .

(٨٤) الراجع أن الإيرانيين قد وفدوا على هضبة سيالك حوالي القرن الحادي عشر ق.م. وشيدوا قصرهم الحصن فوق الشرفة الصناعية القائمة هناك من حوالي منتصف الألف الخامس ق.م.

و حين كانت مملكة أورارتو في بدء نشأتها كان الإغريق آخذين في الانتشار حول شواطئ آسيا الصغرى بحثا وراء الحديد والشمع والكتان والمعادن الثمينة والزنجر والخشب والبرونز والأقمشة . وفي هذا العهد ظهر شكل الديك الإيراني للمرة الأولى في اليونان ، ولم يكن الديك<sup>(٨٥)</sup> هو البدعة الأجنبية الوحيدة التي تسللت إلى اليونان بل صحبته الأواني البرنزوية الطويلة العنق . وبدأ الحرف الإغريقي يأخذ شكل الخزف الملون المصنوع في إيران في عصور ما قبل التاريخ في تقنته وموضوعاته . وحاول كل من الفنان الإغريقي والإيراني التحلل من تطبيق قيود الأسلوب الهندسي ، ومن إقحام شخوص كثيرة في موضوع واحد لجعل المشهد أكثر تناسقا مع الالتزام بالتقاليد ، كما حاولا ابتداع قواعد تشكيلية جديدة ، فاخفت صور الشخوص «الطيف ظلّية»<sup>(٨٦)</sup> وبدت صور الإنسان أكثر مرونة ونبضا بالحياة ، فبعد أن كان جسمه يصور في بادئ الأمر كتلة مبهمة ، شرعت بعض تفاصيله في الظهور ، وأخذ الجسم يُشكّل بمفاصله وذلك بالخطوط الملونة المحددة للخصر والأطراف وغيرها ، وبإظهار فواصل المفاصل كي تبدو وكأن فيها طواعية للحركة .

ولم يغب عن صانع الخزف الإغريقي الحصان المجنح الذي يعلو ظهره فارسه كما تخيله قبله الفنان الإيراني ، بل لقد اتخذ الجواد في الفن الإغريقي معنى خاصا مرتبطا بالعالم السفلي وبفكرة الموت ، وأصبح مشهد الأسد ذى القدم المرفوعة رمزا تقليديا في الفن الإغريقي ، وهو الذي كان يرمز عند الإيرانيين إلى شيطان الموت مع الإنسان المتكئ على الرمح<sup>(٨٧)</sup> . واقتبس الفن الإغريقي صورة الوعل من إيران ، كما خلد فنانو رودس في نهاية القرن السابع ق.م الحيوان المزدوج الجسد والموحد الرأس الذي شاع في فن لورستان . وانتقلت المرأة التي على شكل الطائر والمصورة على أواني وقبور إيران وأورارتو الفخارية السوداء ، عبر آسيا الصغرى إلى اليونان ومنطقة إتروريا حاملة معها إيمان الإيرانيين بأنها خاطفة الأرواح متحوّلة في النهاية إلى أسطورة «فينيوس والمرأة العقاب» عند الإغريق ( لوحة ٢٧٠ ) .

كذلك عرف الإغريق صورة قابض الأرواح «ثاناتوس» على شكل الطائر بلحيته الكثّة التي ظهرت من قبل على مقابض أواني لورستان وهمدان البرونزية ( لوحة ٢٧١ ) . وإذا كان الإيرانيون قد عدّوا الأسد والجواد وكأنهما شيطانا الموت ، فقد ظهر هذا المعنى نفسه عند الإغريق في الجريفون ، ذلك الحيوان الخرافي الذي يجمع بين الأسد والثعبان وإن عدّوه شيطانا خيرا ، إذ صوّروه على الآنية الجنائزية داخل القبر ، وكان الجريفون كذلك رمزا للسلطان في كافة فنون الشرق الأوسط القديمة .

(٨٥) كان استيقاظ الديك مبكرا هو سر اختياره رمزا لإله العهد البارثي ميترا «مهر» ، وكان يصور بألف أذن وعشرة آلاف عين ، ومن ثم فهو يسمع كل شيء ويرى كل شيء .

(٨٦) Silhouette ينطبق الطيف الظلي على الأشكال السوداء المعتمة على أرضية بيضاء والأشكال البيضاء المرسومة على أرضية سوداء ، وبهذا فهي صور منتقصة لاتستعمل إلا الحد الأدنى من التفاصيل ، ويعرّفه مجمع اللغة العربية بالرسم الشبحي الذي يظهر منظر شخص أو غيره بلون قطعي لا فرق فيه بين ظل أو نور أو لون .

(٨٧) ثمة بعض الشراح يعتقدون أن الأسد هو العنصر الخيّر الذي يمثل أهورا مزدا بينما الثور هو العنصر الشرير الذي يمثل أهرمين . وهناك من يعتقد العكس فالأسد شرير مفترس بينما الثور يخدم الإنسان ، ودليلهم على ذلك مشهد قتل البطل الملكي للأسد .

واقتبس الإغريق الصور التي عبر بها الفرس عن الخصوبة اقتباسا لم يغب فيه الشبه بينهما بل ظل قويا ، على الرغم من مرور ألف سنة بين ظهور إلهة الخصوبة الإيرانية التي تمسك ثدييها وبين تلك الإلهة اليونانية العارية التي تضغط بيدها على ثديها ممسكة بيدها الأخرى كأسا تجمع فيه اللبن المتدفق ( لوحة ٢٧٢ ، ٢٧٣ ) .

ومن يدري ، لعل هذا الشبه القوي بين التقاليد الدينية للفنين الإيراني والإغريقي لم يكن نتيجة للاتصال التجاري والفني بين البلدين بل كان سابقا على هذا الاتصال بفضل سيادة فكر إنساني واحد عمّ المنطقتين . وأخذ الفن الإيراني ينتشر مع اتساع الامبراطورية الفارسية وإقبال فناني الهند واليونان ومصر على العمل في ظل حكام فارس وأساتذتها ، كما صيغ كثيرا من الموضوعات الإغريقية المصرية بطابعه لارتباطه الدائم بماضيه الفني الطويل .

وكان لفن فارس جانبان يتجلّى أحدهما في المنشآت المعمارية الضخمة ، ويتجلى الآخر في منجزات القبائل الرحل التي اهتمت بعالم الحيوان الذي لم يلبث أن تسللت موضوعاته إلى مجال العمارة . وعلى حين كان الفن اليوناني ينزع إلى الحرية كان الفن الأخميني أسير الجمود والصرامة والضخامة ، يعبر عن إيمان أصحابه بخضوع الشعب للملك وخضوع الملك للإله بالرغم من أن الفن الأخميني قد ورث الفن اللورستاني المولع بالحركة ، وعلى الرغم مما كان يحمله الطابع التشكيلي للنقوش البارزة الفارسية من جنوح نحو التحرر من الأسلوب التقليدي .

على أن التعبير الرمزي في الفنون اليونانية الفارسية قد تجلّى فوق نصب جنائزي ذى صفين ( لوحة ٢٧٤ ) يمثل الأول منظر صيد يرتدي فيه الفرسان ثيابا فارسية ، كذلك تبدو عدّة الجواد فارسية وكذا ناصيته وذيله المعقود ، وينطلق الجواد في ركضة أشورية فارسية ، على حين توحى حرية الحركة وترتيب المشهد بالروح الإغريقية الملحوظة في النصب التذكاري الذي لم تعرفه فارس . وجاء مشهد الوليمة في الصف الثاني إغريقي البيئة فظهر امتزاج الفنين الإغريقي والفارسي في هذا العمل . وانتهى عهد الامبراطورية الأخمينية حين انتهى من تشييد أعظم المباني الجنائزية التي هي من وحي إيراني ، ونقصد بذلك التابوت المسمى تابوت الإسكندر الأكبر ( لوحة ٢٧٥ ) الذي عثر عليه بمقبرة صيدا الملكية ، وقد يكون لديميترىوس بوليوكريتوس ولي عهد صيدا أو لـ «أبدالونيموس» آخر ملوك صيدا الإيراني الأصل الذي نصبه الإسكندر حاكما على هذه المدينة سنة ٣٣٣ ق.م ( لوحة ٢٧٦ ، ٢٧٧ ) . ويصور جانباه مشهد قنص ومشهد معركة حرية بين الفرس واليونانيين يظهر بينهم الإسكندر ، ولم يكن هذا التابوت إلا نقلا لموضوعات شرقية قديمة بلغة إغريقية بحثة .

وظهرت التقاليد المعمارية الفارسية في مقدّمي الثور بيستان الشيخ قرب صيدا ، القرية بفنّها من فن تابوت الإسكندر ، ونلمس على الفور تطور هذا «الحيوان الحامل» إلى عنصر زخرفي فحسب بعد أن كان من عناصر العمارة الفارسية تاجا لعمود يحمل ثقل الأسقف ( لوحة ٢٧٨ ) .

وفتن صانعو الحلى الإغريق بمقدمة الحيوان وزينوا بها رؤوس الدبابيس ، مثلما شغف بها السكوديون الذين يعيشون في جنوب روسيا . ومع اتخاذ الفن الأخميني طابعا مخالفا لطابع الفن الغربي فقد هام ملوك الفرس بكل ماهو جميل وخاصة التماثيل اليونانية ، حتى ضم خشايارشا إلى كنزته تماثل بينلوبي<sup>(٨٨)</sup> الذي يرجع إلى نهاية القرن الخامس ق.م ، وكان قد استولى عليه خلال غزوه لأثينا ونهبه لها . واصطبغ الفن الإيراني بطابع إغريقي في بلاط حكام الأقاليم الغربية ودور نبلائها منذ النصف الثاني من القرن الخامس ق.م .

وثمة لقاء فريد بين الفنين الإغريقي والإيراني يجتذبا في مجموعة لوحات حجرية محفورة سميت «بالإغريقية الفارسية» نظرا لبقاء بصماتهما معا دون أن يمتزجا أو يفقد أحدهما طابعه . فنرى في النقش الذي عثر عليه بالقرب من «داسيليون» بآسيا الصغرى والذي ينتظم مشهدين أحدهما لموكب ديني والآخر لتقديم القران أنه على حين يمضى الفرسان وبعض النساء على ظهور البغال في صف واحد على غرار نقوش سوسه وپرسپوليس في مشهد الموكب ( لوحة ٢٧٩ ) يحوم الجو الإغريقي على المشهدين ، ذلك أن الموضوع وإن كان فارسي الأصل إلا أن تنفيذه جاء وفق الأسلوب اليوناني .

كذلك امتد تأثير الفن المعماري الأخميني إلى الهند وإن لم تظهر العناصر الإيرانية في الفن الهندي إلا بعد ثلاثة أرباع قرن من انهيار الامبراطورية الفارسية ، على نحو ما بدا في نقش العاج من بيجرام ( لوحة ٢٨٠ ) ، وفي القصر ذى بهو الأعمدة الذى شيده أشوكا ملك الهند في عاصمة مملكة ( ٢٧٤ — ٢٣٧ ق.م ) ، والذي تجلى فيه المعماري في أعمدته التى كان بعضها شاهق الارتفاع مشكلا من بدن مقنّى يعلوه تاج ناقوسي الشكل على غرار تيجان سوسه وپرسپوليس ، نحتت في قمته مجموعة من الحيوانات نحتا مجسما ، وكانت كثرتها أسود جالسة مستوحاه من الفن الإيراني ( لوحة ٢٨١ ) .

كذلك امتد تأثير الفن الأخميني شمالا إلى جنوب سيبيريا ، فظهر ذلك التأثير في الكئوس ومقابض السيوف التى عثر عليها بإحدى المقابر . وقد كشفت الحفائر السوفيتية خلال الخمسين سنة الأخيرة في منطقة ألتاي عن مرحلة من الحضارة الميدية ظلت خافية حتى وقت قريب . ومن بين ماعثر عليه في مقابر زعماء السكوديين في ألتاي نماذج غاية في الروعة من السجاد ، أجمع علماء الآثار على أنها من أصل أخميني ، وأرجعوها إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد بعد أن وجدوا بجانبها مرآة من البرونز نُقش عليها هذا التاريخ .

وترتب على العوامل المناخية كالطوفان الذى تلتته حقبة الثلوج المتجمدة التى غطت المنطقة السكودية أن حفظت لنا منجزات من الرهافة بمكان ، ومن بينها تلك السجادة الصوفية ذات العقد التى

(٨٨) بينلوبي زوجة البطل أوديسيوس ، جعلها هوميروس في الأوديسيامرزا للوفاء إذ ظلت مقيمة على عهدها مخلصه لزوجها الذى غاب عنها عشرين عاما تعرضت في أثناءها لمضايقات شتى من الطامعين في الزواج منها .

يبلغ طولها مترين وعرضها ١,٨٩ مترا ، أى تكاد تكون مربعة . وكان اللون الأحمر النيبي هو اللون الغالب على تكوينها ، وهو اللون الذى تفرّدت به فيما بعد سجاجيد شيراز . وإلى جانب الألوان الصريحة الداكنة التى استعملت لتحديد الرسم نجد أن الألوان الأساسية هى الزعفراني والأحمر النيبي والأخضر بلون الفستق والأزرق ، وكلها تدخل في صميم ألوان السجاد الشيرازي ( لوحة ٢٨٢ ) .

ويبدو رسم هذه السجادة وكأنه رصدٌ لأبراج النجوم والكواكب يهيمن عليه قانون النظام العلوي وروحه . ويتكون من ستة صفوف تشمل أفاريز تضم وحدات زخرفية محوّرة منها النباتية والحيوانية . ويتكون الإفريز الخارجي ، مثل الداخلي ، من مربعات صغيرة صوّرت بها مشاهد من أنحاء الامبراطورية ، مثل الأسد ذو الذيل الملتف فوق ظهره والمتجه برأسه نحو الغرب كالشمس ، وهو الرمز الذى يصوّر الآن فوق العلم الإيراني . ومن داخل هذا الإطار المكون من الصفوف الستة ينقسم وسط السجادة إلى ست مجموعات تتكون كل مجموعة من أربعة مربعات ، أى أربعة وعشرين مربعا ومزدانة بالرسم الميدي . وقيل إن للرقم ٢٤ معنى رمزيا عند الفرس ، ويقول ديودور الصقلي المؤرخ المعاصر لأوغسطس أن الكلدانيين يعرفون علاوة على دائرة البروج أربعة وعشرين كوكبا آخر : اثني عشر منها جنوب السماء يراها الأحياء واثني عشر أخرى شمالها لا يراها سوى الأموات . كما يزدان الإطار الداخلي للسجادة بأربع وعشرين أيلا أحمر اللون مرسّمة فوق أرضية خضراء تتجه رؤوسها في اتجاه عقارب الساعة ، مما أدى إلى القول بأن هذه الأيائل تمثل الأربع والعشرين ساعة لليوم ، بينما ترمز المربعات الأربعة والعشرين التى تتوسط السجادة إلى الفصول الستة ، ويتكون كل فصل منها من أربعة «أنصاف أقمار» . ويحتوي الإطار الخارجي المرسوم للسجادة على رسم لجواد يمتطيه فارس قابض العنان بيده اليمنى وهو متجه عكس اتجاه عقارب الساعة ، ويتكرر هذا الرسم اثنتين وثلاثين مرة . ويمثل هذا العدد — كما يقول ديودور — النجوم الثلاثين مضافا إليها الشمس والقمر ، والكوكبان المباركان في نظر الكلدانيين ، ويتميزان عن بقية النجوم التى ساد الاعتقاد بأنها تدين بالولاء لروح الظلام ( لوحة ٢٨٣ ) .

وازدانت قطعة نسيج أخرى بصورة ملكات يقَدمن القرابين أمام مذبح النار ، وقد ظهرت بها مبخرة شبيهة بتلك المبخرة المنقوشة إلى جوار عرش داريوش في پرسيبوليس ( لوحة ٢٨٤ ) ، على حين آثر فنانون جنوبي سيريا تصوير الحيوانات وهى منخرطة في صراع وحشي ( لوحة ٢٨٥ ) .

وصنع فنانون جنوب سيريا عدد الجياد من الجلد على غرار الأقنعة الإيرانية التى كانت على شكل الوجه آدمى في وضعته المحددة بنهاية الذقن ، كما صوّروا على السهام الخشبية موضوعات مستوحاة من تلك التى كان يسجلها المصورون الأحمينيون على الأعمدة الخشبية لقاعة الخزانة التى أصبحت بعد ذلك «قاعة الأعمدة المائة» ، كما صاغوا أقنعة جلدية لبعض الخيول التى كانت تدفن مع الموتى وجعلوها على أشكال رؤوس حيوان الرثّة أو الوعل ، وضّم إلى أحدها قناع من الجلد المزدان برقائق ذهبية رفيعة تصور صراعا بين أسد «الجريفون» الخرافي الثعباني الرأس وبين ثمر تغطّت معرفته برقع على هيئة الديوك

وهي الطيور الشائعة في الفن اللورستاني . وقد عثر في بازيريك على قناع من الخشب والجلد يمثل جريفون وبين فكّيه رأس وعل ( لوحة ٢٨٦ ) ، ولعل هذا القناع الذى يضاف على الجواد شكل الرنة أو الوعل يشير إلى العصور القديمة التى كانت تمتطى فيها القبائل الرّحل الرّنة أو الوعل . وكانت الرّنة وأسد الجريفون والوعل ترمز عند السكوديين إلى انتصار الظلمات على النور في طقوس عبادة الموقى التى كانت تقام عند انتقال الميت من عالم الدنيا المضى إلى عالم الظلام ، ثم احتل الجواد عند الفرس والإغريق نفس المكانة التى كان يحتلها الوعل والأيل والرّنة في رسوم الأساطير البدائية .

وعلى حين حظى العمود الإغريقي في عمارة الإغريق بالقيمة نفسها التى كادوا يسبقونها على الجسد البشري ، اعتاد الفرس أن يقرنوا العمود بحيوان نافع هو الثور . واستنكر الإيرانيون العمودين الأيوني والكورنثي اللذين استخدمهما السلوقيون . فما كاد البارثيون يصلون إلى سوسه حتى حاول الفنان الإيراني تشييد العقد فوق الأعمدة ، ثم كان أن ابتكر الساسانيون القباب في مستهل القرن الثالث بقصر فيروزآباد ، وكذا انكمش طول العمود ثم اندمج جزئيا حتى منتصفه في جدار المبنى إلى أن كاد يتلاشى . والعقد هو رمز السماء أو بمعنى آخر رمز النظام في الكون ، ويستند إلى أعمدة نصفية [ملتصقة] هى رموز العناصر الأربعة : الماء والنار والأرض والهواء التى اعتاد الفرس تقديم القرابين لها ، وهكذا كانت الأعمدة الأربعة المربعة بالقصر البارثي في عاصمتهم الأولى نيزا هى رموز للعناصر لا للأشخاص . كذلك اكتشف الفن البارثي موضوعا آخر أطلق عليه علماء الآثار اسم «القناع» أو «المواجهة» ويقضي بالأى يمثل من الإنسان إلّا وجهه دون جسمه أو جذعه أو رقبته وألا يصور أى شخص إلا بالمواجهة . وكما كانت سوسه رائدة إيران في عهد الميديين فإنها لم تلبث بعد دكّها وتدميرها على يد الإغريق أن استعادت مكانتها القديمة مما جعلها تلقن البارثيين بعض أصول الحضارة فتقدم إليهم العقد والأعمدة النصفية الملتصقة وتمنحهم إلى ذلك القناع والتابوت السوسي . وقديما كان العيلاميون يضعون قناع المتوفى المشكّل من الصلصال إلى جوار تابوته بلا قرابين ، وذلك تمييز جسد المتوفى عن غيره ثم غدا القناع بالنسبة للبارثيين هو الروح ، ذلك الجزء الأسمى من الإنسان الذى لا يفنى بعد موته . ولهذا تختلف نظرة البارثيين إلى الموت اختلافا تاما عن الميديين والأخمينيين ، إذ كانوا يوسدون موتاهم في توابيت من الطين المحروق المزجج أحيانا ، يضعونها في حفر على غرار المسيحيين ، وللتابوت فتحة في أعلاه تكشف عن القناع أو الوجه ، وهو الجزء الوحيد الخالد . وكانوا يؤمنون بأن الجسد يتحلل ويعود إلى العناصر الطبيعية بعد أن تغادر الروح الجسد ، ولذا فهم لا يتركون أطعمة ولا أدوات مادية بجوار التوابيت لأنهم يعتقدون أن الروح جوهر خالص من جوهر الإله ، وليس ثمة صلوات بين الأرواح غير صلوات رمزية غير بيّنة . ولقد كان تمجيد الحياة المادية وتمجيد الجسد الإنساني عند الإغريق أثره المضاد عند شعوب الحضارة الإيرانية مما دفعهم إلى ازدراء الماديات والتطلّع إلى الروحانية .

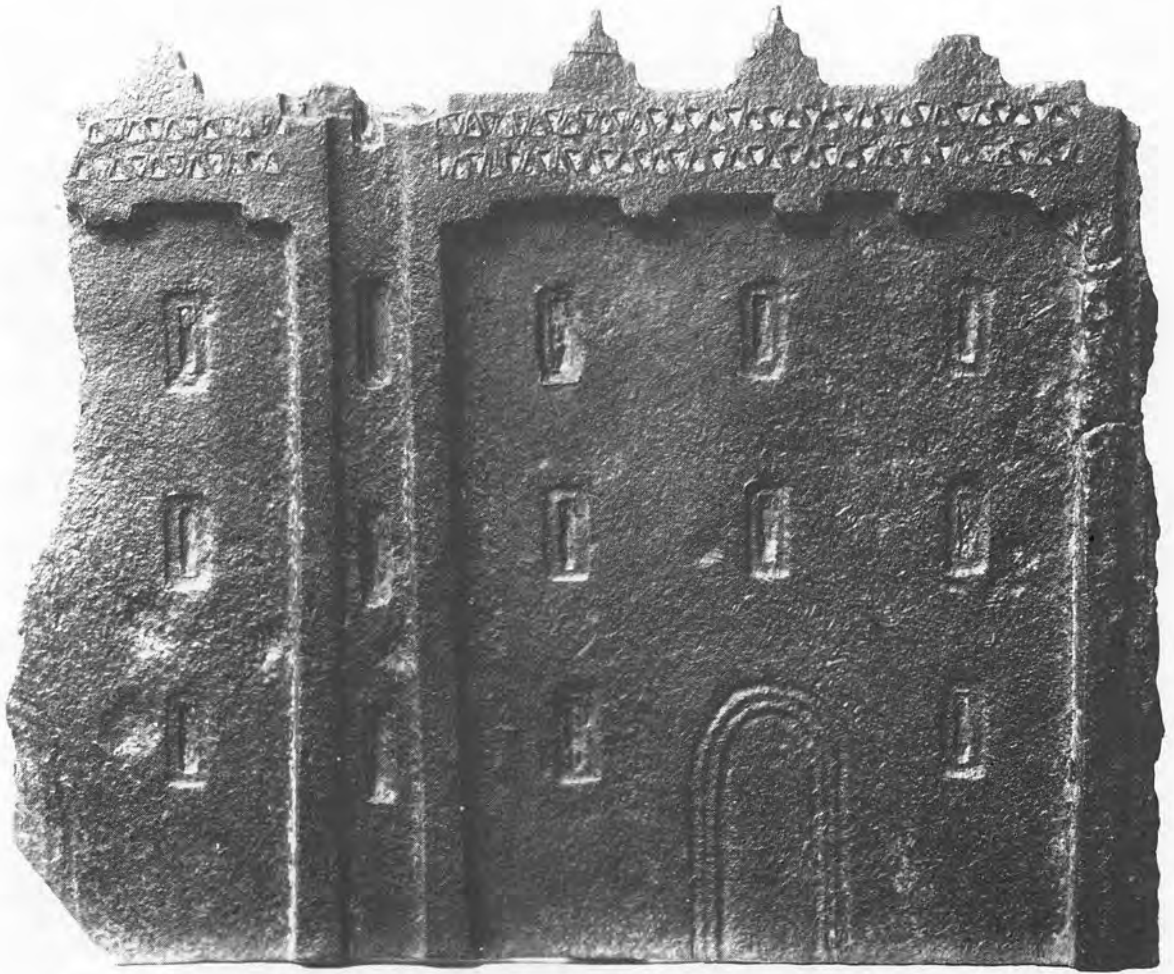
وهكذا يتبين لنا أن الفن الفارسي على النقيض من الفن الإغريقي لم يحاول اللحاق بالمقياس الإنساني بل عمد إلى تحطّيه . وعلى حين شاء الفن الإغريقي أن يردّ كل ما هو غامض ومعقد إلى أفكار واضحة مفهومة ، لعب الفن الفارسي بعناصر لا عدّها كانت في متناول يده لتوحي بالإحساس بكل ما هو لانهاى

حيث ينشئت الفكر ويضللّ الطريق ، فكرر بلا توقف الصورة نفسها بشكل رتيب ، مثل صورة الجندي حامل القوس في مواكب الجنود الفرس بيرسيبوليس الذى لا يميز وسط العديد من أمثاله المتعاقبين بلا نهاية ( لوحة ٩١ ) . وعلى حين انحصر كل شيء في نظر الإغريقي في الحقيقة المنطقية الموحدة التى يمكن إدراكها عن طريق التناغم الوثيق بين الحس والروح وبين الجسد والعقل ، حرص الفارسي على الثنوية القائمة على تنافر القطبين المتعارضين ، وعلى الصراع الأبدي بين الخير والشر ، وعلى التنافر اللانهائي بين الروحية والحسية ، وهو ما التقطته بعد المسيحية العميقة الوشائج بالشرق وجعلت منه صراعا بين الروح والجسد . هذه الرغبة في خلق الوحدة بين الأشياء وعرسها في كل شيء ، عبر عنها الإغريق بالحرص على الشكل وتأكيده ومن ثم على الخطوط المحوطة التى تبرز الشكل وتحده ، على حين ولع الفارسي على النقيض من ذلك بكل ما يشع بالألوان والبريق ويتألق بالذهب والضوء ، فحين حرص الإغريق على تحديد الشكل الذى يشيع في النفس السكونية كانوا يهدفون إلى إشباع الفكر بالفهم والوضوح ، بينما جنح الفرس إلى الألوان والأضواء التى تؤثر على الإحساس وفقا لقواعد لاتزال غامضة على الإنسان حتى الآن . كانوا يفتحون المنافذ أمام قوى الإيحاء الغامضة التى تكشف للقلب عبر ارتعاشة تصوفية عن معرفة لا يدركها العقل المجرد .

والحق إن الطبيعة المحيطة بكل من الشعبين الفارسي والإغريقي قد لعبت دوراً في تكوين اتجاهيهما ، فهما عالمان بنطويان على روحين مختلفين : فالمشهد الخلوي اليوناني المحدود الذي يمكن للعين أن تطوّقه ، والبحر الضامر الذى يندر أن تحتفي عن البصر سواحله أغريا المواطن اليوناني بمحاولة الإلمام بكل شيء ، وبالتالي أصبح هو مركز الأشياء كلها التى أضحى يراها خاضعة لإرادته ، بينما شرد الإنسان الفارسي في أنحاء امبراطوريته الفسيحة لاهتاً فوق طرقاتها الممتدة من أفق إلى أفق دون أن يدري إلى أين تقوده أو يتبين مايجرى وراء الأفق الذى يطوّقه . وهكذا ابتدع الإغريقي المدرك لحدود عالمه مقياساً للأشياء ، فإذا هو يرفض ما هو بالغ الضخامة أو الضآلة ، ويدفعه حب الاعتدال — الذى استنبط منه أرسطو أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ودعاها نظرية «الوسط» في الأخلاق — إلى الارتباط بالإنسان ، ذلك لأن الأشياء لاتوصف بالضخامة أو الضآلة إلا بالنسبة له . وعلى حين حاول أرسطو نفسه تطبيق هذه النظرية على الفن وعلى النسب الملائمة للمثال والمعماري بقى الفارسي مفتونا بالامبراطوريات الكبرى ظامناً أبداً إلى كل فسيح عملاق وكل ما يذهل الإنسان لأنه يسحقه ويلغي وجوده ، هادفاً بارتفاع ردهات القصور واتساعها والمبالغة في تعدد الأعمدة إلى إشعار زائرها بضآلته . وعلى هذا النحو اتخذ الفارسي من تشييد برج بابل الذى يطاول السماء رمزا لطموحه ، بينما استحال على الإغريقي إلا أن يحكم على هذا العمل بالإخفاق<sup>(٨٩)</sup> .

(٨٩) أنظر : الفن الإغريقي لكاتب هذه السطور . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ ، صفحة ١١١ — ١١٣ .





لوحة ٢٦٧ فن أورارتي : أرمينيا : لوحة تمثل مبنى أورارتي من البرونز . القرن الثامن — السابع ق.م . بإذن من المتحف البريطاني .

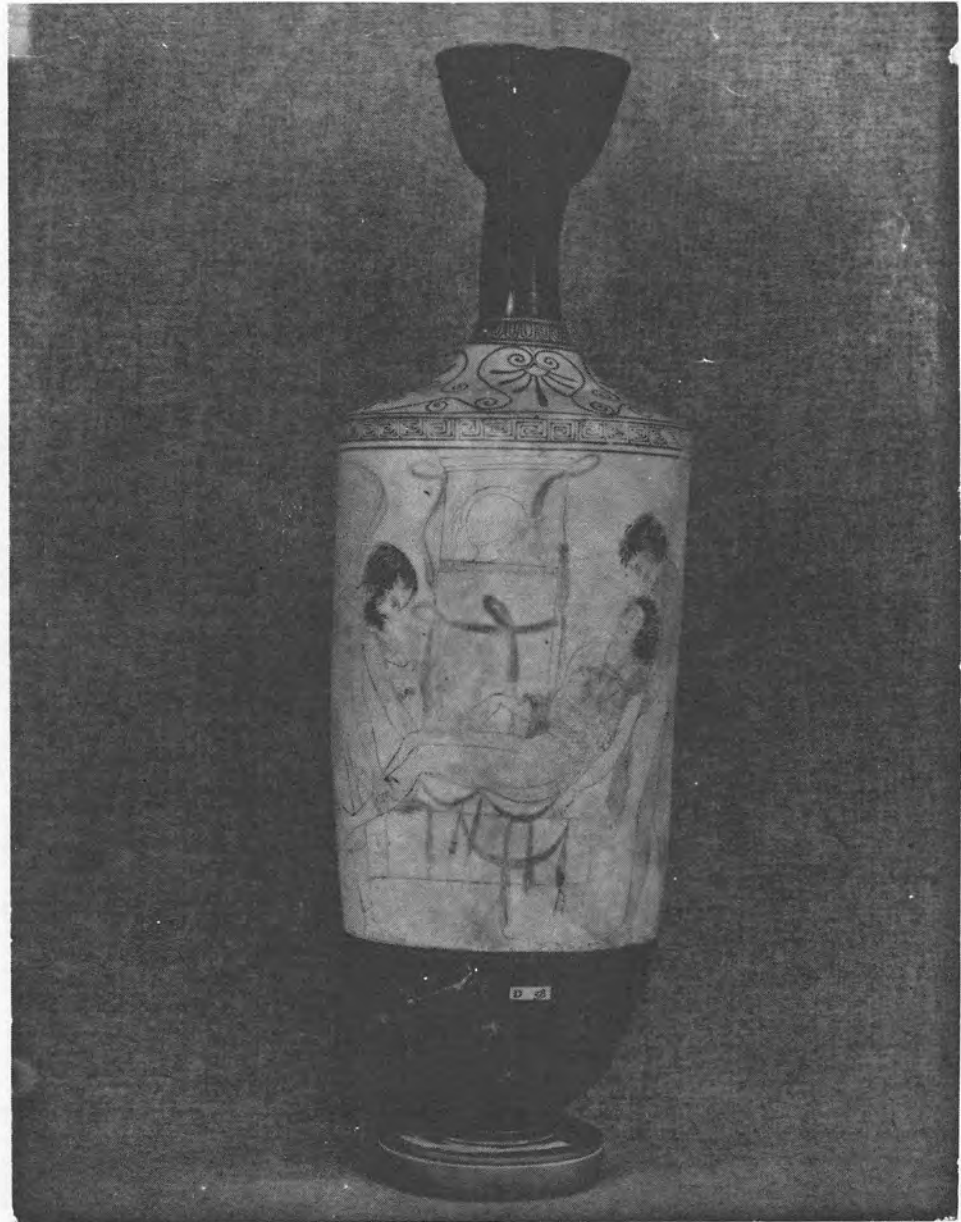
لوحة ٢٦٨ فن أورارتي . فيلوتونيا : وصلة قدر من البرونز ، رأس ذات لحية . القرن الثامن — السابع ق.م . بإذن من متحف الآثار بفلورنسا .





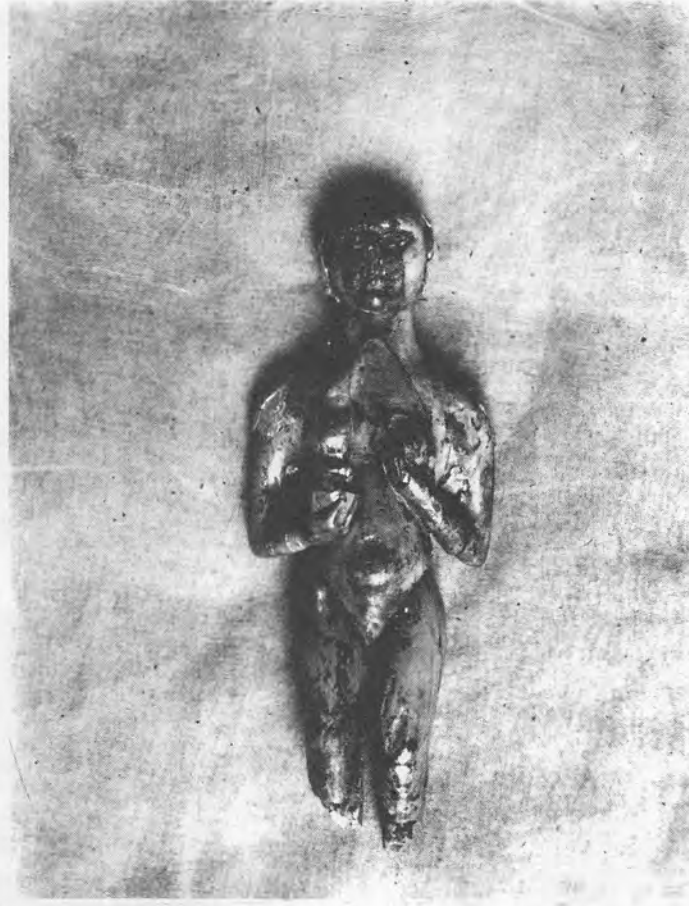
لوحة ٢٦٩ فن أورارتي [ماوراء  
القوقاز] : إلهة من البرونز جالسة على  
كاهل جوادين متشابكين . القرن  
الثامن إلى السابع ق.م . بإذن من  
المتحف البريطاني .

لوحة ٢٧٠ الشيطان خاطف أرواح  
الموتى . بإذن من متحف برلين .

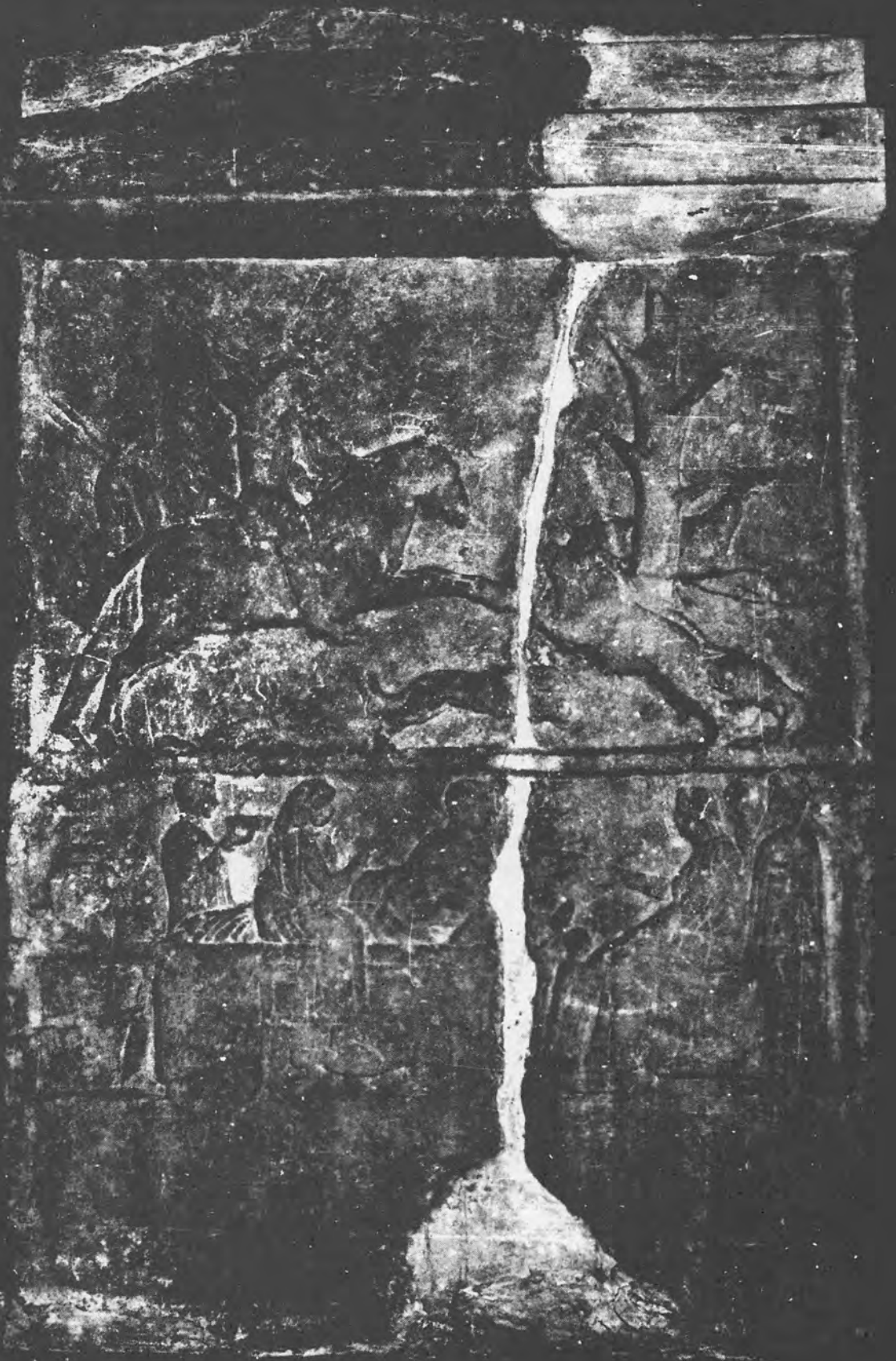


لوحة ٢٧١ ثاناتوس يخطف امرأة  
ميتة . تصوير على ليكيثوس . بإذن  
من المتحف البريطاني .

لوحة ٢٧٢ فن إيتروسكي : تمثال صغير لربة عارية تضغط بيدها على ثديها  
بينما تمسك بيدها الأخرى كأسا تجمع فيه اللبن المتدفق . من العاج . القرن  
السادس - السابع ق.م . بإذن من متحف فلورنسا .



لوحة ٢٧٣ فن بارتّي . سوسة : إلهة  
الخصوبة من الفخار . القرن الثاني  
ق.م . بإذن من متحف اللوفر .

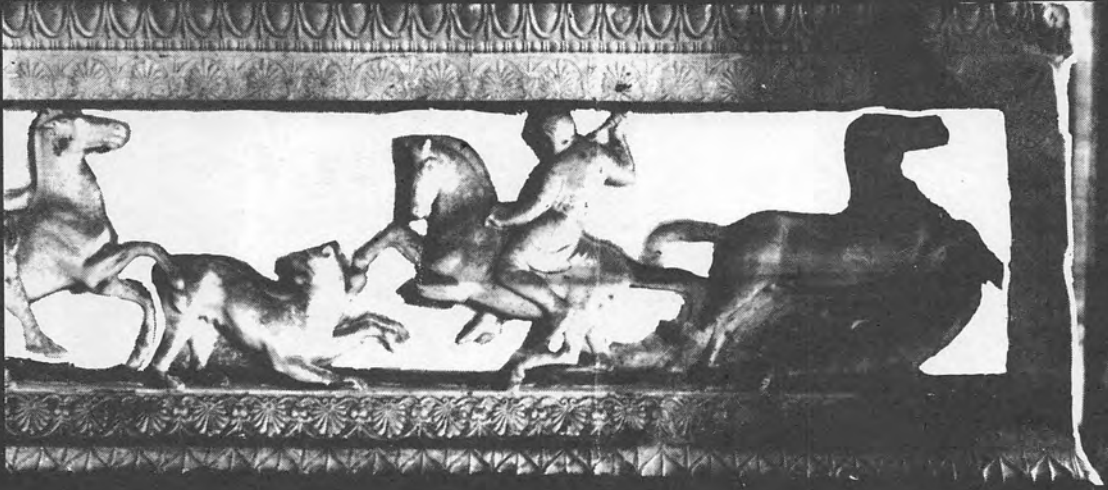


لوحة ٢٧٤ فن إغريقي إيراني : نصب جنازتي . مناظر صيد ( أعلى ) ووليمة ( أسفل ) من الرخام الأبيض . نهاية القرن الرابع ق.م . باذن من متحف استنبول .



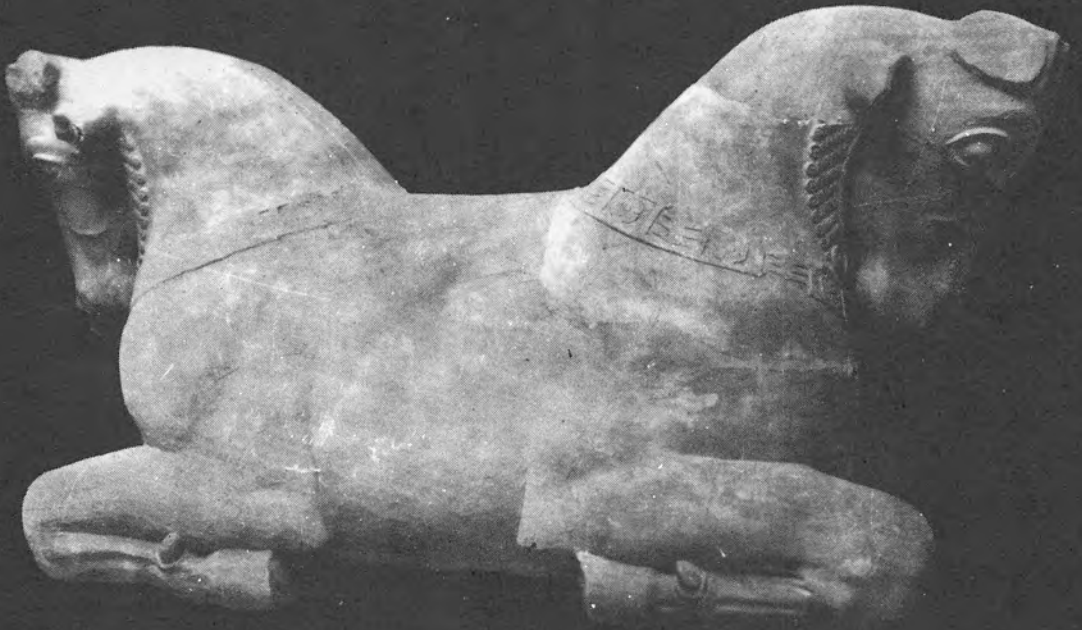
لوحة ٢٧٥ فن إغريقي فارسي . الجيانه الملكية بصيدا . تابوت الإسكندر من الرخام المتعدد الألوان : مشهد صيد . القرن الرابع ق.م . باذن من متحف استنبول .  
 لوحة ٢٧٦ فن إغريقي فارسي . الجيانه الملكية بصيدا . فينيقيا : تابوت الوالي «الساتراب» : مشهد توديع البطل إلى مقر الأخير . باذن من متحف استنبول .





لوحة ٢٧٧ فن إغريقي فارسي : بقية المشهد السابق .

لوحة ٢٧٨ فن أجنبي . صيدا : تاج عمود بمقدمى ثور . القرن الخامس - الرابع ق.م . بإذن من متحف بيروت





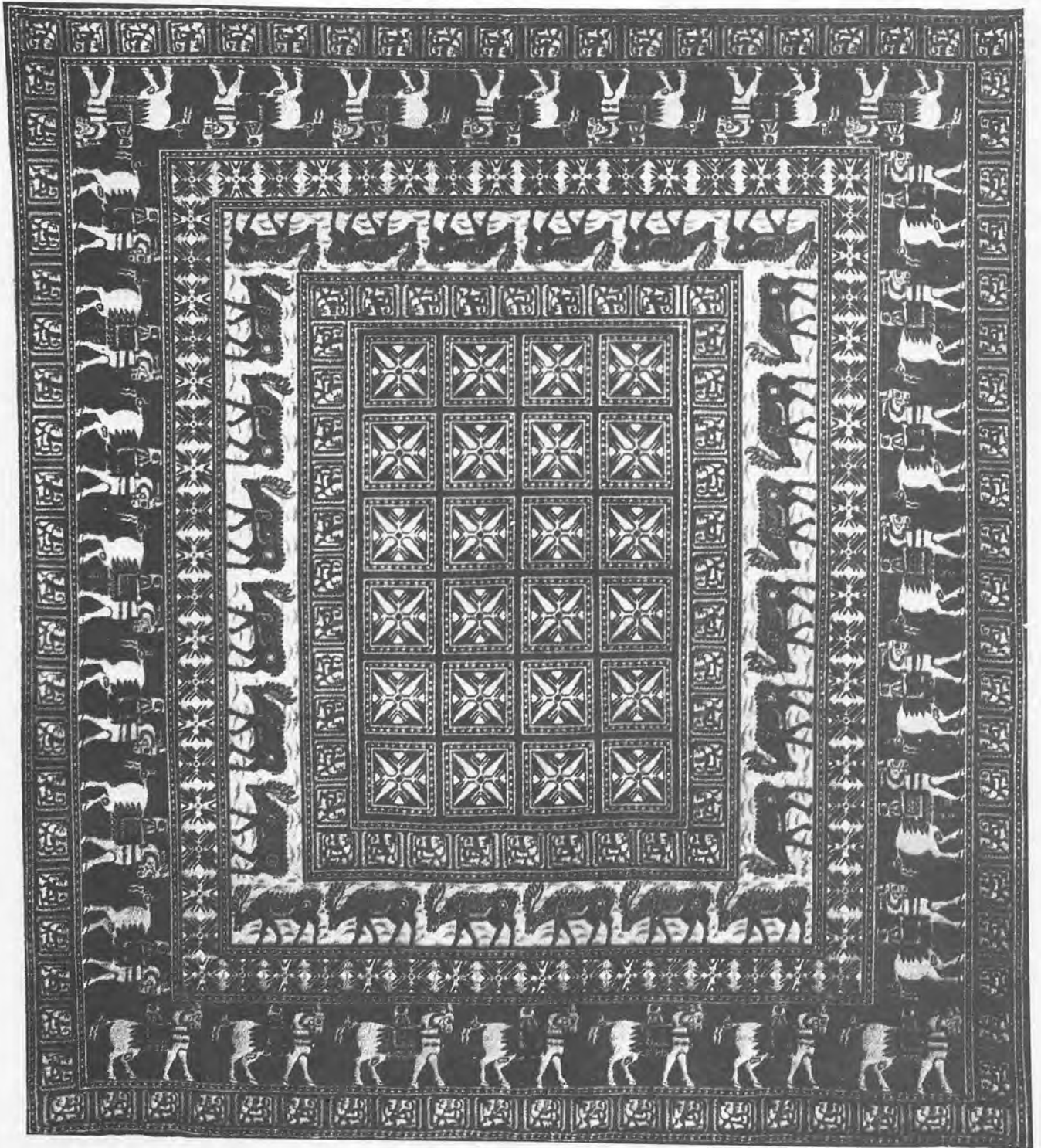
لوحة ٢٧٩ فن إغريقي فارسي . داسيليون [آسيا الصغرى] : نقش يمثل موكبا جنائزيا من النساء . نهاية القرن الخامس ق.م . بإذن من متحف استنبول .

لوحة ٢٨١ أمارافاتي : أسود  
مجتمحة تعلو عمودا ملتصقا . القرن  
الثالث الميلادي . بإذن من متحف  
جيميه



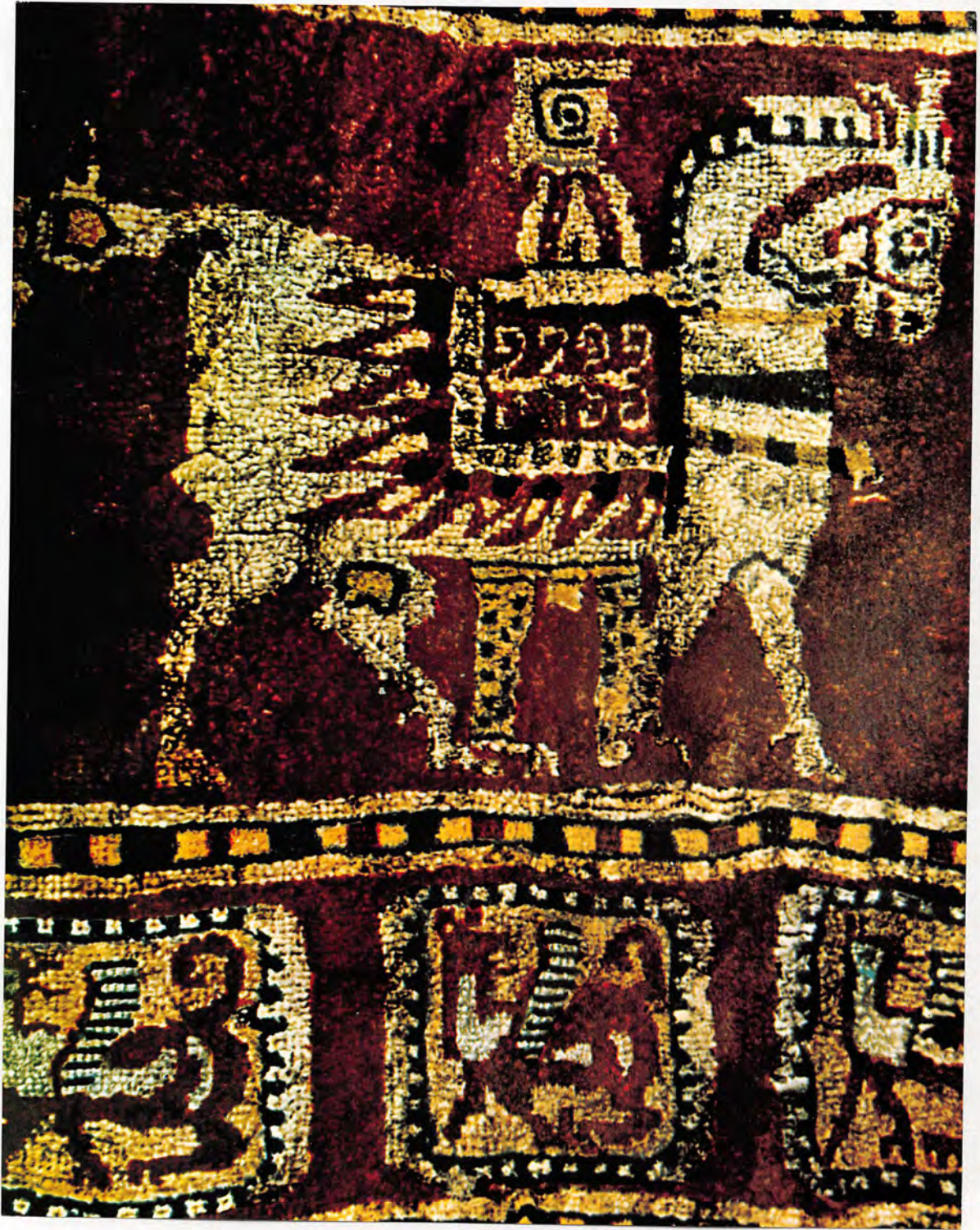
لوحة ٢٨٠ بجرام : عاج  
منحوت . القرن الأول - الثاني  
الميلادي . بإذن من متحف كابول .



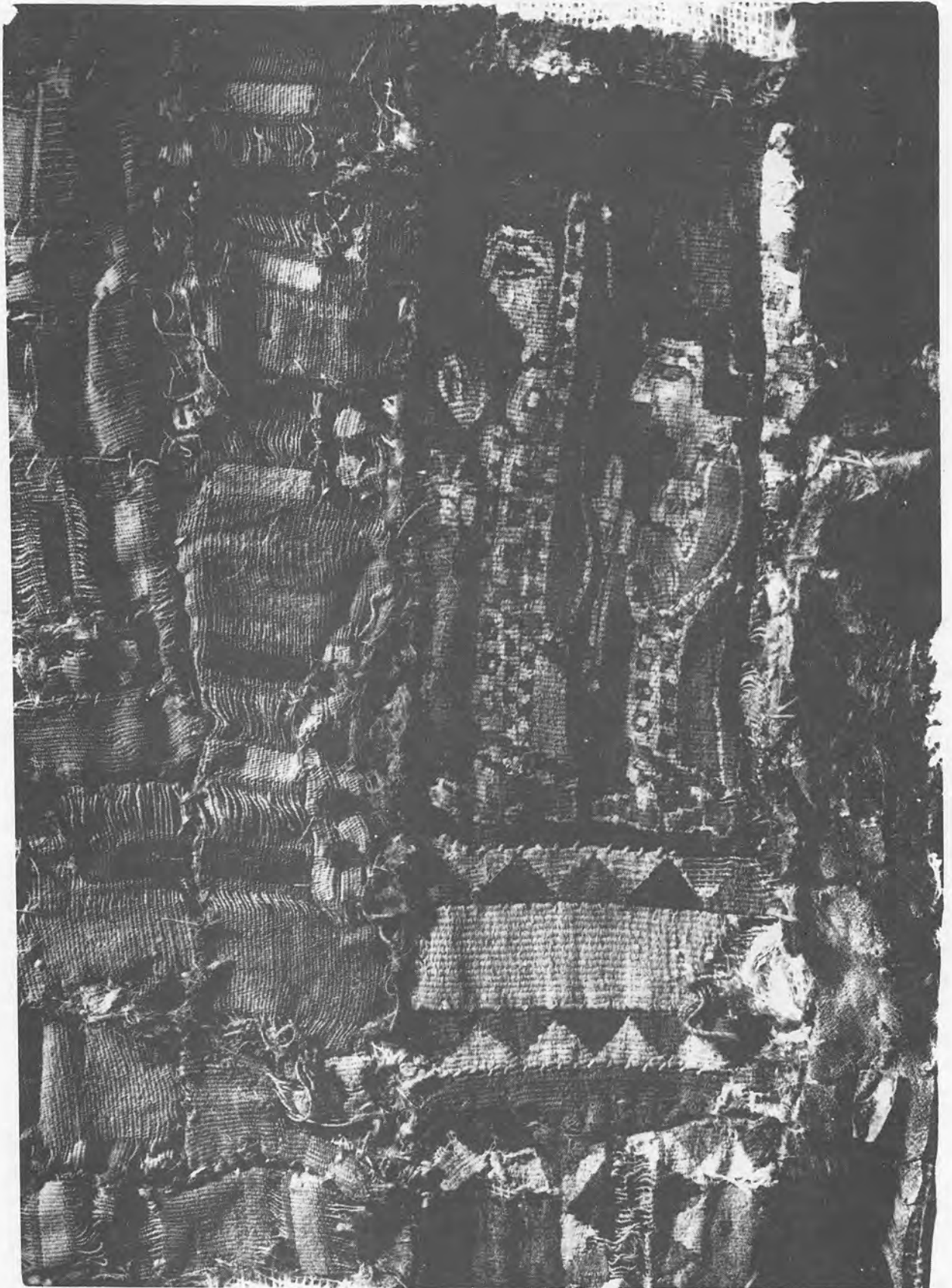


لوحة ٢٨٢ سجادة مستنسخة في كاشان لأصل أمخيني . القرن الثالث ق.م . عثر عليها في بازيريك بجنوب سيبيريا .





لوحة ٢٨٣ تفصيل من اللوحة السابقة . موكبان من الفرسان والأيل . بإذن من متحف الإرميتاج بلننجراد .



لوحة ٢٨٤ فن فارسي . ألتاي . نسيج مرسم من الصوف : سيدات يقدمن القرابين أمام مذبح النار . القرن الرابع — الثالث ق.م . باذن من متحف الإرميتاج .



لوحة ٢٨٥ فن سكودي . ألتاي :  
جريفون يفترس تيسا . من الصوف .  
القرن الرابع - الثالث ق.م . بإذن  
من متحف الإرميتاج .



لوحة ٢٨٦ فن سكودي . ألتاي :  
رأس وعل داخل فك جريفون من  
الخشب والجلد . القرن الرابع -  
الثالث ق.م . بإذن من متحف  
الإرميتاج .

# فن الساسانيين



## نشأة الدولة الساسانية

**يكاد** المؤرخون المهتمون بنشأة صناعة الحرير في إيران يجمعون على أنها نشأت بها قبل عهد شاپور الثاني . وكان لإنتاج الحرير ونسجه أهمية جوهرية في الاقتصاد الإيراني اتصلت من عهد الساسانيين إلى عهد الصفويين<sup>(٩٠)</sup> ، حتى إن شلات الحرير كانت تقوم مقام العملة فيما بين عامي ٣٣٦ و ١٣٨٧ وتباع بالوزن مثل الفضة . وكان للساسانيين على العكس من إيران البارثية ذات النظام الإقطاعي دستور وسياسة فيزيوقراطية<sup>(٩١)</sup> شديدة الشبه بالفيزيوقراطية الصينية القديمة .

وفي نهاية القرن الثاني الميلادي أسس آل ساسان صناعة تربية دودة القز في جنوب فارس حيث كانت أجور الأيدي العاملة منخفضة ، وما لبث أن جمع ساسان وأسرته ثروة ضخمة ، فالتفوا حول نبلاء القز الإقطاعيين ، وتزوج أحد شباب آل ساسان من إحدى بنات أمير اصطخر ، ورزق بمولود سماه أردشير ورث عن أهل أبيه كفاءتهم الاقتصادية وعن أهل أمه مواهبهم الحربية . وكان أردشير طموحا قاسيا تخلص من أشقائه وإخوته وأبناء عمومته الواحد تلو الآخر بأساليب شتى ، واستغل ثروة آل ساسان أحسن استغلال ، تلك الغروة التي تراكمت من ازدهار تجارتهم عبر قرن من الزمان ، كما أفاد من التنظيم الإقطاعي الصارم الذي سنّه جدّه لأمه المدعو بابك . وهكذا لعب المال والسيكولوجية والدبلوماسية الأدوار الرئيسية في تحقيق أطماعه ، فقد استطاع بسلطان المال أن يخضع من أمراء الإقطاع عددا يتراوح بين ستين وتسعين أميراً بما فهم آخر الملوك البارثيين ، وضمن بذلك أيضاً ولاء العمال الذين كانوا يتعهدون دود القز وصناعة الحرير مقابل أجر زهيد . وقد روج آل ساسان عن أنفسهم قصة

(٩٠) الصفويون أسرة إيرانية حاكمة (أواخر القرن ١٥ - ١٧٣٧) مؤسسها إسماعيل الصفوي الذي مد سلطانه على أذربيجان والعراق وسائر بلاد الفرس وقضى على مذهب السنّة وجعل الشيعة المذهب الرسمي في فارس .

(٩١) الفيزيوقراطية هو مذهب الاقتصاديين في فرنسا في منتصف القرن ١٨ الذين يعتبرون الزراعة هي مصدر الغروة الوحيد .

السلطان وحاشيته ، بل عن إيمان بالخلاص على يد مخلص مثالي هو المسيح أو بوذا أو ميثرا ، فقد كان إنتاجهم يعكس طابع الإيمان لا طابع الاستسلام والإكراه . ولم يكن غريبا أن تسمى الكنيسة في أوروبا إلى اقتناء ذلك الحرير ، وهو أنسب الأقمشة للرفات القديسين المسيحيين ، وبقي ذلك النسيج الحريري الذي بدأه الساسانيون له مشتروه التقليديون عهد الإسلام من عاشقى الترف والجمال من حكام المسلمين وتجارهم وميسوري الحال منهم . وكان الإيرانيون يخلطون خيوط الحرير بصوف الماعز ، ثم نقلوا عن الهند بضع حليات زخرفية كالطاووس والفيل والنخيل الهندي والليمون ، كما انتعشت زخارفهم الإيرانية القديمة من جديد في رسوم الديك والأسد والتيس وطاقر السيمرغ الذي كان رمزا للهند وسكوديا ماين عامي ٥٨ ، ٢٠٠ ق . م .

وعلى حين كان يمتّ البارثيون الأشكانيون بصلات القرى إلى ملوك القرم وإلى أمراء السكّابهلوا وإلى أمراء الكوشانيين وكشغر وختان وملوك الحيرة والحضر وأرمينيا ، كان الساسانيون ينتسبون إلى أصول من العوام . وقبل أن يعهد شاپور الثاني إلى الكاهن خوركبود بأن يدّس علاقة تضيضي على أسرته نسباً رفيعاً ينتهي بها إلى الأخميين وداريوش الثالث ، كان آل ساسان قانعين بإصهارهم إلى بابل كما قدمت . ولما كان الترويج للسلع هو ديدن التجار ، فقد اتخذوه نهجا في إدارة شعون ملكهم ، حتى انعكس ذلك في العديد من لوحات النقش البارز التي خلفوها في كل مكان بفارس وميديا [كرمان شاه] ، والتي لم تخرج عن كونها صفحات من الدعاية السياسية المحفورة فوق الصخر . وفي الوقت الذي كانوا يروجون فيه لأنفسهم مضوا يمحون الآثار التي خلفها البارثيون الأشكانيون خلال خمسة قرون ، وأتوا على سائر الوثائق والحوليات البارثية ، وحطموا كل اللوحات الطين المحروق التي تروى انتصاراتهم وطقوس عقيدتهم مستخدمين في هذا السبيل دعاة رسميين يُعدّ الموبد كارتير نموذجا لهم . غير أن النقش الذي بدأ منذ عهد أردشير الأول مؤسس فيروزاباد ، ثم شاع على نطاق واسع عهد شاپور الأول مؤسس مدينة بيشاپور بفارسستان تلبّث فجأة خلال حكم شاپور الثاني حين جعل كارتير من الموازنة طبقة خاصة ، مؤسسا بذلك كنيسة مزدية أخذت تبتدع في الأوستا وتفسرها ، كما خلقت أدبا قانونيا ودينيا بلغة فارسستان الپهلوية ، وهي لغة مختلفة عن اللهجة الپهلوية التي كان يتكلمها الشعب الپارثي .

## الفن الساساني

تحت حكم أردشير مؤسس الأسرة [ ٢٢٤ — ٢٤١ م ]

**بني أردشير** [أرتخشتر] عاصمته على شكل دائرة وفقا لتقاليد الإيانيين ( لوحة ٢٨٧ ) ، وأقام وسطها بيتا للنار من الحجر ، وكان الإيانيون يشيدونه من اللبن . وشيد قصره خارج المدينة من الحجر غير المنحوت والمونة واستخدم طبقة الجص لتليسها وتغطية ماها من فجوات وتسوية ما يبرز منها من نتوءات ، وهي تقنية معمارية مازالت مستخدمة بإيران حتى الآن . والتأم في القصر جناحاه المنفصلان من قبل في الفن المعماري الأحميني ، وهما قاعة «الأبادانا» التي انبثق عنها الإيوان المفتوح على الخارج مكونة مع القاعات المربعة التي تليها الجناح الرسمي من القصر ، ثم جناح المعيشة الذي لم يزد على بضع حجرات حول صحن داخلي . وأمر أردشير بتخليد المعارك الفاصلة التي خاضها للفوز بعرش إيران بنقشها على الصخرة المشرفة على الممر الضيق المفضي إلى مدينة فيروزاباد ، والتي تعد أقدم النقوش الصخرية الساسانية وأروعها ( لوحة ٢٨٩ ) . ويضم هذا النقش ست شخصيات هي أردشير وهو يُجَنِّدُ أرتبان الخامس من فوق جواده برمح الطويل ، ثم شاپور<sup>(٩٢)</sup> بن أردشير وهو يصيب وزير الملك الإياني برمح ويسقطه عن جواده أيضا ( لوحة ٢٩٠ ) ، ثم تابع ساساني وهو يقبض على عنق تابع پارثي ( لوحة ٢٩١ ) .

وقد جنح الفنان إلى التعبير عن الشخصيات بالرمز إليها عن طريق الثياب والأسلحة ، لعجزه عن تصوير سمات الوجه فجعله في وضعة جانبية ، وشكّل تصفيفة الشعر على هيئة كرة تعلو تاج الأسرة ، وهي الكرة التي أصبح يشدها فيما بعد شريط من النسيج اختلف لونه باختلاف العصور ، كما أرسل

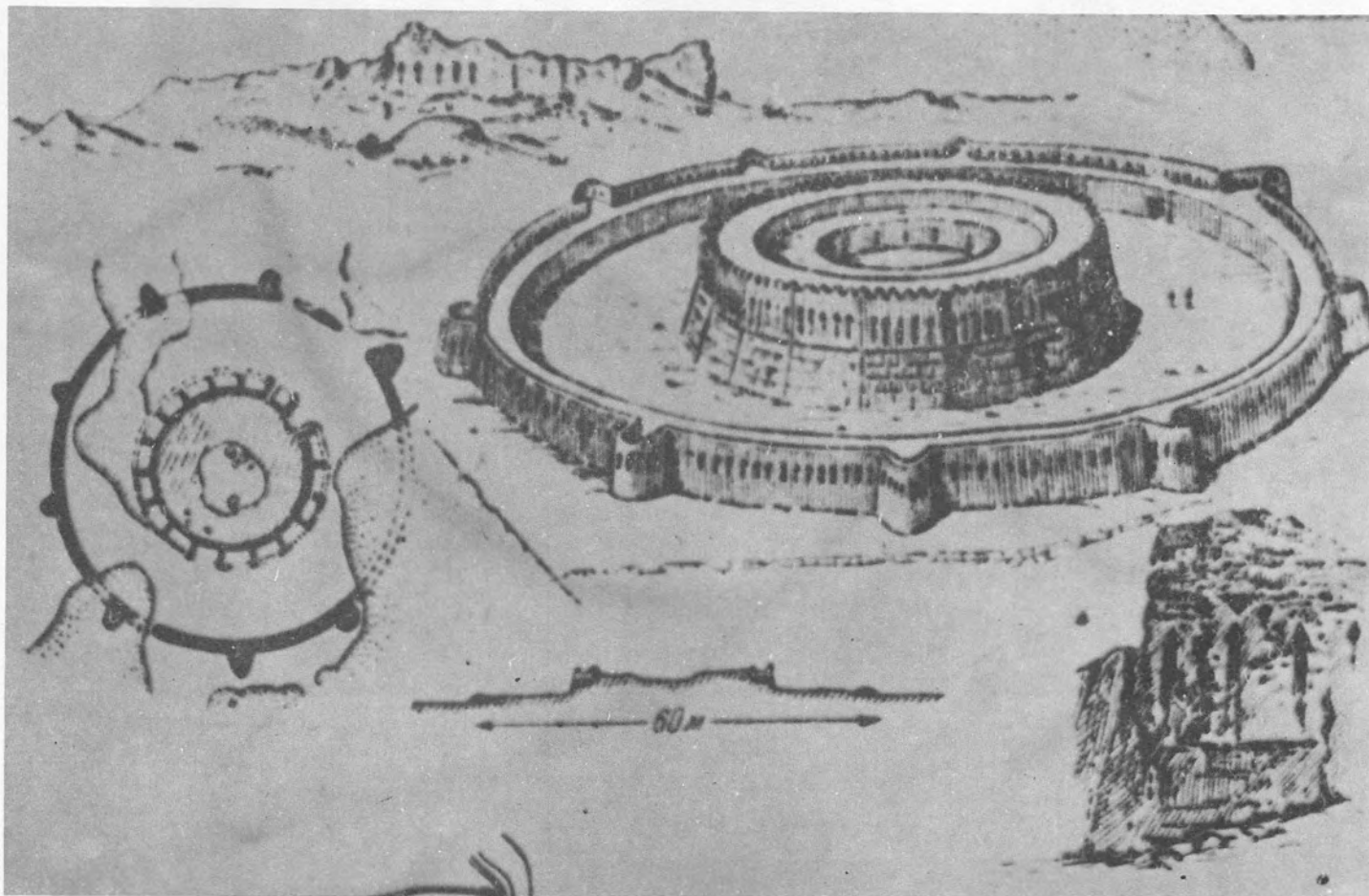
(٩٢) الأصل شاه بور أي ابن الشاه وهو عادة ولي العهد .



بقية الشعر ينساب متموجا فوق الكتفين مع طرف شريط التاج ، وجعل اللحية مدبية وزين الصدر بعقد من اللؤلؤ وصور الفرسان طائرين في ركضهم على نهج الفن الأخميني في بعده عن الواقعية . غير أن الجمود يبدو واضحا في النقش الذي وضع أساسا لتصوير الملك منتصرا في جميع معارك الحرب والصيد التي يخوضها . وفي نقش آخر لكبير الآلهة أهور مزدا وهو يتوج أردشير نجل الملك مصورا بنفس حجم الإله لاييمزه غير تاجه وأبنائه الذين يقفون وراءه ( لوحة ٢٩٢ ) . لقد عاد الفن الساساني إلى التقاليد الإيرانية السابقة على تقاليد البارثيين ، وحرص على جوهر الفن الإيراني برغم ما أضافه من عناصر ، وأغلب الظن أن المثال الذي أنجز هذا النقش حاكي فيه نقش الملك البارثي جوتارزيس الثاني المحفور على صخرة بيستون .

وقد أعاد الساسانيون نقش مشهد تنصيب أردشير في مدينة نقش رسم ليؤكدوا ارتباطهم بالأخمينيين وإن كانوا قد صوروا الإله أهورا مزدا والملك هنا على ظهري جوادين ، كما جعلوا الإله في صورة أكثر آدمية ( لوحة ٢٩٣ ) . ويتميز هذا النقش عن سابقه بأن الإله يمسك في يده اليسرى حزمة الأغصان التي ترمز إلى الطبيعة النباتية عند تقديم القرбан .

وفي نقش آخر ( لوحة ٢٩٤ ) تبدو القوة الجسمانية للجوادين ، ومع ذلك فهما جد ضئيلين إذا قيسا بقامتي الفارسين ، وقد وقع خصما الإله والملك تحت حوافر الجوادين مهزومين : أهرمين روح الشر تطل منه الثعابين وأرتبان الخامس آخر الملوك البارثيين . ويكشف لنا هذا النقش عن مدى تقدم فن النقش الشديد البروز الذي تجلّت فيه الروح «التشكيلية» ، مما يوحي بأنه قد يكون ثمة تأثير يوناني عليها . غير أننا نلاحظ عند تحليل المشهد أن ثمة قصورا في التزام الواقعية ، إذ لم يوفق الفنان في تمثيل الثياب فإذا الشخصوص تبدو وكأنها ترتدي جلودا مسحاء . وحفاظا من المثال على التقليد الأخميني نرى اسمي الإله والملك مسجلين باللغات الثلاث : اليونانية والپهلوية الساسانية والپهلوية البارثية . ولقد أكد الساسانيون بعودتهم إلى إقامة المباني الحجرية ، وتصوير مشهد التنصيب والنقش باللغات الثلاث أنهم بالفعل خلفاء قورش وداريوش ، وإن أبقوا على بعض العناصر البارثية الخالصة مثل القبة والقبة .

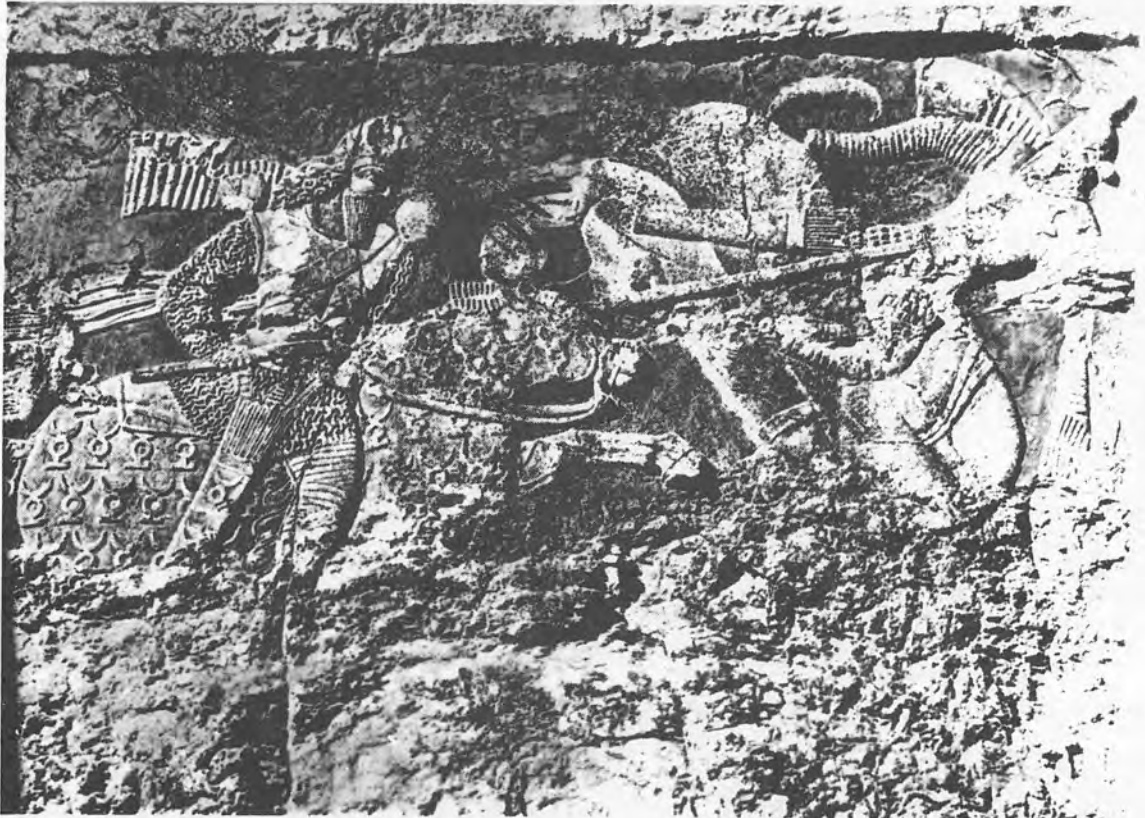


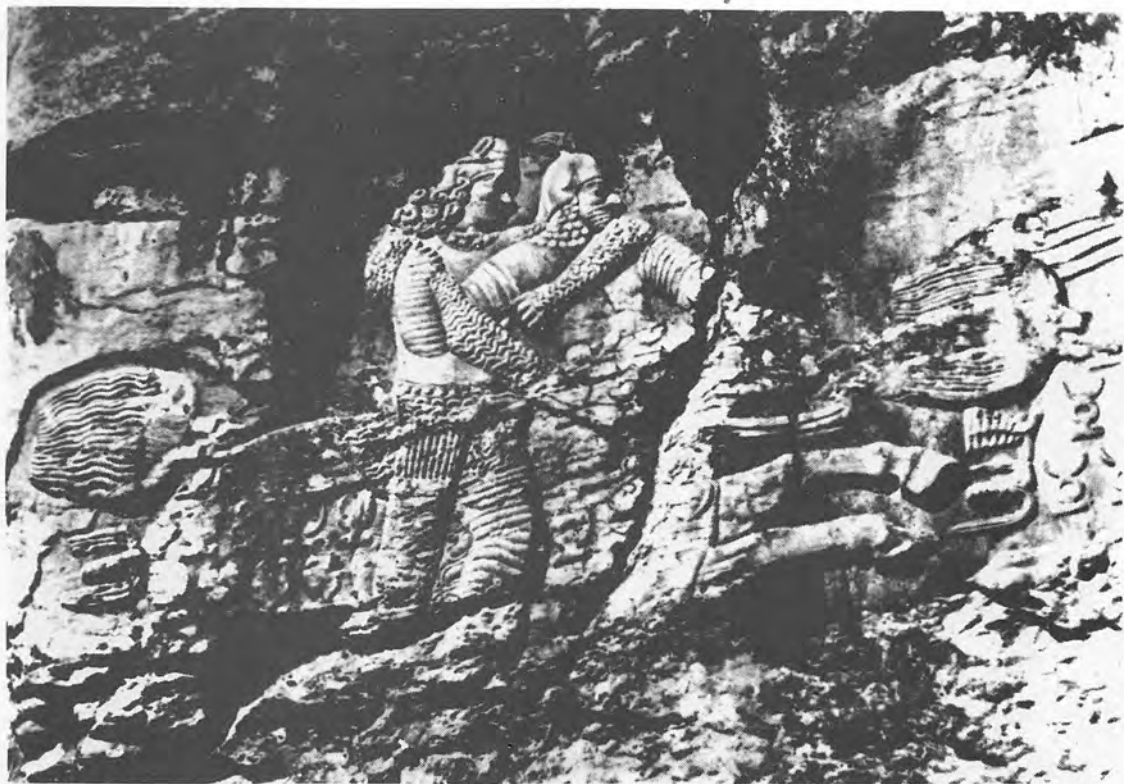
لوحة ٢٨٧ مدينة ساسانية دائرية الشكل .



لوحة ٢٨٩ فن ساساني . فيروزاباد [جنوب غرب شيراز] : انتصار أردشير على أرتبان الخامس . الربع الثاني من القرن الثالث الميلادي .

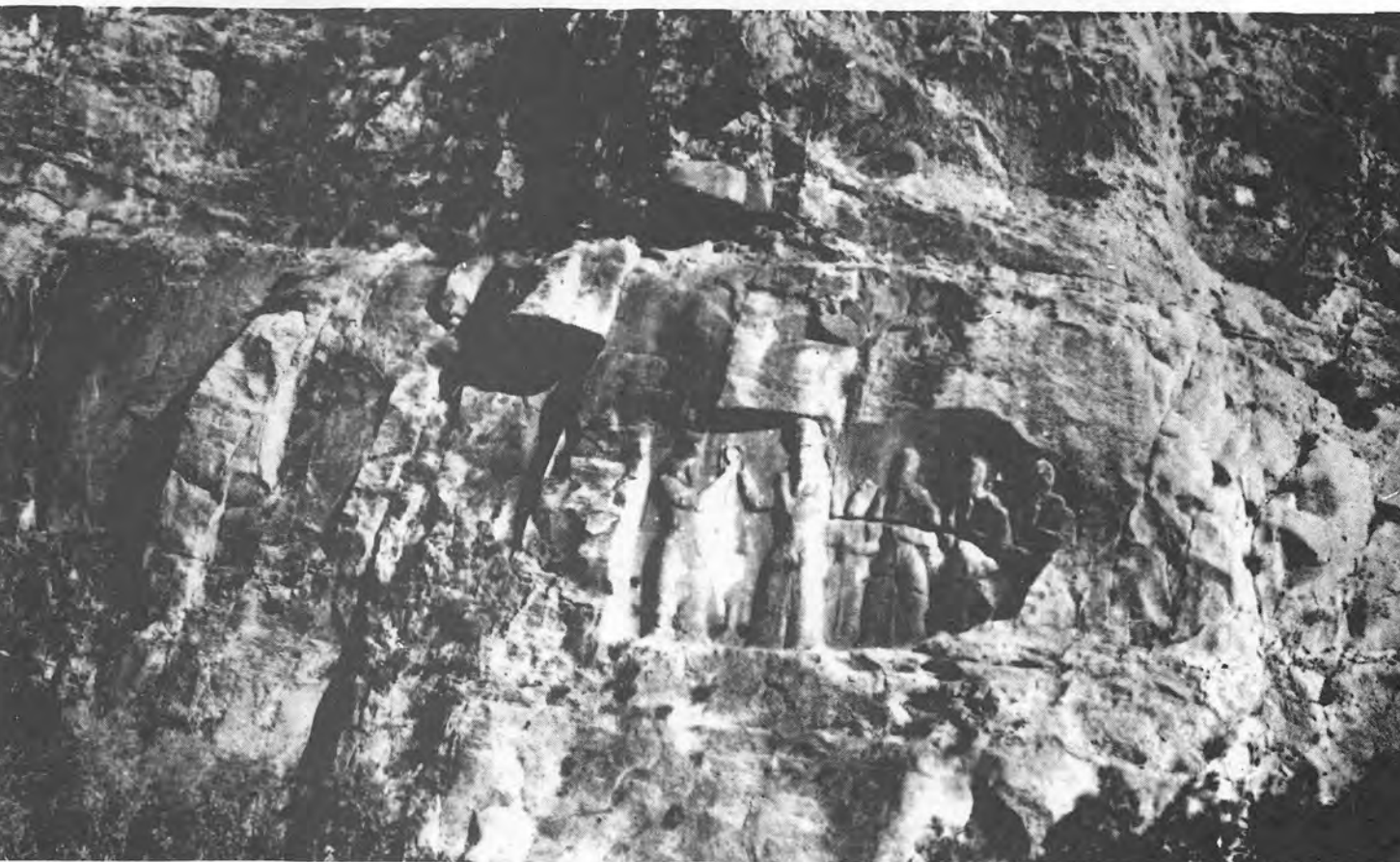
لوحة ٢٩٠ فيروزاباد : شاپور بن أردشير يصيب برمح الوزير البارقي ويسقطه عن جواده .

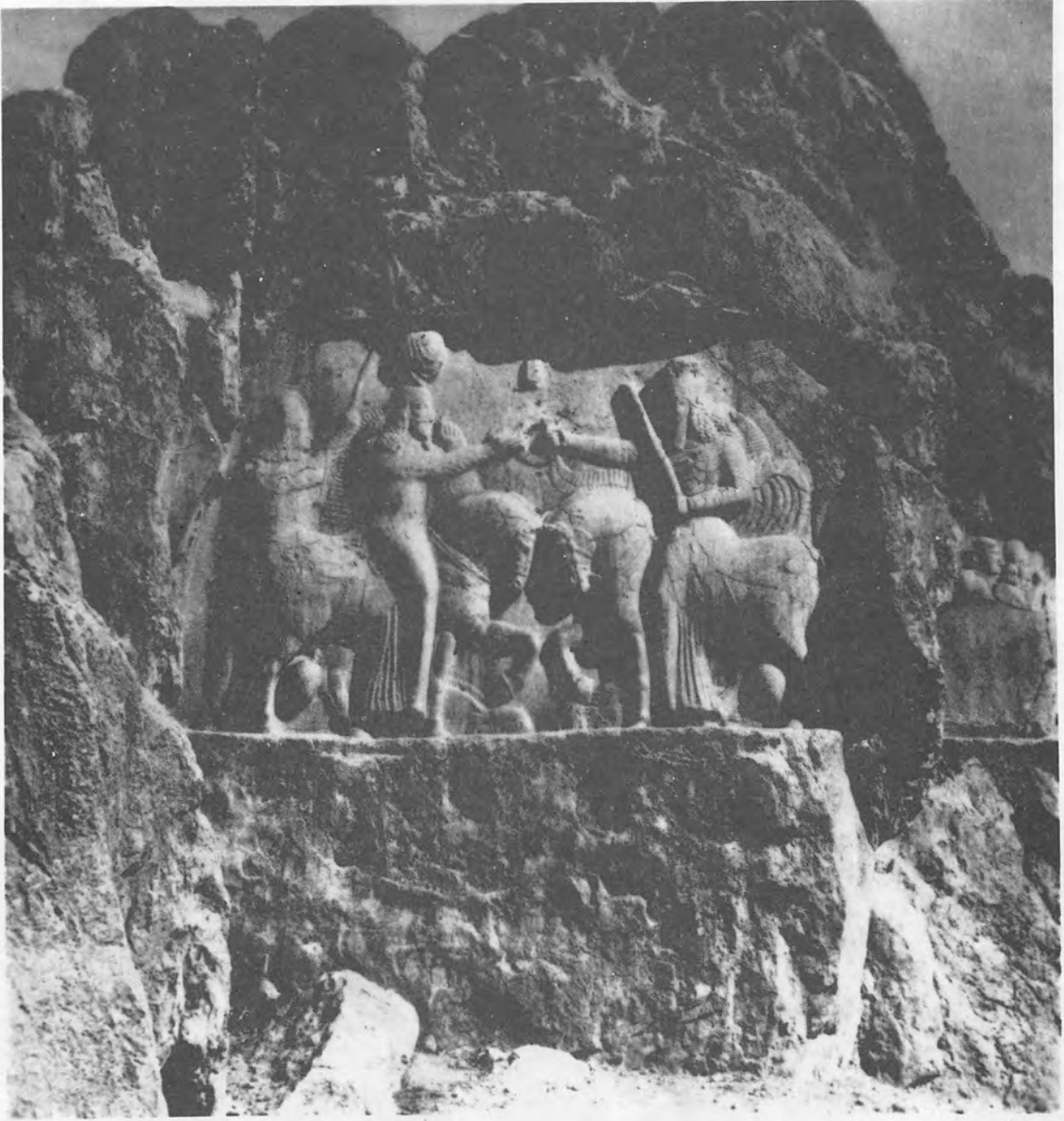




لوحة ٢٩١ فيروزآباد : انتصار أردشير الأول . تابع ساساني يقبض على عنق تابع بارتي .

لوحة ٢٩٢ فن ساساني . فيروزآباد : كبير الآلهة أهور مزدا يتوج أردشير الأول .





لوحة ٢٩٣ فن ساساني . نقش رستم : مشهد تنصيب أردشير الأول بواسطة الإله أهورا مزدا . الربع الثاني من القرن الثالث الميلادي .



لوحة ٢٩٤ نقش رسم . تنصيب أردشير الأول . القرن الثالث الميلادي . تصوير كاتب هذه السطور .

## تطور الفن الساساني تحت حكم شاپور الأول [النصف الثاني من القرن الثالث]

**وقد** أقام شاپور بن أردشير لنفسه قصرا عظيما وفق الطراز البارثي في العاصمة الكلدانية المدائن «طيسفون» قرب بغداد<sup>(٩٣)</sup> ، وسط مدينة ذات تخطيط دائري . وقبل أن يتقوّض هذا المبنى خلال الحرب العالمية الأولى أثناء الحملة البريطانية لغزو العراق كان الجزء الرئيسي مازال قائما ، يدل على ذلك تلك الصورة الفوتوغرافية التي صورها له عام ١٨٨٠ «ديو لافوا» . وقد أعجب الخلفاء المسلمون في بغداد فيما بعد بقصر المدائن حتى غدت زيارته إحدى النزعات المحببة إليهم .

وكان ميتريدات الأول هو الذي جعل من طيسفون في عام ١٣٨م عاصمة لكلدانيا البارثية ، فقد شيد الأشكانيون قصرا من اللبن توسّع فيه شاپور الأول معيدا بناءه ، وجاء خسرو الثاني ( ٥٩٠ — ٦٢٨ ) فأعاد ترميم الواجهة . وقد امتد القصر فوق قطعة من الأرض طولها مائة متر وعشرة وعرضها مائة متر شُطرت نصفين . واحتوت الواجهة على أربعة طوابق نسّقت في إيقاع بديع بواسطة كوات مقفلة تحيط بها أعمدة ملتصقة . وانتصب وسط الواجهة قبو الإيوان الكبير الذي يبلغ ارتفاعه سبعة وثلاثين مترا وطوله ثلاثة وأربعين مترا وعرضه سبعة وعشرين مترا .

وقد أنشئ هذا القبو في الفراغ مباشرة بطريقة فذّة — دون الحاجة إلى صلبات خشبية — بواسطة صفوف العقود المائلة قليلا إلى الخلف ، وبذلك غدا كل صف سندا للصف الذي يليه . وقدما استخدم المصريون هذه الطريقة منذ عهد الأسرة الثالثة ، وأبرز نموذج لها مخازن غلال الرامسيوم بالأقصر عهد الدولة الحديثة ، كما عرفها البابليون والأشوريون ، وخلف هذا الإيوان تقع قاعة العرش المربعة المسقط .

(٩٣) بغ داد أى عطية الإله .

وقد زين قصر طيسفون بقوالب من الجص مزينة بنقوش بارزة ، ونقرأ على إحداها كلمة إيران بالحروف الپهلوية التي كانت مصدر الوحي في تشكيل الخط الكوفي بعد ذلك ( لوحات ٢٩٥ ، ٢٩٦ ) .

ومالٲ شاپور أن أقام مدينة ثانية أطلق عليها اسم شاپور الجميلة «بشاپور» ولم يختر لها شكل الدائرة الذي اشتهرت به المدن الپارثية وإنما جعلها مستطيلة مقسمة إلى أحياء منفصلة ذات شوارع مستقيمة متقاطعة على غرار التخطيط الإغريقي الذي اشتهر به المهندس هيبوداموس . وخصص أحد أحيائها للمباني الملكية التي أقامها على نمط النظام الإيراني القديم المتميز بروعة تصميمه وجماله لاسيما القاعة الكبرى المشيدة من حجر الدبش داخل المربع الذي يتوسط القصر الملكي والذي يبلغ طول ضلعه اثنين وعشرين مترا ، وتحمل أضلاعه الأربعة قبة يزيد ارتفاعها على خمسة وعشرين مترا ، تحيط به إيوانات أربعة لكل منها ثلاث قبوات ، وهو التصميم الذي شاع في نيزا وأشور . ويبلغ عدد الكوى التي تزين جدران القاعة أربعة وستين كوة تحتشد بالرخارف الإغريقية المتكسرة ذات الزوايا المستقيمة ، كما تكسو توريقات الأكانثا أسطح القبوات وتتألق جميعا بألوانها الحمراء والصفراء والبيضاء المسرفة ( لوحة ٢٩٧ ، ٢٩٨ ) . واكتست أرضية الإيوان الثلاثي الذي يشرف على فناء فسح يقع شرق القاعة الكبرى ببلاطات حجرية محاطة بلوحات من الفسيفساء . ويبدو أن لوحات الفسيفساء هذه ، والتي كانت تضي على القاعة بهجة تتفق وبذخ اللوائم التي تقام فيها ، قد نقشت في محاكاة للسجاد الإيراني في ذلك العصر بما ضمته من عناصر إيرانية ورومانية . وصورت هذه اللوحات عددا من أقارب الملك والمقربين إليه ونافحات الناي وعازفات القيثارة وناظمات الأكاليل وقد أخفين أجزاء من أجسادهن بوشاح رقيق ( لوحة ٢٩٩ ) وسيدات البلاط إما واقفات أو متكآت على الوسائد ( لوحة ٣٠٠ ) . وإذا كان فن تشكيل لوحات الفسيفساء قد نشأ في العالم الغربي وانتشر في الامبراطورية الرومانية فإن الفنان الإيراني الذي استوحى لوحات أنطاكية وشمال افريقية في لوحات شاپور قد صبغها بالطابع الإيراني الذي يبدو في الملامح والثياب وهيئة الجلوس وتصيفة الشعر . وتميزت مدينة شاپور الجميلة بالتنظيم والتنسيق ، إذ قُسمت إلى أحياء أقام الأمراء والأشراف في بعضها قصورا تموطها الحدائق ، وارتفع عند تقاطع الطريقين الرئيسيين بها نصب تذكاري كان يعلوه تمثال الملك شاپور ويقوم إلى جانبه هيكلان للنار .

وسجل شاپور الأول انتصاراته على جيوش الرومان في نقوش خمسة رائعة ، أقيم الأول منها على الضفة اليسرى من نهر شاپور ( لوحة ٣٠١ ) ، وهو الذي يسجل انتصاراته الثلاثة على الأباطرة جورديان الثالث وفيليب العربي وقاليريانوس حيث يتوسط أعداءه ممتطيا جواده ، أضخم حجما من بقية الشخصوس . ويركع فيليب العربي أمام قدمي الملك يطلب الأمان ، بينما يمسك الملك المنتصر بيد قاليريانوس الختفية داخل كفه إشارة الى الخضوع والاحترام .

وثمة نص منحوت ( رصيفة أو جامعة ) بالغ الروعة بمتحف دار الكتب القومية بباريس يُعدّ تكرارا



لموضوع النقش السابق ، يمسك فيه شاپور بيد فاليريانوس الذى شهر يده الأخرى سيفه ( لوحة ٣٠٢ ) .

ويظهر أثر الفن المتأغرق في عدة نقوش لانتصارات شاپور يتضمن أولها صورة الطفل الذى يمثل رسولا ملائكيا محلقا فوق الرؤوس حاملا للملك المنتصر تاجا شبيها بالتاج الذى يقدمه أهورا — مزدا في نقوش تنصيب الملك . كما نلمح التأثير الغربي أيضا في تخفّف الأجساد من بعض جمودها التقليدي ، وفي نبضها بالحياة ، وتجرد الثياب من الخطوط البيّنة والمتوازية ، وفي تعبيرها عن الحركة . كذلك بسط الفنان الحدث التاريخي مكثفيا بإبراز فكرة انتصار الملك دون اهتمام بتحديد زمان أو مكان . وثانيهما نقش فوق سطح مقعر قائم في مواجهة النقش الأول ، ويبرز في وسطه مشهد انتصار شاپور على أعدائه الثلاثة في أربعة صفوف أفقية تشير إلى أهمية الحدث ، وتجمع بين الفرسان النبلاء والإيرانيين حاملين الغنائم وأسرى الرومان ( لوحة ٣٠٣ ) .

وينفرد النقش الثالث بأمر نادر وهو الجمع بين النصر والتنصيب ، ونرى فيه الإله وشاپور على جواديهما وسنابك جواد الإله تدوس رأس أهرمين إله الشر ، وجواد شاپور واقفا على جسد الامبراطور الروماني جورديان وقد ركع الامبراطور فيليب العربي الأصل بين الفارسين يطلب الرحمة والأمان ( لوحة ٣٠٤ ) .

وجاء النقش الرابع أسفل مقبرة داريوش بمدينة «نقش رستم» ( لوحة ٣٠٥ أ ) دالا على تشابه أعمال شاپور الحربية بأعمال سلفه العظيم . ويمثل هذا النقش فيليب العربي وهو يستعطف الملك الذى أمسك بذراعى الامبراطور فاليريانوس المرفوعتين وقد أخفى إحدى يديه في كمّه تعبيرا عن احترامه وخضوعه . والغريب أن جورديان لم يظهر في هذا النقش الذى أثقله الجمود ، كما بدت الثياب التى حرّكتها الريح في اتجاهين متعارضين غير موحية بالحركة ولا ترفّ بالحياة ( لوحة ٣٠٥ ب ) .

وقد حاول الفنان في النقش الخامس صفّ نبلاء الفرس وأسرى الرومان في شكل هرمي متدرج أمام الملك المنتصر وأعدائه المهزومين ، كى يتخلص من الأسلوب التقليدي في توزيع الأشخاص على صفوف ( لوحة ٣٠٦ ) .

وفي أحد الكهوف المنتشرة عند طرف الجبل القريب من مدينة بيشاپور تمثال ضخّم لشاپور الأول ارتفاعه سبعة أمتار ، نُحت في عمود صخري ممتد بين السقف والأرض ( لوحة ٣٠٧ أ ، ب ) . وقد نجح المثال في التعبير عن جبروت شاپور وقوته الخارقة ، كما أضفى على ملامحه صفاء يوحى بالخضوع له ، بيد أن كتلة صخرية سقطت على كعبي التمثال فحطمتها ، وانفصل التاج من السقف وإن ظل الرأس ملتصقا بالجسد لأن الفنان كان قد حرص على أن يشدّ الرأس بالجسد بشرائط طويلة عريضة تتدلى من التاج الملكي في قمة الرأس إلى أسفل الظهر . والتمثال في مجموعه تنقصه الحيوية ويعوزه التناسق الداخلي بين عضلات وجهه الصارمة وعينيّه المفتوحتين ، وهو يبدو برغم وضعته الرأسية أشبه بملك

ميت بُعث من قبره . وتدفع سيرة «ماني» رفيق شاپور<sup>(٩٤)</sup> ، التي عُثر عليها في رمال صحراء مصر مكتوبة باللغة القبطية إلى الاعتقاد بأن هذا الكهف هو مقبرة شاپور لأنه قضى نحبه في مدينته المحبوبة إثر إصابته بمرض أودى بحياته . وثمة نقش بديع آخر في نقش رجب قرب اصطخر [تخت طاووس] يمثّل الملك شاپور الأول وهو يتقلد الرمز الملكي للإله أهورا مزدا لا يقل عن النقوش السابقة في جلاله وهيبته ( لوحة ٣٠٨ ) .

وما كاد القرن الثالث يوشك على الأفول حتى أقلع الفنان الساساني عن تسجيل مشاهد التنصيب فوق الجياد في مجال النقش البارز ، وجاء مشهد تنصيب الملك نرسي بن شاپور الأول ليؤكد هذا الاتجاه ( لوحة ٣٠٩ ) . فنرى نرسي في نقش رستم وإلى جواره ابنه ومن ورائه تابع يتناول تاج الملك من يد الإلهة أنهايتا . وتبدو الأجسام في هذا النقش أشد اكتنازا عن ذي قبل ، وتفتقر إلى التناسب بين أحجامها . وكما تزداد الأوضاع جمودا يبالغ الفنان في تسجيل التفاصيل ، ووفقا لقواعد الفن في الشرق القديم تفوق الإلهة الملك حجما ، كما نلمس إفراط الفنان في تشكيل مكاسر ثوبها الطويلة المتموجة المتوازية .

وكان أتباع عقيدة زردشت لا يدفنون موتاهم بل يعرضونهم على الداخا في قمم الجبال ، وبعد أن تلتهم الوحوش والطيور الجارحة لحمهم يجمعون عظامهم في توابيت خاصة حجرية أو خشبية يضعونها في كهوف أو كوى . وقد عُثر على كثير من الكوى التي أعدت كى تودع بها التوابيت المشتملة على العظام في الحقول القريبة من مدينة شاپور الجميلة ، كما عُثر على تابوت صوّرت على جوانبه الآلهة الأربعة : ميترأ مانخ الخلود للموق الذين يبعثون إلى الحياة يقف إلى اليسار في عربته يجرها جوادان مجنحان على الجانب الأول ، وزروان إله الزمان الأبدي على الجانب الثاني ، ثم إله النار ابن «أهورا — مزدا» على الجانب الثالث ، وأخيرا الإلهة أنهايتا على الجانب الرابع ، وقد دل عليها الإناء الذى تمسك به والسمة الظاهرة إلى جانبها ( لوحة ٣١٠ ) .

وكان عهد شاپور الأول عهد انطلاقة للفن ، ففيه مُهدّ الطريق أمام الفنان لكى يبلغ مرتبة الإجادة ، ومع محافظة الفن في عهده على تراث الأجداد وتقاليدهم الفنية فقد أفاد الفنانون من عناصر التجديد الغربية ومن إرشادات الفنانين الرومان الذين وفدوا إلى البلاد ، مع صبغ ذلك كله بالصبغة الإيرانية . ولم يكد بهرام الأول يخلف أباه شاپور على العرش الإيراني حتى بلغ الفن الإيراني عصره الذهبي ، وهو ما يؤكده مشهد تنصيب بهرام الأول في مدينة شاپور الجميلة ، بحركة الإله وهو يقدم التاج ، مع لفطة الملك وهو يمدّ يده ليمسك برمز السلطة وقد اكتست ملامح وجهه بصبغة روحية ، ويتوافق الشخصيتين المتواجهتين ، وبتناسق حجم الجوادين المتقابلين ( لوحة ٣١١ ) . ثم تتألق نقوش أخرى للملك بهرام الثاني تمثله في المشاهد التقليدية وهو فوق عرشه وخلال الصيد أو معارك الحرب .

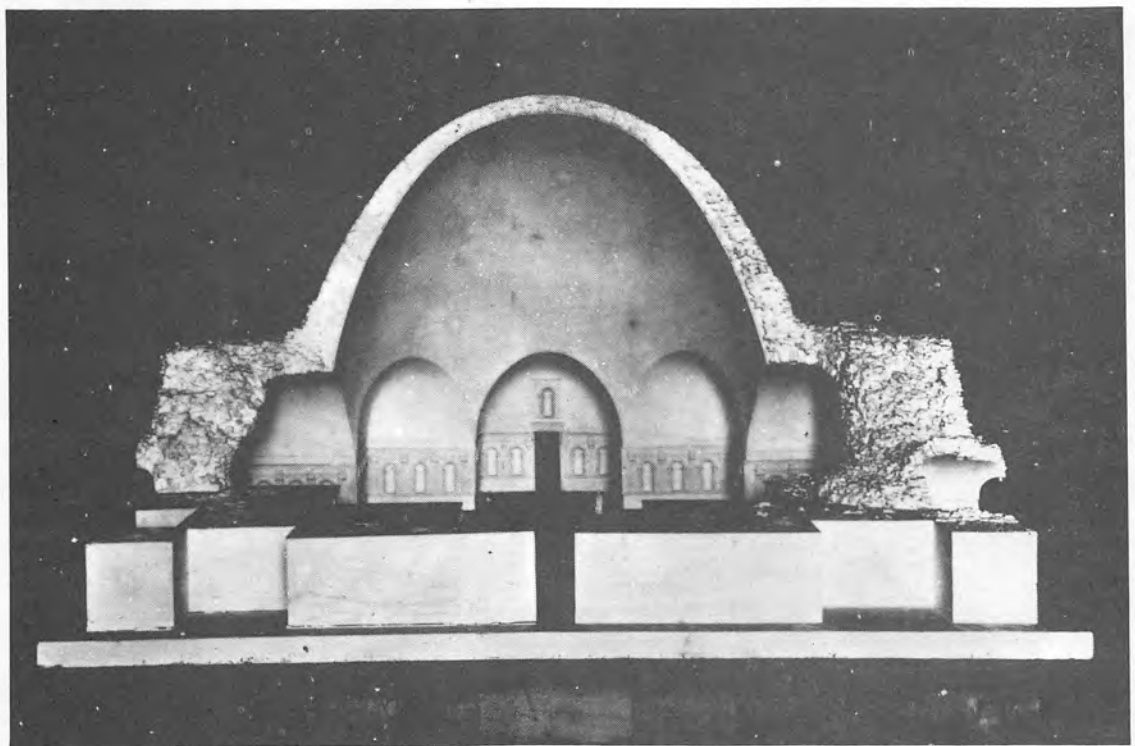
(٩٤) قدم ماني عقيدته المشتملة على عناصر بوذية ومسيحية والكثير من ديانات ما بين النهرين وقد شجعه شاپور على نشر هذه العقيدة كى يسط نفوذه بالتالي على أكبر عدد من الشعوب ، غير أن الموبدة كهنة زردشت خشوا نفوذه فقتلوه .

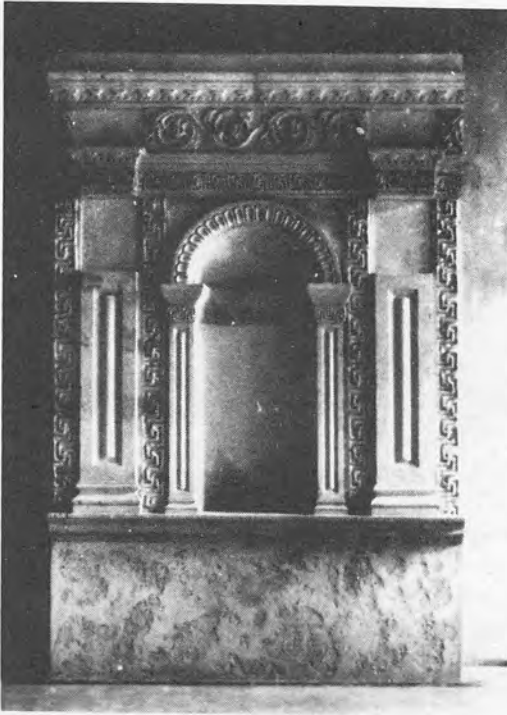
وينفرد الملك بهرام الثاني بين الملوك الساسانيين بالنقوش التي تصوره وسط أسرته ، فنجد من ذلك نقشا له بمدينة نقش رسم ( لوحة ٣١٢ أ ) وهو يدافع عن أسرته وقد هاجمها أسدان ( لوحة ٣١٢ ب ) وقد احتلت الملكة في النقش مكانا متميزا . ونلاحظ أن الفنان يسوّى بين عنقي الرجل والمرأة في الغلظ متجاهلا أن المرأة أدق عنقا ، كما أنا نراه أعجز ما يكون عن تكعيب الثدي ، وعن التوفيق بين جدائل الشعر ، ولعل مكان في متناول يده من أدوات بدائية هو الذى حال بينه وبين بلوغ الكمال .



لوحة ٢٩٥ طيسفون [المدائن] منظر عام لبقايا طاق كسرى [شاپور بن أردشير] . القرن الثالث . م .

لوحة ٢٩٦ بيشابور . نموذج للقاعة الكبرى بقصر بيشابور .





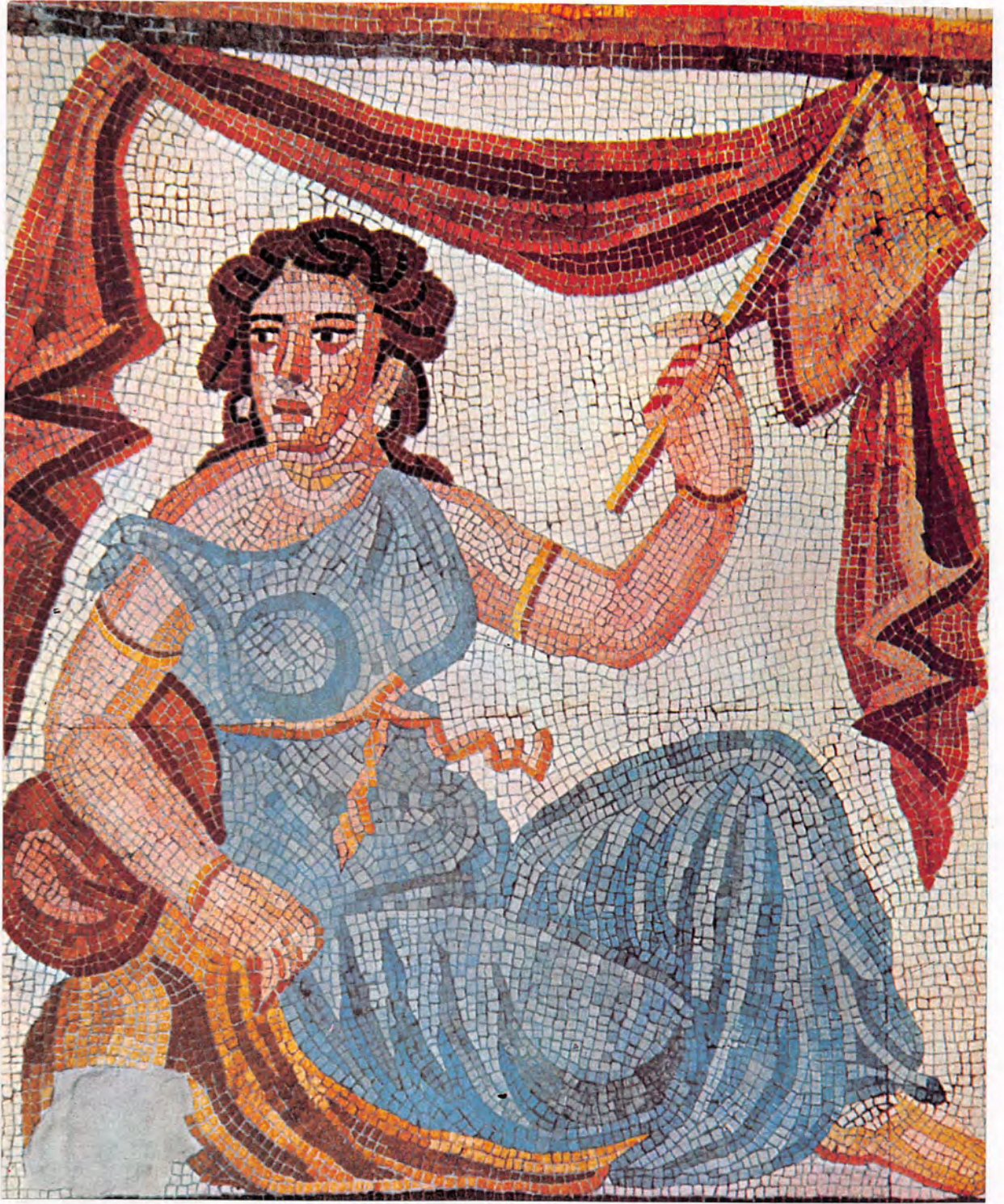
لوحة ٢٩٨ فن ساساني . بيشابور :  
كوة مزينة بنقوش جصية بقاعة  
القصر . بإذن من متحف اللوفر .

لوحة ٢٩٩ فن فارسي روماني .  
بيشابور : عازفة الهارب . فيسفساء .



لوحة ٢٩٧ بيشابور . توريقات  
الأكانتا التي زينت بها أقواس القبوة .  
النصف الثاني من القرن الثالث  
الميلادي .





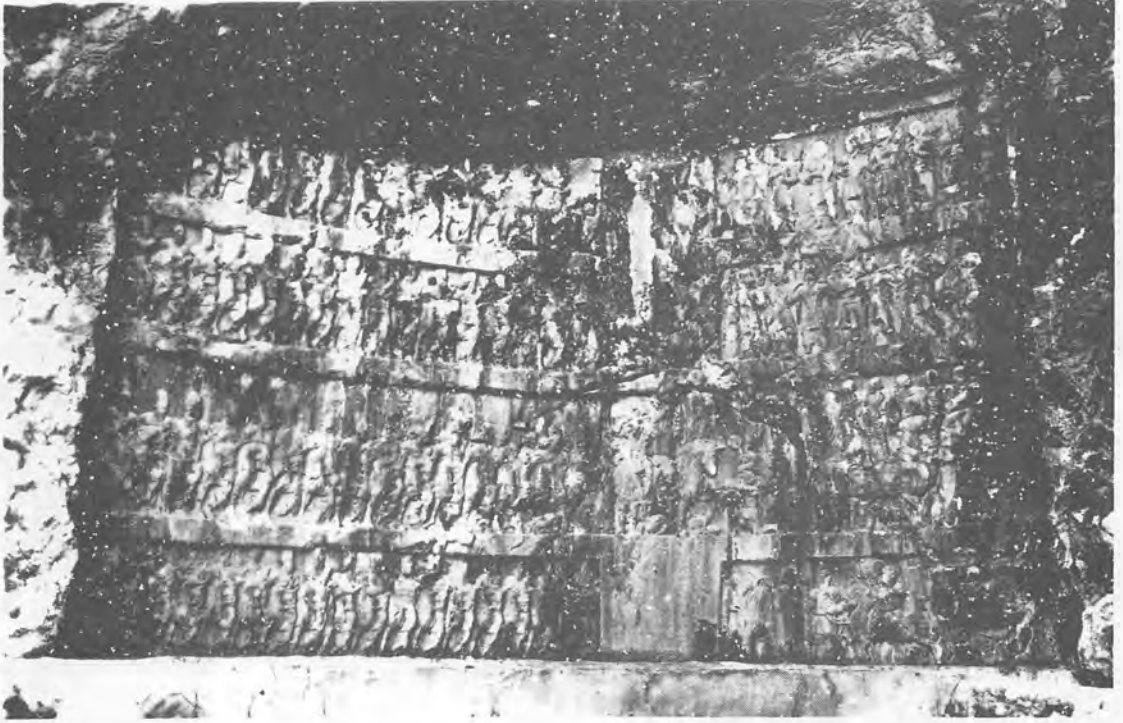
لوحة ٣٠٠ بيشابور : سيدة متكئة على وسادة . فسيفساء . النصف الثاني من القرن الثالث م . ملون .



لوحة ٣٠١ بيشابور : انتصار شاپور الأول .

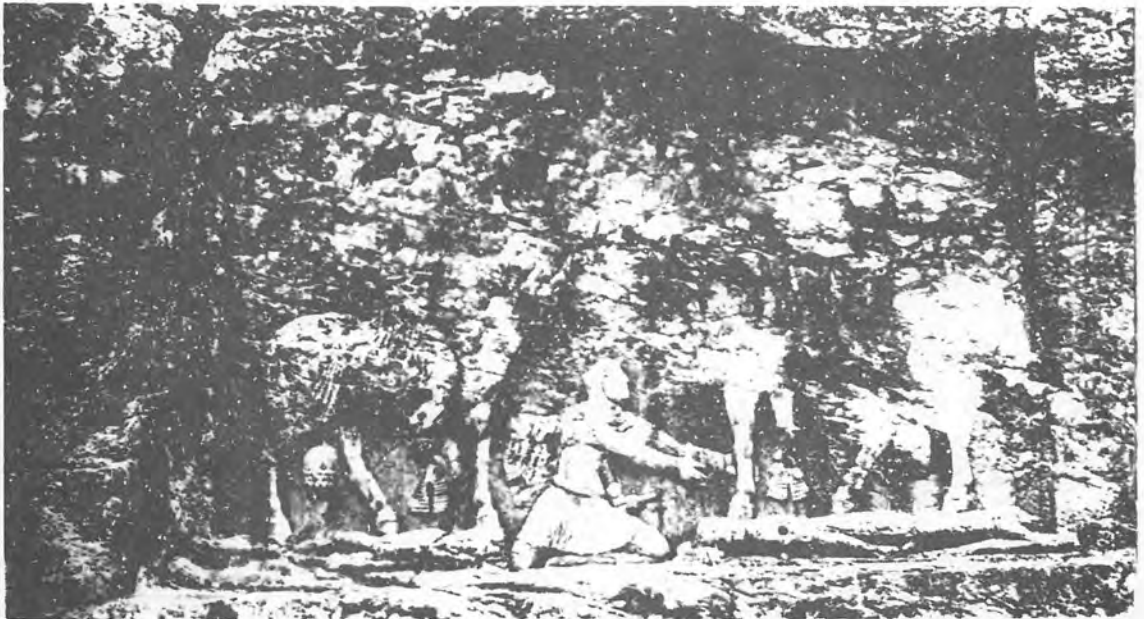
لوحة ٣٠٢ فن ساساني : فص منحوت «جامة» يظهر فيه انتصار شاپور الأول على الامبراطور فاليريانوس الروماني . بإذن من دار الكتب القومية بباريس .



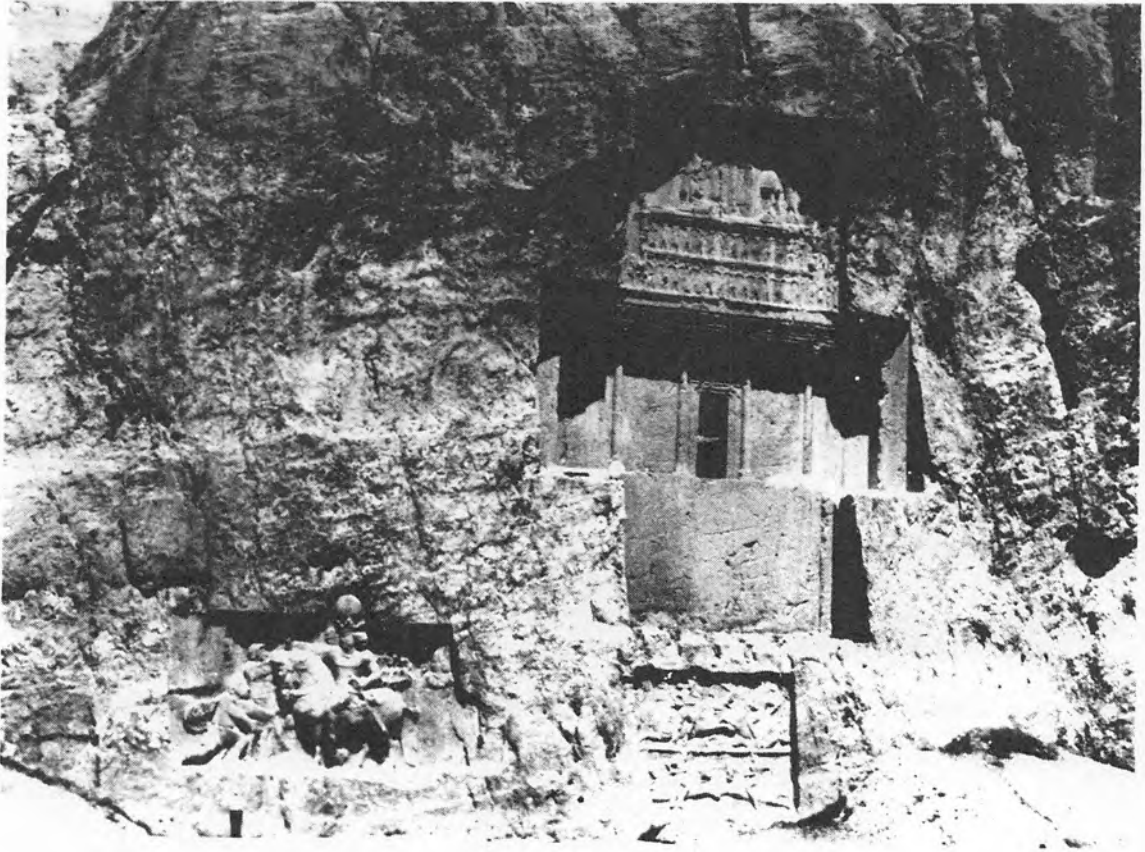


لوحة ٣٠٣ فن ساساني : الانتصار الثلاثي لشابور الأول وموكب الفرسان النبلاء والأسرى الرومان يحملون الجزية . بعد عام ٢٦٠ م .

لوحة ٣٠٤ فن ساساني : انتصار شابور بعد عام ٢٦٠ م .

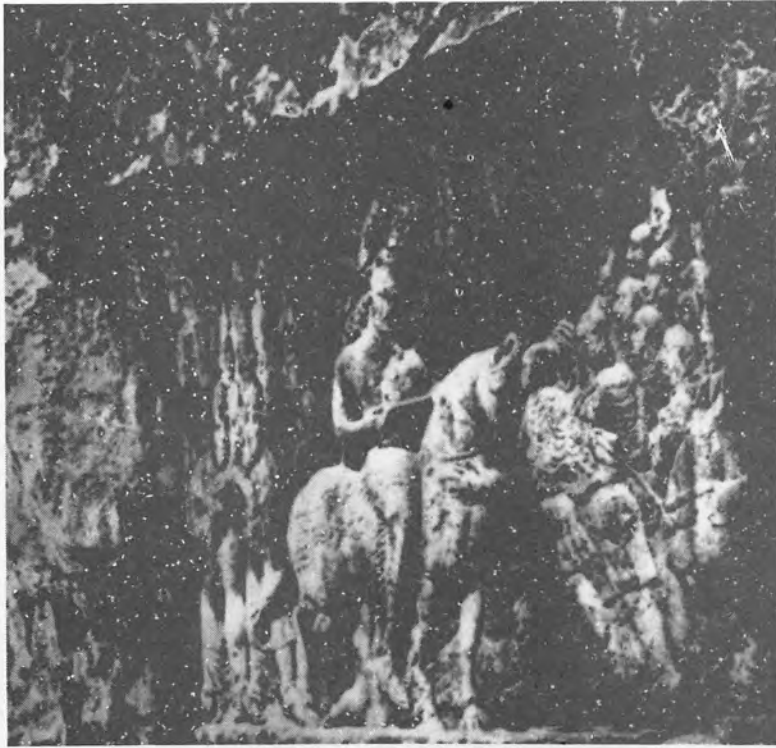






لوحة ٣٠٥ أ، ب نقش رستم : انتصار شاپور . أسفل قبر الملك الأخميني داريوش الأول بعد عام ٢٦٠ م .



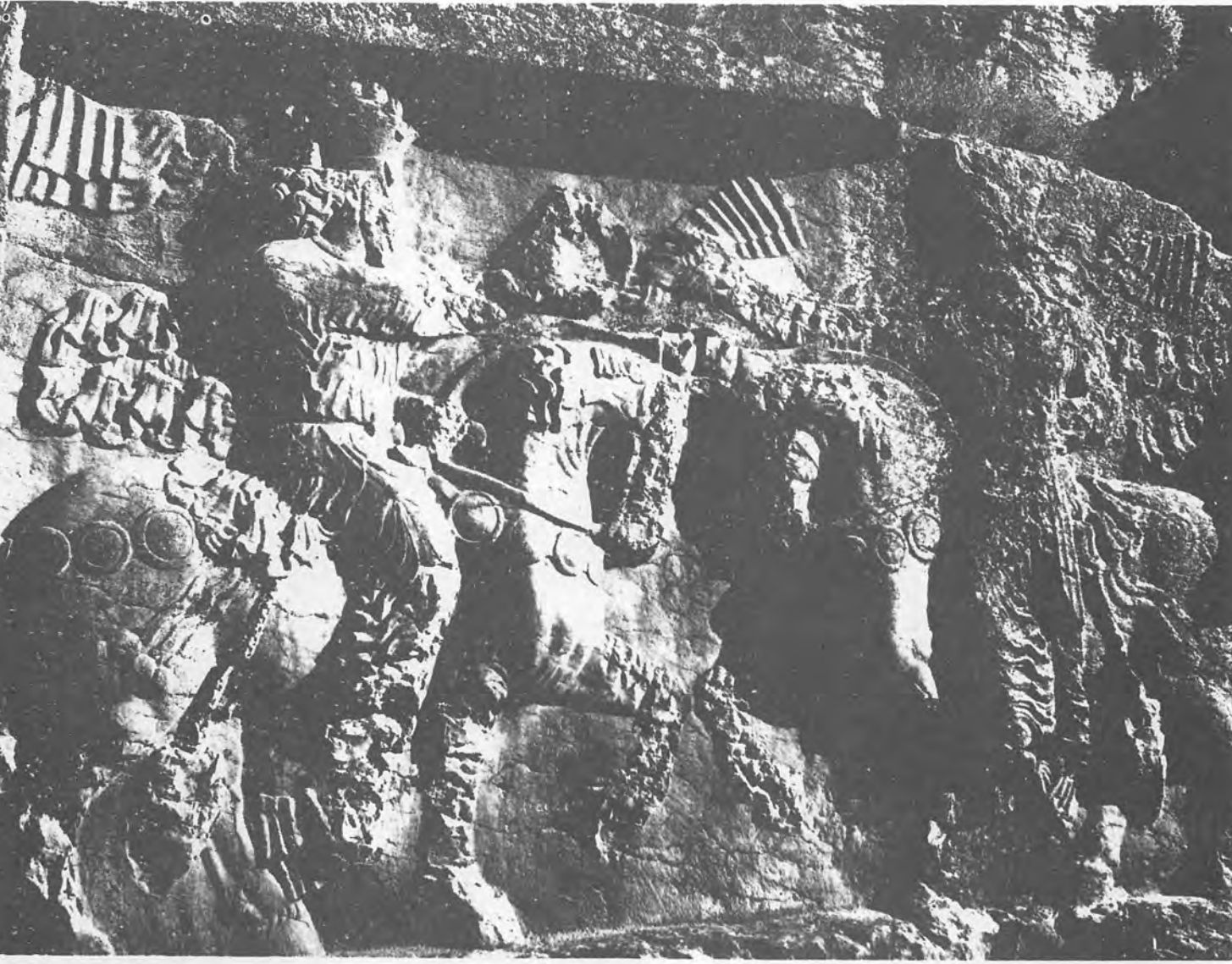


لوحة ٣٠٦ فن ساساني : انتصار  
شاپور .

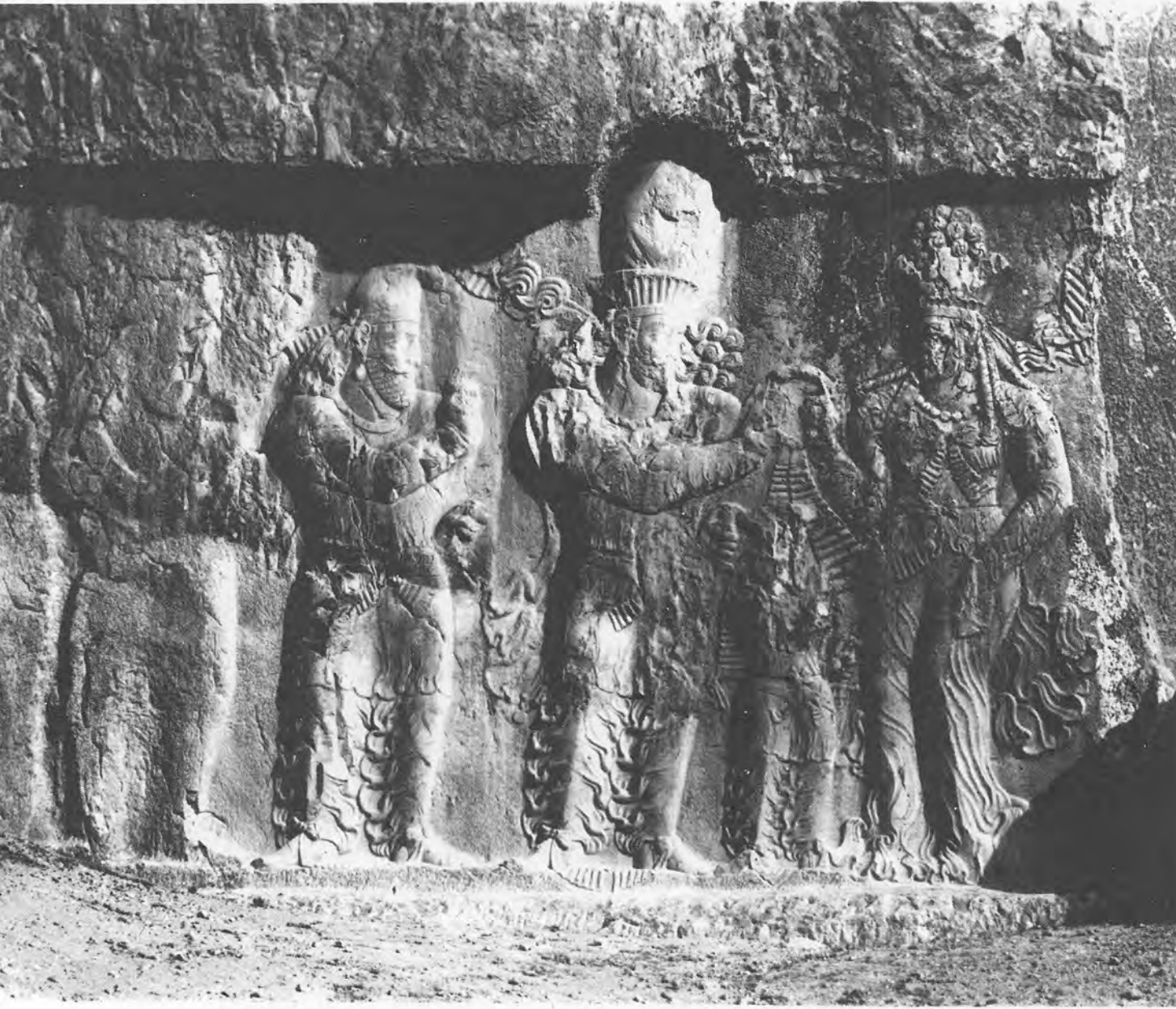
لوحة ٣٠٧ أ فن ساساني :  
بيشاپور : تمثال لشاپور الأول  
منحوت في عمود صخري بعد عام  
٢٧٢ م .

لوحة ٣٠٧ ب رسم تخيلي للحالة  
الأصلية التي كان عليها تمثال شاپور  
الأول .

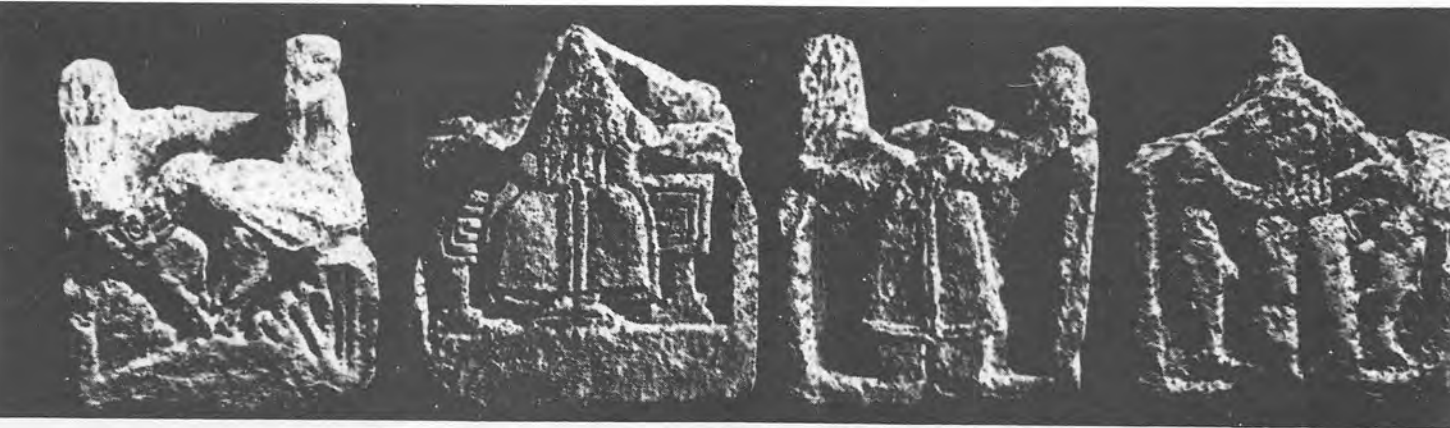




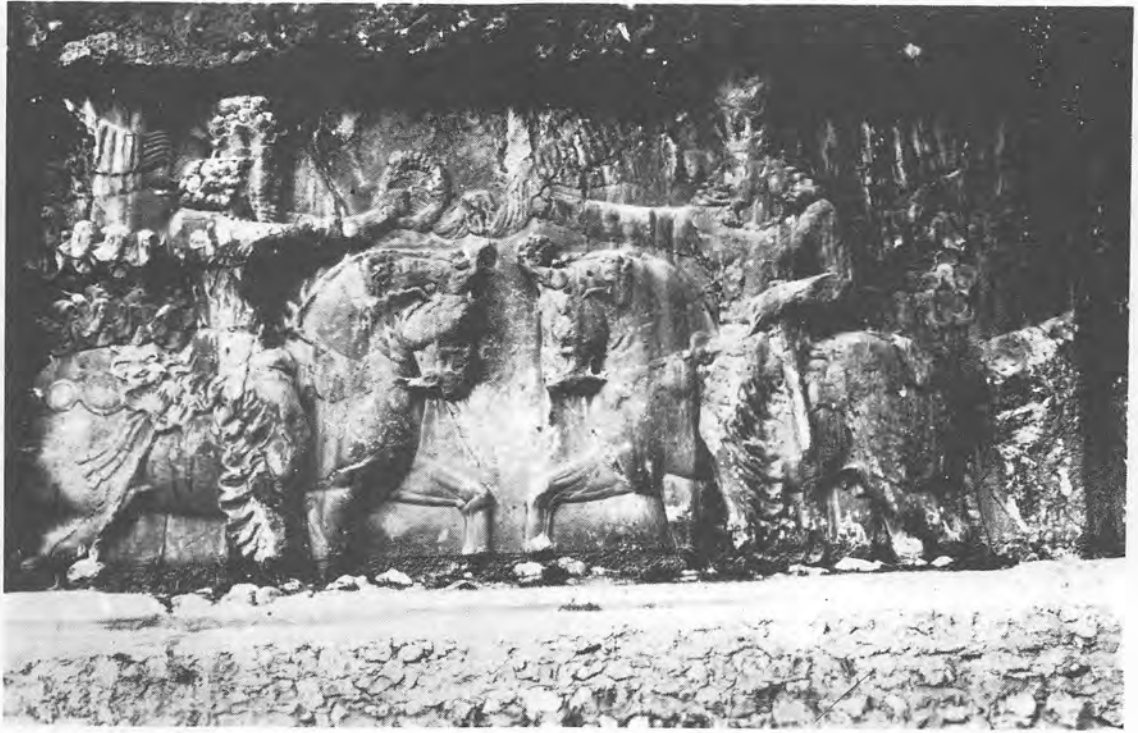
لوحة ٣٠٨ نقش رجب . قرب اصطخر «نحت طاووس» : الملك شاپور الأول يتقلد الرمز الملكي للإله أهورا مزدا . القرن الثالث الميلادي .



لوحة ٣٠٩ نقش رسم : تنصيب الملك نرسی بواسطة الربة أنهايتا . أواخر القرن الثالث — أوائل الرابع الميلادي .



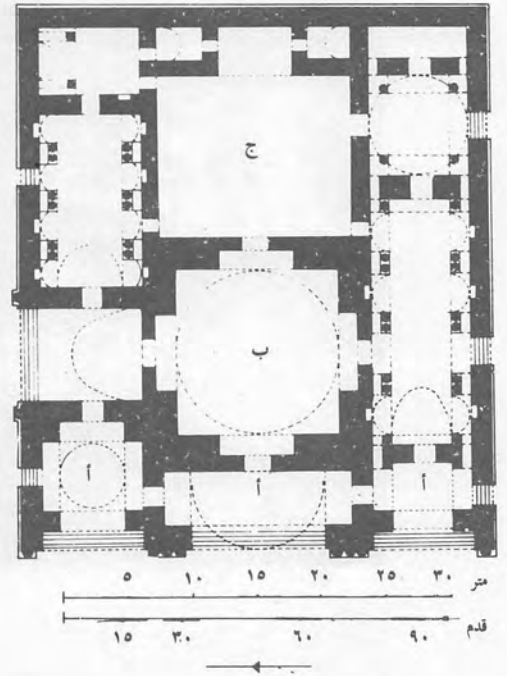
لوحة ٣١٠ فن ساساني : الوجوه الأربعة لأحد تواريخ دفن العظام . بإذن من متحف طهران .  
 لوحة ٣١١ بيشابور : مشهد تنصيب بهرام الأول ماين ٢٧٣ - ٢٧٦ ميلادية .



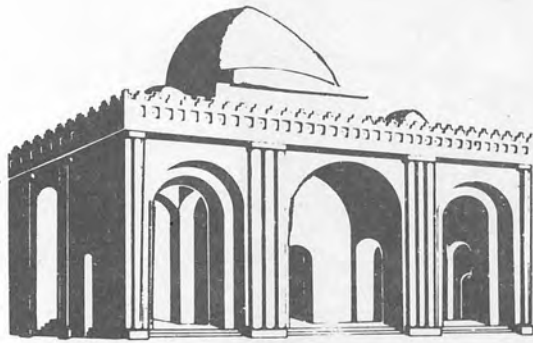
لوحة ٣١٢ أ سار مشهد قرب فيروزاباد : بهرام الثاني يصرع أسدين مدافعا عن أسرته . ٢٧٦ - ٢٩٣ م .



لوحة ٣١٢ ب سار مشهد . تفصيل من اللوحة السابقة .



لوحة ٣١٣ فن ساساني . تخطيط  
قصر في سرفستان :  
أ - إيوان ثلاثي .  
ب - قاعة الاستقبال .  
ج - ردهة أمام أجنحة السكنى .



لوحة ٣١٤ فن ساساني واجهة قصر  
في بيشابور .

## الفن الساسالي تحت حكم شايبور الثاني وخلفائه [ القرن الرابع والقرن الخامس ]

**عدل** الساسانيون في بداية القرن الرابع عن استخدام الحجر المسوّى في إقامة مبانيهم ، وأتاح جمعهم بين القبو والقبة إمكانيات رحبة أمام الفنان الساساني استعان فيها بخبرته وتجلّت فيها قدرته على الابتكار . وبنى شايبور الثاني — بعد تدمير سوسه — مدينة إيوان كرخا على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا جنوبي سوسه على الطراز الغربي ، وجعلها في شكل مستطيل طوله أربعة كيلو مترات وعرضه كيلو متر واحد . وشيد بالآجر والمونة قصرا يتكون من قاعة مربعة تعلوها قبة ، وإلى جوارها جناح طويل ( لوحة ٣١٣ ، ٣١٤ ) جمع تسقيفه بين القبو ونصف القبة ، وذلك بتقسيم القاعة في الاتجاه الطولي إلى ثلاثة أقسام بواسطة صفيين من الأعمدة المزدوجة ، يشبه الجزء الأوسط منها المجاز المعروف بالكنايس المسيحية ، ويشبه الجزءان الجانبيان الرواقين الجانبيين ، غير أن الرواقين الجانبيين في هذا الجناح ليسا على قدر كبير من الاتساع ، وهما مفتوحان من أسفل بواسطة عقود منخفضة تعلوها أكتاف مُصمّنة ( لوحة ٣١٥ و ٣١٦ ) . وقد أقيمت أنصاف قباب بين كل كتف وآخر فغدت القاعة وكأنها ذات حنيات جانبية تستغرق طولها كله مما يحرك الإحساس باتساعها ، ومما يمكّن المعماري في الوقت نفسه من تضيق الفراغ من أعلى بحيث يتيسر تسقيفه بواسطة قبة طويلة يتعذر تنفيذها إذا ما كانت باتساع الحجرة كلها . وقد استخدمت هذه الطريقة في تسقيف القاعات ذات الاتساع الكبير بالآجر .

وحرص الساسانيون على تجميل مبانيهم بالزخارف التي تضيفي عليها بالرغم من سرعة تعرضها للنفاء سحرا بالغا ، هذا إلى الجمال الكامن في التناسق بين أجزاء المبنى المختلفة وكانوا يعتمدون على غرار الفن البارثي على الجص اعتمادا كبيرا في زخرفة البناء فيكسون جدرانها به أولا ثم ينجزون رسومهم فوقه . وكانت أكثر تصاوير الساسانيين تسجّل معارك الصيد والحرب التي تراق فيها الدماء ، مثل اللوحة



الجدراية التي عثر عليها بين أنقاض مدينة سوسه التي قضى الملك شاپور الثاني بتدميرها بعد تمرد المسيحيين بها ، وتصور اللوحة فارسين حجمهما ضعف الحجم العادي ، وهما يطاردان قطيعا من الغزلان التي أصيب بعضها بجراح وقتل بعضها الآخر ( لوحة ٣١٧ ) .

وباستثناء منظرين ينتميان إلى عهد خسرو الثاني «كسرى برويز» لم يترك خلفاء شاپور الثاني أية نقوش بارزة فوق الصخور . والواقع أنه منذ القرن الخامس عاد الساسانيون إلى الرسوم الجدارية فوق الجص مثلما كان الحال في عهد البارثيين .

ولم تكن نقوش عهد شاپور الثاني [ ذو الأكتاف ] غير محاكاة لنقوش العصر السابق في موضوعاتها وطريقة تنفيذها ، وقد بقى لنا من أحد مشاهد التنصيب في نظام آباد ، رأس جواد تبدو فيه قوة تعبيرية ملحوظة ( لوحة ٣١٨ ) . وعثر بمدينة كيش على لوحة لوجه المرأة المحاط بإطار من زخارف الأزهار ، وهو الموضوع الذي انتشر في آسيا الصغرى خلال العصور السالفة وأطلق عليه اسم «المرأة في النافذة» ( لوحة ٣١٩ ) .

ولعل أهم مشاهد الصيد التي ترجع إلى عصر الساسانيين هو مشهد الملك وهو يصيد الخنازير البرية في طاق بستان ( لوحة ٣٢٠ ) حيث يقف في قارب يتهادي به على سطح بحيرة مصوِّبا سهمه إلى الخنازير البرية ، وتمضي عازفات الموسيقى في ركابه بينما تحمل الفيلة الحيوانات التي يصيدها . ويمثل هذا النقش تطورا كبيرا لأنه يعرض المشهد وكأنه مصور من الجو على غرار التصوير الصيني ( لوحة ٣٢١ ) .

ولتقريب مفهوم المنظور إلى القارىء أطلق مؤرخو الفن على المنظور الكلاسيكي اسم «المنظور البحري» وعلى المنظور الإيراني التقليدي اسم «المنظور الجوي» الذي أتبعه في الفينة بعد الفينة كل من الأشوريين والكلدانيين والهنود ، على حين اتبعه فنانو أسرة طان الصينيين بصفة متصلة . والمنظور الجوي هو مانطلٌ عليه من علّ إطلالة طائر محلق ، فليس ثمة مستوى أمامي له ولا مستوى خلفي كما هي الحال في المنظور الكلاسيكي ، بل ليس غير أعلى اللوحة وأسفلها . وهكذا يكون مسقط الدائرة دائرة ومسقط المربع أيضا لا يختلف عن المربع نفسه . وإذا كان الملوك والأمراء شخصيات جليلة لكونهم أقرب إلى الإله ميترًا من البشر العاديين ، لذا صوِّرهم الفنان أكبر حجما من غيرهم ، كما ظهرت أيضا ركائهم ومركباتهم — من أجل المحافظة على التناسب بينها وبين أصحابها — أكبر حجما من ركائب ومركبات البشر العاديين . ويشير المنظور الجوي مصاعب جمّة عند تطبيقه ، فحين لا يكون المنظور شديد الانفساح أو البعد يقنع الفنان برسمه وكأنه يشرف عليه من فوق برج كما يفعل الفنانون الصينيون . وسواء كان الفنان صينيا أم إيرانيا فإنه لم يكن يملك غير خياله وحده ، لذا كان بعد أن يتطلع إلى المشهد من خلال الزاوية العادية المألوفة يتجاوزه بخياله لكي يضع كل عنصر في مكانه وكأنه يرسم مسقطا للمشهد أو كأنه يضع البيادق فوق رقعة شطرنج مبسوطة أمامه ، فلا تحجب العناصر بعضها بعضا في

«المنظور الجوي» كما هي الحال في «المنظور البحري» الإغريقي ، بل يبدو كل شيء فيه مرثيا ، وينضغط المنظر حتى يصبح وكأنه منمنمة مصورة .

وقد لجأ الفنان في اللوحة التي نحن بصددنا إلى سرد الأحداث المختلفة متتابعة ، فصور الملك أول الأمر ممتطيا صهوة جواده وهو على وشك الانطلاق للصيد والمظلة فوق رأسه ، بينما تعزف النساء الموسيقى جالسات على المنصة ، ثم صور تحت هذا المشهد مشهدا ثانيا للملك وهو ينطلق في خفة الطيور إلى القنص ، وتلاه بصورة الملك فوق جواده الراكض حاملا جعبته بعد فراغه من الصيد ، وقد ظهرت الأعشاب تغطى سطح الأرض ، وتتجلى روعة هذه اللوحة في تصوير الفيلة التي حرص الفنان فيها على التزام الواقع ( لوحة ٣٢٢ ) .

ويبدو أن إقليم فارس لم يعد يحتل المكانة الأولى في حياة الساسانيين السياسية في نهاية القرن الرابع ، فقد أثر أردشير الثاني ومن خلفه في الحكم صخرة «طاق بستان»<sup>(٩٥)</sup> التي تقع خلف إحدى البحيرات إلى الغرب من كرمانشاه لتسجيل أحداث عهدهم . وقد نقش بها مشهد تنصيب أردشير الثاني ( ٣٧٩ - ٣٨٣ ) ( لوحة ٣٢٣ ) ، ويظهر الملك واقفا بين إلهين هما أهورا - مزدا الذي يقدم له رمز السلطة وميترا المسك بحزمة الأعشاب ، ويدلنا على هذا الإله الأخير غطاء رأسه ذو الإشعاعات . وتتكوم تحت قدمي الملك جثة عدو قد يكون رومانيا على الرغم من أنه ليس بين أيدينا ما يفيد أنه كان لهذا الملك الخامل الصيت تاريخ في عالم الحروب ، ونرى ميترا قد وقف فوق زهرة لوتس كبيرة . ونلاحظ هنا أن تقنية الفنان قد اختلفت عما كانت عليه فيما سبق ، فهو هنا يتجاهل الإمكانيات التشكيلية للنقش الشديد البروز ، إذ تبرز شخوصه بروزا تماما من أعماق الصخرة كتلا غير متدرجة من السطح الذي تنبثق منه . وعلى حين تبدو أجسامهم في وضعة المواجهة فإن أقدامهم تبدو في وضعة جانبية ، ويظهر الرأس للمرة الأولى وقد استدار قليلا ليقترب من وضعة المواجهة ، كما تكشف فجاجة الثياب الثقيلة عن تشبث الفنان بالأصول التقليدية . وهكذا تشير التغييرات التشكيلية والتصويرية إلى انقطاع الصلة بين هذا النقش وبين جميع نقوش الجدران الصخرية التي عرضنا لها من قبل .

وفي نهاية العصر الساساني شاع نقش لوحات للحيوانات التي ترمز لآلهة الخير مثل اللوحة الجصية المربعة التي تضم حلقة يتوسطها طاووس جميل ( لوحة ٣٣٤ ) ، واللوحة التي تصور كبشا ( لوحة ٣٢٥ ) ، كما صورت الحيوانات على ييارق الأشراف ، أما بيرق الملك فقد كان يزدان إلى جانب صورتي الشمس والقمر بصورة أسد يقبض بمخالبه على هراوة وسيف .

ومع تزايد الثراء في المجتمع الساساني وخاصة في عهد الملوك الذين يحملون اسم خسرو «كسرى» ، أخذ الفن ينفذ إلى صناعة النسيج وأدوات المائدة إلى جانب فن صياغة الحلوى وسك العملات النقدية والحفر الدقيق على الحجر .

(٩٥) الأصل ماذرستان أى حديقة القمر ، وسُميت طاق بستان لخلوها من الأعمدة وظهور الطاق .

وتألق الذوق الفني أول ماتألق في البلاط الملكي ثم جاوزه إلى طبقة النبلاء وأثرياء الدولة ، فظهرت أوان جميلة تتفق وثرء القصر الملكي وعظمته من أطباق وكنوس على هيئة القارب ، ودوارق وأباريق وطاسات كانت أجزاءها المختلفة تصنع كل منها على حدة وتطلي بالذهب ثم تجمع ويضم بعضها إلى بعض . وقد زينت هذه الأواني بمختلف الموضوعات ( لوحة ٣٢٦ ، ٣٢٧ ) وإك برز من بينها موضوع تنويج الملك أو خروجه لصيد الوحوش ( لوحة ٣٢٨ ) ، فنرى على طبق من الفضة المذهبة خسرو الأول وقد انطلق بجواده ممسكا بالسهم في يده متعقبا الحيوانات البرية ، ونلاحظ اهتمام الفنان بتسجيل تفاصيل ثياب الملك وجثث الحيوانات التي صرعه الملك منتشرة تحت قوائم جواده .

ولكى نتعرف طبيعة الملوك الساسانيين خلال القرنين الخامس والسادس علينا أن نستعرض فنونهم الدقيقة ، فثمة تمثال صغير من البرونز في متحف اللوفر يعد صورة شخصية لخسرو الأول ( ٥٣١ — ٥٧٩ ) وقد قص لحيته وقتل شاربه ، ثم أضاف إلى تاجه جناحين وذلك بعد الإصلاح المالي الذي جرى في عهده ولقب من أجله بالملك العادل ( لوحة ٣٢٩ ) . كما تبدو صور قباز الأول ( ٤٨٨ — ٥٣١ ) على النقد الذي سلك باسمه في وضعة تمثل جانب وجهه الأيمن وفقا للتقليد الساساني ، على حين نجد صورة لذلك الوجه نفسه فوق قطعة محفورة بدار الكتب القومية بباريس يبدو فيها الجانب الأيسر منه ( لوحة ٣٣٠ ) .

ويطالعنا طاس سليمان كذلك بصورة شخصية ، فنرى في وسطه نقشا لخسرو الثاني ( ٥٩٠ — ٦٢٨ ) فوق البللور السميك ذى اللونين ، وقد صور الملك فيها جالسا متكئا على سيفه فوق عرش يحمله جوادان مجنحان على كاهليهما ، وقد غطى الملك رأسه بتاج ذى طيات متداخلة تتدلى منه أشرطة متموجة ، وبدا خسرو في لون أشهب فوق خلفية بيضاء . ونرى صفيين من أحجار الياقوت الأحمر منتظمة في دائرتين ، غير أن الوريدات التي ترصع الطاس لم تتخذ من الزجاج الملون بل من مصهور زجاجي ملون . ويُعدّ « طاس سليمان » التي قدّمها هارون الرشيد هدية إلى شارلمان من أجمل هذه الأواني ( لوحة ٣٣١ ) .

ويصور أحد الأطباق الفضية الملك منطلقا فوق جواده بعد أن صرع أسدين ، ويتقاطع في هذا الطبق مسقطان يمثل أحدهما الخططين الأفقيين المتوازيين للجواد وللأسد المستلقي على الأرض ، ويمثل الآخر الخططين الرئيسيين للملك وللأسد وقد شبّ على أرجله يتلوى ألما ( لوحة ٣٣٢ ) .

وصاغ الساسانيون بعض الكنوس على هيئة رؤوس الحيوانات المختلفة ( لوحة ٣٣٣ ) وخاصة الجياد حيث تكشف لنا رأس الجواد الفضية البديعة عن رغبة الفنان في محاكاة الواقع ( لوحة ٣٣٤ ) . ولعل رأس الحصان الفضي التي نراها في ( لوحة ٣٣٥ ) جزء من تشكيل فني أكبر على نحو مارأينا في طاس سليمان الذي يصور الملك على عرش يحمله جوادان .

ويقدم لنا كأس متحف بلتيمور — وهو نسخة متأخرة من كأس مصنوع في القرن الخامس —

شاهدا على اشتراك الملكات مع الملوك في بعض الولائم . فالمشهد ينتظم الملك والملكة ، غير أن الصائغ لجأ هذه المرة إلى الخيال والرمز فجعل من تقديم الملك تاج الوليمة إلى زوجته دليلا على مشاركته في الحفل ، كما جعل من التيجان الأخرى الملقاة على الأرض إشارة إلى وجود ضيوف آخرين . أما رؤوس الخنازير البرية فترمز إلى صيد وفير ، كما يرمز قرنا الكباش وثمررة الرمان فوق تاج الملكة إلى الخصب . وثمة رصيعة مستديرة مثبتة برداء الملكة المطرز عند الكتف الأيسر ، وأخرى فوق الفخذ الأيمن شاع . أيضا تزيينها على أكتاف الأمراء الساسانيين في سوريا ومنها انتقلت إلى بيزنطة ( لوحة ٣٣٦ ) .

وتزين الموضوعات الحيوانية الملققة في أكثر الأحيان مجموعة من الكئوس ، ومنها السيمرغ ، ذلك الطير الخرافي الإيراني الذي يجمع بين الأسد والكلب والجريفون والبطاووس ، وكان طائرا خيبراً وفقاً للملاحم الإيرانية . وفوق كأس أخرى نرى الأسد المجنح وقد كثر عن أنيابه معتليا صخرة جرداء ، ويختلف هذا المنظر الطبيعي اختلافا كبيرا عن المناظر المألوفة فوق الكئوس ( لوحة ٣٣٧ ) .

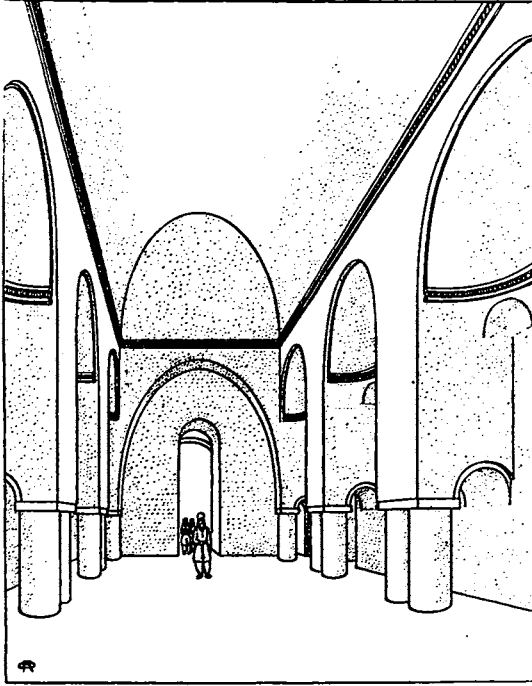
ويشير البعض إلى الطابع الشيطاني لهذه الحيوانات وكأنها ترمز إلى قوى شريرة خارقة . والذي لاشك فيه أن ظهور هذه الحيوانات على أواني الحفلات كان وليد ميل المجتمعات الشرقية كانت أم الغربية إلى قصص الرحلات في بلاد خرافية نائية وإلى الحوادث الخيالية ومايكتنفها من غموض وكل مايتحدى قوى البشر ويتسم بالرّهبة ، وجاء الفنانون ومهرة الحرفيين ليعثوا الحياة في هذه الحيوانات الغريبة كي يثيروا الفزع أو الإعجاب .

وصنع الفنانون الساسانيون بعض الأواني من الزجاج بعد أن اجتذبت أنظار ملوكهم الأواني الزجاجية التي صنعت في مصر وسوريا ، وإن كانت الأواني الزجاجية القليلة التي خلفها الزمن لانتيج التعرف على مدى تقدم هذه الصناعة في فارس . وبالمثل اهتموا بنقش الأحجار الكريمة وشبه الكريمة مثل أحجار الليمان واليشب والسبلان والعقيق ، ونحتوا من هذه الأحجار تماثيل آلهة وحيوانات ترمز لقوى إلهية ، ونقشوا صور الملوك على القطع النقدية وجعلوها في أغلب الأحيان في وضع جانبي ، ونادرا مانقشوا صورة في وضعة مواجهة .

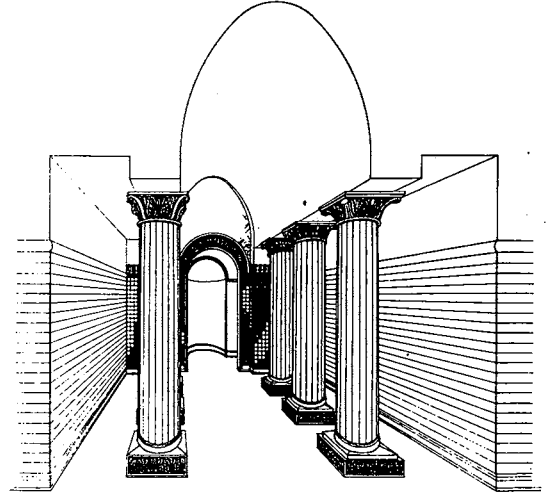
ومن أجمل تماثيلهم الصغيرة تمثال الخنزير الوحشي الصغير المصوغ من الذهب والذي ألصق بكتفه نقش يصور أسدا ينقض على فريسته ، كما ألصق بفخذه نقش آخر يمثل جناحين منشورين يحضنان هلالا تعلوه نجمة . ومن المرجح أنه كان يعلّق في سلسلة تحيط بالعنق على أنه تيممة لأحد أفراد الأسرة الملكية ، لأن الخنزير الوحشي هو إله النصر «ثيرترانيا» وكان يحفر دائما في الخاتم الملكي الذي تختم به القرارات والمعاهدات ووثائق الدولة ( لوحة ٣٣٨ ) .

وصنع الساسانيون آلات موسيقية عديدة نجدها مصورة في نقوش الصيد على جدران كهف طاق بستان لمصاحبة الرقص ، وفي مقدمتها القيثارة والمزمار والدّف ، ولقد عرف الفرس كذلك العود والناى فنقشت على الأواني الفضية . وفي متحف طهران طبق من الفضة نقشته فوقه صورة راقصة تمسك

بالصاجات وسط ثلاث نساء يفصل كلا منهن عن الأخرى صف من القلوب المطعمة يتوسطهن جميعا طائر ، وهنّ ينفخن في آلات من نوع «القرب» ذات خمس أنابيب ، ولقد جاء في مخطوط عربي يرجع إلى القرن الخامس عشر أن هذه الآلة اسمها «الأمرغن» ( لوحة ٣٣٩ ) . وظهرت أيضا على الأطباق والآنية الفضية والذهبية نقوش لراقصات آية في الروعة مثل آنية الشراب التي وجدت بكالاردشت ( لوحة ٣٤٠ أ ) وكأس فضي على هيئة قارب نقش عليه خسرو جالسا على عرشه وزين الكأس أيضا براقصات عرايا مما يوحي بالبهجة التي كانت تشيع خلال الولايم ( لوحة ٣٤٠ ب ) .

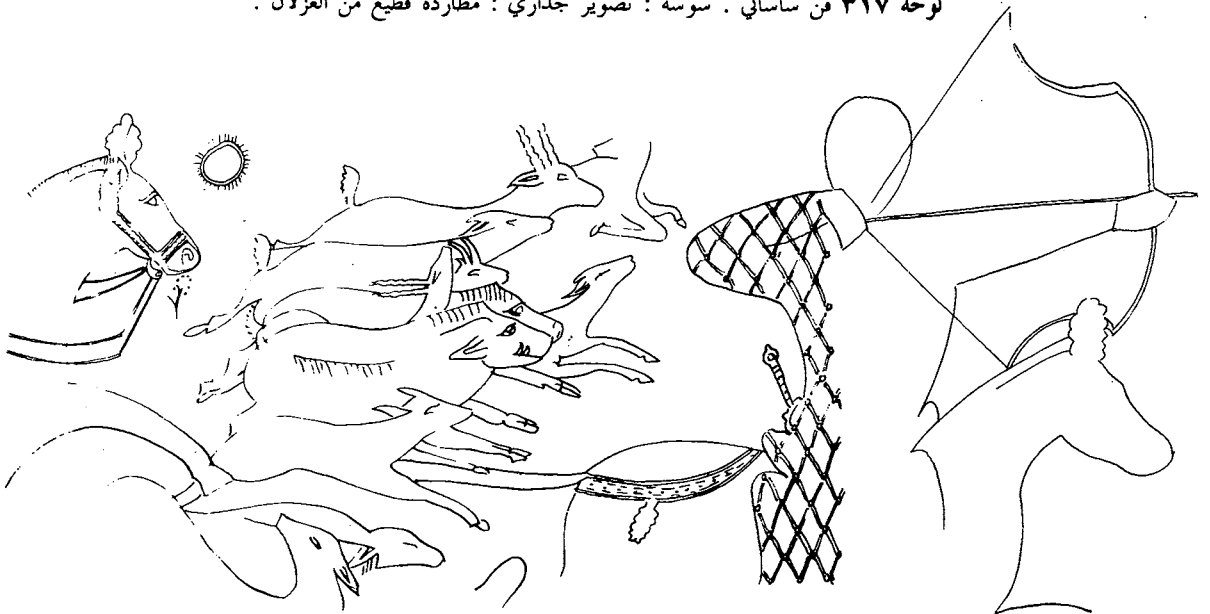


لوحة ٣١٦ عمارة ساسانية . قصر  
سرفستان : قاعة ذات أقباء أسطوانية  
ودخلات ذات أنصاف قباب .



لوحة ٣١٥ عمارة ساسانية . قصر  
كيش . البهو الرئيسي .

لوحة ٣١٧ فن ساساني . سوسه : تصوير جداري : مطاردة قطعان من الغزلان .

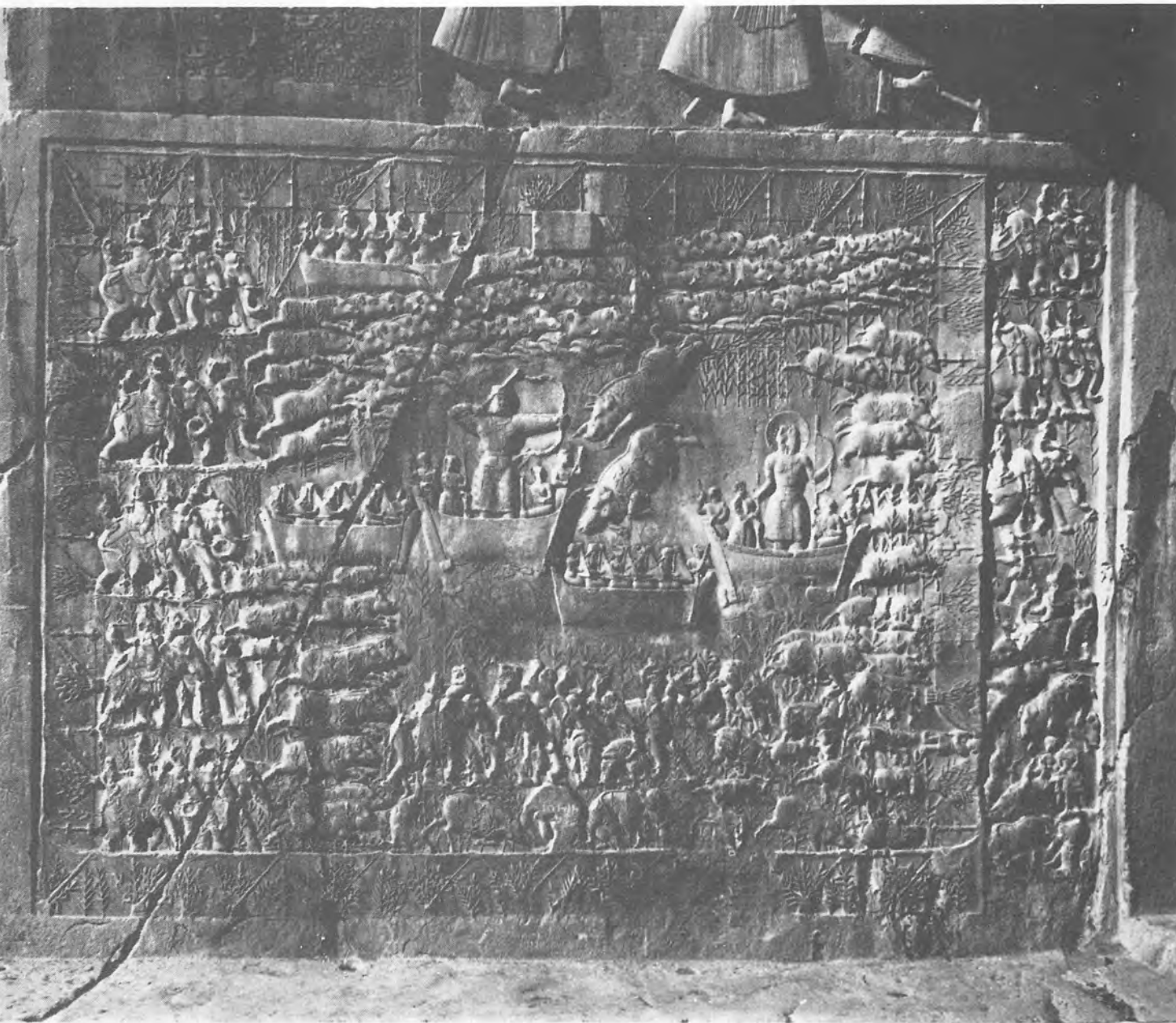




لوحة ٣١٨ فن ساساني . نظام اباد : رأس جواد . بإذن من متحف برلين .

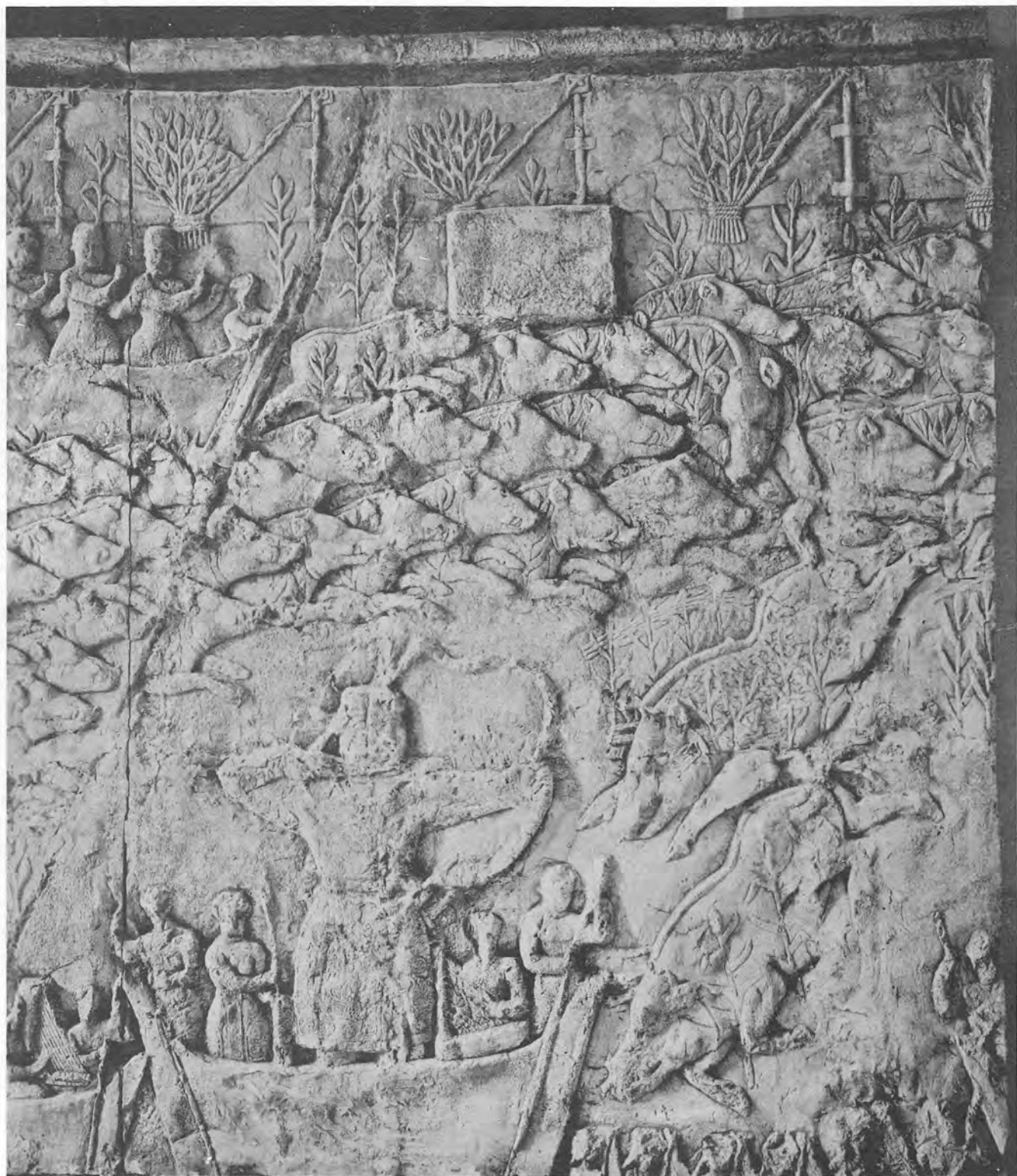


لوحة ٣١٩ فن ساساني . لوحة من  
الجنس « المرأة في النافذة » . القرن  
الخامس — السادس الميلادي . بإذن  
من متحف بغداد .

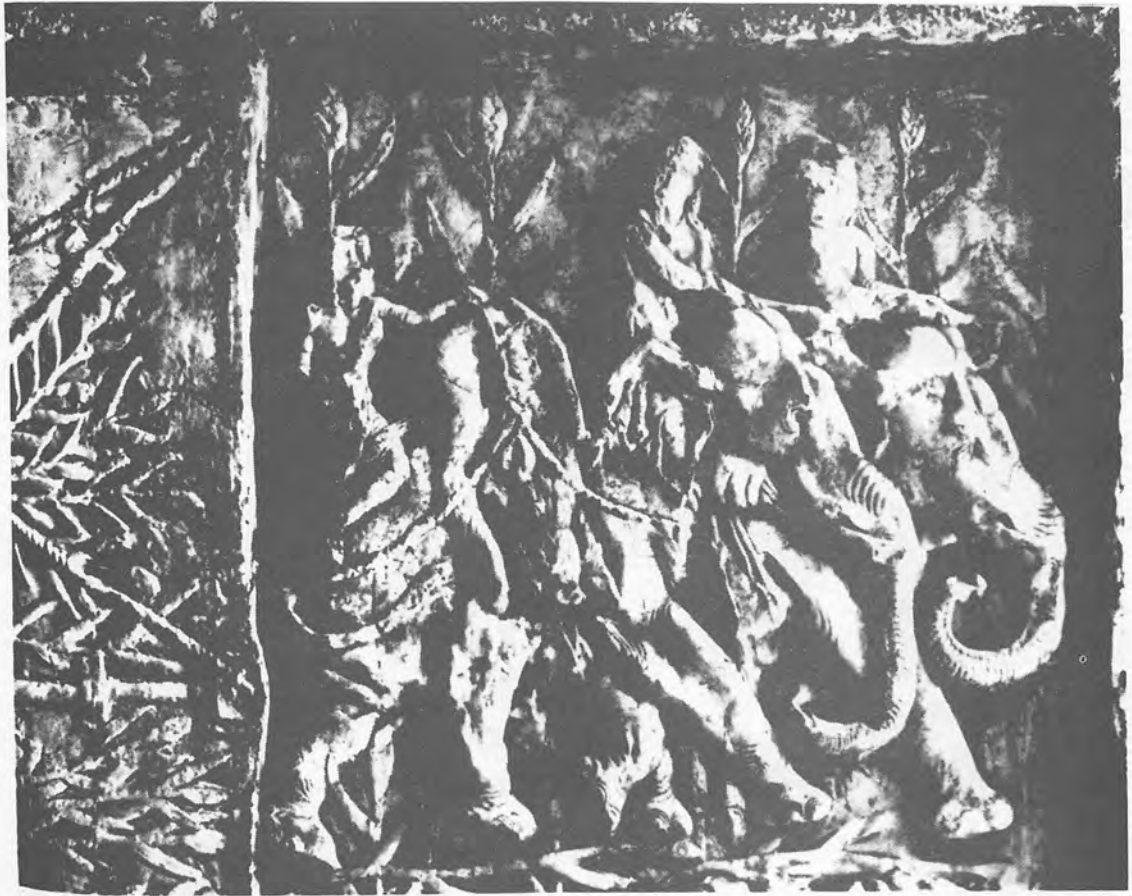


لوحة ٣٢٠ فن ساساني . طاق بستان : الملك يصيد الخنازير البرية . القرن الخامس الميلادي .



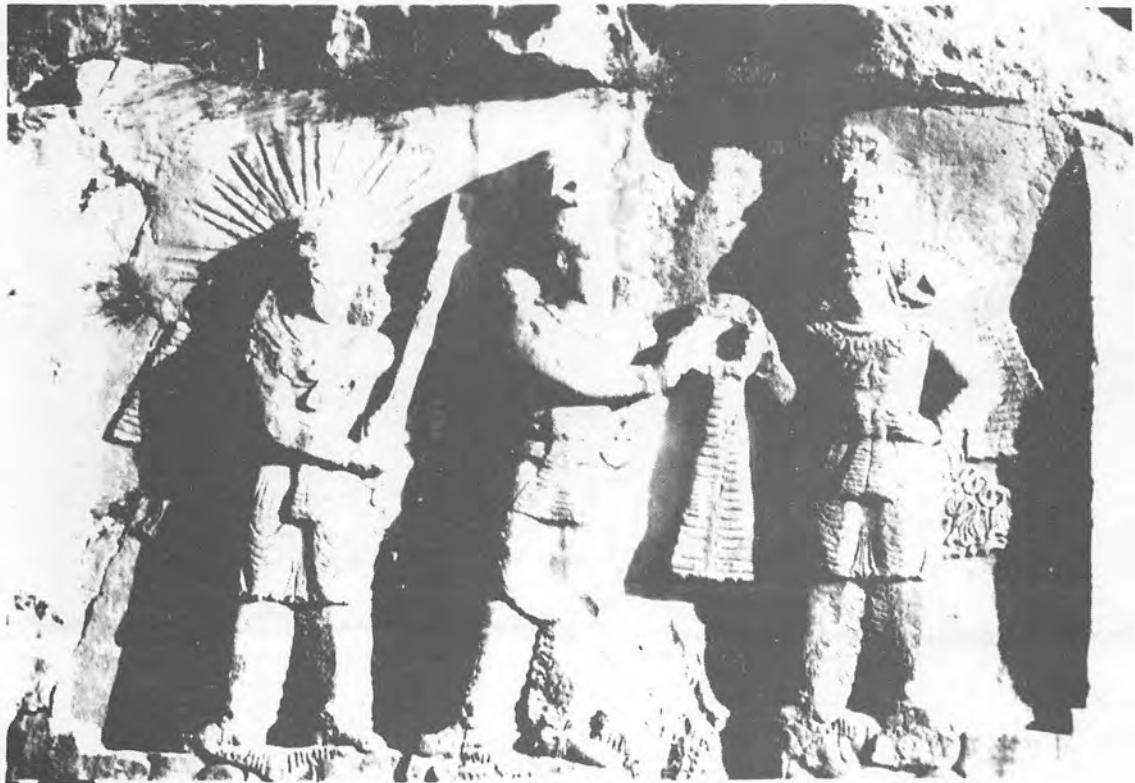


لوحة ٣٢١ فن ساساني طاق . بستان : الملك يصيد الخنازير البرية بينما الموسيقيات في القارب . تصوير جيروودون .



لوحة ٣٢٢ فن ساساني . طاق بستان : لوحة الملك يصيد الخنازير البرية تفصيل موكب القيلة .

لوحة ٣٢٣ طاق بستان . تنصيب أردشير الأول . القرن الرابع الميلادي .





لوحة ٣٢٤ فن ساساني المدائن .  
طيسفون : لوحة الطاووس . نقش  
على الحجر . القرن الرابع الميلادي .  
بإذن من متحف برلين .

لوحة ٣٢٥ فن ساساني : رأس كبش من الجص . الرى . بإذن من متحف طهران .





لوحة ٣٢٧ فن ساساني : كوب  
فضية . باذن من متحف طهران .



لوحة ٣٢٦ فن ساساني : كوب  
فضية . باذن من متحف طهران .



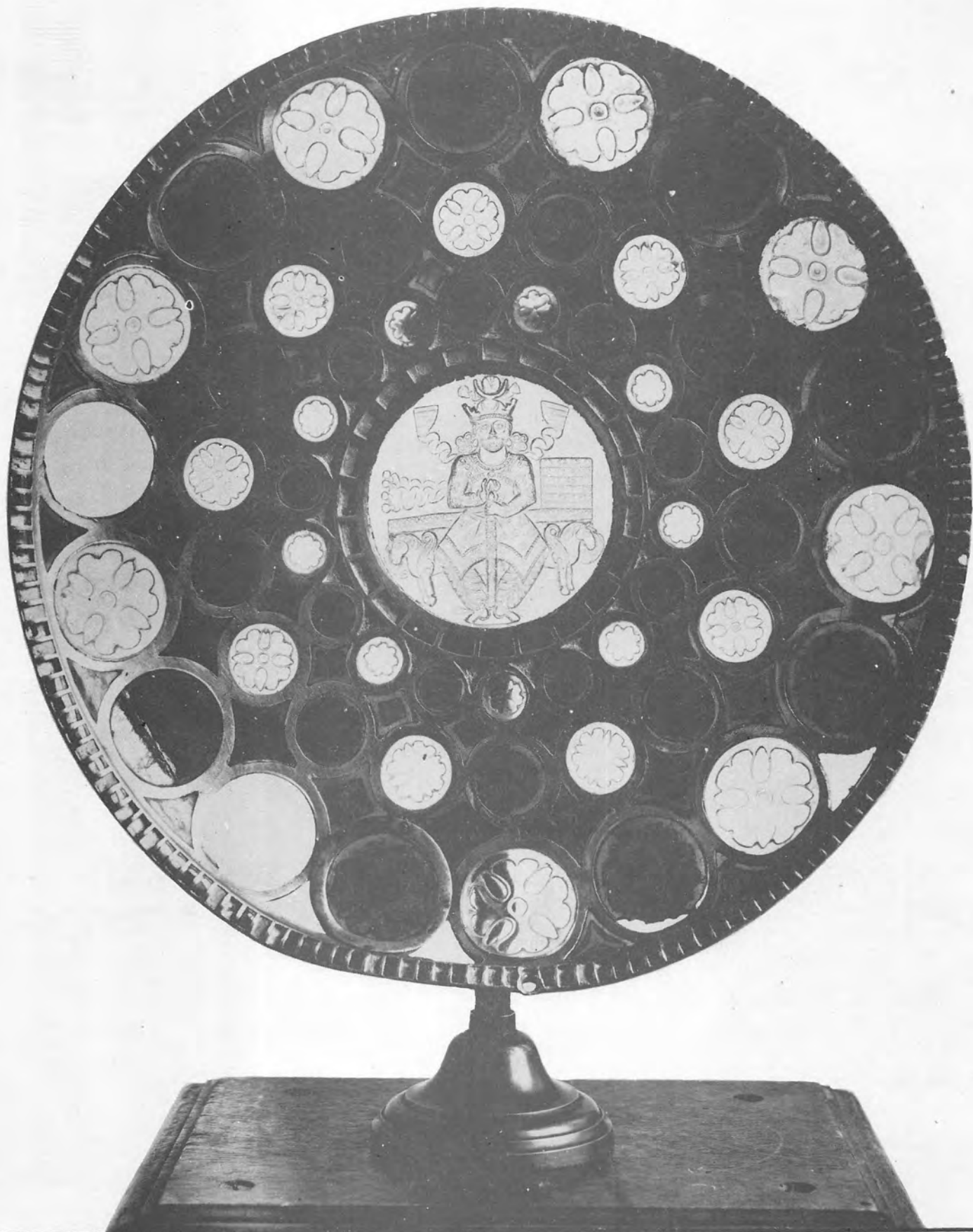
لوحة ٣٢٨ فن ساساني : طبق من الفضة المذهبة نقش عليه صيد الملك خسرو الأول.



لوحة ٣٢٩ تمثل صغير من البرونز يعد صورة شخصية لحسرو الأول ( ٥٣١-٥٧٩ م ) .



لوحة ٣٣٠ فص منحوت «جامة» لقباز الأول . بإذن من دار الكتب القومية بباريس . القرن الخامس السادس ميلادي .

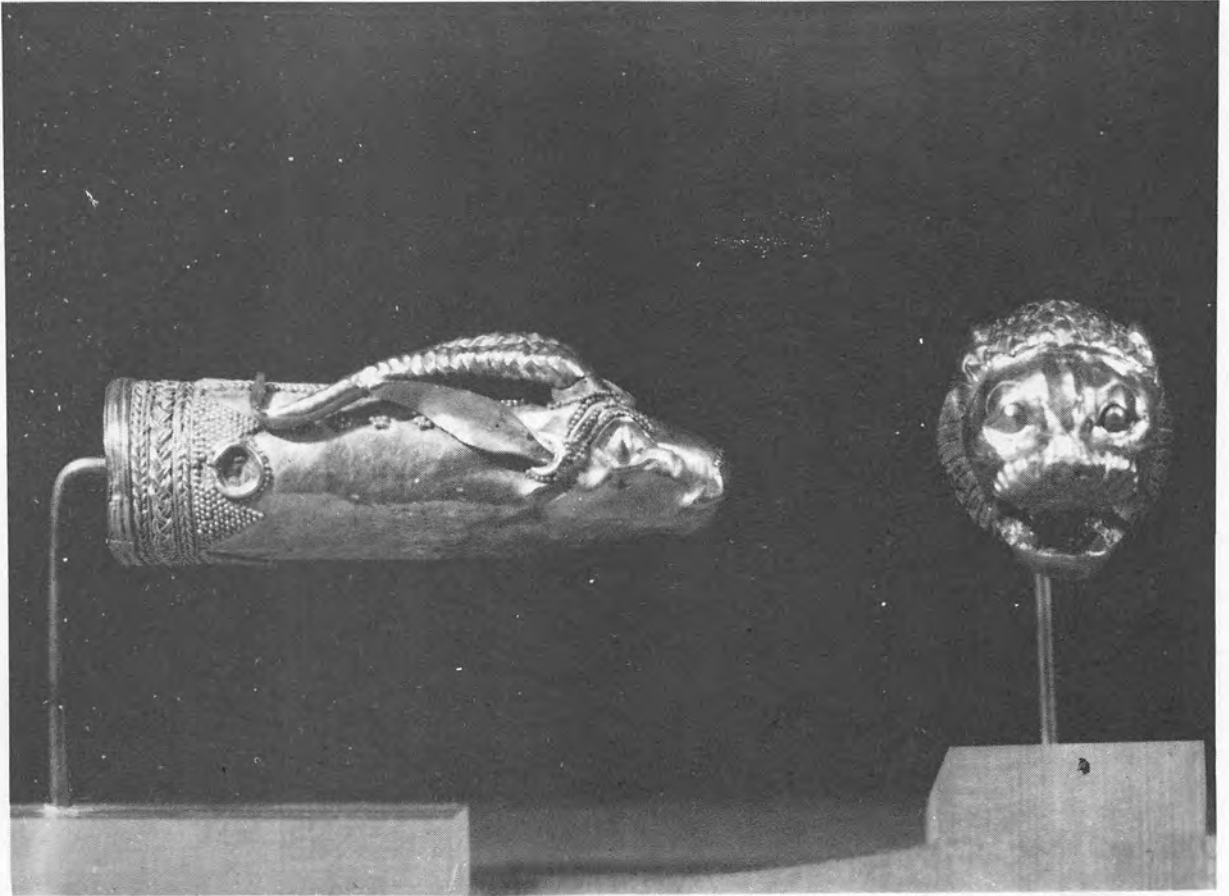


لوحة ٣٣١ فن ساساني : كأس خسرو الأول . طاس سليمان . القرن السادس ميلادي . بإذن من دار الكتب القومية بباريس .





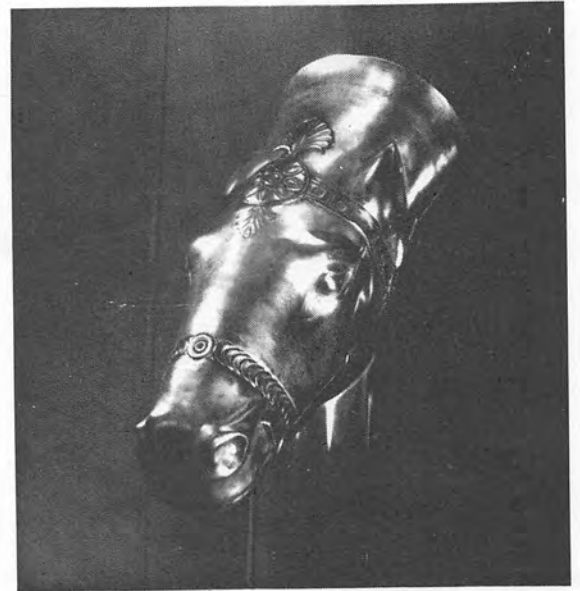
لوحة ٣٣٢ فن ساساني : طبق من الفضة يمثل نقش الملك منطلقا على جوادين وقد صرع اسدين . القرن السادس ميلادي . بإذن من متحف طهران .



لوحة ٣٣٣ فن ساساني : كئوس على هيئة رأس أسد ورأس تيس .



لوحة ٣٣٥ فن ساساني . كرمان :  
رأس جواد من الفضة المذهبة ، من  
الجائز أن يكون دعامة لعرش  
ساساني . القرن الرابع الميلادي .  
بإذن من متحف اللوفر .



لوحة ٣٣٤ فن ساساني : كأس  
شراب من الفضة على هيئة رأس  
جواد . القرن السادس السابع  
ميلادي . بإذن من متحف الفن  
بسنسنتاتي .

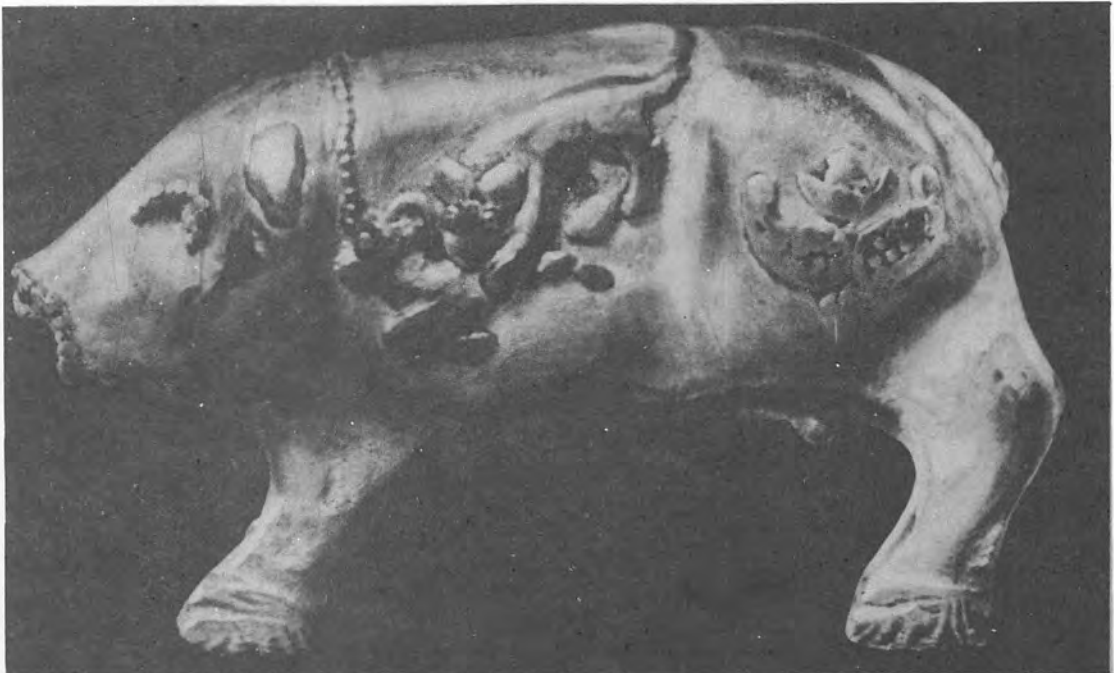


لوحة ٣٣٦ فن ساساني : طبق عليه نقش يصور الملك والملكة . القرن السادس — السابع الميلادي . بإذن من ولترز آرت جاليري . بلتيمور .

لوحة ٣٣٧ فن ساساني : طبق نقش  
عليه أسد مجنح — القرن السادس —  
السابع الميلادي . بإذن من متحف  
مدينة كانساس .



لوحة ٣٣٨ فن ساساني : خنزير بري . مجموعة خاصة .

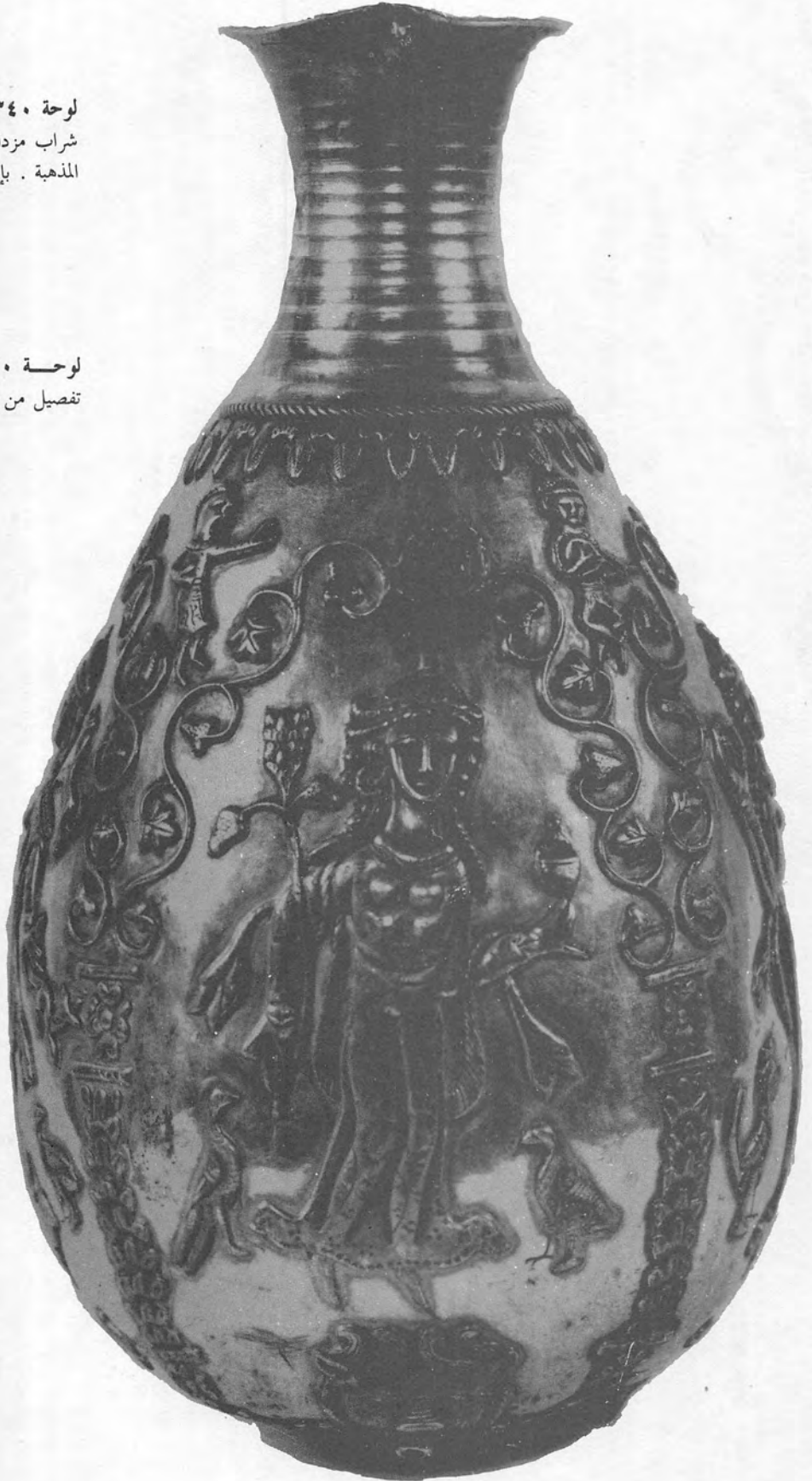




لوحة ٣٣٩ فن ساساني : مازندران : طبق من الفضة مزدان بنقوش أربع موسيقيات يفصل كل منهن عن الأخرى صف من القلوب المطعمة . القرن السادس الميلادي . بإذن من متحف طهران .

لوحة ٣٤٠ أ كالاردشت : آنية  
شراب مزدانة براقصات . من الفضة  
المذهبة . بإذن من متحف طهران .

لوحة ٣٤٠ ب فن ساساني :  
تفصيل من اللوحة السابقة .





## الحياة الموسيقية في العهد الساساني

**كانت** الموسيقى تمثل عنصراً أساسياً في الحضارة الإيرانية خلال العصر الساساني ، ومع أننا لم نعثر على مدونات للألحان الساسانية ، ولم تصل إلينا أية معلومات عن نظريتهم في الموسيقى ، فإننا لا نكاد نصغي لمقطوعة من الموسيقى الفارسية المعاصرة الخالصة من كل تأثير غربي حتى يخيل إلينا كأننا بين يدي لمحات من فن مستهل القرن السابع الميلادي عهد خسرو الثاني ، ذلك أن للموسيقى الشرقية طابعها التقليدي الذي صبغ ماعزف منها في بغداد وفي بلاط الخلفاء . ومن المعروف أن عددا من الألحان التي وضعت في عصر خسرو الثاني ظلت تعزف وتنشد على مدى أربعمئة عام بعد سقوط الأسرة الساسانية حتى ذهب الكثيرون إلى أن الفن الموسيقي العربي مستعار من الفن الفارسي ، وإن استبدل أسماء الدواوين الموسيقية وابتكر ألحانا جديدة وطبق نصوصا جديدة على ألحان قديمة ، غير أنه أبقى الأساس والفكر والمشاعر الموسيقية والمقامات والانتقالات بينها وطريقة الإيقاع على حاله ، وهو ماتوحى به الألحان الأندلسية العربية التي تنطوي على الدواوين والمقامات وروح الألحان الفارسية . ومن بين التسميات الموسيقية للمقامات المتداولة في القرن الحادي عشر بواسطة منوچهري<sup>(٩٦)</sup> ، والتي ترجع إلى العصر الساساني ، نجد مقام «راست» [أى مستقيم أو «تام»] الذي لا يزال على تسميته إلى اليوم في الموسيقى العربية .

والموسيقى الشرقية لاتعرف البوليفونية<sup>(٩٧)</sup> ، ولم تعرفها قط ، فمجموعة الآلات كلها تعزف لحنا واحدا دون توزيع فيما بينها مع حرية مقيدة للعازف في تشكيل اللحن نفسه . وقد بنيت نظرية

(٩٦) شاعر معاصر للفردوسي .

(٩٧) تعدد الخطوط اللحنية أفقيا وفق طبقات الأصوات بشرية كانت أم آلية مع الاحتفاظ بمسافات محددة بين المستويات النغمية المختلفة . وللبوليفونية أمطاط تعتمد على إبراز التباين بين تلك الطبقات « المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية . لوتجمان ١٩٩٠ لكتاب هذه السطور » .



الموسيقى العربية على الأوتار الخمسة للعود بينما كانت الآلة القومية الفارسية التي حلت محل العود [والتى يبدو أنها لم تدخل في حيز الاستعمال إلا خلال القرن التاسع عشر] ذات أوتار ستة .

وربما كان النفير — المصنوع من البرونز أو النحاس الأصفر — منذ القدم هو أهم الآلات الموسيقية التى تستخدمها الجيوش فى الحروب [وقد وردت فى الشاهنامة قصة حصار المدن على أنغام النفير أو البوق] ، ولكن النفير لم يكن الآلة العسكرية الوحيدة ، فهناك الناي والطبول التى ورد ذكرها فى النصوص الإهلوية .

وقد انحصر اهتمام الكتب الإهلوية والعربية والفارسية وهى بمعرض الحديث عن فارس القديمة فى شعون البلاط ، ومن أجل هذا كانت الموسيقى التى أوردت ذكرها هى موسيقى البلاط . ولو تفحصنا الاحتفالات التى أورد وصفها الفردوسى لوجدنا أن الموسيقى كانت هى العنصر المشترك فى كافة ولائم الملوك والأبطال ، وأنها كانت تفسح للغناء مكانة هامة ، بمعنى أن التأليف كان يشمل مقاطع غنائية وأخرى من العزف على الآلات ، وذلك ماتبعته أيضا الموسيقى العربية .

وبالرغم من أن الفردوسى قد حدّد الآلات الموسيقية المستعملة إلا أنه لم يذكر سوى أهمها وخاصة القيثارة والعود والربابة والناى . ويذكر المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» بأن الفرس قد ابتكروا الناي الذى كان يجاوب العود ، والمزمار المزدوج الذى كان بدوره يجاوب العود ، والمزمار [الأوبوا] الذى كان يجاوب الطبل ، والقيثارة التى كانت تجاوب الصنوج . والراجح أنه كانت لديهم مجموعات ثابتة من آلتين مترادفتان فى العزف معا دون أن ينطوي ذلك على أى أداء بوليفونى . ويضيف المصدر الذى استقى منه المسعودى — وهو ابن خردذابة — أن الفرس كانوا يصاحبون غناءهم بالقيثارة والعود ، وكانوا يرون أنهما أنسب الآلات لذلك .

وكانت موسيقى الحجره عند الملوك والأمراء تؤدّى على عدد كبير من الآلات ، فهناك نص بهلوى «لكتاب كسرى وغلامة لأونوالا» (٩٨) يورد لنا بيانا نعهه كاملا إلى حد ما ، جاء فيه أن الآلات التى أحصاها غلام كسرى پرويز هى : العود العادي [دار] والعود الهندي [فين] والهارب [تشانج] والجيتار [الطنبور] والجيتار الكبير [طنبور ايماس] والقيثارة [كانار] والعود / القيثارة [فين كانار] والناى والمزمار [مار] والتنباله [تاس] والطبلة الصغيرة [دومبالاج] والدقّ [تشامبار] والكاسات [زيل] ثم الهارب الأيولية [اندارفاى] وآلات أخرى تعدّر التعرف عليها .

ويقدم لنا بعض الكتاب العرب — مثل المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» — معلومات هامة عن مكانة كبار العازفين الموسيقيين فى البلاط الفارسى . من ذلك أن أردشير الأول مؤسس الأسرة

الساسانية قد عمد المغنين والعازفين المهرة فئة اجتماعية ممتازة . وكان الملك بهرام الخامس [ بهرام جور ] ( ٤٢٠ - ٤٣٨ أو ٤٣٩ م ) هاويا للموسيقى ، منح الموسيقيين مركزا أسمى بين طبقات المجتمع . ولقد بقي هذا الترتيب على حاله حتى عهد خسرو الأول - كسرى أنوشروان - ( ٥٣١ - ٥٧٨ م ) الذى أعاد النظام إلى ما كان عليه في عهد أردشير . والواقع أن بهرام جور قد منح الموسيقيين مكانة رفيعة أبقى عليها بعض من خلفائه ، وكان حماس هذا الملك الفريد للموسيقى جليا في عديد من القصص إلى حد أن بلغ مرتبة الأساطير ، ويقال إنه وجه الدعوة إلى جماعات النور الذين وفدوا من الهند لإضفاء عنصر البهجة على الموسيقى .

ونعرف أن العصر الذهبي للموسيقى الساسانية كان عهد الملك خسرو الثاني ( ٥٩٠ - ٦٢٨ م ) ، دليل ذلك النقوش التى تصوّره مسترخيا وسط جواريه الموسيقيات ، وبخاصة لوحتى النقش البارز على جدران طاق بستان بالقرب من كرمنشاه . وتمثل إحداها صيد الغزلان ، وقد ظهرت الموسيقيات فى قمته خلف الملك ، تمسك اثنتان منهن بآلة النفير وواحدة بالدق بينما تعزف بعضهن بالقيثارة وتصفق الباقيات .

أما النقش البارز الذى يصور صيد الخنازير البرية فنرى به قاربا بمجازيف غاصا بالمغنيات وعازفات القيثارة ، تقف إحداهن إلى جوار الملك ( لوحة ٣٢٠ ، ٣٢١ ) . وقد بدأ التاريخ يسجل أسماء العازفين المهرة ومؤلفي الموسيقى فى إيران القديمة منذ عهد خسرو الثاني ، فدلنا على « نيجيشا » الذى روى عنه شعراء فارس أنه فنان مطبوع ، وأورد ذكره نظامى بديوانه « خسرو وشيرين » ، كما تألق موسيقيان كان أكبرهما سنا يدعى « سرکش » وأصغرهما يسمى « باربد » تحدث عن حياتهما وتنافسهما « كتاب الملوك » ( ٩٩ ) وهو المصنّف الأم الذى نقل عنه كتاب العرب والفرس جميعا تاريخ الفرس القديم .

وثمة رواية أوردها كل من الفردوسي والثعالبي اشتملت على لمحات أسطورية وإن كانت فى جوهرها حقيقة تاريخية ، يجملها الثعالبي فى قوله : « كان سرکش زعيم الموسيقيين فى مجالس الطرب الخاصة لخسرو الثاني ، ومع ذلك فما كاد ينمو إلى علمه ذات يوم أن هناك مغنيا مبدعا هو « باربد » يغني ويعزف على العود فى آن ، حتى داهمته الغيرة وخشى على مكانته منه فععمل على إبعاده بشتى الوسائل ، واستمال أمناء القصر والحراس عن طريق تقديم الهدايا ، كما رجا أصدقاء الملك وحاشيته إخفاء أمر هذا الموسيقى على الملك ، إلا أن « باربد » لجأ إلى حيلة بارعة إذ أغرى حارس الحديقة التى يخلو فيها خسرو إلى مباهجه أن يأذن له حين يخلد الملك للشرب بأن يتسلق إحدى الأشجار المطلة على موقع الوليمة مقابل عطية قبلها الحارس . وما كاد الملك يشرب كأسه الأولى حتى أنشد باربد بمصاحبة عوده من أعلى الشجرة أغنيته الأولى بعنوان « سبحان الله الخالق » ، فأعجب خسرو بالإنشاد وسأل عن هذا المغني الذى لم يكشف أحد مكانه . وحين تناول الملك كأسه الثانية أنشد باربد بمصاحبة عوده أغنية

بعنوان «عظمة فارخار» فانتشى الملك وصاح «ياله من غناء جميل»، ونهض الجميع يبحثون عن المغنى دون جدوى. ولما شرب خسرو كأسه الثالثة عزف باربد وغنى وأطرب مستمعيه فطلب منه الملك أن يظهر لهم، فمثل أمامه ورحب به خسرو وجعله على رأس الموسيقيين بالبلاط، وهو ما أثار حنق سرکش على باربد حتى إنه دس له السم فقتله كما يقول الثعالبي، وحزن عليه خسرو. وعندما أحاط علما بالحقيقة استدعى سرکش وقال له: «طالما سعدت بالاستماع إلى غنائك أنت وباربد ثم بالإصغاء إليك وحدك خاصة بعده، ولكنك أبيت إلا قتله فهدمت نصف سعادتي، ولذلك فأنت تستحق الموت! فأجابه سرکش: «إذا كنت قد هدمت نصف سعادتك يامولاي فإنك بقتي تعمل على هدمها كلها» فعفا عنه الملك.

وبقى ازدهار الموسيقى القديمة متصلًا بعد سقوط الامبراطورية الساسانية بفارس، ولقد ورد بديوان منوچهري عدد كبير من الألحان ذات الأصل الساساني التي تُنسب إلى باربد، وتؤكد مصادر عديدة بأنه مبتكر الألحان المسماة «بالحان القصور» أو الألحان الملكية.

ولقد اهتدى الفرس إلى التنقل في الألحان بين المقامات المختلفة والإيقاعات المتغيرة وتقسيم المقامات إلى دواوين، وأطلقوا عليها وقتذاك «الدواوين الملكية» أو «الطرق الملكية». وكان عددها سبعة، أولها يسمى «سيكاف» ويختص بالربط بين الجمل، ويمتاز الثاني بالأناقة في تقسيماته وبجويته، والثالث بجمال تنقلاته وامتداده من النغم الحاد حتى الغليظ، ويعتبر ديوان «ماداروسنان» أغلظ الأنغام بين الدواوين. وكان «ساريجاد» أحبها للقلب، و«سيسوم» ذا تأثير جاد، على حين كان «جوباران» يتدرج في انتقالاته مقامي واحد.

وإلى باربد يُعزى ثلاثون لحنا، واحد لكل يوم من أيام الشهر «الزردشتي»، وثمة مجموعة من الأغاني كانت موضوعاتها تدور حول أحداث الأساطير الإيرانية الواردة في الشاهنامه. بينما نجد ألحانا أخرى تناول أحداثا معاصرة خاصة بتلك التي يُعنى بها الملك والبلاط، فكانوا يتغنون «بالكنوز السبع» لخسرو الثاني [برويز] مخصصين لكل كنز أغنية، وكانوا يعدّون جواده «شبديز» أحد تلك الكنوز. ولقد ذهب ولع الملك به حدّ قسمه بأنه سوف يقتل أول من يخبره بموته. وعندما مات الحصان قام باربد بنفسه بإبلاغه كي ينقذ حياة السائس عن طريق أغنية أنشد فيها «لن يركض شبديز بعد اليوم أبدا» فصاح خسرو قائلا: «لقد مات إذن؟» فأجابه باربد «لقد علمنا إذن بخبر موته من الملك». كانت كثرة هذه الألحان من إرتجال باربد يستوحها من مناسبات الأحداث الجارية ويتغنى فيها بمباهج الحفلات التي كانت تقام بالقصر وأسماء النساء المُقربيات مثل «حبة المسك» التي وضع لها لحنًا باسمها، وكذلك ألحان المناسبات الدورية مثل «لحن عيد الخريف».

والثابت أن كافة النصوص التي نقلها إلينا الفردوسي في الشاهنامه موجودة أصلا في المصادر الساسانية التي اشتقت منها الأجزاء الوصفية الواردة في مؤلفه، إلا أن هذه الأجزاء القديمة وصلت إلينا بعد ترجمتها من الفارسية إلى العربية. ويروى الفردوسي أن بهرام جور قصد زيارة أحد الدهاقين الأثرياء

خلال رحلة صيد ، فأمر المضيف بناته الثلاث باستعراض مواهبهن أمام الملك ، فقامت إحداهن بالعزف على القيثارة ، بينما رقصت الثانية وهي تزن الإيقاع بديبب قدميها ، وقامت الثالثة بغناء «لحن الملك» . وخلال رحلة الصيد نفسها دخل بهرام متنكرا في زي جواهري وقامت ابنة مضيفه بالترويح عن الضيف بالعزف على القيثارة وإنشاد أغنية «موابدة المحوس» التي لا يذكر الفردوسي نصوصها في روايته ثم تستدير نحو الضيف الذي لاتعرف هويته منشدة :

«أيها الأمير ، يا صاحب البهاء الملكي ، يا من يتلأأ نجمك ، يا ذا القلب الوفي ، يا من تدرى كيف — لنفسك — تتأر . من لم ير بهرام بعينه ، فاته أن يتملى من طلعة الفارس الشهير ، فاتن القلوب ، ماعليه إلا أن يلمح وجهك أنت ، فمن بين المحاريرين جميعا ، أنت به أشبه .»



خاتمة

إمتهاد موجبة

الابديع الفارسي



**على** هدى من العرض السابق يبين لنا أن الفن كان نشاطا أساسيا للشعوب الإيرانية ، ولعله أبرز ما يميز به ذلك الشعب ، وخير ما قدم للحضارة العالمية ، بل إنه ليكاد يجلو لنا الكثير من مشكلات الثقافة الإنسانية التي طوتها الأيام بردائها . وعلى مرّ التاريخ الفارسي الحضاري الطويل الذي لا يكاد يدانيه في استمراره واتصاله تاريخ آخر تعكس «الفنون الزخرفية» العبقريّة الفارسية الفريدة وتعبر عنها ، تلك الفنون التي تستمد تأثيرها على المُشاهد من جمال التصميم وقوة التعبير اللذين بلغا مرتبة عالية راسخة من الكمال لا تكاد تتزحزح . هذا الحس الزخرفي تنبض به كافة المنجزات الفنية الفارسية ، ولكأني بالفكر الإيراني كذلك وقد اتسم بالزخرف ، تحكمه قوانين الرؤية الواضحة والرقّة والتصميم والإيقاع ، نراها تتجلى خاصة في الشعر والموسيقى . ولقد تبدّى ولع الإيرانيين بالزخرفة في التقنية الدقيقة الحاذقة التي بلغت أعلى مراتب الكمال ، كما تبدّى في خصوبة خيالهم حين يبدعون التصميمات والأشكال ، فأوانيهم الخزفية القديمة المزينة بالنقوش لاتضارعها في مهارة الصنعة أية آنية في عصور لاحقة ، رغم ما جادت به الأزمان التالية من تقنيّات متقدمة . فالآنية الفارسية شديدة الرهافة ، ملساء ، رقيقة خامتها ، ومزينة بماذج طريفة قوية التعبير تستغرق الزخارف سطحها في تصميم ملائم متوافق ، حتى ليقال إن أقدم المنتجات الخزفية الفارسية في العالم تعد أحسنها من نواح عدة حتى عصرنا هذا ، كما يعترف ماتيس المصور الفرنسي الشهير أن الخزافين الفارسيين هم أساتذته .

وإذا كان فن الخزف قد اندثر منذ أواخر عهد الأخمينيين وطوال عهد الساسانيين إلا أنه عاد فازدهر من جديد خلال القرون الوسطى . ولم تقتصر هذه الصفات الجميلة لزخارف الخزف على منتجاته ،



وإنما تجلّت في الفنون الفارسية الأخرى ، كصناعات السجاد والنسيج ، بل وتعدّت ذلك إلى كل ماتناولته يد الإنسان ، كالأسلحة والأثاث والملابس والكتابة والحدايق ، كلها يوشّها التجميل ، بالعناية نفسها التي توشّى بها منجزات الفنون الجميلة .

ولقد استعادت إيران خلال القرنين الخامس والسادس مجدها الفني وبلغت طور النضج . ولمدة تجاوز القرنين ونصف القرن ، كانت إيران سيدة الشرق بلا منازع في الفنون الزخرفية ، إذ قد بلغت فنونها هذه أقصى درجات الرهافة وأصبح أسلوبها عالميا واضح التأثير في الفنون البيزنطية والهندية ، بل والصينية فيما بعد ، تلك الفنون التي لقنت من قبل عن إيران بتأثير فن البارثين .

وإذ كان الزردشتيون يحرمون تناول الطعام في الآنية الفخارية خوفا من تدنيس الأرض وهي البقعة المقدسة للجنّة أرماتي التي كان يُرمز لها بالقنفذ ، لذلك لانجد بين آثار الحفائر الساسانية إلا جرّات الغلال وقدرور المياه ، وكان هذا الفكر الغريب سببا في ازدهار الأواني المعدنية منذ القرن الثالث حتى القرن الثامن .

ولم يكن الأمراء الإيرانيون يحتفظون في خزائهم بسبائك الفضة على حالها وإنما كانوا يحيلونها إلى أوعية وأوان وكعوس تمثل الحيوانات ، فإذا دفعتم الحاجة إلى المال صهروها من جديد وسكّوا منها النقود . وقد اشتهر أهل سوسه بصياغة هذه الأواني والتمثيل في مهارة فائقة حتى لقد كان البعض يؤثر أن يحتفظ بها دون صهرها ( لوحة ٣٤١ أ ، ب ) .



وقد مرّ بنا كيف تبنت فارس صناعة الحرير في القرن السادس الميلادي بعد أن عادت عليها تجارته بالمال الوفير إذ كانت معبرا للقوافل المارة من الصين إلى موافء سوريا . وقد ظلت الصين قرونا طويلة تحتفظ بسر تربية دودة القز وبالتفرد بصناعة الحرير الخام وتصديره عبر بلاد فارس إلى أن أخذت رومه في البحث عن طريق آخر غير فارس بسبب الحروب بينهما فارتبطت بمصر التي غدت مركزا صناعيا للحرير يأتيها بحراً من شواطئ الهند الغربية ، ثم تزايد إنتاج فارس للحرير وعمّ أسواق العالم ومنها بيزنطة إلى أن أصدرت الكنيسة قراراً بتحريم الأقمشة المنسوجة من دودة القز الفارسية لأنها تحمل صورا فارسية .

وقد عثر على الكثير من الأنسجة الساسانية في كنائس غرب أوروبا ، إذ كانت رفات قديسي آسيا تُحمل إلى هناك مكفّنة بأفخر أنواع الحرير الساساني الذي رسمت عليه صورة الكبش رمز السلطة ( لوحة ٣٤٢ ) وصورة الحصان المجنح رمز الإله فيرايتريدي (١٠٠) . وكما صوّر النسّاجون حيوانات منفردة داخل إطار دائري صوّروا حيوانين أحدهما يواجه الآخر ، من ذلك صورة الأسد اللذين يناوش

أحدهما الآخر في ظل نخلة ( لوحة ٣٤٣ ) ، ثم عرفوا صور الأشخاص وذلك بعد استخدامهم للعمال المصريين والسوريين ، فشاعت في النسيج الإيراني صور الفرسان يميلون فوق سروجهم ويطلقون السهام فتسقط الحيوانات وتطؤها حوافر الجياد ( لوحة ٣٤٤ ) .

وتدلنا قطعة نسيج بقيت مطمورة في رمال قرية الشيخ عبادة بمصر على مهارة الصناع المصريين الذين نقلوا تلك الزخارف الفارسية الرائعة ، كما تكشف لنا عن مصدرها ( لوحة ٣٤٥ ) . وقد تضمنت هذه القطعة تسعة ألوان ومشهدين يعلو أحدهما الآخر ، يجلس الملك في المشهد الأسفل جلسته التقليدية بينما تعلوه بعض مشاهد المعارك بين فرسان يحملون الأقواس بين أعدائهم الذين يظهر وسطهم بعض الزنوج ، ومن المرجح أنها تصور الملك خسرو خلال حربه الأولى ضد الحبشة التي احتلتها اليمن وحررها الملك الساساني عام ٥٧٠ .

وقد سعى الفنان الساساني مختاراً إلى إحياء التقاليد الأخمينية التي كانت تتضمن العناصر الشرقية والإيرانية القديمة . كما خلّد دون قصد أعمال الفن البارثي وإن جاءت خالية من نبرات الفن المتأغرق . وحينما فتح الباب على مصراعيه في إيران لاستقبال الفن المزدهر وقتذاك في الأقاليم الرومانية بسوريا ازدادت خصوبة الفن الإيراني . وعلى الرغم من أن العمال الأسرى الذين جاءوا من مختلف البلاد وعملوا في بناء القصور والمصانع والمعابد وصنع النسيج وتشكيل الجص قد طرّقوا كل ميادين النشاط الفني إلا أن قواعد فنون بلادهم لم تؤثر على الفن الإيراني سوى من ناحية الشكل بينما بقيت روحه إيرانية خالصة . وامتاز هذا الفن بجموية دمغت فنون الشعوب المجاورة بطابعه وخلقت صلة بين حضارات آسيا القديمة والحضارات الجديدة المتمثلة في حضارة الإسلام والعصور الوسطى بأوروبا .

ولم يكن الفنان الإيراني يعدّ اللون هو المظهر الطبيعي للتكوين المرسوم شأن الفنان الإغريقي ، بل كان يعدّه خاصة من الخواص التي تسمو على طبيعة الأشياء . وقدما كان لابن سينا وغيره من المفكرين الإيرانيين رأى يخالف رأى أرسطو في اللون ، فعلى حين كان الإيراني يرمز للسماء باللون الأزرق ، وللبيضة باللون الأبيض وللشجرة باللون الأخضر وللنار باللون الأحمر كان لا يعد ذلك رمزا للخواص الطبيعية لتلك الأشياء . ولنا في أسود سوسه المشكّلة من قوالب الآجر المزجج دليل على هذا الاتجاه . فلم يكن اللون عند الميدين إلا وسيلة لإبراز النقش الذي يضم صوراً لموضوعات تكاد تبدو محفورة ، وفي هذا مافيه من قدرة على الخلق الفني تتجلى من وراء التلاعب بالضوء ، وإنا لنجد مثل هذا في التصاوير الجدارية الأشورية والبارثية والساسانية . وعلى حين نجد الهنود يضيفون على آهتهم الألوان البيضاء والزرقاء والحمراء والأسود ، نجد الإيراني لا يعد تلك الألوان مظهراً طبيعياً بل رمزياً . ولا نكاد نجد رواية عن الإيرانيين تدلنا على أنهم ذهبوا إلى صفرة بشرات الصينيين أو المغول ، إذ كانوا يعدّون تلك الصفرة رمزا للشمس أو الذهب ، وهذان كانا يرمز بهما إلى تلك الأجناس التي تقطن هذا الركن الشرقي من العالم .

فاللون عند الإيرانيين كان دلالة روحية على الشيء المرسوم . وجريا على اعتقادهم بإمكان تحويل النحاس كيميائيا إلى ذهب فيتخذ لونا آخر يرمز إلى ذلك المستحدث الجديد ، كذلك كانت الحال عند اختيارهم ألوان الخيول ، فكل لون يرمز إلى معنى بذاته ، فالجواد الأبيض للأمير والنارّي للبطل .

وإنا لنجد في الأماكن المقدسة المكرّسة لعبادة الإله ميترا والزاخرة بالتصاوير الجدارية أن توزيع الألوان يجرى وفق ما تملّيه الرمزية البارثية ، وأن ميثرا لا يرتدي وحده ثياب الفرسان والمجوس بل كذلك يرتدي أتباعه والمؤمنون به أثوابا ذات ألوان رمزية ، ويبدو ميثرا أصفر البشرة أو ذهبيها [وهذا هو ما جعل الإيرانيين يرفضون الاعتراف بأن الصينيين والمغول صفر البشرة] ، ويتعلل حذاء ذا رقبة وثوبا قصيرا في لون النار لايفارقه ، رامزا للشمس في الشفق ، ويلف حول وسطه حزاما أحمر ، وعلى منكبيه معطفه المقدس . وقد انتفخ بفعل الريح فبدا وكأنه على صهوة جواد يعدو . وفي الجزء الأسفل من النقش وعلى خلفيته نرى القبة السماوية الزرقاء المرصّعة بالنجوم الذهبية . وكان ميثرا يصور دائما جالسا فوق عرش ذي متكأ ينتهي على شكل قوس مرتديا ثيابا خضراء من الحذاء ذي الرقبة إلى قلنسوته الفرجية ، وقد صوّف شعرة تصفيف المجوس أيام ميديا القديمة .

كان «الشكل» لدى فناني الإغريق كافيا لتحديد معالم الموضوع ، ولم تكن ثمة حاجة بهم إلى تحديد اللون ، تلك الصفة التي لم يعنوا بها عناية كبيرة ، ومن ثم فقد كان من الميسور لديهم تصوير زنجي على رخام پاروس الأبيض وتصوير قينوس على خشب الأبنوس الأسود . وعلى العكس من ذلك كان مفهوم الفنان الإيراني الذي تمسك باللون عادةً إياه خصيصة لاغنى عنها فاستخدمه بوفرة وإتقان واختاره لامعا واضحا براقا ساطعا ، وهكذا جاء موضوعه براق السطح حتى ليكاد جوفه أن يشع . وقد يكون الزعم بأن البارثيين لم يكن لهم فن أو دين يستحق الاهتمام تبسيطا للأمر ومجافيا للحقيقة ، فقد كشفت الحفائر منذ ما ينيف عن ربع قرن عن عالم ظل مجهولا متواريا حتى يومنا رغم أنه يمثل حضارة استغرقت خمسة قرون . ويبدو أن الفنان البارثي كان يحاول تنفيذ ما يشبه لوحات الزجاج الملون المعشق بالرصاص والأيقونات أو صور المصباح السحري دون أن يهتم بالتجسيد ، ولهذا نراه يحدّد إطراره والخطوط المحوّطة لكل شخص في وضوح ، ولكل لون ولكل شيء لديه قيمته الرمزية ، ثم هو ينتقى الألوان النقية غير المخلوطة كما يكسو بها لوحته كلها على غرار ما يفعل صانع لوحات الزجاج المعشق . أما عن رسومه فهو لا يذكّرنا بالسجاد الفارسي القديم فحسب بل بفن الصياغة السكودي الذي انتشر في السهوب والبراري .

كذلك أبدع الساسانيون المخطوطات المصورة التي شاركت بنصيب وافر في ازدهار فنونهم ، فلقد كتب المسعودي يقول إنه رأى عند أحد أشراف فارس في اصطخر كتابا ضخما يحتوي على صور للملوك الساسانيين على ورق رقيق وبألوان لانعرف الآن عنها شيئا . والراجح أن هذه الكتب المصورة قد أثّرت في الفنون التشكيلية تأثيرا كبيرا ، وهذا ماتوحى به مجموعة النقوش التي تمثل انتصار شاپور على جورديان الثالث وفيليب العربي وقاليانوس . ومن المقطوع به أن الحلقات الثلاث التي تمثل

الصراع بين رومه وفارس خلال ستة عشر عاما قد ظهرت كل منها على حدة في الكتب المصورة التي تنغني بشاپور الأول ، وجاء الفنان التشكيلي فاستوحى هذه الكتب حتى إذا شرع ينقل صورها على الحجر جمع الصور الثلاث في نقش واحد فضم ملك الملوك إلى الأباطرة الثلاثة المقهورين .

ومن المحتمل أن يكون أسلوب تجميع عدة شاهد حول شخص واحد أو شيء واحد قد جاء متأثرا بتيارات وافدة من العالم الروماني الغربي ، فإننا نرى بمعبد داجون لوحة رسمها فنانون من سوريا لإله اليهود ( لوحة ٣٤٦ ) تصور قصة «تابوت العهد» بطريقة تشبه نقش شاپور . وما نظن عهدها يتجاوز في القدم سنتي ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، فنجد الصنم بعد أن سقط مرتين تمشم في إحداها رأسه ، كما تكررت الأواني المقدسة المبعثرة ، على حين نجد تابوتا واحدا على عربة تجرها بقرتان . ومن الجائز أن تكون هذه اللوحة قد اقتبست عن منمنمات ثلاث تصور كل منها التابوت والأدوات الأخرى التي جمعت وتكررت هنا عدا التابوت ( لوحات ٣٤٧ ، ٣٤٨ ) . وقد يكون مردّ تشابه النقوش الصخرية الساسانية والرسوم الجدرانة ذات الأصل السوري إلى فنانيين مسيحيين عاشوا في إيران وكانوا ممن وفدوا إليها بعد اشتداد الحرب بين شاپور ورومه التي اضطرت إلى التنازل له عن عدد كبير من مدن سوريا .

وكان لإضفاء هوية الملوك الفرس على ملوك اليهود سابقا على الإسلام ، فقد ادعى الملوك البارثيون والساسانيون أنهم ينحدرون من قورش الذي عدّه العهد القديم مسيح بنى إسرائيل ، وكذلك اعتاد يهود الشرق الروماني أن يعدّوا — عن هوى — بعض ملوك الفرس أنّه سليمان الحكيم . وبعد الغزو العربي عدّ العرب فارس مملكة سليمان وسمّوا ضريح السلطانة أم قورش في پاسار جاديه كما أسلفت قبر «أم سليمان» . وفي منتصف القرن العاشر نشر المسعودي حملة دعائية واسعة النطاق مضادة للعرب تنغني بها الشعراء الفرس الذين كانوا يصرون على أن الفرس ينحدرون من اسحق وأن زردشت هو إبراهيم الخليل . وكان اليهود المنتشرون بكثرة في فارس وفي بغداد يحرصون كل الحرص على ألا يكذبوا صلة القرى هذه التي كانت تتفق وأغراضهم ومصالحهم .

ويبدو تأثير فن الساسانيين في مصر وسوريا وآسيا الصغرى واضحا في المعمار ، فلقد أعجب فنانون هذه البلاد بالقصور الساسانية التي كثرت فيها العقود المتعاقبة المتوازية والدهاليز المقببة التي تربط قاعات الاستقبال بالأجنحة الخاصة ، وهي التي كانت منفصلة في العمارة الأخمينية ، واستوحوا تلك القصور في إقامة «البازيليك» الضخمة التي يكتنفها الظلام ، كما تبنى الغرب المسيحي في عمارته القوطية وفي الشرق الإسلامي العقود المدببة المختلفة التي استحدثها الساسانيون ، وكذا القبة القائمة على عقود الزوايا «الخصاص» المتدلية [المقرنصات] التي اكتشفها المهندسون الساسانيون خلال سعيهم إلى طريقة لتركيب القبة ذات القاعدة المستديرة فوق جدران الحجر ذات المسقط المربع الشكل . وتتلخص هذه الطريقة في تحويل المسقط المربع الشكل إلى مسقط مثنى الشكل ، وذلك بعمل خصاص للزوايا أعلى جدران الحجر المربعة .

وفي مستهل العهد الساساني خلال القرن الثالث كانت ثمة مدرستان فنّيتان تتقاسمان التعبير التشكيلي

عن المسيحية ، أولاهما مدرسة المدن اليونانية الكبرى بالشرق كالإسكندرية وأنطاكية وإفسوس ، وكانت ذات طابع متأغرق ، والأخرى هي مدرسة أورشليم والمناطق السورية التي نهضت لنشر التعاليم الإنجيلية مع بقائها أمينة على فن التصوير الآسيوي القديم .

وظهر التأثير الساساني على الغرب واضحا في النقش ، حيث نرى على صليب القديس برتان ( لوحة ٣٤٩ ) بمتحف القديس أومير ، وعلى لوحة الزجاج المعشق الملون بكنيسة القديس دُني ( لوحة ٣٥٠ ) صورة للأصبع السبابة مرفوعة ، وهي إشارة تعبر عن الاحترام والخضوع في النقوش الإيرانية .

ويقرر العلامة جيرشمان أن بعض مشاهد العهد الجديد قد تأثرت بعقيدة ميتر ، فكثيرا ماشبه المسيح بالشمس ، واتخذ تاريخ مولده ليتفق وموعد عيد إله الشمس ومولد الشمس السنوي مع الانقلاب الشتائي ، وكذا جاء تناول المسيحي صورة منه في عقيدة ميتر ، كما جاء صعود المسيح على غرار صعود ميتر . كما يرجح أن المسيحيين الأوائل حين ابتكروا موضوع عبادة الجوس «أو تقديم الجوس الهدايا للمسيح الطفل» الإيقونوغرافي (١٠١) ، كانوا يرمزون إلى انتصار المسيح على ميتر ، وحين كسوا الجوس بالثياب الفارسية قصدوا إلى أن هؤلاء الرحالة أتوا من بلاد فارس ، وأن حركة الأصبع السبابة المرفوعة إلى الأمام التي يؤديها أردشير الأول أمام أهورا مزدا في نقش رسم ( لوحة ٣٥١ ) ماهي إلا الحركة التي كان يؤديها أشراف الساسانيين في حضرة شاپور الأول في نقوش يشاپور ، وهي الحركة التي أداها ملوك الجوس بعد ذلك وهم يتجهون إلى بيت لحم في نقوش كنيسة قيك ( لوحة ٣٥٢ ) .

كذلك تأثر الفن القبطي بالفن الساساني كما نرى في إحدى لوحات دير القديس إرميا بسقارة الذي شيد عام ٤٧٠ ، فصوّرت العذراء وهي ترضع المسيح في كوة زينت بعدد من الوجوه الساسانية ( لوحة ٣٥٣ ) ، ونجد هذه الوجوه الساسانية مصورة في الكتب وفي الأديرة . وقد تبين لنا كيف نقل الفن الساساني حصيلته الزخرفية الحيوانية من فن لورستان وفنون السكوديين والصرمات (١٠٢) التي اكتسبت أشكالا غريبة ازدهرت خلال ألفي عام ، وصارت مصدر وحي للفنون الأوروبية والآسيوية ، ووجدت أرضا خصبة في الغرب الذي أخذ يحتضنها ويجورها لتلائم ذوقه .

ولقد حملت جميع المنتجات الساسانية من أنسجة وحليّ وأوان وأحجار كريمة منقوشة رسوم الحيوانات ، وهذه كلها — بالإضافة إلى التحف الدقيقة — هي التي وثقت العلاقات بين الفن الساساني

(١٠١) الجوس الثلاثة أو حكماء الشرق هم ثلاثة من مجوس الشرق قدموا إلى أورشليم تابعين نجم بيت لحم حين علموا بمولد يسوع المسيح ، ولما رأوه خروا ساجدين . وتطلق كلمة الجوس على أتباع الديانة الزردشتية .

(١٠٢) الصرمات شعب من أصل إيراني قام في نهاية القرن الثالث ق.م. ومستهل القرن الثاني ق.م. بغزو جنوب روسيا ، واحتل المناطق التي كان يعيش فيها السكوديون بعد أن طردهم غربا .

والفن الغربي . ويعود جيرشمان فيشير إلى احتواء «حشوة العقد» لكنيسة القديس چيل في مدينة بوفيه ( لوحة ٣٥٤ ) على موضوع زخرفي إيراني قديم هو تمثال الحيوان المزدوج الجسد والوحيد الرأس ، وإن يكن الفنان الغربي قد أخضعه لشكل الإطار المحيط به في «حشوة العقد» فبالغ في حجم الجسد كى يشغلا الفراغ كله ، وجعل من رأسه ومن قناع الحيوان الضاري الذى يعلو حشوة العقد مركز التكوين الفني ، بينما تبعت حركة الرقبة والسلسلة الفقرية والذيل في التوائها شكل الإطار نصف الدائري لحشوة العقد .

وكان مما لفت الفنانين الأجانب صور ملك الملوك «ظل الله في الأرض» المنقوشة على جملة غفيرة من المباني وقطع النقود ( لوحة ٣٥٥ ) ، وقد نقلها فنان قبطني على لوحة من العاج دون نظر إلى تفاصيل الثياب أو التاج . وليس من المستبعد أن تكون تصاوير كأس خسرو قد شاركت في تكوين الموضوع المسيحي الذى يصور المسيح في جلاله في «حشوات عقود» كنائس العصور الوسطى ( لوحة ٣٥٦ ) .

ويبدو أن موضوع الأسد المنقضّ أو الجائل بين الوهاد والرثى ذو أصول فارسية ، ولا يدفع هذا ظهور شريط حول عنقه تتطير أطرافه ، فقد تكون هذه نزوة من الفنان الساساني . ولقد كان الأسد هو الموضوع المفضل في حركات التبادل الفني الكبرى التى وقعت في ذلك العهد ، إذ نجد هذا الموضوع مسجلا فوق لوحات الفيفساء وعلى الأقمشة والأباريق . وفي ( لوحة ٣٥٧ ) نرى أسدين متقابلين قد فغر كل منهما خطمه مزجرا ، وقد عاجل الفنان الموضوع وفقا للتقاليد الفارسية ، فحرص على أن تكون اللبدة مضمفورة ، وأن ينتهي الذيل على شكل حربة ، وأن يحمل الأسد على فخذه صورة نجمة وهى سمة حيوانات «ملك الملوك» ، وظهر الجسم في وضعة جانبية والرأس في وضعة مواجهة ، ثم فصل الفنان بين الأسدين بشجرة الحياة الفارسية .

وفيما بين القرنين التاسع والحادي عشر حين كان التجار المسلمون يحملون إلى أوروبا فيما يحملون النسيج الفارسي وعليه رسوم المطاوس منشور الذيل أو مطوفا رقبته بعقد وحمل بمنقاره غصنا ، رأينا هذه الرسوم تشيع في أوروبا ، ورأينا الفن البيزنطي نقشا ونحتا يتأثر به ( لوحة ٣٥٨ ) ، وإذا الرومان يجعلون الطاوس رمزا للخلود كما جعله المسيحيون رمزا لبعث المسيح ( لوحة ٣٥٩ ) . وبعد الفتح العربي لمصر رأينا أقباط مصر متأثرين في النسيج بالموضوعات الفارسية ، مضيفين إليها بعض عناصر محلية وأخرى بيزنطية لا سيما الحيوانات المتواجدة أو المعتمدة على شجرة الحياة ، وكذا الفرسان الذين يصوّبون سهامهم إلى الوحوش .

وعاش الفن الساساني في بيزنطة وبغداد والقاهرة بعد اندثار ملوك فارس ، فهذا اللون الغريب المميّز للفن القبطي ماهو إلا صورة من فنون فارس ، وموضوع المرأة المحاطة بالأقنعة والمطللة من النافذة والطيور المتواجدة ( لوحة ٣٦٠ ) ليست بدورها إلا موضوعات فارسية . وإذا كان العرب الأوائل قد

أعجبوا بالأنسجة القبطية التي تستخدم رسوما هندسية فقد وجدوا في رسوم الأقمشة الساسانية التي تشيد بالحرب وبالصيد مايتفق مع أهوائهم ويتجاوب مع حياتهم الأولى بدوًا رَحَلا .

وامتد تأثير الساسانيين إلى الهند إذ تقابلت الحضارتان الهندية والفارسية في التصوير الجدارية بمعابد بوذا في كهوف باميان (١٠٣) الصخرية ( لوحة ٣٦١ ) ، وعلى الرغم من طغيان بلاصم الفن الهندي في رسوم هذه الكهوف فثمة ملامح للفن الفارسي تتجلى في الملابس والألوان الزاهية .

وكذلك غزا الفن الساساني بلاد التركستان وجميع المدن الواقعة على جانبي الطريق الذي كانت تسلكه القوافل حاملة الحرير الصيني إلى شواطئ سوريا . يدلنا على ذلك التصوير الجداري الجذاب للمأدبة الذي عُثر عليه في بندجيكنت ( لوحة ٣٦٢ ) معبرًا عن المجتمع الآري الأرستقراطي بآسيا الوسطى الذي تأثرت رسومه البديعة في المدن القديمة الممتدة على « طريق الحرير » تأثرًا شديدًا بالطابع الساساني . وكانت مثل هذه الرسوم تزين جدران المنازل وتشي بولع الفنانين بالخطوط الأنيقة ونزوعهم نحو إضفاء الروح الدينية أو مباهج الحياة الدنيوية على تصاويرهم . كذلك عبر الفن الساساني الصين إلى اليابان واستقر في مدينة نارا ( ٧٢٤ — ٧٤٨ م ) وترك أثره في مقتنيات القصر ( لوحة ٣٦٣ و ٣٦٤ ) وفي نسيج المدينة ( لوحة ٣٦٥ ) ، كما ظهر التأثير الفارسي في التحف الفنية في بلاد الصين وخاصة في أقمشة البروكار ومناظر الصيد وصور الحيوانات ( لوحة ٣٦٦ ) .

وعلى الرغم مما حملته غزوات الإسكندر في طياتها من طبع البلاد المغلوبة على أمرها بطابع إغريقي فلقد ظلت إيران خلال ذلك القرنين اللذين عاشتهما في ظل هذا الفاتح تعطى وتأخذ لم يغلبها النازحون إليها من اليونانيين — وكانوا كثرة — على موروثها ، كما لم تستطع هي أن تغلب هؤلاء النازحين على موروثهم ، وظلت هي وظلّوا هم ، وبقي الفنان اليوناني والإيراني يجيا كل منهما إلى جانب الآخر ، وصمد الفن الإيراني لهذا الغزو ينقل ميادينه من نمرود داغ إلى نيزا مارة ببيروسيبوليس ، وهكذا كلما ضاق به مكان اختار غيره مهجرا ونزح إليه . وهو في كل هذا لم يتأثر بالفن الإغريقي إلا في القليل الذي لايمس سوى القشور ، وهكذا لم يقو الفن الإغريقي على أن يمس الصميم من الفن الإيراني ولم يقو على أن يغلبه على أمره .

وحفاظ إيران على تقاليدها هو الذي بعث فيها روح المقاومة لاسيما في مناطقها النائية حيث كان يحلّ البارثيون الذين انتهى إليهم زمام البلاد ، الذين سرعان ماتشرّبت نفوسهم كل ما هو قديم من التراث الإيراني وانطلقوا لإحيائه بعد أن كادت الصور الوافدة تطمس معالمه ، وهكذا عاشت إيران في صراع مرير مع هذا الغزو الغربي وكانت آخر الأمر هي الفائزة . وكان من نتائج سيطرة البارثيين على إيران أن امتدت حدودها السياسية إلى نهر الفرات . وإننا لنتبين في الحضرة وفي دُورا وأورويوس — اللتين خضعنا لسلطانهن — أن فن البارثيين قد تحلّى بسمات الفن الإيراني التقليدية ، بل لقد امتد هذا الفن إلى تدمر

بسوريا على الرغم من أنها لم تكن سياسيا تحت سلطان البارثيين .

وحين ملك الفن الإيراني مقاليد أمره وأخذ ينظر إلى موروته وتقاليده ، كان الساسانيون قد تربّعوا على عرش إيران فكانوا خير حماة لهذا القديم ، مشاركين في الأخذ من الحضارات الأجنبية بنصيب ، فإذا الفن الإيراني يضم إلى قديمه جديدا ، وإذا هو ينتشر شرقا حتى الصين وغربا حتى المحيط الأطلسي .

وخلف المسلمون الساسانيين على البلاد فكانوا هم الورثة الحقيقيين لهذا الفن ، وبسطوا نفوذهم إلى آماذ شاسعة ، من الهند إلى جبال البرانس قرونا عدّة ، وطووا تحت ظلهم فيما طووا من حضارات تلك الحضارة الرائعة التي نبتت فوق الهضبة الإيرانية . من هنا كان تأثير الفن الفارسي في الفن الإسلامي عظيما ، ومن هنا حفظ الفن الإسلامي للفن الإيراني رسومه وتقاليده . وإن كان الفاتحون العرب قد عاشوا سادة البلاد سياسيا فلقد عاشوا ينهلون من جميع ألوان الفنون . ولكن هذه البلاد التي يسرى في دمها وفي طبعها مقاومة كل دخيل عليها عاشت تصارع الفاتحين أيضا ولكن على صورة تختلف عن تلك التي صارعوا بها المقدونيين . وذلك أنهم بعد ماأسلموا وذابت الفوارق بينهم وبين غزاتهم بقيت بعض مناطق من البلاد تحتفظ بلغتها ودينها وكتابتها كما فعل سكان المنطقة المتاخمة لبحر قزوين وكما فعل سكان خراسان شرقا ، وأدخلوا على الإسلام أفكارا ليست منه ، من جعل على بن أي طالب هو الخليفة أو الإمام بالنص ، ويخلفه بنوه الأئمة ، وما إلى ذلك من المبادئ الشيعية الكثيرة التي حزبت وحدة المسلمين . ومن يدري لعل زعامة إيران الفنية هي التي حركت فيها أن تكون لها زعامة دينية ، فأشاعت تلك الأفكار التي خلقت بها لنفسها وجودا دينيا جديدا إلى جانب وجودها الفني والقومي ، لذا لم يكن غريبا أن تطغى الثقافة الفارسية على بغداد وتظهر واضحة جلية في بلاطات الخلفاء منذ مستهل القرن التاسع . ثم كانت ثمة أسر فارسية نازعت الخلافة السلطة ، منها البويهيون والسامانيون والصفاريون . وفي منتصف القرن العاشر استقبلت فارس الأسر المنحدرة من أصل تركي التي سرعان ما اكتسبت الطابع الإيراني ونصبت من نفسها حاميا لكل ماهو فارسي من لغة وشعر وفن .

ومن ثم لم يكن غريبا في مثل هذه الظروف السياسية والدينية أن نجد فنون إيران على الرغم من اعتناق أهلها الإسلام تمضي وفق التقاليد الموروثة عن الفن الساساني مدفوعة إلى هذا بالشعور القومي . ولم يتكرر ذلك الشقاق الذي حدث إبان حكم البارثيين بين الفنانين الإيراني واليوناني الدخيل ، كما لم ينشب صراع ضد مايفد إليها من الخارج ، فزينت قصور الأمراء العرب بزخارف جصية ورسوم جدارية تعالج الموضوعات التقليدية التي كانت تزين قصور الأمراء الساسانيين ، بل إن صانع الخزف العربي أخذ يحاكي نماذج صناع الخزف الساسانيين ذات الخيال الرائع مما أخصب أعمال الفنان حفر العاج والخشب . وعلى أية صورة كان نوع المادة الوسيطة المستخدمة سواء أكانت معدنية أم زجاجية نسيجا أم خشبا أم حجرا صلبا ، فلقد أخذ الصناع اليدويون يغترفون من ذخيرة الموضوعات الساسانية التقليدية وزخارفها الشائعة .



على أن العرب باتصافهم بالعالم الغربي نقلوا إليه ألوانا من حضارات الأمم التي انطبعوا بطابعها وكان من بينها تلك الحضارة الساسانية التي ملأ العرب بها حياتهم البدوية وأشبعوها بها ، إذ كانت أولى ما طالعتهم من حضارات بعد خروجهم من البادية ، كما كانت شرقية في طابعها لا ينفرد منها الذوق العربي . وهكذا كُتبت لتلك الحضارة الساسانية أن تعيش حياة ثانية وإن حملت اسما جديدا ، كما كُتبت لها أن تخرج من تلك الحدود الضيقة إلى آفاق واسعة ، وأن تدخل مع العرب حيث دخلوا ، وأن يعرفها الغرب مع ما عُرف للعرب ، وأن تفيد منها حضارات أخرى جديدة كما أفادت منها الحضارة العربية .

لوحة ٢٣٤١ فن ساساني : كأس فضية عليه نقش للملك كسرى أثناء ولية جالسا على عرشه ومن حوله القيان . بإذن من ولترز آرث جاليري . بلتيمور .





لوحة ٣٤١ ب إحدى الرقصات العاربات اللاتي يرقصن أمام كسرى . تفصيل من اللوحة السابقة .

لوحة ٣٤٢ فن ساساني -  
 مصري . أنتينوي [الشيخ عبادة] .  
 نسيج مرسم : الكيش ذو الشرائط .  
 القرن السادس - السابع الميلادي .



لوحة ٣٤٣ فن إيراني . نسيج  
 مرسم : أسدان محوران يتجهان نحو  
 شجرة الحياة . القرن السابع -  
 الثامن م . بإذن من متحف تانسي .





لوحة ٣٤٤ فن ساساني — مصري . نسيج مرسم : فارسان يصوبان السهام . القرن السادس م . باذن من متحف ليون .



لوحة ٣٤٥ من ساساني - مصري . أنتينوي [الشيخ عبادة] : خسرو الأول يشترك في معركة فرسان ورماة ضد أحباش مملكة أكسوم .



لوحة ٣٥٧ فن ساساني : أسدان  
متقابلان حول شجرة الحياة . القرن  
السادس السابع ميلادي . بإذن من دار  
الكتب القومية بباريس .



لوحة ٣٤٨ رسم جداري ملون على حائط كنيسة دورا أوروبوس : صموئيل يمسح رأس داوود بالزيت .



لوحة ٣٤٩ متحف القديس أومير : صليب القديس برتان . القرن ١٢ ميلادي .

لوحة ٣٥٠ فن رومانسكي — كنيسة القديس ديني : زجاج معشق ملون : تصوير رمزي للنبي موسى . القرن ١٢ م .



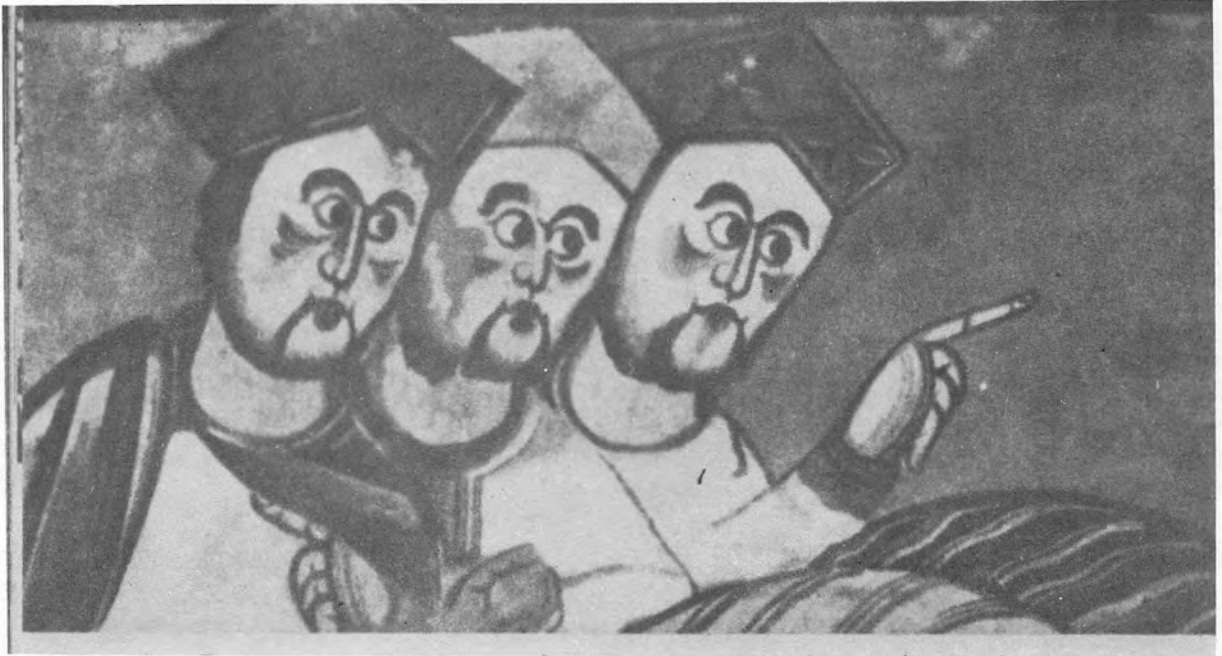




لوحة ٣٥١ نقش رسم : أردشير الأول يرفع السبابة أمام أهورا مزدا .

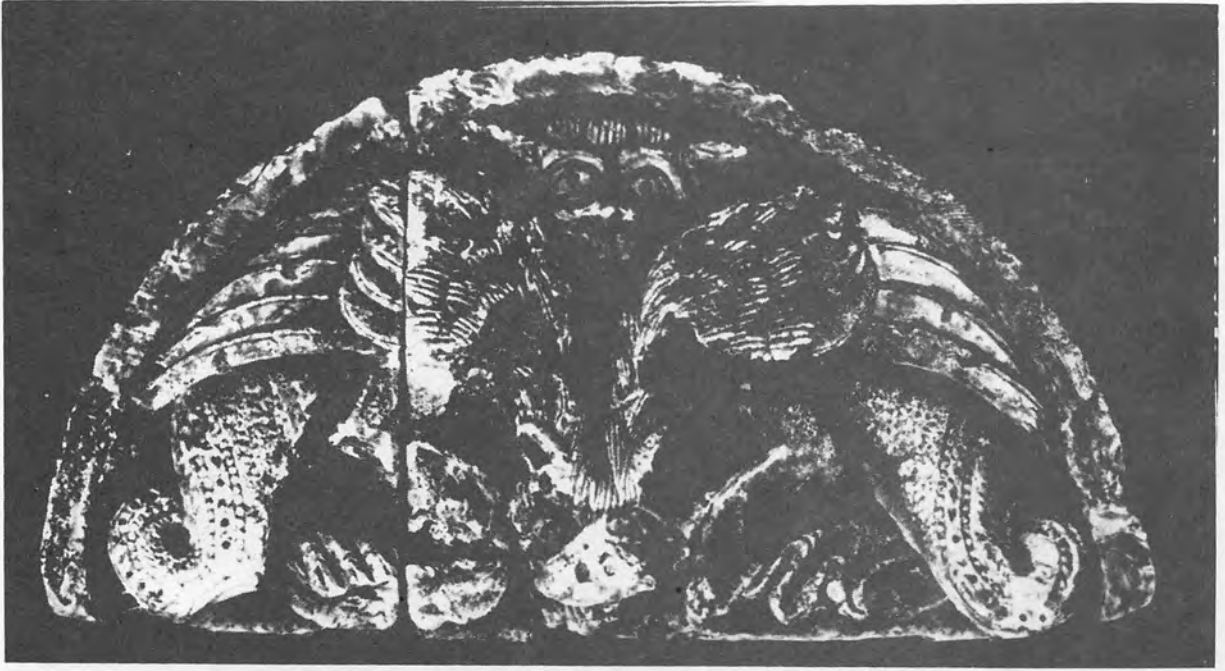
•

لوحة ٣٥٢ فن رومانسكي [الطراز ذو النزعة الرومانية] . تصوير جداري : ملوك المجوس . كنيسة فيك . القرن ١٢ م .





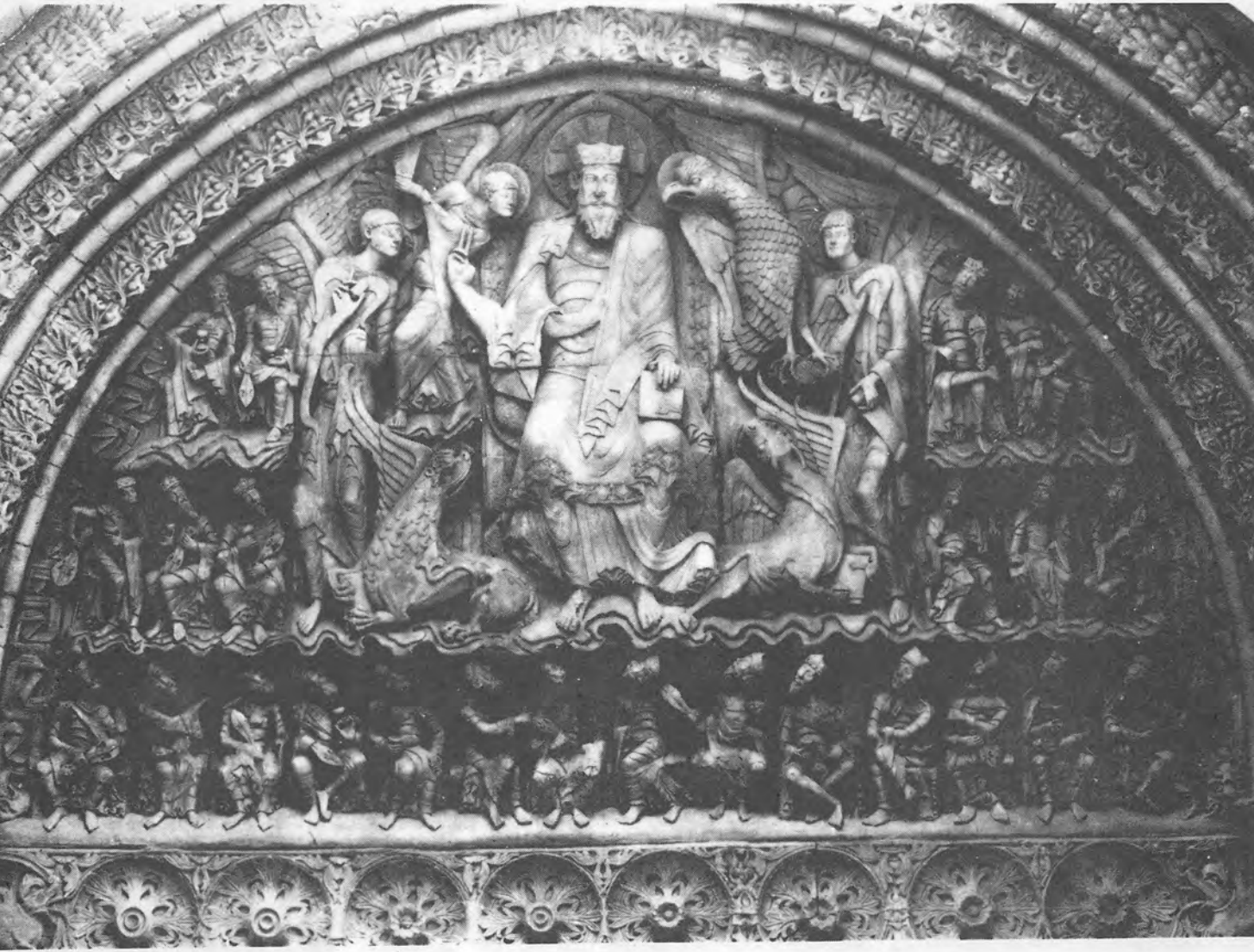
لوحة ٣٥٣ فن قبطي . تصوير جداري : العذراء ترضع المسيح . دير القديس إرميا بسقارة .



لوحة ٣٥٤ فن رومانسكي .  
بوفيه . حشوة العقد بكنيسة القديس  
جيل : حيوانان برأس متحدة . القرن  
١٢ م .



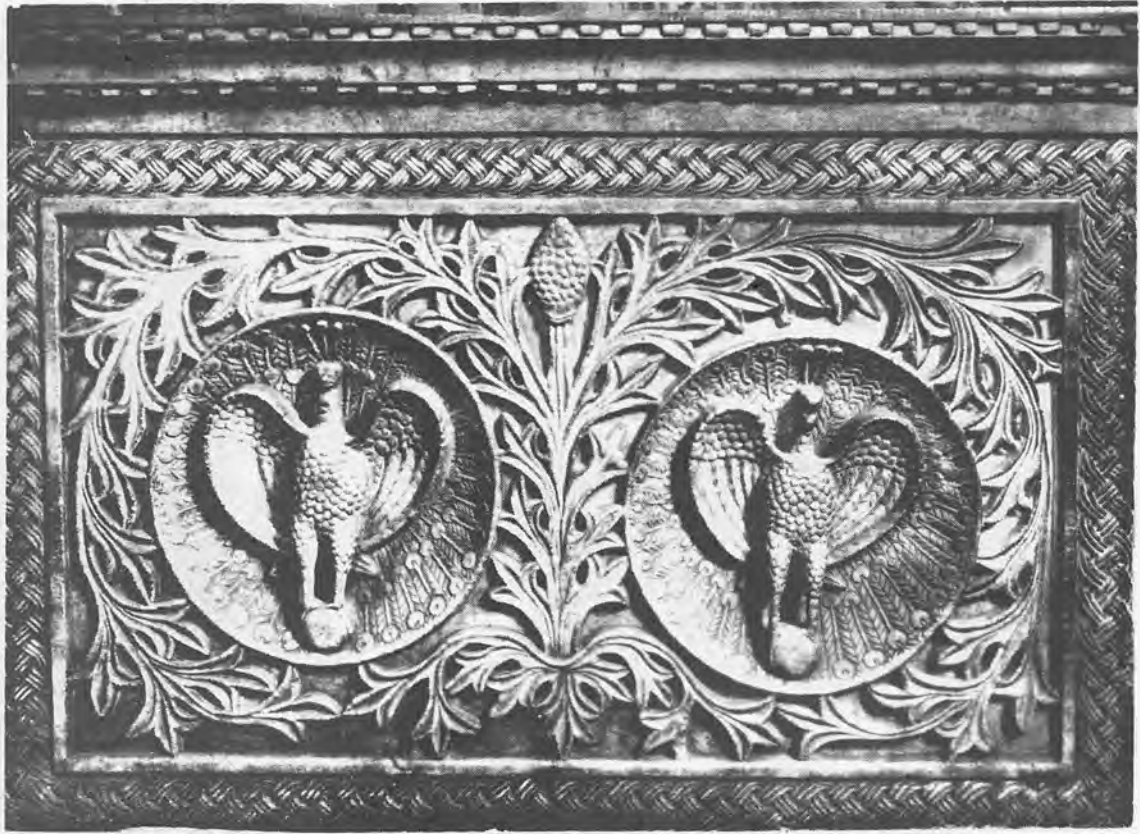
لوحة ٣٥٥ فن قبطي : لوحة تمثل  
شخصية ملكية على عرش من العاج .  
القرن السابع الميلادي .



لوحة ٣٥٦ في رومانسكي [الطراز ذو النزعة الرومانية] . من لانجدوك . موساك . حشوة العقد فوق المدخل الرئيسي : المسيح في جلاله محاطاً برموز الرسل الأربعة وملاكين . القرن ١٢ م .

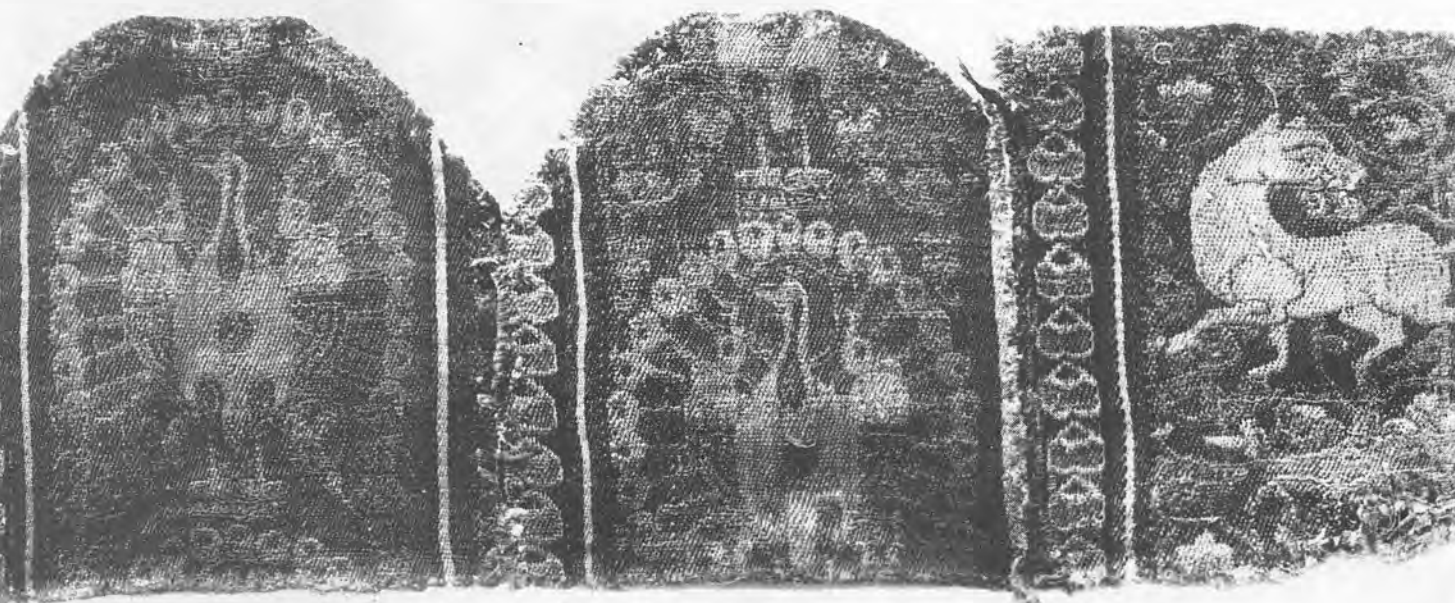


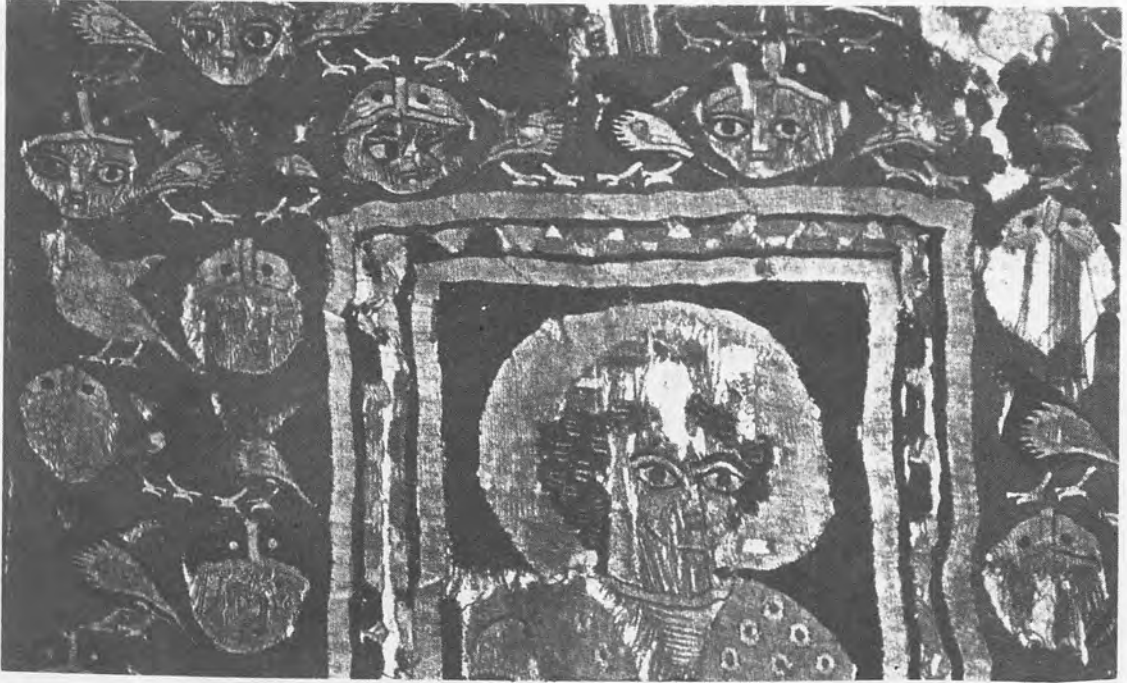
لوحة ٣٥٧ فن ساساني : أسدان  
متقابلان حول شجرة الحياة . القرن  
السادس السابع ميلادي . بإذن من دار  
الكتب القومية بباريس .



لوحة ٣٥٨ فن بيزنطي . البندقية : لوحة محفورة لطاووس ينشر ذيله . من الرخام ( ٩٨٦ م ) . بإذن من كنيسة القديس مرقص بفينيسيا .

لوحة ٣٥٩ فن إسباني مغربي . نسيج مرسم من الحرير :  
 أ — طاووس ينشر ذيله .  
 ب — أيل تحيط به توريقات .  
 القرن الثاني عشر ميلادي . بإذن من المتحف البريطاني .





لوحة ٣٦٠ فن قبطي — نسيج مرسم « المرأة في النافذة » محاطة بالأقنعة والطيور المتواجبة [من الكتان والصوف والحرير] . بإذن من معرض الفن بمدينة كانساس .

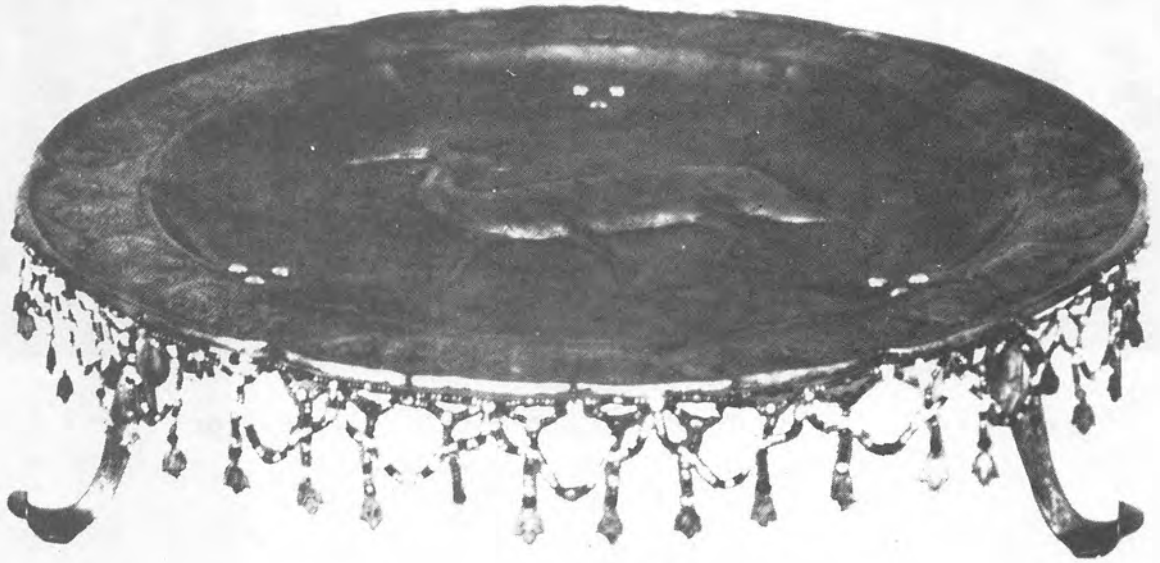


لوحة ٣٦١ فن إيراني بوذي .  
باميان [أفغانستان] : بودساتفا  
الجميل . رسم على السقف . القرن  
الخامس — السادس ميلادي .

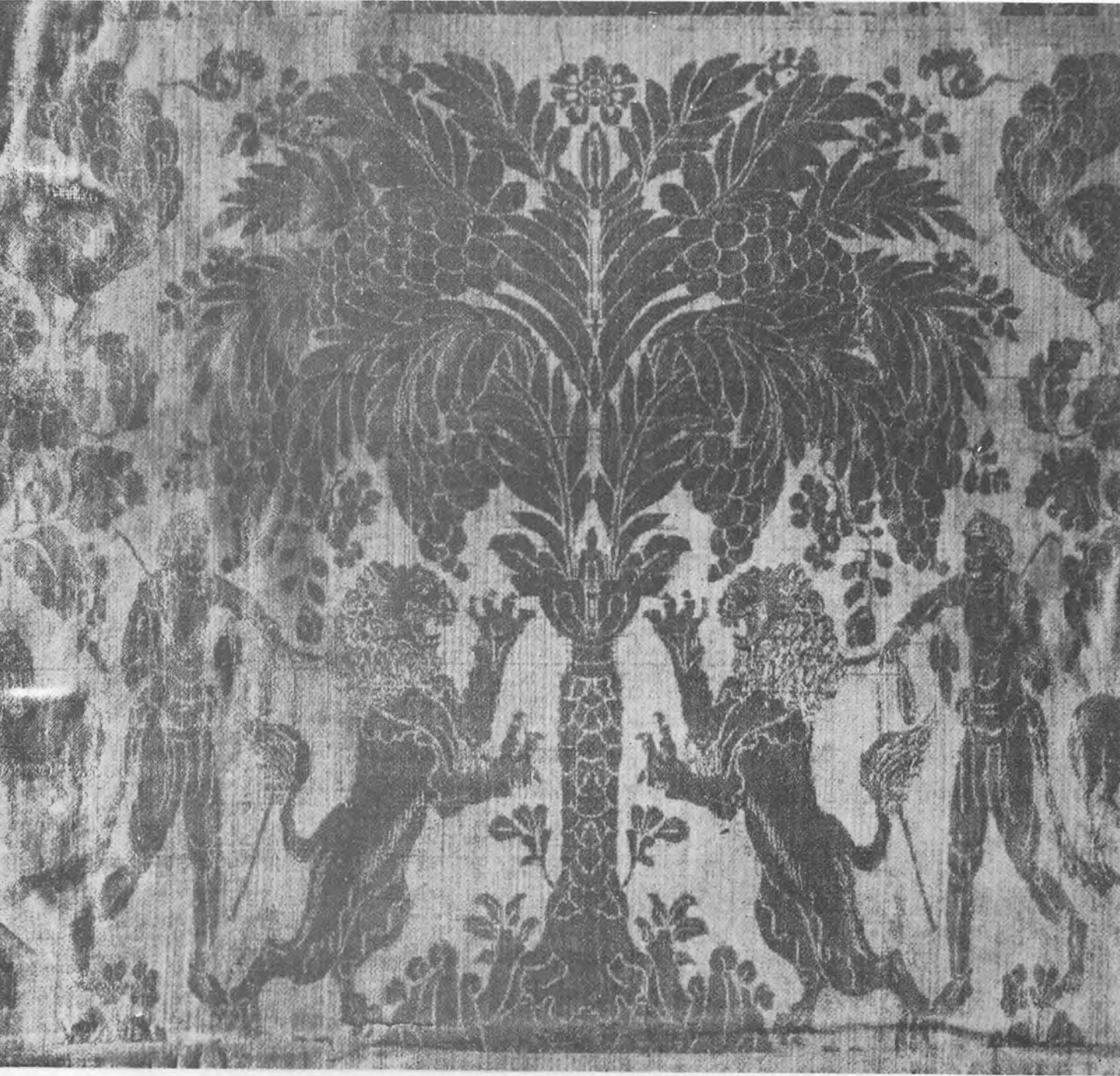


لوحة ٣٦٢ تصوير جداري تركستاني : السغدليون يشتركون في حفل شعائري . القرن السابع الميلادي .

لوحة ٣٦٤ فن إيراني صيني . أسرة طان : صينية ذات نقوش حيوانية ونباتية من الفضة المذهبة . بإذن من الكنز الامبراطوري لأسرة شوسو إن في نارا .







لوحة ٣٦٥ نسيج باباني من وحى ساساني : فرسان يقتنصون الأسد . القرن الثامن الميلادي بإذن من الكنز الامبراطوري لأسرة شوسو إن بنارا .



لوحة ٣٦٦ نسيج باباني متأثر بالفن الساساني . القرن السابع الميلادي . بإذن من الكنز الامبراطوري لأسرة شوسو إن في نارآ .

## ثبت بيلوجرافى لكاتب هذه السطور

• موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى .

( الصور الملونة بالأجزاء التسعة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينيد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة

« يونسكو » .

١٩٧٢	طبعة أولى	دراسة	١ — الفن المصرى القديم : العمارة
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٧٢	طبعة أولى	دراسة	٢ — الفن المصرى القديم : النحت والتصوير
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٧٦	طبعة أولى	دراسة	٣ — الفن المصرى القديم : الفن السكندرى والقبلى
١٩٧٤	طبعة أولى	دراسة	٤ — الفن العراقى القديم
١٩٧٨	طبعة أولى	دراسة	٥ — التصوير الإسلامى الدينى والعربى
١٩٨٣	طبعة أولى	دراسة	٦ — التصوير الإسلامى الفارسى والتركى
١٩٨١	طبعة أولى	دراسة	٧ — الفن الإغريقى
١٩٩٠	طبعة أولى	دراسة	٨ — الفن الفارسى القديم
١٩٩٠	طبعة أولى	دراسة	٩ — الفن الرومانى ( جزئان )
١٩٨٧	طبعة أولى	دراسة	١٠ — فنون عصر النهضة ( جزئان )
١٩٩٠	طبعة أولى	دراسة	١١ — الفن البيزنطى
	طبعة أولى	دراسة	١٢ — فنون العصر الوسيط
١٩٩٠	طبعة أولى	دراسة	١٣ — التصوير المغولى الإسلامى فى الهند
١٩٨٠	طبعة أولى	دراسة	١٤ — الزمن ونسيج النغم (من نشيد أبولو إلى أوليفيه ميسيان )
١٩٨١	طبعة أولى	دراسة	١٥ — القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٧٨	طبعة أولى	دراسة	١٦ — الإغريق بين الأسطورة والإبداع
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٨٠	طبعة أولى	دراسة	١٧ — ميكلا أنجلو
١٩٧٤	طبعة أولى	دراسة وتحقيق	١٨ — فن الواسطى من خلال مقامات
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٨٧	طبعة أولى	دراسة وتحقيق	١٩ — معراج نامة [ أثر إسلامى مصور ] ( جزئان )
			• أعمال الشاعر أوفيد
١٩٧١	طبعة أولى	ترجمة	٢٠ — ميتامورفوزيس [ مسخ الكائنات ]
١٩٩٠	طبعة ثالثة		
١٩٧٣	طبعة أولى	ترجمة	٢١ — آرس أماتوريا [ فن الهوى ]
١٩٩٠	طبعة ثالثة		
			• أعمال جبران خليل جبران
١٩٥٩	طبعة أولى	ترجمة	٢٢ — النى : لجبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة سابعة		
١٩٦٠	طبعة أولى	ترجمة	٢٣ — حديقة النى : لجبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة سابعة		
١٩٦٢	طبعة أولى	ترجمة	٢٤ — عيسى لابن الإنسان :
١٩٩٠	طبعة رابعة		لجبران خليل جبران

١٩٦٣	طبعة أولى	ترجمة	٢٥ — رمل وزيد :
١٩٩٠	طبعة رابعة		لجبران خليل جبران
١٩٦٥	طبعة أولى	ترجمة	٢٦ — أرباب الأرض :
١٩٩٠	طبعة ثالثة		لجبران خليل جبران
١٩٨٠	طبعة أولى	ترجمة	٢٧ — روائع جبران خليل جبران
١٩٩٠	طبعة ثانية		الأعمال المتكاملة
١٩٦٠	طبعة أولى	تحقيق	٢٨ — كتاب المعارف لابن قتيبة
١٩٩٠	طبعة سادسة		
١٩٦٥	طبعة أولى	ترجمة	٢٩ — مولع بفاجتر : ليرنارد شو
١٩٧٥	طبعة أولى	دراسة نقدية	٣٠ — ريتشارد فاجتر
١٩٦٧	طبعة أولى	ترجمة	٣١ — المسرح المصرى القديم :
١٩٨٩	طبعة ثانية		إيتيين دريوتون
١٩٧١	طبعة أولى	تأليف	٣٢ — إنسان العصر يتوج رمسيس
١٩٦٤	طبعة أولى	ترجمة	٣٣ — فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون : لبيير دانيوس
١٩٨٩	طبعة ثانية		
١٩٥٢	طبعة أولى	تأليف	٣٤ — إعصار من الشرق أو جنكيز خان
١٩٩٠	طبعة خامسة		
١٩٥٠	طبعة أولى	ترجمة	٣٥ — العودة الى الايمان : لهنرى لند
١٩٦٤	طبعة ثالثة		
١٩٤٨	طبعة أولى	ترجمة	٣٦ — السيد آدم : لبات فرانك
١٩٦٥	طبعة ثانية		
١٩٥٢	طبعة أولى	ترجمة	٣٧ — سروال القس : لثورن سميت
١٩٩٠	طبعة ثالثة		
١٩٤٢	طبعة أولى	ترجمة	٣٨ — الحرب الميكانيكية : للجنرال فولر
١٩٥٢	طبعة ثانية		
١٩٥٢	طبعة أولى	ترجمة	٣٩ — قائد الهانزر : للجنرال جوديريان
١٩٥١	طبعة أولى	تأليف	٤٠ — حرب التحرير
١٩٦٧	طبعة ثانية	بالمشاركة	
١٩٤٤	طبعة أولى	ترجمة بالمشاركة	٤١ — تربية الطفل من الوجهة النفسية
١٩٤٥	طبعة أولى	ترجمة بالمشاركة	٤٢ — علم النفس فى خدمتك
١٩٨٤	طبعة أولى	دراسة	٤٣ — مصر فى عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء ( ١٨٠٠ — ١٩٠٠ ) ( جزءان )
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٨٧	طبعة أولى	تأليف	٤٤ — مذكراتى فى السياسة والثقافة ( جزءان )
١٩٩٠	طبعة ثانية		
١٩٩٠	طبعة أولى	إعداد وتحرير	٤٥ — المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية [ إنجليزى — فرنسى — عربى ]

#### بالفرنسية

Ramsès Re-Couronné: Hommage Vivant au Pharaon Mort, «UNESCO» 1974. — ٤٦

#### بالإنجليزية

In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's Cultural Heritage «UNESCO». 1972. — ٤٧

The Muslim Painter and the Divine. The Persian Impact on Religious Painting. Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press. London 1981. — ٤٨

The Miraj-Mameh: A Masterpiece of Islamic Painting. Pyramid Studies and other Essays Presented to I.E.S. — ٤٩  
Edwards. The Egypt Exploration Society. London 1988.

Problématique de la Figuration dans l'art Islamique.

La Figuration Sacrée.

La Figuration Profane.

Plastique et musique dans l'art pharaonique.

Wagner entre la théorie et l'application.

سلسلة محاضرات أقيمت بالكوليج ده فرانس بباريس خلال شهرى يناير ومارس ١٩٧٣

Annuaire du Collège de France 73 Année Paris, II Place Marcellin-Bertholet 1973

٥١ — المشكلات المعاصرة للفنون العربية . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة مواقف . عدد ٢ أيار ١٩٧٤ . بيروت .

٥٢ — حرية الفنان . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .

٥٣ — The Portrayal of the Prophet. The Times Literary Supplement, 31 December 1976.

٥٤ — رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة أقيمت بنادى الجسرة الثقافي بالدوحة ( دولة قطر ) . فبراير ١٩٨٩ .

تحت الإعداد

\* فنون القرن الثامن عشر والتاسع عشر

\* الترجمة العربية لكتاب أنطوان ده سانت إكسويرى

« القلعة » Citadelle

\* الترجمة العربية لكتاب الشاعر الرومانى لوكر يشيوس « فى طبيعة الأشياء » De Rerum Natura

### المراجع العربية

- (١) أحمد أمين / فجر الإسلام — لجنة التأليف والنشر والترجمة ١٩٥٩ صحيفة ٩٨ — ١١٣ .
- (٢) أبو القاسم الفردوسي / الشاهنامه — ترجمة الفتح على البنداري وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام .  
جزء ثان / ٤٣ — ٤٦ دار الكتب المصرية ١٩٣٢ .
- (٣) إدوارد جيون / اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها / ترجمة محمد على أبو دره . مراجعة الأستاذ / أحمد نجيب هاشم .  
الجزء الأول .
- (٤) تسم ( كتاب ) ترجمة الدكتور / يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٤ .
- (٥) محمد عبد الكريم الشهر ستاني / كتاب الملل والنحل ١٩١٠ صحيفة ٩٨٥ ، ٦١٩ ، ٦٣٢ .
- (٦) د. يحيى الخشاب : التقاء الحضارتين العربية والفارسية . معهد البحوث والدراسات العربية . جامعة الدول العربية ١٩٦٩ .

### المراجع الأجنبية

- Bouche-Leclerc, A.: *L'Iran Séleucide et Parthe*, «La Civilisation iranienne» Paris. 1952.
- Browne, E.G.: *A literary History of Persia*, New York, 1925.
- Contenau, G.: *Arts et styles de l'Asie Antérieure*, Paris. Collection «Arts, styles et Techniques» Larousse, 1948.
- Christensen, A.: *L'Iran sous les Sassanides*. Copenhagen 1944.
- Denison, E.: *A survey of Persian Art*. Vol. I. *The Influence of Early Islam Upon Persian art*. P. 129. Edited by Arther Upham Pope. Oxford University Press. London and New York. 1938.
- Edwards, I.E.S. (Edit.): *The Cambridge Ancient History* Vol. 2 Part 1,2 Cambridge University Press 1973.
- Faure, Elie: *Histoire de l'Art*. Vol. one, Jean Jacques Pauvert éditeur 1964.

- Frankfort, H.:** *The Art and architecture of the Ancient Orient*. Harmondsworth. «The Pelican History of Art» Penguin Books 1954.
  - Godard, André:** *The Art of Iran*, George Allen. London 1965.
  - Ghirshman, G.:** *L'Iran des origines à l'Islam*, «Bibliothèque Historique, Payot, 1951.
  - Ghirshman, Roman:** *Perse, Proto-Iraniens, Mèdes, Achéménides*. L'Univers des formes. NRF. Gallimard 1963.
  - Ghirshman, Roman:** *Iran, Parthes et Sassanides*. L'Univers des formes. N.R.F. Gallimard 1962.
  - Herzfeld, E.:** *The pre-Achaemenian and the Achaemenian epochs, in Archeological History of Iran*, London. Oxford University Press 1934.
  - Herzfeld, E.:** *Iran in the Ancient East*, London and New York. Oxford University Press 1941.
  - Herzfeld, E.:** *Zoroaster and his World*, Princeton, Princeton University Press 1949.
  - Huart, C. et Delaporte, L.:** *L'Iran Antique, Elam et Perse et la Civilisation Iranienne*, Paris, «L'évolution de l'Humanité», Vol. 24, Albin Michel 1943.
  - Huyghe, R.:** *L'Art et l'Homme*. Vol. one. Larousse 1957.
  - Luigi Pareti, Paolo Brezzi and Luciano Petch:** *History of Mankind, the Ancient World Cultural and scientific Development*. Vol. 1,2 and 3. Under the auspices of UNESCO 1965.
  - Mazahéri, A.:** *Les Trésors de l'Iran*. Skira, Genève 1970.
  - Orkel, J.:** *Sassanian metalwork*, «Survey of Persian art». Vol. one, Oxford 1938.
  - Porada, E.:** *Iran Ancien*. Collection «L'Art dans le monde». Paris. Albin Michel 1963.
  - Pope, A.U. (Edit.):** *A survey of Persian Art from Prehistoric times to the present*. London & New York. Oxford University Press. 6 volumes 1938.
  - Rutten, M.:** *Arts et styles du Moyen Orient*, Paris 1950.
  - Rutten, M.:** *The Persian Empire, Art and Mankind*, Larousse Encyclopedia of Prehistoric and Ancient Art. Editor René Huyghe. Paul Hamlyn, London. 1962.
  - Stein, A.:** *Old Routes of Western Iran*. London 1940.
  - Schmidt, E.F.:** *Flights over ancient cities of Iran*, Oriental Institute of the University of Chicago 1940-
  - Starchy, J. Palmyre:** «L'Orient illustré. Paris, Adrien-Maison Neuve 1952».
  - Sarre, F.:** *L'Art de la Perse Ancienne*, trans. Paul Budry, Paris 1921.
  - Schmidt, E.:** *The Treasures of Persepolis and other discoveries in the Homeland of the Achaemenians*, Chicago 1939.
  - Piotrovsky, Boris:** *Ourartou*, Archaeologia Mundi, traduit par Anne Metzger. Les éditions Nagel, Genève. Paris Munich.
  - New Larousse Encyclopedia of Mythology: Mythology of Ancient Persia**, Paul Hamlyn. London, 1959. P.P. 309-322.
-

## الفهرس

٥	إهداء
٧	مقدمة

### تمهيد تاريخي

١١	١ — الهند — أوريون
١٤	٢ — الجنس الآري
١٧	٣ — السقييون والميدون
٢٠	٤ — الأخمينيون
٢٣	٥ — المملكة السلوقية
٢٥	٦ — البارثيون
٢٧	٧ — الساسانيون
٣٤	٨ — الفتح الإسلامي

### الفرس بين العقيدة والإسطورة

٣٧	١ — دين الفرس والفكر الأسطوري
٤٠	٢ — « مزدا » إله الملكية الفارسية
٤٧	٣ — الشخصيات الإلهية والفكر الأسطوري
٥٠	٤ — الشخصيات البطولية والفكر الأسطوري
٦٢	٥ — نشأة قورش
٦٥	٦ — أسطورة هفتواذ وأردشير

### ارهاصات الفن الإيراني

٧١	١ — فنون سيالك وخورفين وحسنلو وأملاش
٩٣	٢ — فن لورستان السيمري

### فن الميديين

١٠٥	١ — فن الميديين
١٠٨	٢ — كنز جيحون
١١٣	٣ — الفن السقيي « السكودي »

### فن الإخمينيين

١٢٥	١ — الملوك البناة
١٢٧	٢ — رمزية الفن الأخميني
١٢٩	٣ — العمارة الأخمينية
١٣٥	٤ — سوسه
١٤٢	٥ — پرسپوليس
٢٠٥	٦ — المعابد والمقابر الأخمينية

## فن البارتيين

- ٢١٣ ..... ١ — بين التأغرق والأصالة
- ٢٢١ ..... ٢ — العمارة البارثية
- ٢٢٦ ..... ٣ — التصوير البارثي
- ٢٣٤ ..... ٤ — النحت البارثي
- ٢٤٥ ..... ٥ — فن تدمر [ بالميرا ]
- ٢٥٤ ..... ٦ — فن الحضرة

## الفن الإيراني بين التأثير والتأثر

- ٢٧٣ ..... ١ — الفن الإيراني بين التأثير والتأثر

## فن الساسانيين

- ٢٩٣ ..... ١ — نشأة الدولة الساسانية
- ٢٩٥ ..... ٢ — الفن الساساني تحت حكم أردشير
- ٣٠٢ ..... ٣ — تطور الفن الساساني تحت حكم شاپور الأول  
( النصف الثاني من القرن الثالث )
- ٣١٩ ..... ٤ — الفن الساساني تحت حكم شاپور الثاني وخلفائه  
( القرن الرابع والقرن الخامس )
- ٣٤٣ ..... ٥ — الحياة الموسيقية في العهد الساساني

## خاتمة


## امتداد موجة الإبداع الفارسي

- ٣٧٨ ..... — ثبت ببلوجرافي لكاتب هذه السطور
- ٣٨٠ ..... — المراجع العربية
- ٣٨٠ ..... — المراجع الأجنبية



١٩٩٠ / ١٦٩٦  
٩٧٧ — ٤٤٢ — ١٠٩ — ٤

---

 **International  
Arab Book Press**  
• شارع جمال الشاهد — مدينة الصحفيين ت ٢٧٧٢٥٩

## هذا الكتاب

بجول بنا الدكتور / ثروت عكاشة خلال موسوعة تاريخ الفن « العين تسمع والأذن ترى » التي صدر منها تسعة عشر جزءاً في مدارج الفن خلال الحضارات الإنسانية المتعاقبة ، بادءاً بفن سكان الكهوف في العصر الحجري القديم ومختتماً بفنون القرن التاسع عشر . وبين هذين الموقعين الحضاريين يتناول الفنون منذ كانت إلى مطلع القرن الحالي : الفن المصري ، فن العراق [ سومر وبابل وأشور ] ، والفن الفارسي القديم ، والفن الإغريقي ، والفن الروماني ، والفن البيزنطي ، وفنون العصور الوسطى ، والتصوير الاسلامي العربي والفارسي والتركي والمغولي ، والقيم الجمالية في العمارة الاسلامية ، وفنون عصر النهضة الأوروبية [ الرينيسانس والباروك ] ، وفنون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . يضم هذا كله أجزاء ينقسم بعضها إلى مجلدات تجمع إلى الحديث عن الأساليب الفنية في تسلسلها واتساقها الرسوم واللوحات المصوّرة التي تسجل التماذج المختلفة التي اختارها الباحث لأهم آثار العمارة والنحت والتصوير والفنون الدقيقة . وجميع ما في هذا الكتاب من صور ورسوم لم يكتب جامعها بما كتب عنها مُصنّداً بذلك عن أحاسيس غيره فحسب ، لكنه عنى نفسه فزار مواطنها ومقارها ومعظم ما يتصل بها في المتاحف والمعارض والمساجد والكنائس والمعابد والمقابر والمناطق الأثرية والمسارح ودور الأوبرا ، يقوده إلى تلك الزيارات حرص منه على أن يسجل عن رؤية فيكون صاحب رأى كما كان من سبقوه ، قد يختلف معهم وقد يتفق ، فما جاء عن اتفاق ليس مردّه إلى أن الباحث ناقل وإنما هو اتفاق في المشاهدة واتفاق في الحكم ، وما جاء مخالفاً فهو رأيه الذي خالف به آراء من سبقوه . كذلك خصّ الموسيقى بكتاب مستقل يتسع لما يحتاج إليه هذا الفن الأسر من إيضاح .

وهذه الموسوعة التي يطالع منها القارئ هنا « جزءها الثامن » الذي تنفرد بنشره دار المستقبل العربي هي عمل اتسعت له سنين طويلة ، فلقد بدأه صاحبه منذ عام ١٩٦٣ . ويختص هذا الجزء بالفن الفارسي القديم فيعرضه الباحث موصولاً ببيئته التي عنها أخذ ومنها استبط ، فثبت لهذا الفن أصالته معرّفًا بمخصائصه ، ويرسي له أسسه التي قام عليها ، ويخصي له مميزات التي برز فيها ، ويتحدث عن الفلسفة والأساطير والعقائد التي أوحى به حتى جلالة فناً متميزاً له شأنه وإرهاصاته الأولى ، إلى أن تناول حقبته المتتالية بدءاً من فن الميديّين ثم فن الأحمينيّين وفن الپارثيين وفن الساسانيين . وهذا العرض الأمين تقرؤه في عبارة طليّة مشوّقة تطالعك بين فقراتها لوحات تزيد على ثلاثمائة وتسع وستين منها سبع لوحات ملوّنة ، تنطق بنطق العبارات ويجد فيها القارئ بياناً وافياً . وفي الكتاب إلى هذا زاداً من مصطلحات فنية في النحت والتصوير والزخرفة والنقش والعمارة والموسيقى وجد بعضها سيّله إلى العربية على يد الباحث ، الذي حرص على الرغم من تناوله موضوعات من العمق بمكان ألاّ يُضفي عليها سمة التخصص بل كان حريصاً على أن يكون قريباً ما أمكنه ذلك من جمهرة القراء ، فهذه أول موسوعة في الفن يقدّمها للناس كافة بعد أن كان مثلها لا يُقدّم إلاّ للخاصة منهم .

